فرانسواز شاندرناجور

مسافرة الليل

ترجمة

نشوة الأزهرى

المركز القومي للترجمة



2600

سلسلة الإبداع القصصي

مسافرة الليل

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2600
- مسافرة الليل
- فرانسواز شاندرناجور
- نشوة الأزهرى
- اللغة: الفرنسية
- الطبعة الأولى 2017

هذه ترجمة:
La Voyageuse De Nuit
Par: Francoise Chandernagor

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

مسافرة الليل

تأليف : فرانسواز شاندرناجور

ترجمة وتقديم : نشوة الأزهرى

2017

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

شاندر ناجور، فرانسواز
مسافرة الليل/ تأليف : فرانسواز شاندرناجور
ترجمة وتقديم : نشوة الأزهرى
ط ١- القاهرة : المركز القومى للترجمة، ٢٠١٧
٣١٢ ص، ٢٤ سم
١- القصص الفرنسية
(أ) الأزهرى، نشوة (مترجم ومقدم)
(ب) العنوان ٨٤٣

رقم الإيداع ٢٠١٤/٢٠٤٣٠
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 718-901-9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

مسافرة الليل

(١)

لقد أغلقت عينيها قبل أشهرٍ من وفاتها. حتى العاملين بلوى پاستير قد اندهشوا من ذلك حين جيء بها إلى هناك، أمس الأول، فى قسم العلاج التخفيفى : «سيدتى، افتحى عينيك من فضلك ! لِم تفعل هكذا؟» لا نعلم. هل هو الإنهاك ؟ كلا، فيما يبدو : فالاتصال بالمرضى المصابين بأمراض خطيرة يكون من خلال النظر.

وجاء التفسير الأول : ذلك الذى تلقّاه أبى منها، مثل الصفعة. كان ذاهبًا بها إلى دورة المياه. وفي ذلك الوقت، كان نقلها من سريرها الطبى إلى المقعد – المُجهّز – يستلزم وجود شخصين : أحدهما فى الأمام، ويسير القهقرى، وذراعى المريضة على كتفيه، والآخر، فى الخلف، يُثبت الجسد فى الوضع الرأسى. فلم تعد أمى قادرة على الوقوف، بالمعنى الحَرفى للكلمة. فحينما كنا نُنهضها، كانت تظل مُتخشبة على الوضع الأول الذى وُضعت عليه ، وكان يحدث أن يكون ظهرها وساقاها زاوية حادة مع أرضية الحجرة. وكنا نساعدها، بدَفعات صغيرة، على «فتح» الزاوية. وهكذا إذن، كان أبى يوجهها وهو سائر للوراء، فى الممر الضيق، فى حين كانت أختى سونيا، التى لم تكن ترى ما أمامها، تدفعها من الخلف. وبدأ الموكب يترنح يمنة ويسارا. وصاح أبى، الذى كان صبره قد نفد : « يا إلهى، هلا فتحت عينيك يا أولجا. من شأن ذلك أن يساعدنا ! انظرى إلى». وانطلق الجواب كالصاروخ، حين صاحت بصوت خفيض : «لقد رأيتك بما يكفى !».

هل «رأتنا جميعا بما يكفى»؟ حتى بناتها ؟ إنها تعاقبنا. كأنها تقول لنا: « هيا اغربوا عن وجهى!»

علام تلومنا ؟ هل على إرجائنا لموتها ؟ أم لعجزنا عن الإطالة فى عمرها ؟ هل نحن غير أكْفاء ؟ نحن كذلك على أية حال، مثلنا مثل الأطباء والممرضين...

إن ليزا، صغرى أخواتى، لا تزال متفائلة، بطريقتها. إنها تعتقد أن أمى قد عثرت على الطريقة التى تُمكِّنها من الحفاظ على سطوتها على العالم، بأقل مجهود: «أَفتحُ» أو «لا أَفتحُ». فهى تعاقب أو تكافئ بطَرْفة جفن. وهى تفاجئك على الدوام بردود فعلها، وتجعل الكل ينتظر رضاها ويتوسل إليها. إنها ملكة متوّجة على مملكة متناهية الصِغَر، فى حجم الجفن، ولكنها لم تنفك تفرض كلمتها.

لا شك أنها تعبر عن نفسها بقوة مدهشة، حتى بدون كلمات أو نظرات. فهى لكى تجيب على أسئلتنا، أو لكى تشكو أو تُعنِّفنا، لا تملك إلا خمس إشارات، ولكنها لا تُقتِّر فى استخدامها: هز الأكتاف أو رفع الحاجبين، التنهد، قطب الجبين وطرقعة اللسان.

ففى الشهور الأخيرة، حين كنا نسألها فى الصباح كيف أمضت ليلتها، كان هز الأكتاف. وحين كنا نأتى لها بإفطارها على الصينية، ويشاء حظنا العاثر أن نستفسر عما تفضله، « هل تحبين تناول نصف الكرواسون بالعسل أم بالمربى ؟»، كان رفع الحاجبين المُفعمُ بلاغة: كنا نتخيل العيون المرفوعة للسماء أسفل الجفون المغلقة... ولكى نُطعمها، كان علينا رفعها على مخداتها. ولما كانت جهودنا تعوزها المهارة: كانت تأتى لنا بطرقعة اللسان القوية. كنا ننتقل بعد ذلك لمرحلة الأدوية، التى تزداد صعوبة يوما بعد يوم: « افتحى فمك، أمى، أمى... إنه المورفين، إنه المسكونتين. تعرفينه، الحبة البنية. افتحى من فضلك... » الفم مزموم وهى ترفع حاجبًا متسائلاً، ثم تقطب جبينها تعبيرا عن تشككها فى قدرة بناتها على حسن التصرف فى أمور العلاج. « لا يا أمى، لم تتناولى شيئا هذا الصباح، لا الحبة البنية ولا الوردية. أنا أعطيها لك فى العاشرة، هذا مدوّن على الروشتة. والساعة الآن العاشرة، ينبغى إذن تعاطيها. هل تريدين رؤية

الروشتة ؟» تنهيدة، وهزة أكتاف. وفى يوم من الأيام، حينما بدا وكأنها تُلمّح إلى أننى، بسبب عدم اعتنائى، سوف أصيبها بالتسمم، عاودْت الشرح والتبرير والحث، وأنهيت بهذا الرجاء الحار: « أتوسل إليك يا أمى أن تثقى بى: أنت لم تتناولى أيًا من الأقراص منذ الصباح. ولا واحدا منها. صدقينى ! لستّ مخطئة يا أمى، أقسم لك !» واستعادت فى التو واللحظة القدرة على الكلام لكى تُسكتنى: «لا تُقسمى يا كاتيا !»

إن النبرة الصارمة، هى نبرة المُدرّسة التى توبخ تلميذة كاذبة – « وتجرأين أيضا على القَسم!» لقد احتاجت فقط لثلاث كلمات لكى تُلْبسنى من جديد التنورة ذات الكسرات والشراب الأبيض. وأغادر الغرفة وأنا على حافة البكاء، بلا مناقشة: الأطفال لا يناقشون ما يقوله آباؤهم، وأى كلمة أخرى ستكون كلمة زائدة عن الحد: تكون وقاحة، تمرد – « اذهبى إلى غرفتك ولا تُرينى وجهك ثانية!»

وكنت فى الصيف الماضى، بعد أن كَللْتُ من هذه المواجهات المتكررة، قد طلبت من رافائيل، أصغر أبنائى، أن يتولى مسألة الأدوية. لم تكن أمى تأخذ مساعدته على محمل الجد، أما هو فلم يكن يُهوّل من شأن ارتيابها. وقد أعد جدولاً كبيرًا دُوِّنت عليه مواعيد الأدوية فى قائمة أفقية والجرعات فى صفوف رأسية. وكان يطلب من المريضة «مُخالَصة» يتم تسجيلها على الجدول بعد تناول كل دواء. وكانت أمى لم تعد قادرة على التوقيع منذ زمن بعيد – فقد كان ضعفها لا يسمح لها بالضغط على الورقة. غير أنها كانت تجاهد، بتوجيه من حفيدها، فى رسم علامة «صح» فى الأماكن التى يحددها لها. ومادامت لم تكن أيًا من بناتها موجودة، فقد كانت تذهب، على ما يبدو، إلى حد رفع طرفٍ من جفنها...

راحت ليزا تقول فى إلحاح: «ألم أقل لك ؟. من المؤكد أنها تستطيع فتح عينيها ! فحالتها ليست بهذا السوء ! ولكنها ببساطة لم تعد تريد ذلك... ليس لأن الضوء يتعبها، هل تصدقين ذلك ؟ وليس أيضا لتفادى رؤيتنا. لم تعد تريد، فقط لكى تثبت لنا أنه لا زال فى إمكانها أن تريد ! هل تفهمين يا كاتيا؟ أن تثبت لنا أنه رغم المظاهر، لازالت هى التى تحكُم...»

لا أدرى. إن ليزا تُجمّل حالة أمى، وقوتها. مثلها فى ذلك مثلا فيرا. رغم أنها قبل أن تُبقِى عينيها مغلقة، كانت أمى تترك النوافذ مُقفلة فى غرفتها. والستائر المزدوجة مُسدلة، فى وضح النهار. كنت عندما أصل من باريس أريد فتحها، أريد إدخال الضوء، الهواء. وكانت تعترض، بصوت ضعيف وإن كان حازمًا: « أنا أُفضل هكذا». وفيما بعد، ولكى توفر أنفاسها، كانت تقول فقط: «اتركيها» هل هو استجداء ؟ كلا. فنبرة الأمر آمرة للغاية.

لقد دفنت نفسها حية، وضعت نفسها بنفسها فى القبر، ثم أغلقت عينيها.

تجدر الإشارة إلى أنها بدأت عامها السادس فى «ممر الموت» وهى تعلم، منذ البداية، أنه لا خلاص لها. عليها أن تنتظر، هذا كل ما فى الأمر. عليها أن تصبر إلى أن.

لقد دخلت عنبر الذين لا أمل فى شفائهم بمحض الصدفة، عن طريق الخطأ تقريبا. فلم يكن هناك، فى بداية الأمر، سوى خطر غير معلن - ١٨ شهرا من الآلام، بدون تشخيص. قال لنا أخصائى الأشعة فى العيادة: «إن أمكم حالة عُصابية حادة، ليس بها شيء، كل ذلك نفسى». وأطنب طبيبها العام فى نفس الإتجاه قائلا : «تعرفون أُمّكُن أفضل منى: إنها انفعالية للغاية. «فهى تمارس الايحاء الذاتى». لو كانت مؤمنة لظهرت عليها علامات صلب المسيح. ثم وقعت فجأة إرهاصات الحرب، تشخيصات الأخصائيين، وتشخيصات مضادة. وفى مستشفى ڤيل چويف، صدر الحكم : سرطان الكبد. وتلا ذلك عام من العلاج المكثف : عمليات جراحية، استئصالات، جلسات العلاج الكيميائى. وجاءت الآراء متحفظة. قال جراح ڤيل چويف : « بالطبع، لو أن عيادة ليموچ لم تُضيّع ١٨ شهرا ما كنا وصلنا إلى هذا الوضع !». وبعدها، وفى مواجهة الفشل المتكرر، كانت المريضة هى التى قررت إيقاف العلاج من أجل الشفاء واختارت الصحة : لا شىء طبى، العلاج التخفيفى الذى تتولى الإشراف عليه بنفسها، العلاجات فى المنزل - مضادات الألم، مضادات الالتهاب، حصص من الفيتامينات، مكملات بروتينية، منومات، مشروبات الأعشاب المغلية،

علاجات تجانسية، التدليك والمورفين. الكثير من المورفين. أربع سنوات من العلاج فى بيتها أو بيتنا، بدون يوم واحد بالمستشفى: لا مستشفى بعد اليوم !

«يا لها من مُقاوِمة»، هذا ما كان أصدقاؤنا كثيرا ما يقولون باندهاش، بعد أن يتحسسوا طريقهم بحذر، بطرف الكلمات، ويكتشفوا أن أمنا لا زالت على قيد الحياة. قليلونٍ من كانوا يجرؤون على السؤال: «كيف تتصرفون ؟». فعلا، كيف كنا نتصرف ؟... الآن وقد أصبح وزنها ٣٤ كيلوجراما، وقد تحوَّل ظهرها، من قرحة إلى أخرى، إلى جُرح هائل، وقد بِتنا عاجزات عن تحريكها، اضطررنا رغم كل شيء إلى العودة إلى حيث لم تكن تريد: المستشفى. إلى واحدة من تلك المؤسسات الفاخرة التى لا تكف الصحافة عن ترديد مزاياها: قسم العلاج التخفيفى فى لوى پاستير، بحى نوييه. وقد أدخلت هناك، بموافقتها، حيث إنها كانت فى كامل وعيها (« لقد قُضِى الأمر»). ومع ذلك، فهى لم تعد موجودة فى العالم منذ ما يقرب من عامين، وهى محبوسة فى غرفتها ذات الشيْش المغلق، عامان وقد توقفنا جميعا عن الحياة لمساعدتها على الموت.

(٢)

أربع بنات، كنا أربع بنات. نحن أربع أخوات، ولكننا كنا أربع بنات : كاتيا، ڤيرا، سونيا، لَيزا. بنات أولجا.

أسماؤنا لها رنة روسية، ولكن اللقب بريتانى : لوجيلاك. أولجا لوجيلاك، ڤيرا لوجيلاك، التوليفة ربما تبدو غريبة. ولكن هل هى أكثر غرابة من هذا الزَوْج من الأهل ؟ هو، يان لوجيلاك، الضابط بالبحرية التجارية، الابن الأصغر لصياد بحّار من سانسيرڤان. وهى، أولجا ساروڤ، التى وُلدت فى جبال لاكروز، من اللقاء غير المُنتظر لأحد جنود جيش القيصر ضلّ طريقه براعية غنم من إقليم الليموزان.

بدأ كل شىء فى ١٩١٧ حينما شَرعت القوات الروسية التى أُرسلت، تحت قيادة فرنسية، إلى جبهة الإين ، فى تدريب سوفييت. فكان أن أخرجوها على وجه السرعة من الخنادق وبعثوا بها إلى الهضبة الوسطى، على بعد ستمائة كيلومتر من المعارك : ستة عشر ألف جندى وثلاثمائة ضابط تمركزوا فى أحد المعسكرات على هضبة لاكروز، يقع على مسطح منبسط من الأراضى البور الرمادية والأدغال الكثيفة. هناك طريق واحد، ونَجْعان أو ثلاثة هزيلة. يمكننا القول إذن أنه فى وسط اللامكان. ولم يحُلْ ذلك دون استمتاع المتمردين بوقتهم: فقد أكثروا، على ما يبدو، من الشرب والغناء، بل والرقص، وقمصانهم الخضراء المائلة للصفرة مفتوحة على صدورهم وكاباتهم مقلوبة للخلف. شهران من الاحتفال. ثم يومان من القصف بمدافع الـ ٧٥ من التلال المجاورة : كانت القيادة المركزية العامة قد استعادت زمام الأمور. وتم إرسال قادة التمرد إلى بيريبى، وتسريح جُلّ الباقين من الخدمة وتشغيلهم تحت حراسة مشددة فى تقطيع الأخشاب، فى الغابات المجاورة، فى انتظار النصر. وهكذا تعلّق

جَدّى، ميخاييل سيرجييڤيتش ساروڤ، الذى وُلد على شاطئ نهر الڤولجا، وكان يقطع الأخشاب فى غابة لافوياد، بطفلة فى السادسة عشرة، الابنة الوحيدة لقهوجى من صوليارليپوى : وهو نجع يقع على ارتفاع تسعمائة متر، ويضم فى أنحائه أربعمائة نسمة والباقى متناثرون فى الجبل - أكواخ آخر العالم، « ألواح» ما قبل الفيضان.

وفى الحادى عشر من نوڤمبر ١٩١٨، لم يكن ميخاييل قد نجح بعد فى إقناع القهوجى بمنحه سولانچ. فعَدَل عن مصاحبة رفاقه الذين كانوا عائدين، بقلوب فرحة، إلى روسيا الجديدة التى كانت شمس الپروليتاريا الحمراء تشرق عليها. ليس لمُعاداته للشمس، ولكن لأنه كان عشيقًا لسولانچ. كانت «روحه الصغيرة»؛ لقد أصبح يحمل الشمس بداخله.

وظلّ يعمل بالتحطيب هنا وهناك، ولكن دائما بين لاكروز والكورّيز. وراح أهل البلد يعتادون عليه. بل إنهم أحبوه. ونظرا لطول قامته - مقارنة بأهل الهضبة الذين لم يكونوا يشبّون كثيرا - فقد نُسب إليه أنه ذو قوة خارقة، وترددت الحكاوى عن الأشجار السامقة التى يُسقطها بثلاث ضربات من فأسه، ومقاطع السنديان الضخمة الملقاة باستخفاف على كتفه. وكان هذا الفتى، فوق كل ذلك، قد اخترع الماء الساخن : إنه الساموڤار(*) ، الذى تحصَّل عليه من المعسكر، فى أعقاب رحيل الضباط، والذى تمكن بفضله من إبهار الأهالى... كان ماكرًا، إذن، ضخم الجثة، و«غير متعَجْرف» : ففى أمسيات درس القمح، كان يُصفّر مثل طائر الشحرور لإمتاع الحضور، وفى سهريات الشتاء كان يغنى بملء حنجرته، بل وباللهجة المحلية، فيدير حرف الراء مثل أى مواطن أصيل من إقليم الليموزان. وعلاوة على ما سبق، كان الشراب يُفعمه بالمرح. ميشا، هذا الوسيم طويل القامة، (الذى راح الجميع ينادونه كذلك بسبب صعوبة نطق «اسمه الذى من هناك»).

(*) الغلاية ذات الصنبور المستخدمة فى تسخين الماء لإعداد الشاى فى روسيا.

وقد كان هذا المرح عند الشرب هو تحديدا السبب الذى انتهى بقهوجى صوليار إلى أن يّقرّر، بعد خمس سنوات، قبول مصاهرته : فحينما تعمل فى مجال الخمور، تكون الميزة الأولى هى أن تعرف كيف تُسعد الشاربين، بدون أن تصبح واحدا منهم. أن تَقْرع كأسك مع الزبائن، بدون ان تتمرّغ أسفل المناضد. كان ميشا يجيد تحمُّل الكحول ؛ خاصة وأنه لم يكن يحب الشربَ : بل كان يتظاهر بأنه يحبه. ثم إن القهوجى الذى كان قد دفن لتوه زوجته، قال لنفسه إن «سولانچ على أبواب سن الرشد، وإذا تركت المنزل أكون قد فقدت مديرة منزلى»... وفى ١٩٢٢، وبترحيب جاء من العقل عند الطرفين، تزوج ميخاييل من سولانچ الصابرة، ومن خمّارة صوليار... وسرعان ما أصبح القول السائد فى الضيعة، هيا بنا نذهب عند الروسى - خاصة بعدما أفسح الحما الطريق بوفاته من نوبة برد مفاجأة.

وقام ميشا، سيد المكان الأوحد، بضم قسمٍ للبقالة إلى تجارته، تشرف عليه سولانچ : زيت، وسكر، وشمع، وبعض المخبوزات. وحينما كان الصغار يأتون مساءً لكى يصطحبوا إلى البيت أبًا ثملاً تأخر كثيراً عن موعد العودة بعد احتساء شرابه، كانوا ينتهزون الفرصة لشراء طلبات الأم.

الأطفال... هذا بالضبط ما كان ينقص لاكتمال سعادة سولانچ وميشا.

كان الروسى قد تجاوز الأربعين حين جاءت أخيراً أولُ ابنة. ودّ لو أمكنه تسميتها ڤولجا، لأن حياته، وقصص عشقه تلقى بنفسها فيه. ڤولجا لأنها سوف تحمل فى يوم من الأيام آماله حتى البحر، «هناك»، فى وطن التقدم. ڤولجا... ولكنه اضطر للاكتفاء بأولجا، الأكثر قبولاً فى مكتب الأحوال المدنية.

وبعد عامين، أنجبت سولانچ التى كان بطنها قد «انفك وثاقه» أخيراً، ولدا. غير أن المولود تقدم فى وضع خاطئ. ووصل الطبيب الذى استُدْعى متأخرا مثل رجال البوليس : مات المولود وأصيبت الأم بتهتكات شديدة. هذا ما كانت تردده السيدات اللائى حضرن الحدث، عاجزات. لم تكن الجدة سولانچ تُكذّب فى وجودنا، نحن حفيداتها، تلميحات نساء البلدة. بل على العكس: «فى حالتى، كان الطبيب يمنعنى

من «العلاقات». كانت الأيام الطيبة قد ولّت !. وكبِرت أولجا وحدها، بين أبوين يعبدانها ولم يعد أحدهما يعاشر الآخر إلاّ من خلالها.

إنها تلعب الحجلة أمام المقهى فوق هضبتها بلاكروز التى تضربها الرياح. وتُخرج لسانها للمصوّر: تُشْبه بضفائرها والشرائط المحيطة بأطرافها الطفلة المطبوعة على قطع «شوكولاتة مونيى»، وإن كانت تبدو أكثر شقاوة.

كان ميشا يبالغ فى تدليلها. يُلبسها مثل الأميرات ويربيها مثل الصِبْية. كانت ياقات ملابسها مطرّزة ولكنها تتسلق الشجر. لا يكف عن ترديد: هذه «وحيدتى». وكانت هى تدرك ذلك، وكما يقولون هنا، كان مثل الخاتم فى إصبعها. وفى عام ١٩٤٨، حين انضم للمقاومة (كان الروسى قناصًا متميزًا ومتمردًا بالفطرة)، أصبحت أولجا، وهى فى الثانية عشرة، أصغر ناقلة للرسائل فى المقاومة وحظاظة الأنصار. كان هذا نجاحًا. وكذلك عملاً غير حصيفٍ.

لقد احتفظت أمى طويلاً بذكرى مفتونة عن هذه الحقبة التى كانت تتسلل فيها مع هبوط الليل، عبر أدغال الوديان. لا شك أنهم واجهوا مخاطر كبرى، – وسوف تحدثنا الجدة فيما بعد عن «المشنوقين فى منطقة تولل» وعن حالات الرعب التى انتابتها –، لكن الأب والابنة لن يذكرا هذه الفترات إلا والضحك يملأ عيونهما. كما لو أنهما قد استمتعا بوقتهما أيما استمتاع... كأن الأمر لا يعدو أن يكون سوى مقلب أوقعوا فيه الروس والجبناء من كل نوع !

أولجا وميشا: المتّحدان حتى فى الجسارة والجنون.

إن ميشا الذى أصبح ميشا الحرب، و «روبين هود الهضبة» « والرجل القوى فى المقاطعة»، لم يكن ينوى الافتراق عن كنزه. لا مجال لأى دراسات تبعد عنه أولجا دى صوليار ! ومثل الجميع، توقّفت عند مرحلة الابتدائية. ولِمَ الدراسة ما دام سيكون لديها البقالة والمقهى ؟ هذا المقهى الذى كان يعمل بملء طاقته، رغم نزوح الفلاحين : فقد وقفت سولانج أمام المواقد وأصبحوا يقيمون الآن مآدب المحاربين القدامى، وحفلات

مساء السبت والأفراح والمآتم. لا احتفالات بالمناولة الأولى : ففى الهضبة لا يتناولون. وكانت أولجا تنزل مرتين فى الأسبوع بالباص إلى أوبوسون، من أجل دروس الحياكة – واحدة من أفكار أمها. وفور أن أتمت السادسة عشرة، سجّلها أبوها فى دورة إعداد المُسعفات التى كانت تشرف عليها سيدات من الصليب الأحمر. إن الإسعاف يمكن أن يفيد فى زمن الثورات... وهاهنا اكتشفوا لدى القروية الشابة موهبة واستعداداً: للتمريض. ولكن كان يتعين الحصول على شهادة الإعدادية. ونصحتها السيدات بالدراسة بالمراسلة.

ولم يكن لأولجا أىّ من مميزات التلميذة المُجِدّة. لم تكن من النوع الذى يمكن أن يجلس فى هدوء فى أحد أركان المقهى منكبًا على كراريسه. فلم تستذكر الكثير، ورقصت كثيراً وغنت بعض الشىء ولم تراجع البتة، ولكنها حصلت على الشهادة فى مفاجأة أدهشت الجميع. كانت فى السابعة عشرة، وتحب الڤالس (وكان ميشا راقص ڤالس لامثيل له) والموسيقِى رينهارت، والدراجات، ومسابقات الغناء الإذاعية وصيد الإستاكوزا. وحضرت السيدات وقلن إن هناك مكانًا لها فى مدرسة للتدريب السريع. ففى تلك السنوات، كان هناك نقص فى الأفراد: ثمانية أشهر من الدروس ثم ستة أشهر من التدريب فى أحد المستشفيات الباريسية.

پاريس! صاحت سولانج بصوت جزع. وقال ميشا بصوت مستاء إنه ليس بمريض وإن بنيانه القوى لن يجعله أبداً فى حاجة لمرضة فى بيته. ولمرضة من پاريس بالذات ! وبعيدا عن المزاح، أليس وضْعُ ابنته هنا فى لاكروز، بجانب الساموڤار، مُرضيا؟ وألحّت السيدات: كن يرتدين القفازات والقبعات وكلهن تصميم على تحديث الأرياف وتعليم الفتيات... كانت أولجا مترددة. لم يكن لديها أدنى رغبة فى ترك أهلها ولا فى العمل. وقامت صديقاتها فى أوبوسون – وكن من السانجات اللائى يحلمن فقط بالذهاب إلى الشاتليه ومقابلة لوى ماريانو باتخاذ القرار عوضاً عنها : « وافقى !إذا لم يعجبك الحال، تعودين. ستكونين على الأقل قد رأيت پاريس. ما دام أن هؤلاء الناس يدفعون لك ثمن الرحلة... ».

أربع بنات. نحن بنات أولجا والبحار البريتانى يان لوجيلاك الأربع.

وقع الحادث فى ميدان لوتيل دوڤيل إبان حفل الرابع عشر من يوليو. كان أبونا، الذى تخرج لتوه من كلية البحرية التجارية، قد صعد إلى پاريس لحضور حفل زواج أحد أصدقائه. وأمى كانت قد حصلت على إذن بالخروج من مدرستها الداخلية. ورقصا.

الخمسينيات. التنورات ذات الكرانيش المتطايرة، الأكورديون، اللمبات الصغيرة الملوّنة، الفرْح. ولا موانع للحمل.

وبعد تسعة أشهر كنت هنا. وخلال هذه الفترة، كان عاشقَى لوتيل دوڤيل قد تبادلا العناوين، بل ومع ضغط الوقت، موافقتهما. وأصبحت أولجا ساروڤ مدام لوجيلاك؛ ثم تخلّت عن الإسعاف من أجل رعاية الأطفال، وعادت إلى منزل أبيها. وكان أبى، يان، يعمل على ناقلة موز تبحر بين ميناءى دييپ وليبروڤيل : ولم يجد جدى صعوبة فى إقناعه بأن أمًا فى مثل هذه السن الصغيرة لا تزال فى حاجة لأهلها (كانت قد احتفلت ببلوغها التاسعة عشرة قبل أسابيع ثلاثة من ولادتى). على العموم، لم يكن لدى البحار البريتانى مكان إقامة دائم. فهو أحيانًا فى دييپ، وأخرى فى بوردو، وغيرها فى لوهاڤر. إذن سوف ينتظرون أن يستقر الوضع قبل إيجاد سكنٍ للأم والطفلة : أن يُلحق بمكتب أو يُنقل إلى خط منتظم. وصوليار لم تكن تبعُد كثيرًا عن ليموچ على أية حال، كما كان يقول ميشا، بل وعن كليرمون، إذ يمر بمحطة قطارات ليموچ قطار يربط بوردو بليون، وبمحطة كليرمون، وآخر يسافر من باريس إلى مارسيليا ؛ وبذا تكون صوليار موصولة بجميع بحار العالم، أليس كذلك ؟ فأينما ترجّل الصهر من سفينته، سيكون فى وسعه فى عطلته أن «يلْحق بمحبوبتيه» بعد رحلة بالقطار تستغرق ٢٤ ساعة.

وهذا ما فعله، وبسرعة أصبحت «المحبوبتان» ثلاثًا: كنت قد وُلدت فى عيد الفصح ؛ وجاءت ڤيرا فى شهر فبراير... نكون أختى وأنا فى نفس العمر لمدة شهر كل عام.

عادة، فى العائلات، تذهب ملابس الابن الأكبر إلى الأصغر. ولكن عندنا، كان ذلك مستحيلا. فقد شبّت ڤيرا أسرع منى، واضطُرت أمى إلى إلباسنا مثل التوائم. كانت تغزِل قطعتين من كل شىء، واحدة باللون الوردى لى، لأن شعرى كان بنيا، وزرقاء لڤيرا للون عينيها. وبذا كان حظ سونيا، التى جاءت بعد سبعة عشر شهراً، مضاعفًا : ففى كل مراحل نموها، كان يسعها الاختيار بين البلوڤر الوردى أو الأزرق القديمين، بين غطاء الرأس الوردى المثقوب وذلك الأزرق البالى. أما ليزا، التى مكّن نظام أوچينو(*) من إرجاء مقدمِها لثلاثين شهراً، فقد حصلت على ملابس جديدة.

وكانت القاعة الخلفية للمقهى والغرفتان العلويتان قد ضاقت بالعائلتين والأطفال الثلاثة والرابع الذى «فى طور الإعداد». وكان أبى موافقًا، عن ضعف أو لامبالاة، على ترك أمى بعيدة عن الشواطئ وبجانب ميشا، ولكنه أراد بيته الخاص. وقبيل قليل من مجىء ليزا، وجد منزلاً متهالكًا كبيراً (ثمان غرفٍ بدون تدفئة ولا مياه جارية)، على بعد نصف ساعة من ليموچ، فى ضاحية كليراك سيرمود، وهى مدينة صغيرة من الفَخّارين على حدود لاهوت ڤيين. وكان جدى قد اشترى شاحنة صغيرة، وأبى سيارة سيمكا قديمة، واستخرجت أمى رخصة قيادة. كانت المسافة بين بيتنا والمقهى أقل من ثلاثين كيلومتراً، ولكنها كانت تستغرق وقتًا طويلاً بسبب ضيق الطرق الجبلية، وتكاد تصبح مستحيلة مع الثلوج فى الشتاء. وباع ميشا محله واعتزل العمل وهبط بدوره إلى الوديان : كانت جدتى قد ورثت طاحونة قديمة، معزولة، بالقرب من بحيرة صغيرة، تُسمى طاحونة لاروش، ببلدة فونتناى. ستة كيلومترات تفصل هذه عن كليراك: وبالرغم من رطوبة الوادى التى لا تناسب رئة جدتى المتعبة، فقد انتقلا للعيش بها بلا تردد.

وعند مَولِد «رقم أربعة»، أخذانى أنا وڤيرا عندهما للتخفيف عن ابنتهما. تقول جدتى لنساء البلدة: أولجتى خارت قواها. لقد أصيبت بالأنيميا. تخيلوا، أربعة أطفال

(*) طريقة لمنع الحمل تقوم على الامتناع عن العلاقات الحميمية فى مواعيد معينة.

وهى فى الرابعة والعشرين ! أربعة فى خمسة أعوام ! توجد نساء تحبلن من مجرد النظر إلى رجل : أم جدتى كانت كذلك - أربعة عشر طفلا ! لقد ورثت ابنتى عنها ذلك. يا للبؤس... مع أنها تكاد لا ترى رجلها مع مهنته هذه.... وكان أبى يعمل بالفعل حينئذ على خط أكثر انتظامًا ولكنه يربط بين موانئ لوهاڤر فى فرنسا وڤالپاريزو فى شيلى وڤانكوڤر بكندا.

وقد ربّانا ميشا، الذى كنا نناديه بميشا، مثل كل البلدة. وكنا ننادى جدتى بالجدة سولانچ. وفى وقت لاحق، جعلت أمى، رغبة منها فى إحياء أصولها الروسية والحفاظ على ذكرى أبيها، أصهارها ينادونها بأولينكا وأحفادها ببابوشكا.

كاتيا وڤيرا وسونيا وليزا، نحن بنات أولجا وميشا. وحينما لم نكن نقيم فى لاروش عند ميشا، لبضعة أشهر أو أيام، كان هو يوجد عندنا فى كليراك. لمساعدة ابنته: يقطع الخشب، يعيد طلاء المنزل، يُدخل البطاطس، يصُفُّ الحطب، يعبئ عصير التفاح فى البراميل والنبيذ فى الزجاجات، يبنى، يشجّر الحديقة ويصلح الأشياء التى خربت. كان ميشا دائم الوجود وكنا نتبعه كظله: كنا «نساعده» فى طلاء الجدران، (كان يغمس فرشاتنا المدرسية فى الطلاء) وتقشير البطاطا (وكان يصنع منها خنازير صغيرة بأعواد الثقاب) وتقليب الأسمنت (فى علب الزبادى) وجمع الأوراق الذابلة (ونحن قابعات فى عربته اليدوية). « انتظرِنا يا ميشا. سنأتى لمساعدتك ! انتظرنا »

لقد اعتقدت طويلاً أنه إذا كانت عيون أخواتى الثلاث زرقاء (فعينى كانتا سوداوين مثل أمى وجميع أقربائنا فى لاكروز، إذا كانت عيون هاتى المحظوظات «ملوّنة»، فلأنهن تشبهن ميشا. كان لهذا المارد عينا دمية: أزرق سماوى، ولم أكتشف يومًا، إلاّ بوفاته، أن والدى أيضًا عيونه زرقاء.

سونيا

ليموج، ميدان أريستيد بريان، مدينة الشاتينيورى، المبنى د، السلم ب، الطابق الثالث. سونيا لوجيلاك، الاسم مُلصق على الباب.

فى المدخل، حقيبة سفر تنثر محتوياتها: زوج من البوط، حذاء رياضى، اثنان أو ثلاثة بلوفرات – لم ترتب الساكنة حاجياتها لدى عودتها من باريس. علّقت لباس نومها فى الحمام ووضعت كيس أدوات التجميل على الحوض، وكفى !

سوف تسافر مجدداً خلال ثلاثة أيامٍ على أية حال. الوجهة محطة قطار أوستيرليتز – والدها سوف يسدد ثمن التذكرة – ، ثم نويى – كاتيا ستدفع ثمن سيارة الأجرة. بل إنها ربما ترحل ثانية الليلة لو أن أمها... إن متاعها جاهز : حينما تحتاج سروالاً تحتيا نظيفاً، تدعبس فى الحقيبة. كل ما تحويه يتكرمش بالطبع. وما العيب فى ذلك ؟ فى الماضى، كانت أمها سوف تغضب. «بإمكانك أن ترتبى حاجياتك على الأقل». حينما كانت سونيا وهى فى الخامسة عشرة تترك غرفتها طويلاً بلا ترتيب، كانت أمها تنتظر يوما مطيراً لتدخل معلنة فى نبرة منتصرة «سوف نأكل فى الهواء الطلق»، وتفتح النافذة على مصراعيها ومن هذا الطابق الأول تلقى فى الحديقة المبلّلة الفساتين والمجلات وكريمات البشرة وكراريس المدرسة وبوكلات الشعر ومشدات الصدر المبعثرة على قطع الأثاث. « أكلاً شهيا يا ابنتى ! معذرة إن كانت نزهتك الخلوية مبلّلة بعض الشىء!».

والآن وقد كبرت، وأمها سوف تموت، فإن نزهتها فى منأى عن البلل: تستلقى فى المدخل، وتخرج محتوياتها فى غرفة المعيشة. إنها متسعة بما يكفى، لكى يتسنى

حتى الآن التسلل بين الكوْمات. هناك الملابس المطلوب كيها، ولكن المكواة مكسورة ؛ وكومة العلب « التى ينبغى التخلص منها فى صندوق القمامة »، ولكن المصعد معطّل ؛ وكومة الصور المُراد فرزها، ولكن الألبومات ملأى ؛ وكومة الخطابات المطلوب فضّها، ولكنها لا تتلقى سوى الفواتير ؛ ثم الكومة الأضخم، الخاصة بالمبيّض، السلم والفوط وعلب الألوان: كانت قد بدأت منذ ستة أشهر فى طلاء الغرفة بالأخضر الليمونى، ولكن لا يهم، لم يعد لديها، مثل كل شىء، لا الرغبة فى ذلك ولا النقود...

وخلف هذه الأكوام، تتضاءل للغاية قطع الأثاث. تلامس الجدران، خزانة أدوات المائدة، أريكة قديمة، مكتبة من طراز ٦٨- لوحات خشبية طويلة غير مستوية موضوعة فوق قوالب الطوب المفرّغة المسروقة من مواقع البناء.

وغرفة النوم من نفس النكهة: منافض ممتلئة ومراهَقة ممتدة. غير أنه بدلاً من اللحاف المكرمش، نجد هنا فوق الملّة القديمة غطاءً سريريا حقيقيا، وفوق النافذة، ستار مزدوج وبلدكانة من نفس الألوان ومساكات من الحرير. تفاصيل لم يعد لها وجود. أشغال من زمن آخر ومن امرأة أخرى. امرأة ربما نتعرّف على وجهها الذى يُطلّ من إطار من الكريستال المنقوش فوق المنضدة الملاصقة للسرير؟ جميلة شابة فى رداء أسود بالأبيض تحت إضاءة خفيضة، أشبه بالممثلتين الشهيرتين ڤيڤيان رومونس وسيمون سيمون. هل هى نفس المرأة التى نراها تتقدّم في العمر وترتدى الملابس الملوّنة فى الصور المعلّقة فى الممر المُفْضى للغرفة ؟ فى رفقة أربع صغيرات، ثم أربع شابات، قبل أن تذوب فى المجموعة: خمسُ نساءٍ.

فى غرفة المعيشة، الديكور يحاول اكتساب طابع أكثر « فنية » : بوسترات من معارض وصور من أعمال كبار الفنانين تخفى خلفها قشور الطلاء والبقع فوق مقاطع الجدران التى عدلَت سونيا، مؤقتًا، عن مداواتها. أما المقطعان الخشبيان اللذان أعيد طلاؤهما باللون « الأخضر الليمونى»، فهما مزدانان بهذه الإعلانات الدعائية التى تُلصق على واجهات المكتبات لدى صدور كتاب منتظر، وكلها تشيد بروايات كاتيا ساروف. (ففى مَجال الأدب، أخذت كاتيا لقب أمها، لقب ميشا - فلو احتفظت بكاتيا

لوجيلاك، لكان ذلك مضحكًا !، هكذا تقول). وعلى أوراق الرسم الملونة، ثبتت سونيا بالمسامير مختلف أشكال الأغلفة التى رُسمت لكتب أختها، ولصقت مشروعات أغلفة أيضا فى أعلى الأريكة وحتى فوق البوفيه: فعلى باب اليمين، باقة زهور صفراء وزرقاء لماتيس، وعلى اليسار جمجمة إلى جانب ساعة رملية ؛ والأولى تفتح على مخزون البقالة، أما الجمجمة فعلى مخزون الخمور. كمية ضخمة جديرة بحانة روادها كُثر...

لا مرايا على الجدران، فيما عدا واحدة صغيرة للغاية فوق الحوض: سونيا لا زالت تريد رؤية وجهها – لإصلاح الخسائر قبل التوجه للعمل –، ولكنها لم تعد ترغب فى رؤية جسدها بالكامل.

إن هذا الظاهر بالكامل – من رأسه إلى قدميه (الكاسكيت والقميص الرمادى والبنطلون القطيفة المضلّعة والبوت الكاوتشوك) –، هو عجوز، بل عجوز جدا فى صورة قديمة مكبّرة بحجم اللوحات. إن هذا الكهل « بالحجم الطبيعى »، الواقف فى ركن المدخل، والذى تراه من بعيد أفضل مما تراه عن قرب (فقد أضاع التكبير وضوح التفاصيل)، هذا الكهل الواقف بامتداد قامته شاهداً على تسيب ساكنة المكان، يستهجن إهمالها، يبدو عليه الوقار. إنه جميل الملامح أيضًا: عيون ملوّنة تحت حواجب بيضاء كثيفة، أنف مقوّس وخدود شبيهة بالمغوليين. إنه لا يبتسم، لا يحاول أن يبدو لطيفًا، ليس فى حاجة لذلك: إنه ميشا.

(٣)

تُوُفِّيَ ميشا عند ابنته، في المنزل. لقد مات في سنّ متأخرة « وزخرت حياته بالكثير». لم يبق عندنا، في كليراك، سوى أسبوع. حتى تلتف حفيداته الأربع حول سريره. كانت وفاة عائلية، بسيطة وعادية. لم يتغيّب إلاّ أبى – المتعطّلة سفينته فى البحرين، إحدى أوائل الناقلات العملاقة.

كان جدى قد وُضع فى غرفة أمى، التى تركت له سريرها. وكانت الجدة، المنهكة، موجودة فى المطبخ، بالأسفل، مع إحدى الجارات. ميشا كان قد فقد الوعى منذ الصباح. كان جسده يشعّ حرارة أقوى من المدفأة. يحترق بالحمى، وخدوده تعلوها حمرة قانية. وفجأة توقف نفسه. أخذته أمى بين ذراعيها ورأيت تنفس جدى يتوقف. لم أُدرِ رأسى؛ لم أكن خائفة، كنت أعرف ؛ كنت قد شاهدت الموت عن كثب مرات عديدة فى أعالى إقليم الليموزان، بحيث أصبح معتاداً بالنسبة لى. مقزّز ولكن معتاد.

الموت الذى كنا قد عرفناه فى صوليار وفونتناى ولاروش كان موتًا مستأنسًا يذهب ويجىء فى البيوت، مثل الكلاب والدجاج. موت مقيم فى غرفة المعيشة، وسط العائلة. لا مشاهد مثيرة (من نوع لويس الرابع عشر وهو يخاطب مريديه، أو المُزارِع محادثًا أبناءه)، وإنما دائمًا موت عام تحت سقف خاص. ويواكب ذلك، جِناز حقيقى، يجرى فور صعود النفس الأخير ! كان الأمر يستحق المجهود المبذول : الجثمان فى أجمل حُلله، الزيارات، خشب البسق المبارك، ساعات الحائط التى يتم إيقافها، المرايا التى تُغطّى، ليالى السهر بجانب الجثمان مع الوجبات الخفيفة. الجداد الكامل، الدموع الغزيرة، الشموع الكبيرة فى المنزل، التابوت المصنوع خصيصًا، ثم آخراً، الدفن الذى تلتقى فيه المقاطعة بكاملها فى موكب طويل وفرِح خلف عربة اليد.

كان عليّ في وقت لاحق، في باريس، أن أعتاد على الموت المستتر. المستشفى، البارافانات، العزلة، هروب العائلات، هروب المعالجين، النفس الأخير في عُجالة، الخروج من باب الخدمة، استلام «المحترفين» للحالات، وضع الجثمان في الثلاجة، التابوت الجاهز، مركبة الموتى، إعادة مَن تسلَّل إلى الحياة إلى موطنه نهائيا من خلال إحراق الجثمان... لم يكن « الراحل » يمر حتى بمنزله مجدداً! كنت ألتقي برجال في الثلاثين لم يشاهدوا جثماناً من قبل، ونساء لا يعرفن كيفية « إعداد» الميت – تجهلن كل شيء عن سنادة الذقن وإغلاق الجفون، والسدادات القطنية التي يتعين وضعها في الأماكن المناسبة، كُنّ باختصار عاجزات عن أن تُغْلِقْن وحدهن « الأبواب التسعة » لجسد عزيز... إن الوفاة المجرّدة، كانت قد حلّت في المدن الكبيرة محل الموت، البذيء.

ثم تساءل الإعلام أخيراً، بمناسبة المرض الطويل لأحد الرؤساء : لماذا كل هذا الجنس وذلك القليل من الموت ؟ هل سينتصر إله الجنس على إله الموت ؟ لا، لأن الموت سيكون له من الآن فصاعداً بطله : الأمير. فبفضل رضاء الأمير عنه : عاد الموت عودة ملفتة للأنظار. صار فجأة هذا «القديم» مرة أخرى ملء السمع والأبصار : ففي البرامج الحوارية ومآدب العشاء، كان الحديث الأوحد عن الموت الحميمي، اللطيف، المريح، ذي اللون الوردي. وراحوا يتغنون بسحر المورفين والحوار؛ وأنشئوا، وسط الزهور، مراكز للرعاية المُلطِّفة ؛ وصوّروا فيها الابتسامة المطْمئنة للمرضى الميئوس من شفائهم ومرح المعالجين ؛ وتحوّلت سيدات فعل الخير إلى مرافقات للمحتضرين...

هل سيعيدون اكتشاف فضائل الموت على الطريقة القديمة ؟ ليس تماماً : موت الماضي كان سريعاً ونادراً ما كان مُعلناً. ففي الخمسينيات بإقليم ليموزيننا، لم تكن المسائل تستغرق وقتاً طويلاً : كان الطبيب نادر الوجود ومُكلّفاً والمستشفى بعيداً جداً لمن اعتادوا التنقل فوق عربات الحنطور أو بالدراجة. وعلى أية حال كانت « وسائل الفحوصات » لا تزال محدودة والأدوية قليلة، وبما أن ما من أحد كان يعرف حقنة

الجلوكوز، والمُكمّل الغذائى والوسادات المضادة للتقرحات، والحفاضات والسراويل العازلة للبلل وسنادات كعوب الأرجل، فقد كان من المستحيل إطالة أمد الاحتضار.

لم يكن هناك ثمة شيء لحالات المرض القصوى فى أرياف هذا الزمن. لا شيء على الإطلاق. لا أجهزة تصوير تليفزيونى أو بالرنين المغناطيسى. بل ولا مياه جارية، ولا تدفئة. وبالنسبة لقضاء الحاجة، فحتى عند ميشا والجدة، كانت تتم فى «خلفية الحديقة»، وهى حديقة ليس بها حفرة لهذا الغرض أو كوخ للضرورات – يتم ذلك فى الخلاء، «فى الهواء الطلق». وفى مثل هذه الظروف، لم يكن الكهول العواجيز يُعمّرون طويلا.

وعلى أية حال، لم يكن أحد يستبقيهم. ففور إصابة الجد بالمرض، كانوا يُسدلون حوله جوانب ستار سريره، حتى أثناء النهار. وخلف هذا الستار، كان سعاله أو تذمره يُسمع بالكاد : وكانت الحياة تستمر فى الغرفة الوحيدة. وإذا حدث ونَمَت إلى السمع نوبة سعال قوية، وسأل أحدهم عن أخبار العجوز، كانت إحدى المزارعات تزيح طرف الستار : وكان يمكن تخيّل المريض فى جوف سريره، مختنقًا تحت لحافه الحريرى الأحمر الضخم. وكانت المرأة تقول بصوت مرتفع : « ماذا أيها الجد، يبدو وكأنك لست على ما يرام تمامًا !». وعندما لا يكون الجد غائبًا عن الوعى بالفعل، كان يَصدُر عنه أنينٌ خافتٌ ؛ وكانت المرأة تغلق الستار عليه مجددًا، بلا مزيد من الاهتمام : « فى هذه السن، ماذا تتوقعون، إنهم لا يتعرّفون على أهلهم !». فمثلما كان الكهول يفقدون اهتمامهم بمن حولهم، كان هؤلاء يفقدون الاهتمام بهم.

حتى المرضى من الشباب لم يكونوا يُطيلون البقاء : فكل من كان يمشى على قدميه كان يُعتبر معافى: ما لم يكن ممكنًا التمييز بين آلام أسفل الظهر وبين سرطان العظام، ما بين « بعض الإرهاق » وسرطان الدم المتقدم. فقد كانوا يعملون. وحينما كان سرطان العظام (أوجاع أسفل الظهر) يسبب لهم الآلام، كانوا يزيدون الحرام الصوفى واحداً، وحينما كان سرطان المعدة يتعبهم، كانوا يشربون بعض الحليب. إن عدم معرفتهم بأنه محكوم عليهم بالموت كان يبقيهم بمنأى عن القلق. وكان

ذلك أفضل بما أنه لم تكن توجد مهدئات... حينما كانوا « يَسقطون » صرعى للمرض، لم يكن هذا من قبيل التعبير المجازى، فقد كانوا « يَسقطون » بالفعل. كانوا يضعونهم فى الفراش ولا يقومون منه بعد ذلك، وسرعان ما كانت تنتهى المسألة. وفى غالب الأحيان، كان الطبيب الذى يُستدعى فى آخر الأمر، لا يصدر تشخيصًا إلا بعد الوفاة. وكثيرًا أيضًا ما كان يتخلى عن التشخيص، بسبب عدم وجود تحاليل أو عينات، وكان الجميع لا يعترضون: نموت لأننا لسنا مخلّدين. أليس ذلك بالسبب الكافى ؟ إن فرنسا العميقة لا تعرف التبعية مثل المرض الطويل ؛ فالمرء يظل فيها خاضعًا لقوانين الطبيعة، التى هى قوانين الغاب، فعند أول علامة ضعف، يتم القضاء على «الحيوان».

لا شك أن الحيوان البشرى كان لديه حينئذ فرصة الموت فى بيته، وسط أهله، ولكنها ميزة ضئيلة: فالبيوت لم تكن بها وسائل الراحة، والعائلات لم يكن لديها الوقت؛ وخلف الستائر الحمراء للأسِرَّة الريفية، كان الجد أو الجدة منقوعًا فى مخلفاته – لم يكن أحد يخشى على المرتبة، حيث كانوا ينامون على فرشات من القش، ومن ثم سيكفى تغيير القش «بعدها». ولهذه الأسباب كان الكثيرون يتعفنون وهم أحياء، كانت الغرغرينا تعيث فى الأرض، لنقص وسائل النظافة. وكان الكحول يهدئ الآلام. وتسمم الدم ينهى المسألة. هكذا، بسرعة وفعالية.

ولم يكن يبدو أن المُحتضر نفسه يأسف على الحياة ؛ أى حياة ؟ قليل من الحب، لا أوقات فراغ، مهنة لم يخترها – ودائمًا وأبدًا البرد، والطين، والرياح والمطر... لا، لم يكن يتشبّث بها حقا. ذلك فقط ما يمكن الأسف عليه من الموت على الطريقة القديمة، الجهل الجميل للمريض، وانزواء المُحتضر– لا عليكم، إننى « أموت »، ليس إلاّ.

ولما كان احتضار الفقيد لا يترك لمن بقوا على قيد الحياة سوى ذكريات مبهمة، سرعان ما كانت فرحة الجِناز تغطى على كل شىء – باقات الورود، ومآدب الطعام واللُّقيا بعد الغياب، وفى البلاد المسيحية، تلك الرائحة، المحببة، للبخور.

كان الموت على الطريقة القديمة ينسجم مع الحياة على نفس النسق، كلاهما فظٌ وقصير... هكذا كان الحال...

ولا جدوى فى نهاية الأمر من الغوص فى الحنين، الموت الخاطف فى الماضى أو الموت بلا نهاية فى أماكن الحب الأخير ، فالاحتضار ليس لطيفًا أبداً والمحتضرون كريهون...

كم كانت أمك جميلة !

جالسان، أبى وأنا، فى قاعة العائلات، وهى غرفة واسعة تضم أريكة سريرية ومقاعد وثيرة ومكتبات، فى الطابق الرابع بمستشفى لوى - باستير. لا يقولون هنا العلاجات التخفيفية، ففى الاستقبال كما فى المبنى برمته، يقولون الطابق الرابع. قاعة الطابق الرابع هذه، حيث يمكن للمقرّبين التجمع والحديث بعيداً عن المحتضر ومقابلة الأطباء وتناول بعض القهوة، مزدانة بالنباتات الخضراء الصناعية التى تتقاطع أوراقها القماشية مع جدران طُليت باللون الوردى السالمونى. وقد طُلى ممر الدخول إليها بلون وردى قاتم، دسم. أما جميع الغرف فلونها وردى مُشِعٌ، يكاد يكون شفافًا: وردى مثل طاقم الأسنان. فى هذا القسم الخاص بمن هم فى نهاية الحياة (لم يعودوا يقولون «محتضرون»، أو «مشرفون على الموت»)، طُليت كل الجدران باللون الوردى. وحينما يستسلم المرء، ما دام لم « يعُد » يموت -، فإنه يفعلُ ذلك وهو محاط بالورود.

«يا إلهى، كم كانت أمك جميلة ! لو كنتِ رأيتِها وهى فى الثامنة عشر...». أبى يطلق العنان لخواطره. لم تكن قد واتته الفرصة لذلك طوال خمسين عاما. أو الشجاعة. أراهن أنه قد تجرّع لتوه كأسًا من الكونياك فى المقهى المواجه. والآن، والمرضتان تحقنان أمى، هو يصِرّ على أن يحكى لى « الحادث »: كانوا قد أقاموا منصة بالألوان الثلاثة للعَلَم على واجهة لوتيل دوڤيل، على غرار تخت الفرق الموسيقية. وفى إحدى اللحظات، أرادت فتاة أن تنضم للموسيقيين. ولكن كان هناك بعض الجالسين على الدرجات، فتركت الفتاة الجريئة السلم وذهبت إلى الجانب، وتسلقت المنصة. استخدمت القواطع الخشبية مثل السلم ! أواه، كانت مجنونة ! وفجأة، ما من

أحد كان يرى غيرها بالرداء الأحمر والحذاء ذى الكعب العالى، تصعد من قاطع إلى آخر، حتى التخت، وسيقانها، هاتيك السيقان ! وها هناك، فوق، تحت حبال اللمبات الكهربائية، حينما تَحدّثَت إلى لاعب الساكسوفون، وانحنت نحو الطبّال، بردائها الأحمر هذا الذى بلا حمالات، هذا الرداء مكشوف الصدر، يا إلهى، هذه الأكتاف التى رأيناها ! وهذا الصدر... الصدر! رائعٌ ! يداه ترسم كلماته. « كانت مبهرة، هذه الفتاة : آڤا جاردنر ! وبالإضافة إلى كل ذلك، هذا الشعر ! كان شعرها ما زال طويلاً حينئذ. كتلة من الشعر الأسود المتموج : شعرٌ مثل شعر المُهْرة ! تفهمين إذن، هذا الشعر المتطاير فوق هذه الأكتاف العارية... خاصة وأنه ما كان أحد يمكن أن يصدقّ أنها كانت فى الثامنة عشر فقط ! كانت تبدو فى الخامسة والعشرين، هذا الاكتمال... مزدهرة... هذا هو ما خدعنى». وتنهد. «لا لم يكن فيها شىء من الوردة التى تتكوّن، أمك، لا شىء من البرعم الذى يتفتح، لقد كانت ثَمَرة... آڤا جاردنر، نعم... بشكل أجمل».

كانت أمى فى شبابها تشبه آڤا جاردنر. والآن، هى فى سريرها بالمستشفى أشبه بمومياء رمسيس. الوجه العظمى، الشعر الناحل، الرقبة النحيلة، هيكل عظمى لعصفورة.

إن اضطراب وظائف كبِدها أضفى على جلدها تلك المسحة البُنية، هذا اللون الخاص بالمخطوطات الورقية القديمة الذى نراه فى الجثامين المحنطة للمصريين. إضافة إلى أن الجفاف التدريجى للمخاطيات والفم قد ترك أسنانها واللثة مكشوفة الآن. لم يعد فيها الآن شيئًا ممتلئًا، أو سائلاً – ولا حتى الأعين، فهى تُبقِى بعناد مقلتيها مغلقتين. إن رؤية هذا الجسد الساكن فوق السرير، هذه الأكتاف البارزة، هذا الوجه الجاف ذى البشرة الداكنة، المشدودة خدوده لدرجة أن الشفاه ترتفع لتكشف عن الأسنان، تجعلنى أتصور أننى أمام جثمان فرعون مات منذ ثلاثة ألف عامٍ. ومع ذلك، فهى حية. على نار هادئة. وآلامٍ مبرحة. ولكنها لا زالت مدركة، وتملؤها إرادة عنيدة فى البقاء..

عرفت منذ طفولتى، قبل وقت طويل من فضفضة أبى، أن أمى جميلة. ذات قوام بديع التكوين. لأنها كانت ترتدى تنورات ضيقة تحاصر الجسد، وسترات ملتصقة، وملابس تكشف الصدر. طويلة القامة، رفيعتها، ورقيقة الخصر. فى الطريق، كان الرجال يُصفِّرون إعجابًا عند مرورها... ولكنى لم أكن قد رأيتها عارية قط. بل إنى لا أتذكر أنى فاجأتها وهى بملابسها الداخلية أو أنى استمتعت برؤيتها بلباس البحر. ففى الصباح، كانت تظهر بملابسها الكاملة قبلنا جميعًا ؛ وفى المساء، لم تكن تظهر بدون ماكياچها.

لم أكتشف جسمها إلا من ثمانية عشر شهرًا، حينمًا لم تعد قادرة على أن تضع أبسط المساحيق، أو ترتدى بلوزة أو قميص نومها. ونظرتُ إلى عُرِى أمى. نظرت إلى البطن المترهل المطلوب غسله بالصابون. نظرت إلى عانتها الخالية من الشعر والثديين المتهدلين الملتصقين تماما بالقفص الصدرى لدرجة أن العَرَق أحدث بللاً دائمًا أسفل الحلمة. والجلد، الملتهب، راح يتقشّر، وأصبح اللحم مكشوفًا وصار لزامًا وضع بودرة التلك. كنت أرفع كل ثدى وأغطيه بالبودرة... الشفقة تملؤنى، والخجل...

قالت لى مساعدة المعالجة الصغيرة بالأمس : «من السهل أن نلحظ فورًا أن أمك سيدة راقية!»

أصبحت أمى شديدة الهُزال لدرجة بِتُّ معها أعتقد أنه يصعب التعرف من بعيد إذا ما كانت امرأة أم رجلاً. ولذا تساءلت فى دهشة : « سيدة راقية ؟. كيف تعرفين ؟» «وردت الصغيرة : «من يديها».

وكان هذا صحيحًا، فهما يدا من لا يفعل شيئًا بيديه، بصوابعه العشرة ! هى التى كانت شديدة المهارة فيما سبق، لم تعد منذ زمن «تستخدم» يديها، لأن هناك من يخدمها، فقد تم الانتقال فى كل شىء ، مثل عملية تنظيفها، من الفعل إلى المفعول به... إن يديها جميلتان فعلاً، نحيلة ولكنها ناعمة، لأن أختى سونيا، التى تحترف مهنة التجميل، كانت تدلكها لها كل أسبوع بالكريمات المرطبة. كما أن أظافرها أيضًا مُعتنى

بها، نعم هى لا تقبل منذ وقت طويل أن نقُصّها لها، ولكن سونيا تنعِّمها بالمِبرد. إنها طويلة مثل أظافر العُظماء. سوف تنكسر عند أول حركة ! ولكن لم تعد هناك حركة... تضع لها سونيا طلاء الأظافر مرة كل شهر، ويكفى ذلك، لأن الطلاء لا يتقشر، لا يتقشّر أبدًا، لعدم وجود أى نشاط...

تُفزِعنى أحيانًا أظافر «السيدة الراقية» الحمراء على الدوام والمطلية بإتقان تام.

غير أنه يُحْتمل لو أنها هى «المريضة» فتحت عينيها ورأت يدى الأرستقراطية، أن تشعر بالسعادة؟. كان أبى يقول : «إنها غاية فى التأنق، إذا تذكرنا أنها مجرد ريفية صغيرة، «أمى التى كانت»، متأنقة وأنيقة. «بثلاثة فرنكات وستة قروش يا أولادى». لقد قصّت وحاكت ملابسها بنفسها لفترة طويلة، بفضل دروس الحياكة التى تابعتها وهى فى الرابعة عشرة. وأدخلت إلى المنزل أدوات سحرية – كستبان ذهبى ومغناطيس كان يجذب الدبابيس من فتحات الأرضية الخشب و – كلمات غامضة : الأكمام الراجلون، وخيوط الجروجران السميكة، وشرائط الأكسترا فور الداعمة، والقصة بالورب. وكانت تجمع أقمشة لم يعد لها وجود بأسواق اليوم: كريب دو شين، الكتان وساتر المخمل وتُزاوج الألوان بشكل ما عاد جائزا، البيج الرمادى مع الأحمر البرتقالى والتانجو مع البنى القاتم. وكانت النتيجة تذهل الأقاليم، فهى بكلمات عتيقة كانت تصنع فساتين حديثة «إن للسيدة الشابة لوجيلاك أناقة فائقة!».

ثم كانت لها منحة أخرى من الآلهة، فهى إن كانت تبدو فى الخامسة والعشرين وهى لم تتعد الثامنة عشر، كانت فى الستين تبدو فى الأربعين فقط: «تبدو شابة». فبعد أن أتمت الثلاثين، ظلت تبدو شابة، حتى نهاية حياتها، أى حتى اليوم، الذى عرَفتْ فيه – أو قررت – منذ ست سنوات، أنها مَقْضِى عليها...

كانت حتى هذا اليوم تحتفظ بشعرها قصيراً للغاية (كانت قد قصته وهى فى الخامسة والثلاثين رغبة منها فى التشبه بالشباب الصعاليك، مثل مراهقى الشوارع والفنانة زيزى چانمير)، وترتدى التنورات الجلد، والچاكيتات القصيرة والبيريهات ذات اللون الأصفر الفاقع والكاسكيت والبوتات غير التقليدية. وحينما كانت تذهب إلى

باريس وتسحبنى معها لتكسُوَنى، «لا يمكنك الذهاب إلى هذه السهرة بتاييرك الأسود الأبدى ! ثم إنك ليس لديك حذاء مناسب !»، وحينما كانت، وهى تختار لى الفساتين تستبعد شماعات الفساتين الرخيصة قليلة القيمة وتنتقى الأطقم «العالية الأناقة»، وتتسلّل إلى غرفة القياس وتهز رأسها ثم تعود إلى المعروضات لتبحث عن بلوزة أطول قليلاً لإخفاء امتلائى («فى مثل سنك يا عزيزتى لا يُغتفر هذا»)، وحينما كانت تُوجّه الفتاة التى تتولى تضبيط الملابس («ضيّقى التنورة لسنتيمترين عند الخصر، وسْعى الخياطة عند الأرداف، ارفعى أكتاف الجاكيت، اضبطى الاتساع فى الظهر عند عظمة الكتف وقلّلى وأنت تهبطين نحو الردفين، حتى لا تكون كالمحشورة بداخله إن أرادت قفل الزر»)، كانت البائعات تعتقدن دائمًا أنها شقيقتى، ليس تذلفًا، كلا ! خاصة وأننى كنت أتولى الدفع: من هى الزبونة التى يمكن أن يسعدها أن يعتقد الناس أنها أكبر سنًا من أمها؟

لا، فقد كانت البائعة تسدى إلى النصح بكل حسن نية : «يجب أن تنصتى لرأى شقيقتك يا سيدتى. فهى على حق»... وكنت، فى محاولة منى لحفظ (قليل) من ماء الوجه، أقول للبائعة وأنا أدفع الفاتورة: «هذا صحيح، إن شقيقتى الكبرى تتمتع بقوة الملاحظة!» فإذا كانوا يعتقدون أن أمى هى شقيقتى، فلتكن على الأقل شقيقتى الكبرى...

وقد فُزت الآن: إذ يمكن الاعتقاد بأنها أم جدتى.

لم أر قط أحدًا بهذه الكهولة، وهذا الإنهاك. وهذا النحول. ولا حتى بين الناجين من المعسكرات فى صور ما بعد الحرب. لا شك أنها مثلهم وجهها هزيل، ومقلتاها غائرتان، وضلوعها بارزة ومفاصلها أضخم من الأطراف. ولكن المجاعات الإفريقية عوّدتنا على مثل هذه المشاهد لدرجة أننا فقدنا القدرة على الدهشة.

وفى المقابل، فإن ما يدهشنى، بل ما كان يصدمنى حين كنت لا زلت أنظفها، هو الاختفاء التام للأرداف، «هذه المواضع المكتنزة باللحم فى منطقة الحوض»، كما يقولون

فى القاموس، وبالتالى، فإن فتحة الشرج لم تعد مختفية أسفلهما، بل ارتفعت وأصبحت ظاهرة مثل عروة الزر.

هذا ما جعلنى أدرك كيف أن الإعلام الغربى لا يرينا البؤس إلا من «الأمام» – وهو الجانب الأقل إثارة للنفور.

انتشر كل شىء. أصبح اليوم فى جسدها «ثلاثة أقطاب للورم»، لتورم الموت الخارج عن السيطرة. الكبد، والرئة والأمعاء، لقد راحت سرطاناتها الثلاثة تتنافس بضراوة هذه الأيام. من منها الذى سوف يقهر الآخر عند خط النهاية ؟ وأين هو خط النهاية على أية حال ؟ أو أين هو الخط المستقيم الأخير؟

كان الموت فيما مضى ركضة سريعة خاطفة. اليوم أصبح سباق عدْوٍ طويل. وقد بتنا أنا وشقيقاتى نلهث إنهاكا.

ليـزا

نويى، مستشفى لوى-پاستير، الرابع عشر من ديسمبر، الرابعة بعد الظهر.

ليزا واقفة أمام النافذة الوحيدة فى صالون العائلات، وقد أسندت جبهتها إلى الزجاج، الليل يسدل ستائره... ولكن الليل انتهى بالفعل بالنسبة لها، انتهى قبل أن يبدأ ؛ الساعة الثالثة صباحًا فى سيدنى ولم يكْف يومان لضبط ساعتها الداخلية على توقيت باريس. تشعر وكأنها تحيا منذ ثمانية عشر شهرًا فى حالة اختلاف توقيت دائمة. وفى حالة اختلاف مواسم أيضًا. فالوقت صيف الآن فى البلد الذى تعمل فيه، وشتاء فى المدينة التى تموت فيها أمها. ولكن التماسك مطلوب، إكمال الطريق حتى النهاية ؛ وهى ليست بالبعيدة كثيرًا فى الواقع، مهما جاهدت أمها فى التشبث...

أحست بالغثيان مجددًا، تدثّرت فى معطفها وفتحت النافذة. الهواء البارد يريحها. أى شىء بخلاف رائحة المستشفى اللاذعة هذه والتى لا طعم لها فى مياه چاڤيل، والكحول ومطهر البيتّادين. فى الغرفة انتابها دوران ، شعرت أنها ستسقط. لم تعد تعرف أين هى. كانت ترى نفسها مستلقية على السرير، وأمها الشابة بجانبها: «كل شىء على ما يرام يا حبيبتى، العملية تمت على أكمل وجه ولن تكون هناك أى عواقب...» لاحظت ڤيرا أن أختها آخذة فى الشحوب : «ليزا، هل أنت متعبة ؟ اخرجى من هنا، اذهبى لترتاحى ! أنت منهكة. اذهبى إلى الصالون، تمددى بعض الوقت على الأريكة... عددنا كافٍ هنا»...

بل هو أكثر من كافٍ، ڤيرا وابنها الأصغر چيريمى، كاتيا وابنها مارك... إن رافائيل، الابن الأوسط لكاتيا، هو الذى وضع جدول نوبات المرافقة العائلية منذ دخول

جدته إلى المستشفى. من الثامنة صباحًا حتى العاشرة مساءً. «مؤكد أن شقيقاتك مُحقّات فى إحاطة أُمّكن بهذا الحنان»، هكذا قالت رئيسة الممرضات لليزا. «ولكن إياكن والتعلق بالوهم، فربما تختار مريضتنا الابتعاد فى ذات اللحظة التى سوف تتغيبون فيها».«انظرى، إن ذلك كثيراً ما يحدث بين زيارتين، أو فى وسط الليل، حينما تكون العائلة قد غادرت...»

فهمت : إن الموت مثل الأب نويل - يأتى حينما لا ينظر الأطفال.

هبط الليل، أغلقت ليزا النافذة ولكنها لم تشعل الضوء، فالغرفة تبدو لها كئيبة، رغم جدرانها ذات اللون الوردى المبهج. كل شىء يملؤها شجنًا ، الأريكة بورودها الكبيرة البرتقالية، والمقاعد بجلدها البنّى، وحاملة المعاطف المُثْقَلة بالسترات وملابس المطر والمجلات القديمة المكوّمة فوق المنضدة المصنوعة من الحديد المشغول. رغم أن الفريق المعالِج قد بذل الجهد «لإضفاء المرح»، فالإعلانات السياحية فى كل مكان ، البحيرات الفيروزية، أكواخ القش وأشجار جوز الهند - الجنة بدون تعالٍ. العالم الآخَر المفتوح لكل الأرواح. كانت سونيا قد حذرتها عبر الهاتف: «المبنى مريح ولكن الفريق يبدو لى مجنونًا بعض الشىء - سوف ترين، أن قاعة الانتظار عندهم أشبه بشركة سياحة «الحدود الجديدة» : هيا بنا إلى الرحلة الكبرى ! الوِجهة غير معلومة!».

ليزا تفضل الجلوس فى الظلام. اقتعدت الأريكة وأرجعت رأسها للخلف : ماذا إذا كان هذا الغثيان والدوران الذى اعتراها مقدمة لنوبة صداع نصفى؟ الطامة الكبرى لو حدث ! لن تجد الراحة الضرورية فى فندق ستار هذا، بحى جرينيل، الذى حجزت لها كاتيا غرفة فيه ؛ تشعر وكأنك نائم فى الطريق: المرتبة وثيرة مثل الإفرين، والسيارات تمر فوق بطنك والمترو يسير على رأسك ! فى الظهيرة، سألت أباها الذى أسكنته كاتيا فى نفس المكان: «هل تمكنت من النوم أنت ؟ - نعم، لماذا؟». كانت أمها تقول : «أباكم يمكنه النوم ومؤخرته فى الماء !». كانت تغضب من قدرته على النوم العميق وشهيته الكبيرة: «إنه يأكل ويأكل، هذا يقززنى!».

كانت تغضب من الهواء الذى يتنفسه، من أنه سوف يحيا من بعدها. وكانت تسعى من خلال كل أنواع السباب، إلى أن تجعله يسدد ثمن السنوات الزائدة التى سيتمتع بها. لقد حاولت حتى العام الماضى أن تُنظّم مستقبله بحيث تعاقبه كما ينبغى. كانت تقول: «أبوكم أصبح أصم (وكان هذا صحيحًا) وبدأ فى الخرَف (ولم يكن ذلك صحيحًا). ضعوه فى بيت للمسنين فور رحيلى ... تملؤها العدوانية، والغضب. هل ستظل ساخطة هكذا حتى النهاية ؟ هذا الغضب فى صوتها، وهذا الضيق فى حركاتها وهذه الابتسامة المزدرية المفعمة بالكراهية ؟ وجهٌ لا يشبهها. لم تقطع ليزا ثلاثين ساعة من الطيران لترى هذا الوجه مجدداً.

الضوء، الضوء القوى والحزين فى الصالون الوردى، چيريمى الواقف على عتبة الباب هو الذى أضاء مصباح السقف: «آسف يا خالتى ليزا... لم أكن أعرف أنك... جئت فقط لأخذ معطفى، ماذا بك ؟؟ لست على ما يرام ؟ – بلى، بلى... إنه فارق التوقيت... وبعض الصداع النصفى على ما أظن، متى يمكننى فى رأيك أن أقبّل أمى؟ – فوراً. سأعيد أمى إلى نوازى (ڤيرا تقطن هناك عند بعض الأصدقاء).لقد رحل مارك، لم يعد هناك سوى كاتيا. ولكن توجد ثلاثة مقاعد، وهى لا تشغل إلاّ واحداً فقط، تعرفين ؟ أمامك الاختيار إذن...» هذه السخرية الباردة لأبناء ڤيرا.

ليزا تجمع أغراضها بسرعة ؛ من الأفضل عدم ترك كاتيا وحدها مع أمهن، ليست كاتيا بالشخص الأنسب بالقرب من مريض يحتضر ! نعم تملؤها حسن النية، ولكنها تفتقر تمامًا للحس العملى، إنها تتعثّر فى خطاها مع الواقع المُعاش، كانت أمهن قد حكمت عليها: « إنها لا تحسن التصرف»، «يعوزها الذوق فى ملابسها»، «عسراء اليدين»، «تغرق فى شربة ماء». جدتهن كانت تسميها بمَودّة «الخرقاء». كيف تمكنت «الخرقاء» من تربية أربعة أبناء، إنه لغز ! إنها تهرب من الواقع – ترفض شراء هاتف محمول ولا تطّلع أبدًا على رسائلها الإلكترونية، فى القرن الواحد والعشرين ! ولكنها لا تعيش على أية حال فى القرن الواحد والعشرين، إنها مُغرِقة فى الحنين إلى

الماضى.. لقد قرّرت وإلى الأبد، أن تُقيم فيه. إنها تبْرَعُ فى الرواية الريفية، من نوعية الأدب المحلى. وحينما تعود إلى عالم اليوم، يكون هذا لكى تعلّق، عند ناشر كبير، على مذكرات قديمة ومراسلات منسية – أوراق قديمة، شرائط زينة بالية وفساتين موروبة ومجاملات عفا عليها الزمن، هياكل عظمية تحادث هياكل عظمية. أختنا الكبرى خبيرة فى «رقصات الموت»، لقد خصّصت لها رسالة الماچستير : «فنون الموت فى الأدب الأوروبى فى القرنين السادس والسابع عشر». كاتيا لا تهتم بالحياة. إنها تحتمى منها خلف سواتر من الكلمات. غلطة من هذه ؟ هل هى غلطة ليزا ؟

حينما كانتا صغيرتين، كانت ليزا تحب كاتيا؛ أما كاتيا فكانت تعشق الحشرات، كان يمكنها البقاء لساعات أمام مناحل ميشا. وبدون أن تنصت أبداً إلى ليزا، أو حتى أن تراها، كانت تقول: «اذهبى للْعب مع سونيا!».

وفى إحدى السنوات، كانت خلية ضخمة من النمل قد استقرت على بعد خطوتين من مطبخهم، أسفل شجرة الزيزفون؛ وبعد الغذاء كانت «البِكرية» تذهب لنفض مِفْرش المائدة بالقرب من الشجرة، فتمطر الحشرات المسكينة بوابل من فتات الطعام؛ وعند عودتها من المدرسة كانت تذهب إلى هناك ثانية لكى تفتت فيها طعام العصرية، كانت الأخت الكبرى للنمل.

من المطبخ، كانت ليزا تنظر إلى كاتيا، التى كانت تنظر فقط للنمل. وهاهنا خطرت لها فكرة غريبة راحت تدور فى رأسها... وفى أحد الأيام، أمسكت بغلاية الماء الحديدية التى تتركها أمها فى جانب من الفرن الخشبى (لم يكونوا قد ورثوا بعد الساموڤار ولا سخان المياه)، ونزلت درجات سلم المدخل وسكبت الماء المغلى على طوابير العاملات السائرة، والثقوب، والحُفرات، والبيض. انتهت المأساة فى عشر ثوان، غرقت الممرات. واحترق النمل وسُلق نسلها الثمين – كانت البيضات المنفجرة تتتابع كحبات المسبحة على طول القنوات، خلف الجثث السوداء الصغيرة. وكانت لا تزال تُسمِع غرغرة الماء الذى ابتلعته أحشاء الأرض.

كانت ليزا ترقب فى انبهار نهاية العالم هذه. وفجأة، انقضت كاتيا عليها : «غلياً فى الماء، هل تدركين ؟ يا حقيرة ! يا حقيرة ! »، صفعات مزدوجة، صفعات بالجملة. صرخت ليزا. وجاءت الأم راكضة، ولما رأت الكبرى تضرب الصغرى، ضربت الكبرى: «تريدين أن تقتليها، أختك، قولى لى». كانت الضربات الخفيفة تتتالى على رأسها: «هيا غورى إلى غرفتك! سمعتنى يا كاتيا ! ولا حلوى لك بعد العشاء!».

وفى العشاء، كانت الحلوى كعكة بالفاكهة : وحاولت ليزا، التى كان غضبها قد انزاح، أن تشرح لأمها حقيقة الاشتباك الذى جرى بعد الظهر – أى ما «حدث» للنمل قبل التلاحم الختامى... وجاء التأثير معاكساً. قالت ماما: «هذه الحشرات كانت ستتسلل فى كل مكان، حتى فى وعاء السكر ! شكراً يا ليزاً لأنك قضيت على هذه الحشرات... فى العام القادم، سوف تُجنّبك كاتيا هذه المهمة : سوف ترش مبيداً حشريا على درجات السلم، وفوق الحصى وعلى طول الممر... لا أريد نملة واحدة بعد الآن حول هذا المنزل!».

وكانت تلك نهاية الموهبة فى علم الحشرات. واتجهت كاتيا إلى رقصات الموت... هل هى غلطة ليزا؟ هل الموت دائماً غلطتها ؟

«أمى حبيبتى، أنا ليزوتشكا». الزوار يعلنون عن أنفسهم وهم يدخلون الغرفة، ما دامت أن حبيبتى أمى لم تعد تفتح أعينها. ليزا تميل على الجسد الساكن وتقبّل الجبهة وتضع يدها تحت الأصابع المتشنجة وتنجح فى رفعها لبضعة سنتيمترات وتقبّلها، تقبّلها طويلاً إلى أن تشعر بالذراع بأكملها تستسلم. وتسأل بنبرة مرحة : «ها، كيف الحال هذا المساء؟». تنهيدة عميقة من أمها. ليزا تشعر بنظرة الغيرة من كاتيا إليها : هل هذه بإجابة ؟ إنها إجابة حقيقية ! وارتاحت «البِكرية» لكون كل شىء على ما يرام وانتهزت الفرصة للهروب. قالت وهى تربط وشاحها: «سأعاود المرور بعد العشاء».

وحاولت ليزا التى بقيت وحدها أن تواصل الحديث الذى بدأته باقتدار: «قال لى چيريمى منذ قليل إنه جعلك تشربين بعضاً من عصير العنب: هل كان طيبًا ؟» لا رد

فعل. وغيّرت الموضوع: «سونيا تلقت اتصالاً من ابنة عمتك، دونيز، تعرفينها... إنها في باريس. هل يسعدك أن تمر لرؤياك؟» لا تنهيدة ولا جز على الأسنان. لا شيء. ولمداراة ارتباكها، راحت ليزا تغيّر ماء آنية الزهور وترتب غطاء الفراش: «ألا تشعرين بالبرد؟»، وفجأة، قفزت الحقيقة في وجهها: السأم من الأسئلة، المحتضرون يسأمون من الأسئلة ! «هل أنت عطشى؟»، «هل تتألمين؟»، «هل تريدين أن أرفع لك الوسادة؟»، «هل تشعرين بالحر الشديد؟».

وجال في خاطر ليزا أننا لا نتحدث إليهم، ولكننا نضغط عليهم، نُضْجِرُهم بلا هوادة. ولكنهم لا يساعدوننا في حقيقة الأمر؛ إنهم يصمتون، وهذا الصمت، الذي نعرف أنه سيكوّن أبديا، يصيبنا بالجنون. كلمات حب، نريد كلمات حبهم الأخيرة. ولكنهم لا يقولون سوى «نعم» أو «لا». بل ولا يقولونها كثيراً ! وينطقون بها في شرود ! فقط لكي نتركهم في حالهم. كما لو كانوا مشغولين كثيرا في غير ذلك. كما يفعل الكبار حين يزعجهم الصغار وهم في غمار مناقشة جادة.

ليزا التي كانت في صِغرها، مثل شقيقاتها، طفلة مطيعة، تخلت عن «فرض نفسها». حتى إنها لم تعد تجرؤ على الاقتراب بشفتيها من الخد الأجوف واليد الخامدة... لماذا تُضاف للحياة هذه الشهور، والساعات، والدقائق التي لم تَعُدْ من الحياة ؟

تسير في ميدان جرونيل تحت المطر. كل خطوة تدق في رأسها : صداع نصفي رهيب ! لم تستطع حتى الانتظار لحين عودة كاتيا. تركت لها كلمة قصيرة على «دفتر الاتصال»، هذه النوتة التي وضعنها في الغرفة للتواصل بينهن : «صداع نصفي مريع. معذرة. سأعود للفندق لتناول الأدوية».

الرائحة هي السبب. فهي لم تعد تطيق رائحة المستشفيات منذ أمدٍ بعيد. وهاهنا، أمام والدتها، كان الأمر أكثر صعوبة. ففي هذا السكون، كانت تسمع صوت التي ما عادت تتكلم : «أنا هنا يا حبيبتي. لا تتحركي يا قطعتي الصغيرة. إن الجرّاح

سعيدٌ للغاية. لقد تفادينا الأصعب. انتهى الأمر، لن تكون هناك أى آثار. ولا واحد فقط». تعرف أن الصداع النصفى يُحْدِث بعض الهلاوس البصرية، ولكن ما جَدَّ هو الهلاوس السمعية !

تتقدّم، وجبهتها محصورة بين مشبكين من الصلب، فى حين كان المفروض ألاّ تتحرك وأن تغلق عينيها. إغلاق العينين بالذات... تسير قُدماً. المحلات أسدلت ستائرها الحديدية، وكلها تغطيها الألوان... وكذلك الأدوار الأرضية للبنايات. نزل الليل، والمطر ينسكب. وعلى الطوار، راحت هى تتقافز بين فضلات الكلاب. وترى كافة المخلفات من خلال الأكياس البلاستيكية الشفافة التى حلّت محل صناديق قمامة «البلدية». وأمام المحل الشهير، هبّات الرياح تكنس الأوراق المتسخة. إنها تكره هذه المدينة غير النظيفة، والتى تبدو اليوم شبيهة بالأقاليم. ولكن لم يكن فى مقدورها أن تنقل أمها إلى أستراليا، كما أنه لا توجد علاجات تخفيفية فى لاكروز. هذه الخدمات نادرة فى فرنسا، ويتعين أن يحجز المرء مكانه بها قبل أن يسقط مريضًا. أو أن يكون لديك من يتوسط لك : وفى لوى پاستير، كان لدى كاتيا واسطة. وهكذا أصبح على ليزا أن تحيى موت أمها فى غرفة بالدوش بفندق ستار.

حينما أبدت تحفظاتها على اختيار فندق ستار، بدت الدهشة على كاتيا : «إنه فى وسط المدينة. ثم إن خط المترو مباشر تقريبًا بينه وبين المستشفى... تغيِّرين الخط مرة واحدة، – هل رأيت الغرف؟ إنها كئيبة ! – اسمعى يا ليزا، لقد راعيت سهولة الوصول وكذلك سقف السعر. ولكن، إذا كان لا يناسبك، يمكننى أن أجد لك شيئًا أفضل وأكثر قربًا : الكونكورد بلافاييت، هل يناسبك ؟» أختها تعرف جيدًا أن ليزا أصبحت منذ ما يقرب من عامين، بسبب أمهما، ليست فحسب تعانى من فارق التوقيت، وإنما أيضًا من الحساب المصرفى المكشوف : إن التذاكر بين سيدنى وباريس قد «أتت» عليها بكافة المعانى. سوف تقْنَع بالسْتائر إذن – الستائر التى يغطيها التراب، وغطاء السرير غير النظيف، والحوض المخلوع، والصنبور الذى تتساقط منه القَطرات !

ڤيرا أيضًا لم تتعاطف مع معاناتها : «حاولى أن تنظرى إلى الجوانب الإيجابية للموقف : أن تتواجدى مع بابا فى نفس الفندق ، هذه فرصة جميلة ! سيكون بوسعكما أن تتعارفا !... فعلاً، فوالدها لم يهاتفها مرة واحدة فى أستراليا التى تقيم فيها منذ خمسة عشر عامًا. ولا مرة واحدة. ولا حتى الآن بعد أن مرضت أمهم وصار يبذل قصارى جهده. سونيا التى تريد إيجاد عذرًا له، تزعم أن البحارة ليسوا معتادين على استخدام الهاتف. بلا شك... ولكن ليزا تعتقد أنه لا يعرف رقمها، فهو لم يكن يعرف سنها وهى بعد صغيرة.

وتمضى سائرة فى الميدان. إنها تتألم، وتشعر بالبرد. فى سيدنى، يشرق النهار الآن، وغرفتها ومكتبها، يُطلان على البحر. وفى الغد، سوف يسألها ويليام عبر الهاتف، إذا كانت سوف تعود قريبًا، وإذا كانت تعتقد فعلاً أن أمها سوف تموت هذه المرة. وسوف تقول له : «نعم. أنا هنا من أجل ذلك!».

(٤)

اليوم الخامس بالمستشفى. حاولت الطبيبة طمأنتى هذا الصباح، حينما كانت أمى تصرخ أثناء تنظيفها، رغم كل «التخفيف» المسموح به : «لاتقلقى يا سيدتى، ليس ذلك بخطير... أتبعينى». وأخذتنى إلى صالون العائلات.

إن المعالجين بهذا القسم يقضون فى الحديث هنا مع الأقرباء وقتًا أطول مما يمضون بالقرب من المحتضرين فى غرفهم. يزعمون أنه مع اقتراب الموت، تحتاج العائلة إليهم. هم الذين يحتاجون للعائلة. يحتاجون للأحياء. علام الكذب ؟

تابعت الطبيبة وهى تجلس فى المقعد الوثير : «لقد بَدَوْتِ لى منفعلة منذ قليل فى البهو حين كنت تسمعين والدتك تـ...

بالأمس لم تكف عن الأنين طوال المساء...

ربما. ولكنها لا تتألم. ليس حقًا. هى تشعر فقط بقليل من... بشىء من عدم الراحة.»

هيا، لقد أحسنت الكلام ! إن جوقة المنشدين فى الخدمات التخفيفية أبطال فى التعبيرات اللطيفة: «أشخاص فى نهاية الحياة يشعرون بشىء من عدم الراحة ويبحثون عن مرافقين مثابرين من أجل الحب الأخير». صرخات ؟ لا شىء البتة : كانت أمك تشعر بالضيق لأن غطاءها لم يكن مشدوداً كما يجب - لو تعلمون لأية درجة هم غريبو الأطوار، إن محتضرينا هنا مزاجيون!

لا بد وأنها أحست بأنى لا أصدقها. فقد أرادت إظهار قدرًا أكبر من الإنسانية لكى تهدئنى. وضعت يدها على ذراعى - تكنيك آخر من علم «الملامسة » على ما

أعتقد، وتمتمت : «إننى أتفهم صعوبة ذلك على أخواتك، وعليك : فمن الصعب حتى فى سنكم أن تصبحن يتيمات... – يتيمات ؟ ولكننا يتيمات منذ زمن طويل يا دكتورة !»

إن السيدة أخطأت الفهم مرة أخرى. بدت مذهولة للوهلة الأولى، ثم اتخذت مظهر من يفهم وزادت من ضغطها على ذراعى : «أعرف أن أمكن قد ماتت بالفعل بشكلٍ ما بالنسبة لكن. لقد نقلت صديقتنا كارول (الأخصائية النفسية للقسم الوردى) إلى الفريق ما أفضيتم به إليها أول أمس : إنكن لم تعدن بقادرات على التواصل مع مريضتكن، إنها تصدكن عندما تُرِدْن تقبيلها أو الربت عليها. هذا سلوك يتكرر أكثر مما تعتقدن.» وانطلقت فجأة فى محاضرة نفسية عن الاقتراب والعبور ولكننى لم أكن أقصد أننا يتيمات «الأم»، كنت فقط أتحدث عن وضعنا كيتيمات «الأب». !

«اليتيمات» : هكذا كانوا يطلقون علينا فى المدرسة. لم أكتشف ذلك إلا فى الثامنة أو التاسعة من العمر. قبلها، كنت قد عرفت فقط أنهم يسموننا، فيرا وأنا «بالتوأم».

كنا قد التحقنا بالمدرسة فى نفس العام : كنا اثنتين، وكنا نعيش مع جدينا فى الطاحونة، ولكننا كنا قد أُلحقنا بالفعل بمدرسة كليراك، أنا بالمرحلة الابتدائية، وفيرا بالسنة الثانية من الحضانة. ومنذ الأسبوع الأول، راحت بعض الشرسات تحاصرننا بالأسئلة أثناء الفسحة فى الفناء : «لم لا توجد أختك بنفس الصف معك ؟ هذا ليس طبيعيًا بالنسبة لتوأم ؟ » «توأم؟ بالتأكيد : أليست قامتنا واحدة ؟ ألم نكن نرتدى ملابس «متماثلة» على الدوام ؟ » وأجبت على استحياء «ولكن أختى لا تشبهنى : إن عيونها زرقاء... – هذا لا يعنى شيئًا ! توجد توائم يُطلق عليهم توائم غير حقيقية، عيونهم ليست من نفس اللون. أنت توأم غير حقيقى، وأختك متخلفة عقليًا ! وصاحت الأخريات – نعم، أنتما توأم غير حقيقى ! ومتخلفات عقليًا !» ملاحظات ساخرة وجَلَبة فى كافة أوقات الفسحة...

ومن أجل إقناع مُضْطهِداتنا بأنهن مخطئات، اضطُررت للجوء إلى السلطة العليا: جاءت أمى لكى تشرح للصبيات، عند موعد الرحيل من المدرسة، أنه على عكس

المظاهر، فإن ڤيرا وأنا لسنا في نفس العمر، وأنني وحيدة من نوعي، وڤيرا واحدة من شاكلتها. ولكن لأنها لم تكف رغم ذلك عن حياكة فساتيننا من نفس الأقمشة، وشراء المرايل وأغطية الرأس لنا بالزوج، فإن رفيقاتنا ظللن على عادتهن في تمييزنا عن شقيقاتنا الأصغر بالقول صغيرات لوجيلاك والتوأم.

فيما يتعلق بـ «اليتيمات»، فقد عرفته في وقت لاحق : حينما جاءت ابنة أحد بائعي الصيني بأسعار مخفضة، كانت تسكن في الطرف الآخر من كليراك، للَّعِب في المنزل مع إحدى قريباتها. توقفت عند بطاقة بريدية موضوعة على المنضدة الملاصقة لفراشي: «ما هذا؟ – تمثال الحرية... أوضحتُ بنبرة استعلائية «في نويورق». وكنت، حسب ما يُحكي، وأنا في الثالثة من العمر، أرد على الأسئلة الضاحكة لأهلي: «أين يوجد أبوك؟» أقول: «في نويورق»، ذهب لجمع المال ». ولكن «نويورق» لم تُبهر ابنة بائع الصيني المنخفض الثمن، التي لم تكن تعرف الكثير عن الجغرافيا. ولكنها كانت مُتطفِّلة، نَهِمة لاكتشاف ما لم يكن أحد يريد إعلامها إياه : « ومن الذي يرسل لك هذه البطاقة ؟ – أبي.»

وكان أبي يبعث إلينا بالفعل، ثلاث أو أربع مرات في السنة، بطاقة بريدية جماعية («آنسات لوجيلاك»)، لم يكن نصها يتغيّر على الإطلاق : «مع محبتي. لوجيلاك». والمشاهد نفسها لم تكن تُعرِّفنا الكثير عن البلاد التي كان يرسو بها. فقد كان يلتزم بالرموز العالمية : يرسل لنا من ريو دي جانيرو هضبة خبز السكر أو جبل الكوركوفادو، ومن سان فرانسيسكو جسر البوابة الذهبية، ومن أثينا معبد البارثينون الإغريقي، ومن مارسيليا تمثال العذراء الأم الحنون، ومن نيويورك، دائمًا وأبدا، تمثال الحرية. وإذا كنا قد تفادينا برج إيفل، فذلك لأن السفن لا تبحر عبر نهر السين...

ومع ذلك، فإن تلك البطاقات التافهة التي تكاد تأتي من مجهول، كانت كافية لإثارة غيرة ساكنات الإقليم الأصليات، اللائي كان آباؤهن لا يبرحون مكانهم. وقد أدركت ذلك حينما صاحت في ابنة بائع الصحون : « إنك تكذبين. فبطاقتك ليست من أبيك، فلم يعد لكن أب : أنتن – وتوقفت برهة ثم أضافت إليها هاءً لإظهار احتقارها

– يتيمات». إذن كان بعض اللئام قد أشاعوا أن أمى أرملة ! وكانت المظاهر تضفى وزنًا على الشائعة : ففى المدرسة، كانوا يشاهدون جدى الذى كان يصطحبنا أحيانًا وكانوا يعرفونه اسمًا – الروسى، ميشا المحارب ؛ وفى المنزل، كانوا يرون أمى، المستعدة على الدوام للتخلى عن أوانيها لكى نتنكّر، فتُعيرنا غطاء الغسالة لاستخدامه كدرع أو المصفاة لتكون لنا خوذة. وكان يمكن أحيانًا رؤية جدتى، المُكوّمة فى أحد الأركان، ونظارتها على أنفها وغزلها فى يدها. ولكن، لا أب، أبدًا ! لا أثر له ! كنا بنات «الأرملة».

ومع ذلك، فقد كان القائد «الباشا» كما كان يزعم أنهم يسمونه على ظهر السفينة، يأتى إلى كليراك، فيما بين ميناءين، ولكن بدون البقاء طويلاً. فإذا كان فى عطلة، ويقضيها بالمنزل – «عند أمى» –، كان يخرج طيلة اليوم. فى الصيف، يذهب للصيد فى بِركة الطاحونة : كانت أشبه ببحيرة طولها عشرة هكتارات وعمقها عشرة أمتار يمتلكها جداى. وفى الشتاء، كان يخرج لاصطياد الظباء والخنازير فى غابات الهضبة. كما كان يخرج، فى كلّ المواسم، لمقابلة « أصدقاء» فى جهات عديدة. ما كنت أتخيل أبدًا أن يكون لبحار هذا الكم من الأصدقاء فى اليابسة. وفى منطقة ليست منطقته ! باختصار، كان لا يظهر فى العائلة إلا مرة أو مرتين فى العام، بل وكان يتمكن من الاختفاء خلالها... وبخلاف جارتنا فى البيت المواجه لنا، لويز – التى كانت فيما سبق تعمل فى إيصال الرواد لمقاعدهم فى ملهى لومولان روج، والتى أوقعها الزواج فى نجع بلاكروز وأصبحت أفضل صديقات أمى – أتساءل من كان فى كليراك يمكنه مجرد تصوّر وجود كابتن السفينة عابرة المحيطات.

لقد ربّتنا أمنا وحدها. ووفق مزاجها.

نحن أربع أخوات. بنات أولجا، لبضع أيامٍ أخَر. بنات بلا أب. نساء بلا رجال.

دعونا لا نبالغ: فقد كان لنا رجالٌ. جحافل منهم. ولكننا لا نحتفظ بهم. لسنا فى حاجة لهم.

ڤيرا تزوجت مرتين، وحصلت على الطلاق مرتين، بناءً على طلبها بالطبع. منحها زوجها ثلاثة أطفال. كانت تشعر بالود تجاهه، وهو أيضًا، ولا يزالان يحتفظان بعلاقات ممتازة : زوجان مثاليان. وفي المقابل، فقد كرهت زوجها الثاني سريعًا، وراحت تخونه بلا هوادة، ولكن بلا شوشرة. فمن باب الحذر الزوجي، والمهني على وجه الخصوص، (حيث ينبغي أن تكون خبيرة المحاسبات جديرة بالاحترام)، لم تكن تأتي بفعلها في «الجُوار» . كانت تختار في الموقع هؤلاء الذين سوف ترسلهم لمطارحتها الغرام في مكان آخر. منذ طلاقها الثاني، لا تزال مستمرة في ضبط حكايات عشقها على مواعيد القطارات. هناك خط واحد طويل للأسف : إنها تتفادى بريڤ، حيث يتوجّه كثير من سكان الليموزان لإتمام أشغالهم، وتصعد هي في اتجاه الشمال. تقابل عشاقها في شاتورو، وأحيانًا في ڤييرزون - المدينة أكبر-. وفي ڤييرزون، ليس هناك أدنى مخاطرة: فما من أحد ينزل هناك إلاّ الڤييرزونيون أنفسهم.

أما أنا فليس لدي هذه المخاوف : فأنا أرملة. أرملة وأربعة أبناء، مثل أمي. ولكنني أرملة معلنة. ولهذا مميزات. كان زواجي كارثة، وترمُّلي نعمة. حرّرتني السماء. نعم السماء ذاتها : حادث طائرة. كان زوجي تاجراً «دوليا». كان يسافر بلا توقف. وكثيراً ما كان سفره على خطوط داخلية، في بلاد غير متقدمة. وكانت حوادث الطائرات، النادرة من الناحية الإحصائية، تمثل في مهنته خطراً لا يجوز إهماله : وهو لم يهمله، فقد كان حائزًا لتأمين ضخم. إن حادث الطائرة يُعدُّ، من الناحية المالية، أفضل من حادث السيارة. كثيراً !

ومع ذلك فقد فوجئْت في لحظتها . هالني حزن أهل زوجي وأبنائي. ونسيت كل العذابات التي سببها لي «الفقيد» (صفة الفقيد هذه تنطبق عليه تماما : لقد اختفى، لا جثة - ميتة في غاية الحداثة)، وشعرت بأنني على استعداد لأن أغفر له كل شيء. ثم، وجدت في جيوب حُلله أشياء خفّفَت عني كثيراً ...

والسؤال الذى لا يزال يخامرنى هو لماذا، بعد تجربة أهلى الحزينة، اخترت أن أتزوج مسافراً : السفر مهنته، السفر موهبته. كنت أعرف أن هؤلاء الناس نادراً ما يعودون إلى المنزل !

أما ليزا فقد تزوجت متأخرة – بإنجليزى يقيم فى أستراليا. وقد تردّدت طويلاً – هل بسبب الزواج؟ أم بسبب أستراليا ؟ لم تتزوج سوى فى الثانية والثلاثين. بدون حفلات ولا موسيقات.

وبالنسبة لسونيا، فهى عزباء متشددة. وهكذا أصبحت الوحيدة بيننا التى نقلت اسم والدنا لابنها غير الشرعى فابريس، الذى رزقت به مبكراً جداً. وكانت أمى التى تولّت تربية الولد لسنوات طويلة، تقول لنا فى خبث : «لو سُئِلتُنّ يا بنات عمن هو والد فابريس، قولوا هم سادة لا تعرفونهم...». لم تكن راضية عن الانفلات العاطفى لأختى: علاقات كثيرة، فى نفس الوقت، وقصيرة – هى علاقات ليس أكثر. كانت سونيا تقول، بفمها الصغير كحبة الكرز وعيونها الزرقاء المخضرة (كانت رائعة الجمال فى ذلك الوقت)«بلى، بلى، فى الصباح، حين يرحلون، أُدرك أننى لا أعرف اسمهم...» ومما يُذْكر أن مستوى إدراكها كان قد بدأ حينئذٍ يتضاءل كثيراً بعد منتصف الليل. أمى لم تكن تريد أن تُقِر بذلك، ولكن لو كانت سونيا صاحبة مقهى، مثل ميشا، لكانت قد احتست كل ما فى محلها.

واليوم، فإن سونيا تعترف، فيما بيننا نحن الأخوات، بدون خجل (بدون خجل «طالما أنه مرض»): أن «لديها مشكلة مع الكحول». وما دامت لديها مشكلة مع الكحول، فإن لديها مشكلة مع مخدوميها. وما دام لديها مشكلة مع مخدوميها، فإن لديها مشكلة مع المال. سونيا «لديها مشكلة مع الكحول». وما دامت لديها مشكلة مع الكحول، فلديها مشكلة مع مقاس خصرها. وما دامت لديها مشكلة مع مقاس خصرها، فإن لديها مشكلة مع الرجال. إلخ... إلاّ إذا كان العكس ؟ أى إن سونيا لديها مشكلة مع الكحول لأن لديها مشكلة مع عشاقها، ورؤسائها، وبنكها، لا أعلم. إننا لا نتحدث

أبدًا طويلاً فى هذا الصدد. وأمى ليست على علم بذلك، لا تريد أن تكون على عِلم. لا نتحدث فى ذلك.

ومع ذلك، فإننى حين أعود «إلى البلد» للكتابة (فقد استعدت بعد وفاة جدينا طاحونة لاروش، وبِركتها الكبيرة وغاباتها)، أحب كثيراً الذهاب للتسوق فى ليموج أو كليرمون مع سونيا. بل وأحيانًا نذهب إلى أوبوسون ! وتتعجب أمى دائمًا من كونى أقيم فى باريس وأشترى أطقم الملابس فى أوبوسون - فهى لا يروقها شىء بسهولة، «تصعد»، (أقصد «كانت تصعد») إلى باريس لشراء ملابسها. وهى لا تفهم بالذات كيف لى، حين نذهب للفرجة على المحلات، أن آنس إلى رأى سونيا عوضًا عن ڤيرا : «ڤيرا أنيقة جدًا على الدوام، وهى أكثر حداثة منك. إنها على الأقل سوف تستطيع إرشادك بشكل أفضل. وهى فوق ذلك «ذات قوام لا يشوبه عيب».

هذا هو السبب إذن. ففى كبائن القياس، كانت سونيا مريحة أكثر. فبسبب شعرها المسكين و«خصرها الكبير». كنت أشعر فى التو واللحظة بأننى نحيفة وأنيقة. ولم يكن ذلك يكلفنى أكثر من أن أبتاع لها تى شيرت من أكبر قياس أو بلوزة صينية بعشرة يورو. كان وجهها يحمر قليلاً، ولكنها لم يعد لديها ما تستطيع معه رفض الهدايا. على أية حال، كانت أمى قد عودّتها منذ الطفولة، على أن تقْنَع، بالنسبة لملابسها ببقايا الآخرين : "فهى الابنة الثالثة « التى تُكْمِل ما تبقى من عمر الأشياء.»».

كم أود أن أغمر سونييتشكا بالجديد والناعم، أن أعطيها كل الدببة القرائية التى لم تحصل عليها ؛ كم أود أن أدلّلها... تزداد رقة مع رحيل الأيام... تقول ڤيرا : «إنها منفصلة عن الواقع، فى قمة الشرود!». نعم، ولكنها رقيقة. رقيقة مثل الفوطة القديمة المُنهكة. كانت أكثرنا أنوثة، أكثرنا وداعة، أكثرنا هشاشة. إذن هى أكثرنا يُتما، ما دام أهلنا لم يكونوا يحبون البنات.

(٥)

لم يكن أهلنا يحبون البنات، ولم يكونوا ليُخفونه، والدى بالأخص. فلنتفق بداية : إنه يتحمل النساء كلاً على حده، ويطارحهن الغرام، كما ينبغى لبحار عتيد أن يفعل، بل ويحدث أحيانًا أن يتعلق بهن : والدليل ما أفضى به فى المستشفى أول أمس حول حفل الرابع عشر من يوليو، إذن فإن النساء يمكنهن إرباكه... ولكنه يكرههن كجنس.

بل وأسوأ من ذلك : إنه يحتقرهن.ربما أثارت بعض النساء إعجابه، ولكن المرأة تثير اشمئزازه، كل ما فيها مقزّز، بداية من رائحة الأنوثة الشهيرة... ليس بالذى ربما يكتب ما خطّه هنرى الرابع إلى رفيقته : «أنا قادم، لا تغتسلى.». فى طفولتى، حين كان أبى يأتى «عندنا»، كان يتفوّه بمقولات حادة عن رائحة النساء، حين يشم مثلاً بالمطبخ العبق الكريه مثل النشادر، الذى يصدر عن سمك لم يعد طازجًا.... : «ما هذا الذى يفوح بالعفن هنا ؟ يا للقرف ! شىء مثير للغثيان ! كمثل رائحة الطفلة التى تهمل فى نظافتها». كانت عبارة «مثل رائحة الطفلة التى تهمل فى نظافتها» تخرج لأتفه الأسباب من الماسورات والحفرات العفنة... بل وكان كل ما تنتجه النساء، بما فى ذلك أدبهن، (نعم هو يقرأ)، يتميز برائحة عفنة : «كوليت؟(*)، إن لما تكتبه رائحة أسفل الذراع !»

لماذا كان للجنس الضعيف رائحة كريهة لهذه الدرجة ؟ لأنه مرتبط، ارتباطًا وثيقًا، بالبول : كانت البنات «شخّاخات، متبولات». لم يكن أبى يطلق علينا أبدًا اسمًا

(*) أديبة فرنسية كبيرة.

آخر، حتى وإن قالها بمحبة : «هيا، إلى السيارة يا شخّاخات!»، هكذا كان ينادينا حين يصطحبنا بالصدفة فى جولة بعربته السيمكا القديمة.

كان جسد النساء رطبًا، رطبًا ولينًا. الرجال جافون والنساء سائلة، يسلن من كل جانب. كان أبى يكره دموعنا : «اهئ اهئ ! هاهن الباكيات ؟». حتى وإن كان، تطبيقًا لنظرية الأوانى المستطرقة، يجد ميزة صغيرة للمظهر الخارجى للأحزان النسائية : فما يخرج من طرف لا يخرج من الآخر - «ابكى، سوف تتبولين أقل !» ولن أتكلم عن سيلانات أخرى، تطرأ من وقت لآخر، كان الرجال من جيله لا يكرهون التحدث عنها بضحكات قوية. ففى لاكروز، بعد أن يكونوا قد أكثروا من الشراب، فى نهاية حفلات العرس والمآدب، بين كعكة الزواج وكأس ما بعد القهوة، كانوا يطلقون على الملأ، أمام النساء، تلميحات مكشوفة عن إفرازاتهن الدورية - وكانت الفتيات الصغيرات تخجلن وتضعن رؤوسهن فى أطباقهن. وأحيانًا، حينما يجدن فى الأمر الطارئ فرصة لإطلاق العنان لأنفسهم، بحجة الخدمة التى سوف يؤدونها، كانوا يخطرون بصوت عالٍ السيدة الغارقة فى حرجها، بأن «الشىء قد تسرّب»...

إن جسد المرأة يتعرّق، يُسرِّب، يقطُر ويثير القرف.

ولم يكن أبى، الذى تزعجه كثيرًا رائحة النساء ومواسيرهن كلها، يقلّل من قيمة عقولهن. على الأقل ليس كرأى مُسبق. كان يطلب فقط رؤية ما يثبت ذلك. فقد تركنا نحصل على دراسات قوية، ولم يعارض محاولتنا خوض مسابقات كانت مخصصة للصبية. بل على العكس... هل كان يأمل فى أن تؤدى فى النهاية اللوغاريتمات والمعادلات اليونانية واللاتينية، إلى شفط سوائلنا وتجفيف ما يزيد منها عندنا ؟ لقد بات من حقى على أية حال، بعد الحصول على تقدير «جيد» ثم «جيد» وآخر، أن أُصبح وأنا فى العشرين أكبر أبنائه.

وصرت بعدها أصغر الناجحين فى مسابقة التدريس للمرحلة الثانوية والجامعية. أما «توأمى»، التى اختارت الأرقام لكى تتمايز عنى، فقد أصبحت من أوليات النساء فى

تدقيق الحسابات. نجاح مزدوج : وردى وأزرق، كما كانت فى الماضى أغطية رؤوسنا وستراتنا. غير أنه لم يُحتفل بأى من الإنجازين : أبى لم يكن هنا، وأمى لا تأبه بالشهادات. أو هى بالأحرى ترى أن النجاح، أى نجاح، يحمل فى حد ذاته مكافأته. إنها مربية بلا نقاط ضعف...

ومع ذلك فقد أقامت الاحتفال حينما انضمت ليزا، «آخر العنقود» إلى نقابة المحامين بليموج وارتدت لأول مرة روب المحاماة : إن القواعد تصيبها المرونة والمبادئ يعلوها الصدأ بمرور الوقت، حتى فى أفضل المؤسسات...

وفيما يتعلق بسونيا، فهى لم تتقدم بأى عذر لمخالفتها القواعد : فلم تحصل على البكالوريا إلاّ فى التاسعة عشر، وفى «دور الإعادة»، واختارت كلية الآداب التى تركتها قبل امتحانات التجربة فى فبراير – كانت قد اكتشفت لتوها أنها حامل.

ولم تجعل أمى منها كارثة : لا بد وأن هذه الحكاية كانت قد ذكّرتها بشىء ما... ثم أن ميشا كان قد توفى لتوه : كل شىء كان إذن موائمًا لملء الفراغ. طفل، ولم لا ؟ ونظمت الأم والابنة الأمور ؛ أخذت أمى الطفل، والتحقت سونيا بدورة تدريبية قصيرة: التجميل. واليوم، فإنها الوحيدة بيننا نحن الأربع التى تمارس «مهنة نسائية» – وسط القنينات، والكريمات، والرغى والعطور. وهذا لا يجبر والدى على الإعجاب ولا يمنح لشقيقتى سببًا حقيقيًا للوجود : « هل تعتقدين أن إزالة الشعر بالقرب من العانة من أجل رداء البحر يُمتِعُنى ؟» بالتأكيد لا، ليس أكثر من تلميع الشقة» ولا حتى، منذ عدة سنوات، من أن أتزّين... ولكن سونيا تنتكس، حين لا تستمتع...

كنا، فيما مضى، نقتسم أنا وڤيرا المتابعة المدرسية «للصغيرات» – كانت تُعنى بليزا وأنا أتابع سونيا. كانت سونيا فى عامها الثانى عشر حالة صعبة : فى الفصل، لا تسمع شيئًا، وفى المنزل لا تفعل شيئًا، وإن كان ذلك برقة شديدة ! كنت أساعدها فى تحضير امتحاناتها – أى إننى كنت أحفظ دروسها عوضًا عنها، كنت أمضُغْها لها، ثم أجعلها تبتلع ملعقة بعد ملعقة، هذا الحساء الجاهز للهضم. وكانت فى النهاية تردد

ما كرّرت عليها مراراً ولكنها لا تحاول الفهم. إلاّ ذلك ! وإذا ابتعدتُ ولو قيد أنملة عن «ترتيب الكلمات»، كانت ترفع نحوى عيونًا متساءلة. وكنت أُصمِّم. فيُسقَط في يدها، وتتحلّل... كانت تتمكن من الاختفاء بدون أن تتحرك، فقط بإخلاء عينيها الشاحبتين من الرؤية. ولكى أعيدها إلى ذاتها كنت أصفعها أحيانًا - مثلما يحدث مع امرأة تفقد الوعى. ولم تكن تصرخ، لم تكن تبكى. وتعود ببطء، إلى العالم، وديعة، أكثر وداعة، فى قمة شقارها، واستسلامها. لم تَصِح أبدًا طالبة النجدة، «أمى، الكبار يضربوننى !»، كما كانت تفعل ليزا طوال الوقت. كما أنها لم تعتب علىّ أبدًا قسوتى : كانت تعرف أنها استحقت العقوبات التى أُنزلها بها، تغفرها لى وتغفر لنفسها كل ما عدا ذلك. وعندما اضطُرِرت إلى الرحيل للالتحاق بدراسات أساتذة الثانوى والجامعة، سقطت هى فى القاع.

«هل تظنين أننى أعشق تطهير البشرة ؟ وتنظيف جلد هؤلاء المسنات ! والحديث طوال اليوم عن الجو أو عن مميزات مستحضرات النضارة وإزالة التجاعيد !». أعلم ذلك. يأتعاطف. خاصة وأنها اليوم أكثر أخواتى الثلاث ثقافة، أبرعهن فنا. فهى حين تكون على ما يرام، ترسم (كانت ترسم؟) بالسكين. مناظر طبيعية تحت الجليد، أشجار ميتة، أبيض، أسود... كان يمكنها السعى إلى عرض لوحاتها، البحث عن قاعات فنية لبيعها، أليس كذلك ؟ صاحت ڤيرا عبر الهاتف : «بالتأكيد لا. لأنها سلبية. عاجزة عن الرغبة فى شىء ! لا تستمر فى أى شىء. هل تعرفين أنها لم تعد حتى تحْضر اجتماعات الكحوليين المجهولين ؟ كيف سينتهى ذلك فى رأيك ؟ ناهيك عن أنها سوف تفقد عملها الجديد ! لك أن تتخيلى أن سيادتها قررت ارتداء الحذاء الرياضى في صالون التجميل : تصوّرى، بنطال الچينز والحذاء القديم مع البلوزة الوردية الأنيقة... وجّهتَ إليها رئيستها تحذيراً... كيف وصل بها الحال إلى كل هذا ؟ هذا الإهمال فى نفسها بعد أن كانت ملكة جمال فى الثالثة عشرة ؟ هل تتذكرين فمها الأشبه بثمرة الفراولة، ومؤخرتها الجميلة وما كانت ترتديه ؟ كانت أنثى حقيقية فى هذه السن...»

كانت لأمى نقطة واحدة مشتركة على الأقل مع أبى : لم تكن تحب البنات – كلهن مُزعجات، خوّافات و مائعات... كانت قد أملت أن تُنجب العديد من ميشا الصغار. كان ينبغى أن يكون اسمى إيڤان، أعادت ذلك على مسامعى مائة مرة. وكانت ڤيرا ستُسمى سيرچ، على اسم «ميخاييل سيرجييڤيتش» – سيرچ، ذلك الجد الأكبر للڤولجا، الذى لا نعلم عنه الكثير... آآآه، يمكن القول أننا خيبنا أمل أمنا كثيراً ! ولم تكن تخفى أسفها أبداً : «لقد بكيت لدى مولد سونيا، بكيت كثيراً، آه لو علمتم ! خاصة وأن الداية كانت قد قالت لى أثناء حملى الطفل ضخم جداً، سيكون صبياً هذه المرة»...

لا يزال أتذكر زيارتها إلى مستشفى الولادة حيث وضعت طفلى الأول ؛ كانت تشعّ فرحًا، وتأخذ الرضيع فى ذراعيها وتهنّنه، ثم تضعه مكانه، وتأخذه ثانية : «كم أنا سعيدة ! فرحة جداً من أجلك : صبى ! سوف ترين : ما من شىء أجمل من ذلك بالنسبة للأم : صبى، بقبضته الصغيرة، ووجهه الجميل، ونظرته المباشرة، وحنانه... البنت، هذا شىء آخر... أما الصبى، كم أنت محظوظة ! يا لها من سعادة !» كان تأثّرها قوياً لدرجة أننى لم أرغب فى أن أفسد عليها فرحتها بالإشارة إلى أن هذا المديح فى الصبية تقوله لابنتها.

وأعتقد على العموم أن «يتيماتها» الأربع قد فهمن جيداً ماذا كانت تنتظر : فلم نأتِ لها إلاّ بأحفاد.

(٦)

لقد أصبحت أمنا جدة فى السن الذى تنجب فيه سيدات الأعمال اليوم طفلهن الأول.

بعد مولد الابن الأول لسونيا جهّزت منزلها فى كليراك لاستقبال عائلة ثانية تخيّلتها فى جميع مراحل تطورها : حوّلت الصندرة إلى حضانة أطفال، بها مهد يُفتح ويُقفل، وجهاز تشغيل الأسطوانات وطاولة تغيير الحفاضات ؛ وفى الطابق الأرضى، غرفة الأطفال من ست إلى اثنى عشر عامًا – الأسرّة ذات الطوابق، وصندوق اللعب، وفى الدور العلوى عنبر نوم الكبار. وفى العطلات، كان «الباريسيون» أبنائى، يلحقون بأولاد ڤيرا وسونيا، الذين يقضون عند بابوشكا أيام الأربعاء وعطلة نهاية الأسبوع، حيث كانوا يقيمون على مقربة منها. بل إن بعضهم أقاموا هناك إقامة كاملة : فحين كان يواجه أحد الصغار مشكلة ما، كانت أمى تحل محل بناتها لإعادته إلى حالته الطبيعية.

وكلّفتها بابنى الأصغر رافائيل، الذى تم تشخيصه بمريض ربو منذ شهره السادس؛ وحينما أعادته إلى بعد عام، كان قد شُفى. أما فابريس، ابن سونيا، فقد ربّته حتى الثانية عشرة : فى البداية، لأن سونيا لم تكن قد انتهت من دراستها؛ ثم لأنها رحلت إلى مدريد وراء عشيق جاد؛ وبعد ذلك لأنها كانت تتأخر فى العمل وتطوف على الملاهى الليلية قبل العودة إلى المنزل.

غير أن أعظم إنجازات أمى كان ما فعلته مع چيريمى، أصغر أبناء ڤيرا. كان فى الثامنة عشر، ويدرس القانون الأوروبى فى ستراسبورج: ولم يكن خط ليموج–

ستراسبورج بمباشر، ودراسة القانون بمبهجة، والسُكنى فى « غرفة خادمة بقمرة علوية» بالشىء الممتع. وما زاد على ذلك، هو أن صديقته تركته ! كان ابن شقيقتى ينتحب كالطفل عبر الهاتف.

حزمت أمى حقائبها: وعاشت لمدة سبعة أشهر – حتى نهاية العام الدراسى – فى غرفة خدمية مساحتها عشرة أمتار مربعة. لم يكن هناك سوى سرير واحد، ولم ترغب فى أن تحرم منه «صغيرها»؛ فاكتفت بمرتبة على الطراز الصينى كانت تفردها كل مساءٍ : ورقدت لمدة سبعة أشهر كل ليلة على الأرض وهى فى الخامسة والستين.

وفى أثناء النهار، حينما كان ابن أختى يذهب لمحاضراته، كانت تقوم بزيارة ستراسبورج («محظوظة أنا، المدينة جميلة وأقضى وقتًا ممتعًا»)، وتُزيِّن الغرفة: مرايات لاصقة لعكس النور الآتى من القمرة العلوية؛ غطاء سرير خاطت قطعه بنفسها؛ لمبات ومخدات صغيرة (كانت تعشق المخدات الصغيرة) بل ونخلة أيضًا («حتى يشعر، صغيرنا، أنه جالس فى حديقة !»). وفى عطلة نهاية الأسبوع، كانت تصطحب چيريمى إلى الريف: «إنه يحتاج للهواء الطلق ولإخراج طاقته... – وأنت يا أمى ؟ – أنا، تؤلمنى ركبتى، لا بأس! إننى أضغط بعض الشىء على نفسى! إن ظهرى هو الذى يؤلمنى أكثر على العموم... ولكن إذا اتصلت ليزا، لا تقولى لها أننى أرقد على الأرض! إنها دائمة القلق على. ثم أنت تعرفين، فهى ما دامت بلا أطفال، لا تتصور أن صبيًا فى هذه السن يمكن أن يرتكب حماقة !»

وفى المساء، حين يعود چيريمى من كليته، كانت تصحبه للعشاء فى المقاهى، بل وتقترح الذهاب إلى السينما، شوارزنجار وتوم هانكس، وهى التى كانت تبغض الأفلام الأمريكية! وحينما كان يجلس على المقعد الوحيد بالغرفة لمراجعة دروسه، كانت تستلقى على السرير وتنكب فى صمت على غزلها: «ولكنه يشعر بوجودى، فهمتى، وهذا يُشعره بالطمأنينة. وأعرض عليه بعض الشاى الروسى، مع قطعة من الكعك. والمربّات المنزلية، القادمة من كليراك... اشتريت له جهاز تحميص الخبز، ولن تصدقى،

بل وميكروويف أيضًا! هذا الشيء المخيف! ولكننى لم يكن أمامى اختيار آخر، ففى هذه الأمتار العشرة، أصبح الآن فى إمكان الصغير أن يتناول على الأقل طعامًا ساخنًا... تخيلى ماذا فعلت أول أمس: نظّفت الدوش الجماعى ودورة مياه الطابق! لم يكن هذا بالمهمة السهلة! وقد جاء سكان الطابق وقدموا لى الشكر. وكانت فرصة لكى أتعرف على برتغالية شابة تقطن فى الغرفة المواجهة. «سأدعوها يوم السبت لعشاء صغير نتناول فيه الفطائر اليونانية بشرائح سمك السالمون.». ولم تعد أمى إلى كليراك سوى بعد اجتياز امتحانات العام الأول ونسيان أوجاع القلب فى أحضان البرتغالية. وبذا تم اصطياد عصفورين بحجر واحد: فالحب الجديد ضاعف من مساحة سكن «الصغير» – وربما كان ذلك ما انتظرته جدته...

كانت بابوشكا مُحِبّة. وإن كان على الطراز القديم: معطاءة وفاعلة، كما يقولون فى الريف، ولكنها ليست بكثيرة الكلام. كانت نشيطة، ودائمًا على استعداد للمساعدة، فلم تكن تضيع وقتًا فى كلمات حنونة أو «تبادل القبلات»: كانت تفعل ما يعود بفائدة. وبذا، حين لم تعد قادرة على الحركة، حينما أعجزها المرض عن الفعل، بدا حبها، الذى ما عاد يستطيع أن يعبِّر عن نفسه بالحركة، كما لو كان متردداً. ثم تساقطت أوراقه، واختنق واختفى.

منذ ما يقرب من عامٍ وهى بلا علاقات مشاعرية مع أحد. إنها صامتة، مغلقة العينين، تتنهد. حتى أحفادها المفضّلين (مارك، فابريس، رافائيل وچيريمى) لم يعودوا بقادرين على أن يجدوا السبيل لقلبها. أتذكر قسوتها إزاء سونيا، التى كانت، رغم عملها، تتصرف فى بداية الصيف بحيث تحضر إلى كليراك مرتين فى اليوم لكى تدلّك لها قدميها – كنا حينئذٍ نعيش فى ظل خطر حدوث قرحة فى كعب الرجل (نعم أقول«كنا » وأقول «خطر»، لأن حياتنا فى تلك اللحظة كانت معلّقة بحياة أمنا، وكل شىء كان يدور فى فلك جسد أمنا الهزيل والخَرِب). وفى أحد الأيام، سألَتها سونيا، التى كانت ساجدة على ركبتيها أمام الإمبراطورة جامدة الشعور، بعد أن انتهت لتوها من جلسة التدليك الذى تجريه لها مرتين يوميًا لمدة عشر دقائق، والأمل يملؤها: «هل

شعرت بالراحة ؟ ، أجابت الملكة وهى تهز كتفيها – بففف...!». وحينما أحكى لڤيرا عن مواقف من هذا النوع تعترض: « إنها ليست هكذا مع الكل على العموم! لا، ليس مع الكل!» والمعنى الضمنى : «ليست هكذا معى؛ أنا التى أعرف كيف أحبها.» أى بقول آخر : أمنا لا يزال يمكنها أن تحب من يعرفون كيف يحبونها ... إن ڤيرا تمنح أمى حباً كثيراً لدرجة أنها فى النهاية تتخيل أنها تتلقى منها حبا.

(٧)

في الغرفة في لوي-باستير، موعد التنظيف وخدمات العناية المسائية، والتي تستغرق وقتًا أطول مع الأيام وتزداد إيلامًا. يُخرجونني ويطلبون مني الانتظار في الطرقة. أحيانًا، ورغم كل شيء، أسمع أمي تصرخ، لكن صيحات المُحتضر في الغرفة المقابلة، تغطي اليوم على صرخاتها. سمعت من قبل الصوت المميّز، العميق، لهذا الرجل: بالأمس فقط، سمعته من خلال الباب، يتحدث مع أحد زائريه - صوت قادر على أداء دور القائد في أوبرا دون چيوڤاني... ولكنه اليوم لا يغني، إنه يصرخ. يصيح في نفس واحد طويل. ولا أتبين إلاّ بعد حين كلمة «الضوء».

إنه يطلب الإضاءة. هل أظلموا غرفته مبكرًا هكذا؟ أمر مستبعد. عمومًا لديه على الدوام جرس يُمَكِّنه من استدعاء الفريق المعالج أينما كان: فحين تضغط الجرس في إحدى الغرف، تضيء لمبة حمراء في كل الغرف الأخرى. ماذا إذن؟ ولكي أحسم الأمر، أغلقت نور الطرقة لثوانٍ: الضوء يتسرب من أسفل باب حجرته. شعرت ببعض الراحة: إنه مريض يهذي تحت تأثير المورفين. هذا أمر تافه، هنا.

وعدت للجلوس وأمسكت بصحيفتي مرة أخرى. لكن الصرخات استمرت، أقل تواترًا، ولكنها ما زالت مرتعبة. وفي النهاية، قمت بإزعاج الممرضات: «يوجد رجل، قبالتنا هنا، في القسم... إنه يطلب نورا. على الرغم من أنني أعتقد أن غرفته مضاءة.» وهُرع المعالجون؛ وسمعتهم يكلمونه، ثم الهياج، وصفيرًا مستمرًا: يعطونه الأوكسيچين. هذا هو إذن: الأوكسيچين. كان يطلب ضوءًا، ولكنه محتاج إلى الهواء، كان يختنق - إنه سرطان الرئة بلا شك. «المراحل الأخيرة»، بالتأكيد.

كان يطلب النجدة، ويريد أن يقول «هواءً»، ولكنه يقول «ضوءا». ففى ليل البشر، كل ما هو جميل اسمه «ضوء»، كان ينبغى أن أفهم.

وفى الصباح التالى، كان باب غرفته مواربًا لبضعة سنتيمترات: لقد أدرك الفريق أنه لم يعد فى حال يسمح له بالضغط على الجرس؛ وعبر الفتحة أسمع الأزيز المنتظم للتنفس الصناعى، وأتخيل الأنابيب والأسطوانات – إنه لن يتكلم بعد الآن.

فى اليوم بعد التالى، الباب مفتوح على مصراعيه، والسرير مرتب من جديد: لقد رحل.

«هل تحب أُمُّكن أن أضع لها بعض الموسيقى؟» الممرضة التى توجه السؤال جديدة فى القسم، ويبدو أن الصمت السائد فى الغرفة الوردية يثقُل عليها. إن الغرف هنا مزوّدة بأجهزة راديو وتشغيل السيديهات... وفى البهو أيضًا: سمعت لتوى، وبأعلى صوت أحد ألحان السيمفونية الخيالية – نعم، وهو عملٌ رائع فى نهاية الأمر. ولكن، إذا كان المريض عالمًا بعض الشيء بالموسيقى، فإن هذا الاختيار ليس من شأنه أن يرفع من حالته المعنوية !

وعادت الممرضة للهجوم: «إذا كنتن لم تُحْضِرن أسطوانات، يمكننى أن أفتح لها إذاعة الموسيقى الكلاسيكية...» غير أن الإذاعة الكلاسيكية ليست بالنوع الذى تحبه أمى. لو كنت أنا لأحببت الإذاعة الكلاسيكية. لكنتُ أحببت فعلاً أن أستمع إليها فى لحظاتى الأخيرة. هذا ما أعتقده على الأقل. إن الموسيقى ليست صوتًا، فهل يمكن أن تثير الضجر أثناء الموت ؟ يبدو لى أن كل أنواعها كانت ستساعدنى، الموسيقى المقدسة، والدنيوية، البيانو، الجيتار، الكونشيرتو، المازوركا، القداسات، بل وحتى تراتيل الموتى ! ولكنى مخطئة بالتأكيد: فالموسيقى التى كنت أستغرب أن أمى لا تشعر بالاحتياج إليها فى الشهور الأخيرة، الموسيقى ليست ضرورية إلاّ للذين يموتون وهم فى أتم صحة – كالمحكوم عليهم بالإعدام مثلاً، الذين جرت العادة أيضًا أن تُقدّم لهم سيجارة أخيرة. ولكن هؤلاء الذين يموتون من التعب والاعتلال فى جوف سريرهم،

هؤلاء الذين لم تعد لديهم أية قوة، أو شهية، من غير المجدى أن تعرض عليهم سيجارة أو سيمفونية: فقد انفصلوا منذ زمن عن ملذات الحياة الصغيرة وأكاذيب الفن الكبرى.

وفى كل الأحوال، فإن ما كانت تحبه أمى هو موسيقى الروك، كما رحت أشرح للممرضة. ولم تُبْد المرأة بالرداء الأبيض تصميمًا: فالاستماع إلى مقطوعة روك على مدار الساعة المجنونة (يا إلهى، كم أحبت أمى الرقص)، وأى موسيقى لكبار عازفى هذا النوع، سوف يزعج بالتأكيد هدوء «الجيران فى الطابق».

كيف يمكن إذن قطع هذا الصمت ؟ أكاد أسمع الطبيبة النفسية بالقسم ترد قائلة: «ولماذا ترغبين فى قطعه، هذا الصمت ؟ إن التواصل يتم بنفس الدرجة من خلال الحركات وتلامس الجلد...» ربما، ولكن أمى ترفض ربتاتى ! لا تريد أن أمسك بيدها ! ما سبب هذه الفكرة البالية عن العجوز الطيب والمريض المؤثر ؟ الحقيقة هى أن المحتضرين ليسوا سعداء !

وعلى العموم فإن أمى لا تزال معتدلة جداً فى تعبيرها عن حنقها: فهى تكتفى بغلق عينيها وهز أكتافها وصد يدّى. أم واحدة من صديقاتى لم تكن بهذا الحنان: كانت «تتواصل» مع أبنائها بقرصهم حتى ينزفوا.

عموما فإن أمى محقة فى أنها لم تعد تتحمل أن ألمسها: فأنا مشحونة أكثر من اللازم، وأراهن أن بإمكانى أن أنقل إليها شحنات كهربائية عن طريق لمسها. فأنا دائمًا متعجلة للغاية: أنا ما بين قطارين؛ وبين كتاب صدر وآخر فى سبيل الصدور؛ وبين مؤتمرين... «قلقة» و«مضغوطة»، كما يقول أبنائى. فى حين أن شديدى المرض يكونون شديدى البطء !

ڤيرا أكثر هدوءًا، هذا حقيقى، إنها تتصرف بدون عُجالة، حركاتها واثقة وصوتها رزين. أما ليزا، فزياراتها بالنسبة لأمى بمثابة حفلات تقرع فيها الأجراس مثل الأعياد الدينية...

أبحث عما قد أعرف عمله أنا ويعجب أمى. ولا أجد.

أعرف القراءة بالطبع. وددت لو أقرأ لها شيئا : فسوف تسمع صوتى، وتفهم أنها ليست وحدها، وتشعر بالاطمئنان؛ بل وربما أحست بموسيقى الكلمات، بل وبمعناها، إن لم تكن منهكة تمامًا؟ يمكن أن أقرأ لها قصائد. قصائد بلا بلاغة. بسيطة، ناعمة وخفيفة. مثل همس الشلال الصغير عند طاحونة لاروش، هذا الهمس المستمر عند مصب بِرْكتى: ليل نهار، شتاء وصيفا، مجرى الماء... أو الإنجيل. بعض المقتطفات المختارة. لا مواعظ: نشيد الإنشاد مثلا.

لا. لن أقرأ لها شيئًا. أمى لا تحب الكتب. اعتقدْت طويلاً أن القراءة هى ما لا تحب، حل شفرة الكلمات. أهدَيْت لها كتبًا مسجلة، كنت أختارها قصيرة وشيقة، يتلوها ممثلون جيدون: ولم تكن تفض حتى ورق السلوفان الذى يغطى الأسطوانات. لا شىء، لم تكن تنتظر شيئًا من الروايات، من المذكرات، من المراسلات. الاعتراف بالواقع استغرق منى وقتًا طويلاً: أمى لم تكن تحتاج الكتب...

جالسة فى صمت على رأس فراشها، أتساءل عما تحبه أمى – ماذا كان أسلوبها فى أن تخلق شيئًا، فى أن تتلقى وأن تعطى. وفرَض الجواب نفسه: متّسقًا مع الإدراك السابق: أمى تعشق كل ما يُضْجِرنى – الطهى والحياكة.

بالنسبة للطهى كانت عبقرية. لا كتاب وصفات – ما من كتاب أبدًا، كراهية لهذه العلب المستطيلةِ الصغيرة المليئة بالأوراق الجافة! لا شىء من ذلك عندها، إنها مسألة مبدأ! إذن بدون كتاب كانت تبتكر. تبتكر وفقًا للأدوات المتاحة لها، والبهارات الموجودة فى خزانتها، والبواقى التى يتعين الانتهاء منها: كانت تقول وهى تضع الكسرولة على المنضدة: «احتفوا بهذا الصنف، احتفوا به فلن ترونه مرتين !» وكانت تضحك، فهى عاجزة بالفعل عن ذكر المقادير أو تذكر المكوِّنات: فهى، مثل أمها من قبلها، أمها أمام أفران القهوة، تطبخ بحدسها. كانت تخلط، وترش، وتعجن، وتخفق وتشعل... وكانت فرحة العيد! إلاّ إذا كنا ذاهبين إلى المطعم: كانت تردد

قاطعة «يا للطعام السيئ، ويقول إنه طباخ هذا الشخص. يا للسوء. كل شيء «مُلْصق» بالقشدة الطازجة! لا نستطيع القول إنه يضع اللحوم في كل الأصناف: فهو صنف واحد دائماً !»

حتى حينما ازداد دخلي وكنت أدعوها إلى مطعم بمستوى النجمتين، كانت لا تكف طوال الأكل عن التحليل والانتقاد – بعض الموسيقيين «أذنهم خارقة»، وأمي كانت ذات حاسة تذوق خارقة: «الطرخون زائد... يجب إضافة بعضا من الثوم... إن غمْس الشيء ليس إغراقه...» ثم تتوقف فجأة: «بذرة ! وجدت بذرة ! فيم يستخدمون المصفاة إذن ؟ ها (وترفع يدها مطالبة بالصمت). وهاهنا بالعكس، شيء طيب (كانت تتناول ملعقة أخرى من الصلصة وتغلق عينيها)، لقد أضافوا قطرة من شراب الأرمانياك في نهاية الطهي. انتظري، هناك شيء آخر (وتتناول ملعقة أخرى)، وجدْتها! (كان وجهها يضيء)، لقد أذابوا في صلصة الفلفل عصير زبيب ! هذا بارع. ألم تشعري به؟» لا، لم أكن أشعر بشيء، ولكني كنت أصدقها.

نفس القصة في الحياكة، كانت تؤكد : «إن الأناقة في القَصّة، وأنا أجيد القص.». كانت تمسك القماش بيد قوية، «وتشْرع في العمل» باليد الأخرى، بثقة الجراح الكبير، تاركة المقص يجري عبر جلد الساتان. وبعد تشكيل الرداء، كانت تجعل الطفلة تدور أمامها بالرداء الذي شبّكت أجزاءه بالخيط السميك: «إنه ينسدل بجمال، أليس كذلك ؟ هيا قولي إنه أنيق : نعم، كان يمكن لأمك أن تبْرع «كمقص دار» !... وكل ذلك يا صغيراتي بست فرنكات ونصف من اللوازم !» وحول ماكينة الخياطة، التي كان يخرج منها أمتار من القماش الذي تخترقه الدبابيس، كنا نعيش حياة أشبه بالحياة في ورشة الرسام: على هامش التحفة قيد الإبداع. كان للفنانة مصدرا فخر رئيسيان: فساتين الرقص، المبتكَرة على الدوام، وبلدكاناتها المصنوعة من التيل. إن حياكة بلدكانة من الطراز الستيل تُعدُّ مهمة خارقة لا تقل عن خوارق هرقل الاثني عشر. كانت تقول : «إن حياكة الستائر وأغطية السرير مملة ولكنها سهلة، خاصة من القماش ذي اللون الواحد. ولكني، في المقابل، كم عانيت في صنع بلدكاناتي ! كل هذه الفستونات،

والكسرات، والعليقات والشرائط ! لو صنعها منجّد لطلب مقابلا هائلاً. يقولون اليوم يا بناتى الصغيرات إن العائلة يلزمها مَصْدَران للدخْل: وأنا أحقق هذا الدخل بما يزيد بكل ما أوفره على أبيكم من مصروفات البلدكانات !»

أمى الساحرة: خارقة فى الآتلييه وساحرة فى المطبخ... هل يُعقل أن تكون ابنة أم كهذه تستطيع بالكاد أن تعيد تثبيت زرار أو أن تُحمِّر دجاجة ! كنت وأنا فى الثانية عشر أترك لها مهمة إكمال «دروس الحياكة» التى كانت المُدَرسة تفرضها على: الفستان الصغير ذى السموكس والقلنسوة المطرّزة... وفى الأربعين، كنت أقبل بامتنان برطمانات «الحساء الحقيقي» و«الفاكهة المطبوخة الحقيقية» و«الأطعمة المحفوظة الحقيقية»، التى كانت تطهوها فى منزلها وتنقلها فى صندوق السيارة حتى لاروش (وأحيانًا حتى باريس !) وتُرتِّبها فى ثلاجتى بعد أن تلصق على الغطاء ورقة بتعليمات الاستخدام. لأنه بدون تعليمات مكتوبة وتفصيلية، فإن الابنة الكبرى ستعجز عن معرفة أن الكمبوت الطيب يؤكل فاترًا وأن الأطعمة المحفوظة تُسَخّن بنقع إنائها فى كسرولة من الماء الساخن... «انتبهى يا كاتيا! هل تُصْغين إليّ؟ كاتيا، هل فهمتِ ؟» مسكينة أمى التى لم تكن تستحق أن تُفضّل إحدى بناتها الكلمات المتقاطعة على الأطعمة الدنيوية !

ڤيرا

لوي-پاستير، الطابق الرابع، غرفة «القرنفل»، الخامس عشر من ديسمبر.

هذا الصباح، تزيّنت ڤيرا وصفّفت شعرها بعناية، «لكى أُشرِّف أمى». فلو أعادت المحتضرة فتح عينيها، سوف تلوم الابنة نفسها لأنها جعلتها تشاهد منظراً بائساً: فالمحتضرة كانت تحب الجمال والأناقة، بل والجرأة. فلتحمل على الأقل من نظرتها الأخيرة للعالم الذى سوف تتركه، صورة من التناغم: ابنتها على رأس سريرها، وسيمة أنيقة المظهر مثل البائعات فى محلات كارتييه...

وفى نوازى، فى الحمام الصغير جداً عند أصدقائها، فرّشت ڤيرا شعرها طويلاً، ثم بحركة من أطراف أصابعها، نثرت خصلاته. كل شىء يذهب إلى مكانه بسهولة. تضع أقل القليل من الدهان الصاقل. إنها تحب التسريحات المَرِنة، والقصّة المربعة التى تجعل شعرها يتحرك حول وجهها. شعرها جميل، ومطيع كما كان فى الماضى حين كانت أمها تستمتع بجَمْعه فى شكل ذيول أحصنة غير متماثلة الطول أو تلُفُّه حول أصابعها فى دوائر إنجليزية. بل إن شعرها ازداد كثافة عما كان فى السابق، ولكنه أقل لمعانا. الخيوط الذهبية تحوّلت إلى الفتلات الشقراء؛ لامتزاج الشعرات البيضاء بها بشكل متزايد.

تمشى بحذر على أطراف أصابعها لعدم إيقاظ أمها التى تبدو نائمة، وتتسلل إلى ركن التجميل الوردى بالغرفة الوردية وتقف أمام المرآة، وترفع خصلتين أو ثلاث وهى تنظر بضيق إلى الجذور على حافة جبهتها. حينما كانت أمها تنظف وجوه بناتها قبل ذهابهن إلى المدرسة، كانت تفخر بصفِّهن أمامها: «روسياتها الصغيرات» الثلاث،

«شقراواتها الصغيرات» (لا بأس بكاتيوشا الخمرية)، وتقول وهى تستمتع بشقارهن مختلف الدرجات: «إننى أراجع سلسلة الألوان»... إن الأم ذات العيون المغلقة لن ترى على الأقل شقراواتها يسقطن واحدة تلو الأخرى فى الرمادى البائس. ذلك أن ليزا نفسها بدأت تبْهتُ: فشعرها الأشقر الفاتح الذى كان، أصبح الآن رماديا. حينما كنّ صغيرات، كانت الأم تقول: «لكى أضبط أشقر هذه، وضعت عصير الليمون فى الصلصة !» انتهى زمن الليمون. إذ تبدو ليزا تحت بعض الإضاءات كما لو أنها وضعت بودرة النشا.

لون شعر سونيا هو الوحيد الذى نجا. فهو بشقار يشبه ألوان الرسام روبينز، بمزيد من السخونة. وكانت الأم تشرح قائلة: «لقد أبقيتها طويلاً فى الفرن، ولدى نهاية النضج، خطر لى أن أغطى كل شىء باللون الأشقر المحْمر – خمسون جرامًا من الزبد، وستون جرامًا من الدقيق ونصف لتر من الحساء : انتبهوا يا بنات، ينبغى إذابة الزبد فى الإناء مع عدم تركه يَسْوَد، وإضافة الماء للدقيق فور أن يحْمَر ! لقد غَرفْتُ سونيا بعد أن استوت وصارت جاهزة للأكل....»

كن يعشقن هذه الحكاية. مع أمهن، كل شىء «يتحول لبطن»: كل شىء يأتى منه وكله يرجع إليه.

ڤيرا تتذكّر: فور أن تفتح باب الدخول فى كليراك، يبتلعها ستار من البخار الفاتر، ويكون الضباب ملتصقًا بزجاج النافذة، وهى توابع أعمال الطهو الطويلة والخبيرة التى تتم فى المطبخ. خليط من الحساء بالنبات، وشمع النحل وزهور البرتقال. رطوبة ناعمة تغطيها بروائحها المسكّرة وهى تسير بدون صوت فوق سجاد سميك فى اتجاه «قُدس الأقداس» : البوتاجاز من طراز سيمنز بالتوزيع الحرارى المضغوط، والإبطاء الخاص بعمل كعك السوفليه الخفيف وصاجة البيتزا.

ومن أجل طرد بقايا عطانة الكرنب أو البصل، كانت الأم تشعل هنا وهناك شموعًا معطّرة، أضواء بألوان العنبر. لم تكن تُخرج من الغَبَش سوى مقعد واحد، أو لوحة واحدة أو قطعة واحدة من هذه الأيقونات الصغيرة التى جمّعتها بالصدفة من

أسواق الأشياء المستعملة – علب روسية صغيرة، علب النشوق القديمة والبيض المرسوم. وفى كل ركن، فى أصص من عجين الخزف، زهور سعيدة، نضرة ومتفتحة: أعواد الصليب، والتوليب، والكاميليا.

ثم النباتات أيضًا، فى صفوف بالمدخل، والممر، والطرقة، والصالون، كما لو فى المشتل. كانت الأم تأخذ عندها نباتاتهن المريضة، «فى ضيافة كاملة»، كما كانت تفعل فيما سبق مع أبنائهن فى فترات النقاهة. حينما تجاوز أحفادها سن الجُدَرى، كرَّست رعايتها لشجرات التين الشاحبة ونباتات أُذُن الفيل المُنهَكة. كانت لديها موهبة التعامل مع الخُضرة، طَرْح الأرض؛ فحوّلت نباتات السرخاس والمطاط طابقها الأرضى إلى مشتلٍ زجاجى للنباتات القادمة من بعيد؛ وتوارت النوافذ وستائرها خلف غابة من الأنثوريوم.

ڤيرا لا تحب كثيراً الحدائق الشتوية؛ ولا الزخارف (كل شىء عندها رزين، غير زاهٍ، ولونه بيج: إنها من أنصار الأقل أكثر، فهى تناصر الخط المستقيم، والخشب الخام والأثاث السويدى) ؛ ولكنها تحب، أو كانت تحب، منزل أمها، ولم تزل تحتاج وهى فى الخامسة والأربعين، للعودة كل أحد «لمنزل ماما»، لكى تأكل أطباق ماما»، بل ولتنام فى «فراش ماما»، حينما كان أولادها يمضون عطلة نهاية الأسبوع عند زوجها السابق.

كانت أمها تقول لها : «انظرى إلى نبات الفيلوديندرون هذا، الذى كان چيريمى يعتقد أنه مات، لقد أعطيته سماداً وضوءا، وها هو قد عاد من جديد! لا أكف عن نقله من أصيص إلى آخر، ولكنه يكبر كثيراً بحيث لم أعد قادرة على «حمله»، قولى لابنك أن يأتى لأخذه، إن الأمر لا يحتمل التأجيل. وهذا اللبلاب ؟ لقد كان مُصفرا تمامًا. سونيا كانت تريد التخلص منه، وأنقذْتُه أنا فى اللحظة الأخيرة. وبحفنة من تربة نبات الخلنج، وأربع ملاعق من «الذهب البنى»، انظرى الآن: إنه يعلو، ويعلو، سوف يلامس السقف ! يبدو أن لبلاب أختك سعيد هنا!» النباتات كانت تحب بيت أمها: حيث التغذية وفيرة، والفرْح غزير، كانت النباتات تحب حب أمها...

ولكن كل شيء تهاوى في الوقت نفسه : الأم، وحبها، ونباتاتها، والبيت الذي كان يأويهم جميعاً. وكانت ڤيرا التي تسكن على مقربة كبيرة، في وضع أفضل من أخواتها لحضور عملية الغَرَق: شاهدت الأم والمنزل يخبُوان سويا، ببطء، ببطء شديد.

في البداية كانت الرائحة التي اختفت. الفرن لم يعد مُشعلاً. كانت أمهم قد توقفت عن الطهي، وأبوهم، المعتاد على شحوم الناقلات، كان يكتفي بغلاية كهربائية وصاجة للقلية. ولم تعد هناك حاجة للقضاء على رائحة الأسماك أو اليخني بعطور الجزيرة العربية أو ضرورة لإحراق أعواد الياسمين أو البخور. فالمنزل لم تعد له أيّة رائحة.

والآن كان الزوار يدخلون من المطبخ مباشرة ؛ فقد ألغى الأب المدخل الرئيسي والحديقة الكبيرة التي يشرف عليها: ولم يكن عند الحاجز الحديدي الخارجي جهاز للاتصال بالداخل أو آلة التحكم الكهربائي في الفتح والغلق؛ فإذا غاب، لم تكن الأم التي ما عادت قادرة على عبور الحديقة، تستطيع أن تفتح لأحدٍ. علاوة على أنهم كانوا يخشون من تعرض المكان للهجوم. وقد انتهى الأمر بالأب إلى وضع سيخ حديدي على باب الحديقة – وانقطعت هذه عن الشارع – وعدة أقفال تأمين على الباب الزجاجي – وانقطع المنزل عن الحديقة. ومنذ ذلك الوقت، كان الدخول «من الخلف» – عبر الجراج وفناء صغير كئيب مواجه لمخزن أحد عمال صيانة التدفئة المركزية.

إن «بيت أمي»، الذي كان قد فقد رائحته وحديقته، فقد أيضًا ضوءه. فالباشا، الذي كان في غالب الوقت وحده، في الطابق الأرضي، عاش في المطبخ وتخلى عن فتح نوافذ الصالون وغرفة الطعام. وفي الطابق الأول، كانت المريضة ترفض أن يُفتح الشيش في غرفتها... وفي المساء، لم تكن اللمبات بقادرة على تدفئة هذه الغرف الميتة: كانت الأم قد فضلت الإضاءات غير المباشرة ، أما الأب، فلم يكن يشعل غير المصباح السقفي – فهو، مثل الكثير من الرجال، يضيء «ما ينفع». بل هو «ضد التبذير»: بمعنى إضاءة نصف النجفة بدلاً من واحدة بالكامل؛ وبلمبات قوة أربعين وات بدلا من مائة. وفي هذا الضوء الرمادي، كانت التحف الفنية الصغيرة تبدو مغطاة بالتراب. أما النباتات، التي حُرمت من الضوء، فقد اعتراها الهزال.

وتسهيلاً للتحركات النادرة للمريضة، التى أحيانًا ما كانوا يجلسونها حتى ذلك الوقت فى ركن جهاز التلڤاز، قرر رب العائلة إلغاء السجاد. فقد كان حينذاك قد أصبح يتخذ القرار! يتخذ القرار فى المنزل! وحاولت ڤيرا، التى كانت فى شدة الارتباك، أن تقاومه لفترة، ثم لَفَّت السجادة الكبيرة برسم «الألف زهرة» الشهير ذات الأوراق الحمراء التى أحبتها أمها كثيراً، ونقلَت للصندرة السجاد القيروانى والفارسى التقليد. وعادت الأرضية الخشب للظهور، كانت قبيحة. وتم «توفيق» أثاث الصالون هو أيضا: فقد استُبدلت المقاعد الكبيرة ذات الدلايات بطاقم معدنى بسيط: ولم يعد غطاء الأريكة يُخلع أبدًا؛ وراحت قطع من الأغطية البيج تنتشر على الكراسى من طراز لوى فيليپ وحلّت «المكملات الغذائية»، فى علبها الكرتونية، مكان باقات الزهور والعلب الملونة فوق الكونسول من طراز التسعينيات.

وفى الطابق الأول، كانت الأمور أكثر سوءًا. يستحيل التعرف على الغرفة التى كانت الأم قد أرادتها ناعمة، بأشغال اليد القطنية، والدانتيل وألوان الپاستيل: فى وسط الأرضية الخشبية القديمة التى باتت عارية، والتى لم تعد تُدهن بشمع التلميع (فالمريضة ربما تنزلق)، يترأس المكان الفراش الطبى بكافة مكوناته المعدنية، وحوله، كانت المقاعد والمناضد الصغيرة قد أُزيلت من مكانها لعدم إعاقة الحركة، وتُرِك فقط كومودينو من الخشب الثمين والملون كان يختفى تحت زجاجات أدوية الشراب وعلب المناديل الورقية والكبسولات والملاعق الصغيرة.

وأثناء سنوات مرضها الست التى لم تعد فيه ربة بيت للمنزل، راحت لوحاتها الزيتية تتقشّر، وورق الحائط يصفَر، وكان الجو داخله باردا، مظلما، جائعا وحزينا. وفى الصيف، كانت ڤيرا تنظر من خلال الباب الزجاجى المحكوم عليه بالغلق، إلى الحديقة التى لا طريق للنفاذ اليها، الحديقة التى بلا زهور، الحديقة المهجورة.

هذا المنزل الذى ولدت فيه ليزا، وكبرت فيه الأخوات الأربع، وحيث كان يقضى أبنائهن إجازاتهم وفترات مرضهم، هذا المنزل الذى كان فى السابق فى غاية السعادة والرحابة، أصبح جسداً بلا روح.

ولكن ڤيرا لا تزال تحب هذا المظروف الفارغ. وهى أيضًا تحب، رغم كل شىء، جسد أمها الهازل هذا، المتلاشى، هذا الجسد الذى يحوى الموت، كما الثمرة بذرتها. ثمرة مجففة، وجسد بلا لحم، صار مثل حبة اللوز المرة.

(٨)

قبل سنوات عديدة من مرضها، قالت لى أمى يومًا: «أتساءل عما سأفعله بعد وفاة والدك (كانت على يقين من أنها هى التى ستواريه التراب بما أنه يكبُرها بخمس سنوات)، لا أرانى أظل أعيش فى هذا المنزل الكبير. بعدما «يرحل»، لن يكون لدى إلاّ نصف معاش، هل تعلمين ذلك: لن أتمكن من مواصلة دفع ثمن تدفئة هذا المكان الضخم! ناهيك عن تكاليف النقل: إن غلايتى تلتهم مائة وخمسين كيلو جرامًا من الحطب يوميًا – هلْ تتصورينني أقوم بملئها وأنا فى ربيعى الثمانين ؟ وفوق ذلك، إذا تركَت لويز كليراك، ولحقت بأبنائها فى الجنوب، سوف يصيبنى الضجر هنا، بمفردى. أنا أحب الصحبة ! – وصِحت أنا فى رد خرج من القلب «ولكن يا أمى، سوف آخذك إلى باريس. وإلى الطاحونة... – كلا، اسمعوا هذا! أُفضّل أن أذهب عند ڤيرا: على الأقل هى رائعة: إيجابية ومليئة بالطاقة...»

فى ذاك اليوم، جال فى خاطرى أنه من المستحسن أن أدّخر مشاعرى.

حينما كنا صغارًا، كنت دائمًا يدى فى يد ڤيرا. فعند الذهاب إلى المدرسة، أو لقضاء بعض المشاوير، أمسكْتُ يد أختى حتى سن التاسعة أو العاشرة، خوفًا من أن تنطلق إلى عرض الطريق أو أن يهاجمها شخص شرير لاختطافها. وحين كنا نذهب للعب عند أصدقاء جدد، أو كان ميشا يصحبنا لزيارة أقارب لم نكن نعرفهم فوق الهضبة، لم نكن ننفصل أبدًا. كانت يدها فى يدى، نظل ملتحمتين الواحدة بالأخرى، نعبر فناءات المزرعة، والإسطبلات، ونمر من أسفل طوق آلة الحصاد، ونواجه المجهول. ربما كان هذا هو سبب اعتقاد قَبَضايات المرحلة الابتدائية أننا توأمان. خطأٌ : كنا أختين ملتصقتين.

أختى الملتصقة بى كانت رائعة مع أمنا المريضة. لدرجة أننى أحيانا ما أتساءل إذا كان ذلك لم يزل إخلاصًا أم أنه بدأ يكون تنكيلاً بالذات: عمّ تحاول التكفير ؟ على أية حال، لقد سحبتنا جميعًا فى مسيرتها العقابية : فبين الأخوات المتحابات، لا توجد حدود للمنافسة. فلمدة خمس سنوات، كان علينا أن نشرف على أحوال أمنا، بلا توقف، ووحدنا. نحن بمفردنا : أمنا «أول المخدومين»، ومن خلال لحم لحمها حصريًا. الأم وبناتها، الموت وبناته.

مؤكد أن أختى تتذكر كيف رعَت أمى أبويها اللذين تُوفيا فى غرفتها وبين ذراعيها. مع أننى كنت أجاسر أحيانًا فى الإشارة إلى أنه لا وجه للمقارنة بين الموقفين: فحينما أخذت أمنا على عاتقها المسؤولية عن أبويها كانت أصغر سنًا، وبالتالى أكثر قوة مما نحن عليه؛ ثم إنها لم تكن تعمل، فى حين أننا نعمل لكامل الوقت؛ أضف إلى ذلك أننى أقيم فى باريس ثمانية أشهر فى السنة وأن ليزا تعيش فى أستراليا اكانت أختى تقول « افعلى كما تريدين ولكننى أنا...» إذن، وأنا أيضا. وليزا. وسونيا. حتى الإنهاك.

واعترضت فى يومٍ : «أنا عجوز. عمرى اثنان وخمسون عامًا ! - مثلى تمامًا، قالت ڤيرا (لقد أخطأتُ التوقيت، كان ذلك هو الوقت الذى نكون فيه فى نفس السن من العام !)، ولكننى أشعر بقدرة كافية على مساعدة أمك».

آه حين تُحوِّل ضمير الملكية هذا! «أمُك»، هذا ما تقوله لى فى كل مرة أُفقدها فيها صبرها. كانت تهاتفنى (صوتها عبر الهاتف هو صوت أمى، ولكن لا مجال أمامى للخلط بينهما، فأمى لم تعد تكلمنى): «أمك لم تعد تريد المكمل الغذائى. ربما وَجب عليك أن تتحركى قليلاً أن تمرى على صيدليات باريس !» « من المحتمل أن تكون أمك بمفردها يوم الخميس: سيكون والدنا فى لوهاڤر. ماذا تقترحين ؟» كانت تقول «أمك» وهى تستخدم نبرتها كمأمورة الحسابات.

كنت أحاول المناقشة؛ ولكن مع كل اقتراح منى لحلّ ربما يريحنا، كانت ڤيرا تصبيح بأن الأمر لم يصل بنا إلى هذا الحد. وحينما كان ينتهى بها الأمر إلى

الانصياع، نكون قد تجاوزنا هذا الحد... سرير طبى ؟ «أواه، هذا مُقبِض لأقصى درجة، لم نصل بعد إلى هذا الحد !» وحينما انكسرت ظهورنا جميعًا، وجب علينا بالفعل أن نوافق عليه، سرير المصحات هذا. ولكن فى المساء، لا مجال على الإطلاق لأن نرفع قوائمه: «هل تعقلين، لم نصل إلى...» وحين سقطت أمى من سريرها، اضطررنا مع ذلك. مقعد مجوّف فى الغرفة ؟ إنه شىء مهين، ثم إننا لم نصل إلى...مُرافِقة ؟ لا لزوم لذلك، نستطيع نحن. حارسة الليل ؟ ولم ذلك، يمكننا تنظيم أنفسنا. وكنت أستقل قطار مساء الجمعة وصباح الإثنين لأقضى ثلاث ليالٍ مع أمى. وكانت ليزا تزيد، من آخر الدنيا، عدد الرحلات باهظة الثمن، من أجل المرافقة لمدة أسبوع. وأبونا، (الذى عاد بهدوء «ليحيا بين أبنائه ما تبقى من حياته») فقد خلع كتفه وهو يرفع أمى التى سقطت على الأرض. هذا كثير، أكثر من اللازم ؟ وأكثر من اللازم مقابل ماذا ؟ هل لأجل إنقاذ ذكرياتنا ؟ أو ديكور طفولتنا ؟ هل للحفاظ على أوهامنا؟ أو أوهام المحتضرة ؟ إنها معركة غير مجدية، طالما كان ينبغى، فى النهاية، أن نواجه ما كنا نرفضه: فقد اضطُرت أمنا أن تتكيّف مع تغيير السرير، ثم المقعد المجوّف، وأن تقبل بأغرابٍ فى البيت – مُرافقة، ثم حارسة لليل –، ورغم ذلك، لم نستطع تجنيبها العودة إلى المستشفى، تلك المستشفى التى ستموت فيها فى مواجهة حائط وردى مثل اللثة، وطلاء الريبولان الذى لا يذكّرها بشىء...

مع أن أختى ليست من النوع الذى يتعلق بالماضى بجسدها وروحها، بكافة خلاياها. الذى يلعب مجدداً معركة وواترلو لكى يكسبها. هل كانت ڤيروتشكا تقاتل من أجل الإبقاء – على المريضة ومنزلها، منزل الزوجية الكاذب الذى لم تكن أمى تحبه بالفعل لهذه الدرجة – من أجل «أن تُبقى» أَمْ من أجل أن تمحو ؟ ما هو الذنب الذى تريد أن يُغفر لها ؟ ما هو الخطأ، الذى نجهله جميعنا وتبغى التكفير عنه؟ هل هى تعلم ذلك على الأقل ؟ إلاّ إذا كانت تلوم نفسها على الخطأ الذى تعنّتت فيه دائمًا: الاعتقاد بأن قواعد الخبرة المحاسبية تنطبق أيضًا على الاحتضار وأن المحتضرين يطالبون بحسابات ختامية صادقة.

(٩)

لقد فقدنا أمنا فى اليوم الذى أجبرناها فيه، تحت ضغط شقيقاتى، على أن تنظر إلى الموت بملء عيونها. ومنذ هذه اللحظة، لم ترَنا أو تسمعنا: ظلّ الآخر، الضيف، الذى لم تكن تفارقه بنظراتها، ظل دائمًا طرفًا ثالثًا بيننا.

إن هذه الحقيقة، التى كانت من حقها علينا باسم الأخلاقيات الطبية الجديدة، هل كانت واجبة علينا إلى هذا الحد ؟ أن تُمنع العائلات من الاختباء خلف أكاذيب ورِعة، فليكن. ولكن المريض ذاته، أليس من حقه أن يكذب على نفسه ؟ هل يتعين أن نكرر عليه الحقيقة بشكل مستمر مثل الأخبار على قناة فرنسا الإخبارية ؟ حينما أجرت أمى عملية جراحية عاجلة فى مستشفى ڤيل چويف، كان ما تخشاه ليس هو النتيجة، وإنما التخدير: كانت هذه أولى جراحاتها، الأولى فى حياتها، وكانت الغرابة المقلقة لغرفة العمليات، وحقنة الوريد، وفقدان الوعى الذى سيتبعها، تثير انزعاجها أكثر من «التحاليل». ولذا فقد انبهرت سعادة حين فوجئت بأنها استيقظت.

غير أن نتيجة العيّنات أكدت تشاؤم الجراح، لدى خروجه من غرفة العمليات – واضطررنا إلى إخطار المريضة. وتولّى ذلك رئيس القسم. كان التشخيص محدداً: سرطان أولى بالكبد، كبير الحجم فى موضعه، ولكنه قليل، أو عديم الانتشار فى أورام أخرى. توجد حالات أفضل، وحالات أسوأ... وفى اليوم التالى لزيارة الرئيس الأعلى، ولم تكن أمى قد غادرت العناية المركزة، قالت لنا أنهم لا يعرفون حتى الآن ما هو مرضها – هؤلاء الأطباء، كلهم أغبياء !

وانزعجت شقيقاتى، قناعة منهن بأن الطبيب لم يكن واضحًا؛ وكُلِّفْت بمهاتفته لكى أرجوه، نيابة عن العائلة، أن يعيد الكَرّة. وفعلْت ذلك على مضض: إن الحقيقة بندقية ذات طلقة واحدة... ومع ذلك فقد عاد الرئيس، «لكى يُجْهز على الحيوان»، وأحاطنى علمًا بهذه المهمة الثانية؛ لقد ذكر اسم المرض بدقة، مثلما فعل فى الزيارة الأولى، وشرح تفصيلاً العلاجات الممكنة فى حالة عدم كفاية الجراحة لوقف الانتشار: حقن العقار الكيميائى فى الكبد مباشرة، ثم سد الشريان المغذى له، تجميد أو تسخين جزئى للأعضاء المريضة، إلخ. لا، لم تكن هناك «إلخّات» كثيرة... فقط ما يكفى لبث الاعتقاد بأننا لسنا فى المراحل الأخيرة.

فى الأيام التالية، نطقت أمى كلمة «ورم»: ولكن هذا الورم لم يكن حميدًا أو خبيثًا، كان «بلا نوع». بلا نوع: كانت الصفة تعجبها، وقد راحت تكررها فى كل لحظة.

وأُدخلت لبيت النقاهة: كان استئصال نصف الكبد، والمرارة وبعض الزوائد المجاورة، من أجل تنظيف الموقع، يستلزم متابعة طبية دقيقة. وفى هذا البيت لعلاج ما بعد الجراحة، الواقع فى غابات أومبازاك، ظهر عليها أنها تعود لحب الحياة: عادت إليها الشهية وعادت إلى المشى. كنا نخطو بعض الخطوات فى الحديقة؛ وكانت سعيدة بجَرّاحها («مُتمكِّن»، كما كانت تقول) ومتساهلة إزاء الطب – الغارق فى الجهل، أليس كذلك، لدرجة أنهم غير قادرين على وصف ورم «ها»: هذا الذى «بلا نوع» ! عندى مرض بلا نوع، شيئًا لم يروْه من قبل ! ولا يعرفون لماذا أُصبت به وكيف سيتطور ! آه، كفاهم حديثًا عن تقدم الطب !» وكانت تسخر قائلة: «موليير ! موليير !» أقول لكم إنها الرئة ![*] وهو الكبد بالنسبة لى. وينتهى تشخيصهم هنا !»

هل كانت تحاول حمايتنا ؟ هل كانت تسعى إلى خداع نفسها ؟ أيا ما كان: إن التضحية بالسعادة لا ينبغى أن تكون ثمنًا للحقيقة...

(*) من مسرحية مريض الوهم.

اضطررت للعودة إلى باريس، وأخْذ الطائرة من أجل معرض الكتاب فى مونتريال! وعادت ليزا إلى أستراليا. وكان أبى لا يأتى إلاّ من وقت لآخر: فقد كانت إحدى الجمعيات التى يشرف عليها منذ سنوات، أصدقاء مُبيّضى البحرية، تستدعيه على وجه السرعة فى مهام بمناطق مختلفة... ولكن سونيا وڤيرا، اللتين تقيمان فى ليموج أو على مقربة كبيرة منها، تناوبتا التواجد بجانب المتعافية: كانت ڤيرا تأتى لها بحُلى بقروش قليلة، وسِوارات برازيلية يُفترض أنها تحمى من السوء؛ أما سونيا فتقوم بدور مصففة الشعر وتهذب لها أظافرها وتستخدم الكريمات وطلاءات الأظافر المتنوعة. كانت النقاهة تسير على أفضل نحو ممكن.

قالت لى ڤيرا فى مساء أحد الأيام عبر الهاتف «كلا، الأمور ليست على ما يرام: أمنا لم تفهم أنها مصابة بالسرطان.

مع أن الطبيب أوضح لها ذلك جيداً.

هذا الطبيب يقول لك أى شىء... ! إنها لا تعرف، هذا واضح: إنها تحدثنا عن التهاب ميكروبى، وعن ورم بلا نوع...

اتركيها تفعل.

مستحيل: من حقها أن تعرف الحقيقة ! لا أريد أن أخدعها.

من طلب منك أن تفعلى ؟

أنت ! قولى لى كيف يمكننى أن أخفى عنها الحقيقة بدون أن أقع فى الكذب ؟

فلنبدأ من البداية: ما هى الحقيقة ؟»

كان يمكن لأختى أن تصفنى ببلاطوس النبطى(*)، ولكنها لم تفعل، لأنها، كابنة أصيلة للهضبة، سليلة أربعة أجيال من اللاعقائديين، لم يسبق لها قراءة الإنجيل.

(*) الحاكم الرومانى الذى دعا إلى محاكمة ثم صلب المسيح ثم ادَّعى عدم معرفته بذلك.. يعتبر رمزا للكذب والخيانة.

وأضافت بضجر «حسنًا، فلنكف عن المراوغة، تعرفين مثلى ماذا قالت لنا أمنا مرارًا: إذا حدث وأصيبت بمرض خطير، فإنها تود معرفة الحقيقة.

هذا ما كانت تقوله فعلاً، حينما كانت فى صحة طيبة...»

وجاء صمت طويل من الطرف الآخر من الهاتف (سأتعود على نوبات السكون هذه التى تعلن انتهاء النقاش – «كفَى إضاعة للوقت !») :

واختتمت المرأة التنفيذية «اسمعى، افعلى كما تبغين، ولكن نحن («نحن»، بما يعنى شقيقاتى بدونى) قررنا أن أتحدث إلى أمى. وسوف تصحبنى سونيا. سوف نضع لها النقاط فوق الحروف... فالمرء لا يقاتل بدون أن يعرف ما الذى يقاتل ضده!

ومتى يشن فريق الصاعقة هجومه ؟

صباح الغد.

كانت تلك هى المرة الأولى التى أجد فيها نفسى وقد وُضعت أمام الأمر الواقع: فمن خلال ڤيرا، كانت «الجبهة» تخطرنى بما قررته؛ فالعائلة شركة ديموقراطية ولن يمر وقت طويل حتى أفهم أن ڤيرا لم تكن تمثِّل أمامى إلاّ بعد أن تكون قد حققت أغلبية...

غير أننى نجحت فى الاتصال بأحد أزواج شقيقاتى، هنرى، زوج ڤيرا الأول، الذى احتفظ بنفوذ على أم أولاده. قال لى بحزن: «أعتقد أن أختك على حق. لن تَسعد أمك باكتشاف أنكن كنتن تُخفين عليها شيئا.» بالفعل: فلم يكن فى تربيتها لنا أى مجال لنصف الحقيقة، للأكذوبات، ولا حتى للأسرار – كان ممنوعًا أن نخدعها. ولكنها فى الواقع لم تعد المرأة التى ربتنا: كانت تريد أن تُخدَع. وأضاف زوج شقيقتى: «لا أقول أن طبيب ڤيل چويف قد تهرّب، ولكنه ربما استخدم كلمات لم تفهمها... – ما الذى يدفعك لاعتقاد ذلك ؟ هل تستغرب أن أمى كانت تطالب بالحقيقة وأنها اليوم تهرب منها ؟ هل يفاجئك ذلك أنت وڤيرا ؟ هل تأملتم يومًا الناس

وهم يعيشون، هل اطّلعتم على أعماق قلوبهم ؟ أتوسل إليكم، لا تجبروها على أن تفهم الأمور بوضوح زائد...»

وفي اليوم التالي، في الرابعة صباحًا (مع فارق التوقيت)، صحوت على ڤيرا التي كانت تتفجر غضبًا عبر الهاتف: «يبدو إذن أنني لم أنكب بما يكفي على معرفة القلب الإنساني ؟ هذا احتمال قائم... احتمال كبير. ولكن حياتي، مع زوجين أتولى جرّهما، وثلاثة أطفال أُربيهم، بخلاف مواعيد العمل، لم تتمثل في قراءة أعمال راسين أو ساروت، وإنما بالأحرى في إعداد الطعام، والغسيل، والسوبرماركت، وطبيب الأطفال واجتماعات الأهالي واللوازم المدرسية. ثم إعداد الطعام، والسباك، والتطعيمات، و«رتِّب غرفتك»، وشهادة الإعدادية، وتنظيف السجاد. ثم إعداد الطعام، ودرس التزلج على الجليد، والكهربائي، واجتماع اتحاد المُلّاك، أمي، چيل سكب الميركوروكروم على الأريكة !. والصفعات، وإعداد الطعام، وممارسة الجنس، أووووف... إن وضعي كامرأة لم يترك لي وقتًا طويلاً للتفكير في الوضع البشري ! إذا كانت الفرصة قد واتتك أنت، فمرحى لك !» ماذا تظن ؟ لقد كان الوضع بالنسبة لي أنا أيضًا مُوزعًا ما بين طعام، وصفعات وأووووف ! ولكن، حين تكون ڤيرا في هذه الحالة، فلا جدوى من النقاش...

وبعد الظهر، وأنا واقفة في جناحي، جاءت مكالمة من سونيا. هي أكثر رقة، أكثر خجلاً، والنبرة غائمة بعض الشيء. تُسَطّح الحروف الساكنة. إنها العاشرة مساءً في ليموج: لا بد وأنها قد مرت على حانة أو اثنتين قبل العودة إلى المنزل. ولا حتى ذلك: فمنذ غادر ابنها، صار لديها كل ما يلزم بالبيت.

«يا عصفورتي (تسميني يا عصفورتي، إن ڤيرا تسميني يا أختي الصغيرة، وليزا يا كاتيوشا أو كاتي الصغيرة - منذ متى أصبحت أنا الكبرى، صغيرتهن ؟)، يا عصفورتي، لقد فكرت جيداً فيما قلتيه لهنري. حين خبّرتني به ڤيرا، اضطربت للوهلة الأولى. وتساءلت إن لم تكوني على حق في بعض ذلك... ولكنني أعدت قراءة سيمون

دوبوڤوار (يُحتمل ذلك: فهى الآن تقرأ كثيراً، أكثر من اللازم، تقول أمى، ألا ترين كيف ترتب بيتها ؟)، هذا الكتاب، تعرفينه، الذى كتبته عن موت أمها، [موت ناعم جداً]، إنه كتاب جيد، على أية حال، وربما أفضل كتبها... لقد كذَبَت هى والأطباء على أمها حتى النهاية. ولكن العجيب، أنها لامت نفسها فيما بعد. كتبت تقول: لقد سرقنا منها موتها...

أنا سيضايقنى أن تُسرق منى حياتى، بل وخواتمى ذاتها، ولكن موتى، صراحة، لا أتمسك به إلى هذا الحد! أتركه لكم !

حسنا يا كاتيا، ربما يلزم أن تتناولى الموضوع بالجديّة التى يستحقها... إننى منهكة فى هذه الساعة، أريد أن أنام، هل يمكن أن تنصتى إلى لخمس دقائق... فى هذا الكتاب، بوڤوار تشرح أن الكذبة خلقت مسافة بين العجوز ومحيطها: لقد جعلت التواصل مستحيلاً، تفهمين ؟ وفضلاً عن ذلك، كانت تحول دون تطور المحتضرة، كيف أقول ذلك ؟ دون أن تُظهر أنها أكبر من مصيرها...

ماذا ؟ وماذا كان عساها أن تفعل سيمونتك العزيزة لو أن أمها بدت، بعد إبلاغها بكل شىء، أصغر، أصغر كثيرا من مصيرها ؟ لا بد وأن ذلك يحدث من وقت لآخر، أليس كذلك ؟ ثم إن الحقيقة، حين لا تترك أملاً، تؤدى للعزلة هى أيضا !

همم. لا أرى سبباً لذلك. على أية حال، سوف نسعى إلى ترك بعض الأمل لدى أمنا...»

كان قرارها لا عودة فيه. مع بوڤوار أو بدونها. وتراجعْتُ عن أن أبيّن لها أن الحقيقة بالنسبة لطرف -« سوف تموت» - ليست هى الحقيقة عند الطرف الآخر - «سوف أموت». ففعل الموت يختلف كثيراً حسب تصريفه فى صيغة ضمير المتكلم أو المُخاطَب.

ولكن ما جدوى المجادلة ؟ إن سونيا لم تهاتفنى إلا «تلطفًا منها»: لقد اتُّخذ القرار.

وعمل الوفد العائلى أفضل ما فى وسعه لإقناع المتعافية بطبيعة مرضها: هل كانت كلمة «سرطان» تخيفها ؟ هل كانت العلاجات ترعبها؟ لقد قطعت شقيقاتى عليها، بحنان وحزم، أى خط رجعه.

ومنذ ذلك اليوم، دخلت أمى فى اكتئاب ناعم. وأصبحت شهيتها متقلبة. وسرعان ما حلّ فقدان الشهية. فقدان الشهية نتيجة التسمين المعنوى والفيض الزائد فى الصدق. ثم جاءت خلال العام الأخير، العيون المغلقة على الدوام، هذه العيون التى أجبرتها بناتها، ثلاث مرات، على أن تفتحها بمِلء بصرها، على حالتها.

(١٠)

لقد قدّرت فوراً أنه من الظلم أن تكون مصابة بسرطان الكبد. من الظلم بالطبع أن تكون مصابة بالسرطان، ولكن الأهم أن يكون سرطان الكبد، هى التى لم تكن تشرب، وتشترى الدجاج «الفلاّحي» فقط، و كانت تأكل الأطعمة «العضوية» من قبل أن يفغل أحد، وتتفادى الأغذية المجمدة وترفض استخدام الميكروويڤ («هل تعتقدون أنتم أن هذه الإشعاعات صحية ؟»).

ومنذ الإفصاح عن مرضها، أقنعت نفسها بأن الطعام، كل الطعام، مسمّمٌ. كانت أجهزتها لا تزال تعمل، رغم خطورة التشخيص، ولكنها دخلت فى حالة فقدان شهية ازدادت خطورة بسرعة أكبر من السرطان ذاته. كانت ترفض اللحم، بسبب جنون البقر؛ والبيض - الذى يرفع الكوليستيرول؛ واللحوم الباردة - لأنها مليئة بالمضادات الحيوية؛ والطيور - لأنها تُغذّى بالدقيق؛ وسمك السالمون - لأن تربيته تتم فى «الأقفاص»؛ وأسماك المياه العذبة - فيها الكثير من الشوك؛ والفاكهة - تسبب حرقان المعدة؛ واللبن - لأنها لا تستطيع هضمه؛ والبطاطس - لأنه مُركّز بالمبيدات؛ والشعير - لأنه مُعالَجٌ وراثيًا، والخبز - «هل رأيت بم يعالجون ون قمحهم ؟ والطماطم - «لم يعد لها طعم !»؛ والمعجّنات - « إنها مصنوعة من القمح أليس كذلك ؟» ؛ النبيذ - مخلوط ؛ المشروبات - ملوّنة ؛ الماء - ملوّث ؛ الشوكولاتة - ليست صحية للكبد ؛ إلخ. وخلال السنوات الثلاث الأولى لمرضها، كانت لا تزال تقبل حساء الخضروات «المصنوع فى المنزل» (بخُضَر تُشترى من بائع تعرفه) والبطيخ (فى رأيها أن غطائه يحميه من الملوثات المحيطة) ومياه إيڤيان وعسل الجاتينيه. وفى كل يوم، كنت أحسب

فى رأسى، عدد السعرات التى تناولتها - وحينما كنا نبلغ الألف، كنت أعتبر هذا مُرْضيًا، لأنها كمية تسمح بالبقاء حيًا، بالنظر إلى سنها، ورغم غياب البروتينات.

وقد واجهنا حينئذ فجأة مشكلات كبيرة مع عسل منطقة جاتينيه: إذ إن المبيد الشهير للأعشاب الضارة الذى يستخدم فى زراعات عباد الشمس، كان يقتل النحل؛ وكانت تلك التى لا يُقْضى عليها تُصاب بالجنون ويتلوّث عسلها - وكانت وسائل الإعلام تعلن عن المناطق الأكثر إصابة؛ ومن بينها لوجاتينيه، قبلة المناحل. وكان أن حذفَتْ فوراً العسل من قائمة طعامِها القائمة بالكاد... واستغرق بحثنا أسابيع كثيرة لكى نكتشف عند أحد مربّى النحل، فى أقصى أقاصى جبل الليموزان، «عسلاً» من المؤكد أن هذا المبيد لم يُصِبْه: فما من شىء كان مزروعًا، أو قابلاً للزراعة، عبر آلاف الهكتارات. وبعد تمحيص أدِلّتِنا، وافقت على العودة لتناول العسل، بشرط أن نقتصر على ملعقتين فى اليوم، مذابتين فى كوب ماءٍ، مع عصير الليمون.

وحينما كنا نتبادل أماكننا حولها، كنا نتبادل العناوين، والوصفات، والأشياء التى كانت «تنجح معها». تنجح معها مؤقتًا: «إنها تقبل الخوخ حاليًا»، أو «لم تعد تريد البطيخ، ولكن يمكن عصر قطعه فى الخلاط، فالعصير تبلعه»، أو «تصورى أننى استطعت أن أجعلها تتناول الجبن الأبيض ! من الريكوتا الخالية من الدسم، ولكن حذار، بدون چيلاتين، هذا أهم شىء، بلا چيلاتين ! من ماركة سوپراليه، حصريًا». ففى هذا الوقت، كانت تصمم على رؤية العلب، والأسماء، وتقرأ بعناية المكونات. وكانت تدور مفاوضات مطوّلة حول الوجبات (وجبات ؟): «اشتريت لك عنبًا إيطاليًا من السوق فى الصباح، انظرى كم هو جميل ! - تعلمين جيدا أننى لا آكل عنبًا، لا أستطيع ابتلاع البذور، إنها لا تمر...»

«صنعت لك كريمة بالفستق، من أجل العشاء...

لا أحب الفستق، ولا نية لدى لتناول العشاء.»

«كومبوت بالقرفة. بلى يا أمى، إنه تفاح من حديقتى ! تفاح من الطاحونة. عادة تحبين كثيرا تفاح حديقتى، وكومبوت حديقتى... – بالضبط. كومبوتك، كومبوتك دائمًا ! إنك تقدمينها لى كثيرًا جدًا لدرجة أننى أصبحت أنفر منها !»

وكنا أحيانًا ننجح فى العثور عند أحد محال الحلوى على نوع من الكعك يمكن أن تحبه (بما يعنى أن تأكل منه ثلاث قضمات)، وعند آخر على قطع من الجاتوه باللوز أو بودرة اللوز يمكن أن توافق على تذوقه («نصفها فقط ! أووه ! هذا كثير يا كاتيا، ستجعليننى أتقيأ !»). وكان هذا التراخى لا يدوم أكثر من أيام أو أسابيع: فسرعان ما كانت هذه الزيادة تُحذف من القائمة الغذائية التى كانت تتجه من حذف إلى حذف نحو الصفر. كانت آخذة فى النحول، ولم تعد تجلس حول المائدة. وكان أبى يدعونا لنجدته: «عودوا ! لم تعد تأكل إلاّ ثلاث ملاعق من الحساء ونصف علبة الزبادى !»

لقد تولينا المهمة مبكرًا جدًا فى هذه المرحلة – قبل ثلاث سنوات على الأقل من «الجدران الوردية» – لم تكن أمنا تعتمد على الغير بعد؛ بل بعيدة عن ذلك كل البعد ! ومع ذلك، فقد اضطررنا للمجىء يوميًا لإطعامها، أو لاصطحابها لدينا لفترات، من أجل أن نعيد لها بعض الوزن. وكانت ڤيرا، التى تسكن فى منتصف الطريق بين ليموج وكليراك، تقضى وقتها المتاح بين اجتماعين فى مكتبها للمحاسبات فى تفقد الأسواق – بحثًا عن الفاكهة النادرة، والفكرة المناسبة؛ وكانت تعدُّ لها بعض الأطباق الشهية، التى كانت تحاول بعدها نقلها من الطبق إلى الفم، ومن الفم إلى المعدة: وهذه المرحلة الأخيرة كانت خاسرة على الدوام؛ فكثيرًا ما كانت أمى، بعد مضغ الطعام إلى ما لا نهاية، تبصقه فى جانب من الطبق، إن لم تكن قد خبأت خلف إصيص من الورد قطعة الجاتوه التى اعتقدنا أنها هضمتها... لم تتقيّأ أبدًا، حتى وإن هددتنا بذلك: فهى لم تكن بعد، رغم السرطان، تعانى من أى مشكلة هضمية واضحة. بل إنها فور أن نتجمع فى الليموزان بمناسبة عيد الميلاد أو أحد الأفراح أو أعياد الميلاد، وحين كنا ننشغل بالضحك أو المناقشة بحيث لا تكون أعيننا مسددة على طبقها؛ كانت تأكل – ومن كل شىء ! حتى من الشوكولاتة المخفوقة أو كبد الأوز !

هذه المريضة بمرض خطير، كانت طفلة صغيرة. الطفلة الوحيدة، طفلة ميخاييل ساروف المدلّلة. كان لابد أن نشغلها بلا توقف، نُضحكها. كان علينا عموماً أن نحول دون قيامها بدور «المُهمة» عن طريق لفت انتباه الجميع إلى فُرشاتها. كان علينا أن نتجاهلها... ولكننا لم نكن نستطيع ذلك طويلاً: ففور توالينا على مائدتها، بدلاً من التحلق حولها، كانت المعركة تستأنف، ملعقة تلو ملعقة: وكان أحفادها يجاهدون لإثارة شهيتها، لإعداد الأصناف التى أعطتهم وصفاتها: «بابوشكا، لقد أعددت لك الدجاج بالمشمش اللذيذ الذى تحبينه !» » بابو، تذوقى فطيرتى، أعددتها بطريقتك، تذوقيها ! قضمة واحدة ! قضمة صغيرة جداً، يا جميلتى. لكى تقولى لى رأيك...»

كانت تزداد نحولاً. وتُخفى هزالها تحت عدة شيلان أحدها فوق الآخر. ولكن خواتمها كانت تنزلق من أصابعها النحيفة. ولكى تخدعنا، كانت تُضيِّق قطرها؛ ولكن هذا التمويه كان يحتاج للإعادة بعد ستة أشهر أخرى؛ كان خاتم خطبتها الماسى يسقط منها فى الحمام، وخاتم زواجها الفضة فى المطبخ. .

وتخلّت ڤيرا التى كانت تمارس التنس واليوجا، وتناضل ضد الزرائب الصناعية للخنازير وتدافع عن أسماك السالمون المُرقّطة والمرأة الأفغانية، قد تخلّت شيئًا فشيئًا عن أى أنشطة لها خارج العمل، من أجل إطعام أمى، وإيجاد الوقت اللازم، المتزايد، لشخص مُصح من أجل تغذية أمى. وقرّرت، وهى شريكة منذ زمن طويل فى أكبر مكاتب الخبرة بالمنطقة، أن ترفض رئاسته حين عُرضت عليها. وعندما أعلنتنا بقرارها، أحسست أنها تدفن نفسها حية: ففى المهن الحرة، وفى سنها هذا، لا يمكن البدء من جديد. لو كان الأمر يتعلق ببطولة لنكران الذات، لوَضعها حجم تضحيتها خارج المنافسة. صحيح أننى لم أعد أرى أبنائى، ومن أجل أمى تخليت عن أوقات الفراغ والعطلات وإجازات نهاية الأسبوع، ولكننى لم أترك لا النشر ولا الكتابة. كما أن سونيا لم تترك شراب الويسكى بالكولا...

وبعد فترة قصيرة، فإن أمى التى لم تهتم بهذه الهبة، قرّرت أنها لم تعد تريد المضغ. المضغ يتعبها. وانتقلنا إلى المهروس بالكامل، إلى وجبات الرُضّع والمكمّلات

البروتينية المختلفة. وكان الأطباء (وكانت أمي تغيّر الأطباء المعالجين كثيراً - كلهم أغبياء !»)، يُلقون الدرس علينا: «ينبغى أن تتناول يومياً علبتين من المكملات. اثنتين. لا أقل ! إنها سهلة التناول: فهى تُشْرَب...» من الواضح أنهم لم يكونوا يعرفون مريضتهم (وهى لم تكن تمنحهم الوقت الكافى لكى يعرفونها !) : المكملات «سهلة التناول» ؟ نعم، بلا شك، مادام حتى المشلولون يتمكنون من ابتلاعها - باستخدام الشفاط، مثل عصير الفاكهة. ولكن أمى أعلنت أن هذا الخليط بغيض: إنها تفضل الموت على تناوله ! وفتّشنا فى كل الصيدليات، وجرّبنا كل شىء، جميع النكهات، «الفراولة» و«الشوكولاتة» و«الفانيليا»، وأتينا بالأنواع التى كانت تخفى أكبر عددٍ من السعرات فى أصغر حجم... بلا جدوى: كنا نقاتل من الصباح إلى المساء لكى تبتلع نصف المكمّل.

وكنتُ قد تذوقت المشروب ولم أجدْه منفّراً : لم يكن سيّئًا أو لذيذًا - شىء أشبه باللبن المركز، بنكهة أقل. وفي العام الأخير، بدلاً من البحث المضنى فى مخازن الصيدليات عن نكهات جديدة قد تعجبها، جعلْت أختار أقلها مذاقًا لكى أموّهها على نحوَ أفضل: فبعد تدفئة المستحضر، كنت أخلطه بمقدار النصف ببضع ملاعق من الشاى الثقيل والمغلى والمعطر بقوة. وكنت أقدمه لها فى الخامسة بعد الظهر، مصحوباً ببسكويتة. وكان الإفطار وشاى بعد الظهيرة هما أفضل «وجبتين» عند المريضة منذ وقت طويل؛ ربما لكونهما أقل رسمية، حيث لا تستدعيان الجلوس إلى المائدة، وتمنحان لفاقدى الشهية وضِخام الجثة على حد سواء الإحساس بأنهم يأكلون بدون أن يتغذّوا. وفيما بين قضمات الكرواسون، وجزيئات الكعكة، ونصف الجاتوه واللبن والعسل، كنا نتمكن من تهريب ثلاثمائة أو أربعمائة سُعر أخرى إلى داخل هذا الجسد الجائع: كنت أنتهج سياسة الفعل بدون الإفصاح، عن طريق إضافة الشاى الروسى إلى مكمّلها الغذائى، وكان برنامج أسئلة للبطل، الذى يبدأ لدى نهاية موعد شاى بعد الظهيرة، والذى كان يختطف، على فترات، انتباهها، يساعدنى فى جعلها تبتلع الرشفات الأخيرة.

غير أن وقت «العيون المغلقة» أتى، وقت أن ظل التلفاز مغلقًا فى الغرفة، وقت أن تم رفض الحساء المغلى، الخالى من أى شىء. كان علينا أن نلقّمها إياه بالملعقة، وأن توافق، بعد مجادلات طويلة، على فتح فمها، ثم إعادة فتحه (تنهيدات، حواجب تُرفع، وإعادة فتح الفم مرة ثالثة... وكثيراً ما كان يحدث أن يُعاد تسخين الكوب عشر مرات على التوالى.

وأتى أيضًا الوقت الذى تجاوز فيه الوقت اللازم لإطعام أمى كل أوقات فراغ جميع أفراد العائلة؛ يمكن من أجل الأم التضحية بالزوج، والأبناء والحياة العملية، ولكن فى زمن البطالة، لا يسع المرء أن يضحى برئيسه من أجلها: أمنا لم تعد تريد الأكل، وكان علينا نحن أن نكسب قوتنا...

وبعدما رفع أبى راية الاستسلام، تم تكليف «معاونة على الحياة» بالإمساك بالملعقة والكوب، بدلاً منا. كانت كاميرونية ودودة وممتلئة. ممتلئة جداً. وسرعان ما أتت موجيت جلوريوز (هذا اسمها)، ذات الشهية المفتوحة بامتياز، على جميع المقبّلات، والمشويات والكعك الذى كنا نصمم، بغباء، على إعداده لأمنا، فهى لم تكن على أية حال تتجشم المتاعب من أجل إطعام هذه العجوز الموشكة على الموت: كانت تقترح بلطف بعض الأغذية، وتضعها على صينية فى متناول يدها، وليحدث ما يحدث! وعاد التلفاز للعمل... وحينما كان أحدنا يصل فى وقت وجبة بعد الظهيرة أو العشاء، وأن يتعجب لامتلاء أكواب المكمل الغذائى إلى حافتها، كانت موجيت تقول بلكنتها الغنائية: «إنها لا تريدها، ولن نجبر هذه السيدة على تناولها، أليس كذلك؟»

وتسبب كسل موجيت جلوريوز فى تقسيم العائلة. كانت بالتأكيد كسولة. ولكن كان فى هذا التراخى شكلاً من أشكال الفطرة السليمة، من الحكمة على الطريقة القديمة: كنت أجد فيه احترامًا للعجائز (حتى وإن كانت موجيت لا تعلم أن السرطان أضاف إلى عمر «هذه السيدة» ثلاثين عامًا خلال ثلاث سنوات) وخضوعًا عقلانيًا للمسارات الطبيعية - الموت، موت الآخرين على أية حال، لم يكن يخيف الكاميرونية الضاحكة.

أوَ ليس من طبيعة الأشياء، فى أفريقيا وغيرها، أن يعود العجوز يومًا إلى المنزل فيستلقى فى سريره ويتوقف عن الأكل ؟ لقد تعذب هذا العجوز بما يكفى، كدح بما يكفى ! من حقه أن يظل مستلقيا فى فراشه، من حقه الكف عن الكلام، من حقه رفض الماء والطحين. لن نُغضب القدامى، والأكثر أننا لن نُلقّمهم. أين تذهب كرامتهم إذن ؟

هل كنا على خطأ فى إجبار أمنا على الأكل ؟ تساءلت ذلك أمام سلوك موجيت الكسول والعقلانى فى آنٍ واحد. ولكن موجيت لم تتولّ أمر أمى إلاّ خلال الثلاثة أشهر الأخيرة؛ وإذا كنا بدون أن نشعر، انتقلنا من مساعدة شخص فى خطر إلى الضراوة حسنة النية، فإننا فى البداية لم نخُن إرادة أمى: لم تكن تسعى إلى «انتهاء الأمر». فيما يتعلق بالانتحار، كان لديها كل ما يلزم فى عقاقيرها – منومات متناثرة ومخزون من المورفين. لم تكن تُجَوِّع نفسها من أجل الموت، وإنما من أجل السيطرة: أن تجمعنا كلنا حولها، أن تُجيّشنا وتحبسنا. كان مجال تحركها يضيق؛ كانت إمبراطوريتها تتقلّص؛ وبقى جسدها، هذا الجسد الذى كان يحب الاستمتاع بالحياة، هذا الجسد الذى يحب المائدة والسرير، هذا الجسد الذى كان من جانبه مفتوح الشهية... هذا العنيد، قامت بقمعه.

وكانت الضربة مزدوجة: فمن خلال هذا الجسد الذى تتحكم فيه، كانت تتحكم فينا نحن أيضا. وفى بعض الأيام، كان يبدو لى أنه لو كانت تستطيع أن تُدْخِل إلى بطنها المريضة كل هؤلاء – الأبناء والأحفاد– الذين خرجوا منها، لكانت قد حمَلَتْنا معها فى رحلتها... هذا هو ما كانت تريده «عن غير قصد».

ليزا

الخميس ١٦. مستشفى لوى پاستير. الثانية والنصف بعد الظهر.

مثل كل الأيام، تشعر ليزا بأنها مُذْنبة وهى أمام أمها. مُذْنبة لأنها حظيت بحب أكثر من اللازم. مُذْنبة لأنها فقدت هذا الحب. مُذْنبة لأنها دفعت غاليًا للتكفير عنه. ومُذْنبة لأنها تلوم نفسها على الثمن الذى دفعته من أجله. ولكن الأم أيضًا مُذْنبة. كان لديها من الأسباب القوية التى تستدعى الشعور بالذنب ومضاعفة الحب من أجل أن يُغفَر لها. لقد نسجتا معًا شبكة ضيقة ، شبكة سرية، من أسباب الخِزْى والذنوب.

الأمر أكثر بساطة فيما يتعلق بأخواتها: فالشعور بالذنب من طرف واحد. ليزا تلوم نفسها لأنها كانت «المُفضّلة» - على الأقل حتى الثانية أو الثالثة عشرة من عمرها، قبل أن تحتل ڤيرا مكانها. ثم، من جديد، بعد زواجها. إنها تلوم نفسها فوق كل شيء لكونها تقيم فى أستراليا، وأنها تنأى بنفسها منذ خمس سنوات عن المسيرة اليومية لعائلتها نحو الموت. تعتقد ليزا أنها تسرق كل الوقت الذى لا تمنحه لأمها. ليس فقط من المحتضرة، وإنما أيضًا من ڤيرا وسونيا وكاتيا. وتخشى عليهن من فرط الإرهاق. إن الذى لا تزال تمنحه للحياة، إنما تسرقه من الموت. لدرجة أنها ربما لن تفاجأ، ولن تتمرد، بل وربما شعرت بالراحة، إن فعلت أمها مثل إمبراطورات الصين وأخذتهن كلهن معها إلى قبرها...

إنها تشعر بالذنب لدرجة أنها لم «تستفِدْ» من صداعها النصفى. لم تستفد منه فى أن تُعْفَى من الحضور إلى جانب المريضة. ولم تمنح نفسها سوى صباحية

واحدة من الراحة..بل وبـ «أمر طبى »، اضطر أطباء النجدة للقدوم مرتين. كانت تبكى من الألم – وأُعطيت حقنتان. سيُمكنُها، مثلما كان يحدث فى المدرسة، أن تتقدم بورقة عذر...

«صباح الخير يا أمى، أنا ليزا.» تشعر أن اليد ذات الأظافر المطلية بالأحمر قد تحركت. واصلت ليزا وهى تقبّل كاتيا التى أكدت أنها قد أدت نوبتها الصباحية ثم قامت بالبديل المؤقت بين الظهر والثانية لمنح أختها فرصة التعافى، واصلت إخطار أمها بما يجرى: «جئت لأحل محل كاتيوشا الذاهبة إلى العمل. سوف تمر ثانية مساءً مع أبى بعد عشائك («عشائك !»). وإلى هذا الحين، سوف ترين («ترين !») حفيديك فابريس ورافائيل. وقد هاتفنى ويليام لاستطلاع أخبارك. هل تتذكرين ويليام ؟ «كان هذا سؤالاً»، رغم أنها سبق وأن أقسمت لنفسها بالكف عن توجيه أى أسئلة؛ وسؤال سخيف علاوة على ذلك ! بالطبع تتذكر أمها زوج ابنتها ! خاصة وأنه الأخير الذى تبقى لها ! نعم، إنها تحتضر، ولكنها ليست بخَرِفة ! وقد أفهمتهم ذلك بأن حركت، هذه المرة بطريقة واضحة، يدها الموضوعة مثل العنكبوت على ملاءة السرير: حركة تأفف. العنكبوت يريد الهرب... وليزا أيضاً.

ولحسن الحظ عادت كاتيا التى كانت قد نسيت مظلتها. السماء تمطر فى الخارج، وبعض الثلج الذائب. لم يتوقف المطر منذ عادت ليزا إلى الأرض الفرنسية. الأسفلت مُدْهن، مُزيّت، السائرون ينزلقون فوق الطوار، ورائحة عربات المترو كالكلب المبلول، ومزاج الباريسيين عدوانى، وأوراق الشجر الأخيرة تتعفن فى المزاريب، ولا مجال لرؤية السماء. كان الطقس رهيباً، وقد وضعوا الموتى على المائدة: ها هى الكلمات التى كانت ليزا تبحث عنها أثناء صداعها النصفى، تبحث عنها منذ ثلاثة أيام. موسيقى ڤالس، وأغنية هزلية تدور فى رأسها، وبضع كلمات من مقطع: هل هكذا يعيش البشر؟. استرجعت لتوها المقطع ، وهو من ناحيته غير راقص: وقد وضعوا الموتى على المائدة. كانت الموسيقى تريد أن تقودها إلى تلك الكلمات، الموسيقى كانت تعرف الأغنية، والأغنية تتحدث عن موت أمها.

ولكنها لن تضع أمها على المائدة: فى «دفتر الاتصال»، رأت أن إحدى الممرضات نجحت فى تلقيم أمها منذ برهة، وفى حضور كاتيا، أربع ملاعق من الكومبوت، وبالأمس مساءً، كتب چيريمى أنه جعلها تقبل نصف كوب زبادى دانيت بالشوكولاتة: أمهن، كوب دانيت ! لا بد وأنها تحب چيريمى كثيرا لتفعل ذلك ! ليزا مصممة على عدم اقتراح أى شيء - أولا لأنه يجب أن تسأل («هل تريدين بعض الـ...»)، وهى لم تعد تريد أن تسأل. ثم، وصراحة، إنها تتساءل إذا كان يحسُن الإلحاح من أجل «إطالة الأمد». لقد تحدثت قليلاً مع سونيا عن ذلك ذاك المساء. ولكن سونيا، التى تقرأ كثيراً، سخرت منها تقريبًا: «الكائن البشرى، يستطيع البقاء خمسة وخمسين يومًا بدون طعام، بشرط أن يكون محافظًا على الماء بجسمه. إذن...»

ليزا تقرّب يدها من معصم أمها الهزيل؛ وفى نفس الوقت، ولكى تستأنس العنكبوت ذى الخمسة مخالب المتهدّل من المعصم، فإنها تتكلم، تقول بصوت خفيض: « لا أزال ليزا يا أمى. صغيرتك، آخر بناتك، لقد عدْت. أنا هنا.»، ولمّا لم تهرب منها اليد، ولم ينقبض الوجه ذو العيون المغلقة، أحاطت المعصم بأصابعها كالأسورة الخفيفة، بدون ضغط. فقط بين حين وآخر، تمسح بسبابتها على الجلد الفاتر فى ملامسة قصيرة، تذكيراً بالحب. لا مبالغة، ولا رثاء. ولكنها تمتمت مع ذلك عند المداعبة الأولى «أحبك». لأن ذلك حقيقى. ولكنها لم تقل «سامحتك»، لأن ذلك كان سيكون كاذبًا. أمها لم تكن تكذب أبداً وتتفاخر بذلك؛ وهى أيضًا، لا تكذب. لم ترجع إلى الماضى سوى مرة واحدة، لتصفية كل الحسابات، ذات مساء منذ ستة أشهر حيث كانت ترافق أمها. كانت قد وضعت أمها فى سريرها الطبى وفتحت الترانزيستور الصغير واختارت برنامجًا كان يعجب أمها كثيراً فى الماضى: أفضل أغنيات المراقص: وكانت قد أضاءت فقط اللمبة الدائمة. وفجأة، حينما هبطت لحظة الشروق فى سواد الليل، عرفت أنه وجب عليها تناول الموضوع. وفعلت فى نبرة هادئة: «تعرفين، فيما يتعلق بأخطاء شبابي... إذا كنت ما زلت تفكرين فيها أحيانًا، لا ينبغى أن تغضبى من نفسك.» كانت قد اختارت كلماتها بعناية، كقاضية ملتزمة: «لا ينبغى

أن تغضبى من نفسك» ليس معناها «أننى سامحتك» وإنما «أتمنى أن تسامحى نفسك». كانت ليزا صادقة فيما يخص هذه النقطة، وكانت تأمل، بوضاعة، أن تختلط الصيغتان على العقل غير المدقّق: «إن ما أردتيه، أردتيه من أجل مصلحتى، أعرف ذلك. ما من أحد كان يمكنه أن يتوقع.. ولكن الآن ، لم أعد أفكر فى ذلك. ويليام رجل رائع، وحياتى حياة مفيدة. لا تقلقى من أجلى، هذا هو الأهم» إن المحتضرين ينتظرون دائمًا، فيما يبدو، شيئًا من مقربيهم – وعدٌ، إيضاح، إذنٌ... وقد تم ذلك. واليوم. هى تكتفى وهى تداعب بإبهامها المعصم النحيف بأن تردد : «أحبك يا أمى، لقد أحببتك دائمًا.» هل ينبغى عليها أن تعترف: « كنت أعرف جيداً أننى كنت المفضلة لديك» ؟ لا، وإلاّ كان عليها أن تضيف: « لقد قبِلت ما كنت تريدين. حتى عندما لم أكن أريده.»

الأم تتنفس بهدوء، وفمها مفتوح. يبدو أنها نائمة. ابنتها تركت المعصم: كانت قد بدأت تشعر بتقلص فى ذراعها. وأحست وهى تفك أصابعها أنها كانت تحرر أمها أيضا، كما لو أنها كانت تنزع عنها الأغلال. كانت تعتقد أنها تداعبها، ولكنها كانت تسجنها...

وراحت وهى جالسة فى المقعد وظهرها إلى الخلف، وقد بسطت يديها على سنادتيه، تحاول ضبط تنفسها على أنفاس أمها، هى أيضًا تود لو نامت... ولكن الصداع النصفى يعاود الصعود مثل مد البحر، ويأتى لينقر على صدغيها. لن تتمكن من التخلص منه طالما ظلت فى فندق ستار، هى تعرف ذلك.

ودّت لو أنها أقامت عند كاتيا. إنها تعشق منازل كاتيا. طاحونة لاروش بالذات التى أعطتها أمها عند وفاة جديها إلى بِكريتها بحجة أنها الوحيدة بين بناتها الأربع المتزوجة ولديها أبناء وتعمل. ومنذ ذلك الوقت لم تستطع أيًا من الأخريات أن تحقق ما يفوق هذا الإنجاز...

إن شقة أختها فى الميدان لطيفة هى أيضًا. نار فى المدافئ، وشمعدانات، وتماثيل لفتيات من الجص، وورود مجففة، وكتب مجلّدة – إن كاتيا تتميّز فيما هو قديم

وساحر، الحميم المؤكسد: إنها تكتب عن البيئة شبه الريفية فى القرن التاسع عشر وتخلق دُوراً عائلية غير حقيقية: إنك تشعر وكأن أجيالاً من الساروف والدوجيلاك تتابعوا هنا وأن بعد وفاتها سوف تجد سلالتها مكانها فى الديكور بدون تغيير قطعة أثاث واحدة مثل الدوقات الإنجليزيات. فى هذا المكان الجامد، الذى نسيه الزمن، سوف تشعر ليزا بالحماية.

عليها فقط فى نهاية الأمر أن تتناول المسألة بصراحة: «أنا فى غاية الضيق فى فندق الستار يا كاتيوشا. هل أستطيع أن آتى عندك ؟ » لن تجرؤ كاتيا على الرفض: هى لم تقترح بالطبع استضافة ڤيرا التى نزلت عند أصدقاء فى نوازى (وهى ليست باللصيقة بنويبى !)، ولكنها تستقبل سونيا فى عطلة نهاية الأسبوع، سونيا التى وجدت لتوها عملاً ولا يحق لها بعد أى عطلات. كاتيا سوف تجيب ليزا بالقول: «يمكنك بالتأكيد أن تأتى عندى يا عزيزتى ! سوف نتكدّس قليلاً ولكننا سنتصرف. توجد الأريكة فى مكتبى. نعم، طبعًا... المشكلة مع ذلك هى أبونا... أن نتركه بمفرده فى الفندق فى مثل هذه الظروف محرج بعض الشىء ؟» وسوف تقول ليزا «بلى، بالتأكيد» رغم أنها لاتبالى لذلك فى واقع الأمر : فكم من مرة تركهن هو ؟ أين كان يقضى عطلاته ! والآن وقد تقاعد، لماذا يحضر هذا الكم من مآدب قباطنة السفن التجارية فى نواحى لوهاڤر وطولون، ومؤتمرات القادة فى هامبورج وروتردام، بالإضافة إلى مبيِّضى البحرية » ! إن الإشراف على مبيضى البحرية فى الهضبة الوسطى عمل مضنى، لا تتخيلوا لأى درجة: لم يعد أمامه دقيقة واحدة الباشا !...

وأمام قلق كاتيا الابنة ، سوف ترد ليزا : « وجدت الحل. تأخذين بابا أيضًا عندك، ولينم هو على أريكة غرفة المكتب. وأنا خلال الأسبوع أنام فى سرير سونيا وحينما تأتى أنام على مرتبة هوائية ووسادة. وسادة صغيرة. يمكن أن نبقى فى نفس الغرفة سونيا وأنا. مثلما كنا ونحن صغيرات. سوف نتحاكى فى الظلام ثم ننام مطمئنتين، كلانا فى رائحة الأخرى...»

لقد وضعت ليزا نهاية هذا الحوار الخيالى فى صيغة المشروط لأنها تعلم جيداً أنها لن تفرض على كاتيا مثل هذا الكابوس: فمجرد فكرة إزالة كافة الملفات والكتب المكدسة على الأريكة، ثم فوق ذلك تعليق ملء حقيبتين إضافيتين فى خزانات كاتيا، وفى دورة المياه وضع ثلاث حافظات لأدوات التجميل إضافة إلى جهاز حلاقة كهربائى علاوة على أطقم الأسرَّة والفوط، والمرتبة الهوائية التى يتعين نفخها «أين هو المنفاخ ؟ آلو، مارك ! آلو داميان ؟»، كاتيا ستصاب بالذعر. فهى سهلة الانهيار تحت ضغوط الوقت ! ولا تعرف الإمساك بزمام الواقع ! ينبغى أن نمنح مؤرخة الأدب الوقت الكافى للعودة من حرب المائة عام...

لقد هربت «الأخت الكبرى»، ولن يلحق بها أحد أبداً. ويليام أيضًا استطاع الانسحاب. لو كان قد قيل لليزا فيما مضى، أنها ستتزوج من عالم حفريات، أى برجل يحيا فى الحقبة الجوراسية المتوسطة - على بعد مائة وستين مليون عامٍ من عالم اليوم - لكانت قد أغرقت فى الضحك ! هى المرأة النشيطة، المناضلة السابقة فى حركة تحرير المرأة، ومحامية حركتى السلام الأخضر والعفو الدولية، تقع فى حب رجل يعتقد أن البرونتصور حديث أكثر من اللازم، بل ويكاد يكون فى حالة اضمحلال. ويليام متخصّص فى «تنين الصخور»، وهو تيرانوصور له ريشة وعُرف، طوله ثلاثة أمتار ونصف وكان يعيش قبل تسعين مليون عامٍ من «التريكس» العملاق، الذى جعلت منه هوليوود نجمًا لها. ويتجول ويليام بين الصين وكازاخستان ومنغوليا بحثًا عن الأجزاء العظمية الناقصة من نعامته الجوراسية: إن الأرض بالنسبة له ليست سوى مقابر واسعة. وبذا، فإنه يجد من الصعب أن يهتم بالمآسى المعاصرة : لم الانشغال بمصير الحيتان وقد انقرضت الديناصورات ؟ بل وكيف يمكن الإنشغال بمصير الإنسان، وهو نوع حديث ينبئ عدم استقراره بأن مآله الاندثار فى وقت قريب ؟ الإنسان، نانو-ثانية فى تاريخ العالم، أو حلقة فى سلسلة، إن أردنا البقاء متفائلين...

فى سلسلة الحياة الطويلة كان نصيبنا هو الجزء السّئ : هذه أيضاً أغنية. هناك كلمات ضائعة فى المقطع، وكيف كان اللحن ؟ فى طفولة ليزا، كانت أمهن تغنى، ترقص وتغنى طوال الوقت. مثل الصرصور فى حكاية لافونتين. وكانت قد علّمت ليزا أن تؤدى «الصوت الثانى»، وترى أن صغيرتها الأخيرة تغنى على نحو سليم، أفضل من ڤيرا نفسها. وكانتا تغنيان سويا، وهما تضحكان :أنت يا جنونى الصغير، يا جنونى الصغير، يا نصيبى من الهوى. كانت الأم تمسك بالمِقْود، وليزا بالنوتة والكبيرات الثلاث فى الخلف « يؤدين دور الأجراس الثلاثة»، كما كانت تقول أمهن ساخرة. كانت «الأجراس الثلاثة» مكلّفة بمصاحبة اللحن – بوم، بوم–، مثلما يفعل فريق رفاق الأغنية مع المطربة إديت پياف، فى حكاية الجرس الذى «يدق، يدق».

فى سلسلة الحياة الطويلة: أغنية أقل مرحا بالتأكيد من يا جنونى الصغير. بل إنها حزينة، إنها موقنة بذلك. إن ليزا لا تتذكر اليوم إلاّ الأغنيات الحزينة...

مثلها فى ذلك مثل أمها: صوت ملاك، ابتسامة مشرقة، شخصية قوية، إرادة من حديد. غير أن ليزا لا تتذكر فى بعض الأيام، فى هذه الغرفة التى تحتضر فيها أمها، غير الحديد.

(١١)

فى كليراك، عندها، وفى الطاحونة، عندى، كنت أقوم بتنظيف أمى. وكان غسيل أسنانها هو الأصعب نظراً لأنها كانت تتشبث بيديها فى الحوض: فالمرء ليس معتاداً على تنظيف أسنان شخص آخر قبالته.

كنت أُلبسُها كل مساء قميص النوم: وكان إدخاله عبر الذراعين، التى لم تعد قادرة على رفعها، وتفْصلها بالكاد عن جسدها، يستلزم حرصاً كبيراً ؛ فقد كان مجرد الإمساك بمعصمها النحيف للغاية وجذب طرف ذراعها بخفة، يجعلها تئن.

ثم كنت أوصل فى الكهرباء المكبس الذى ينفخ مرتبتها المضادة للقروح ثم يفرغها من الهواء على فترات منتظمة وأعطيها أقراصها: وكان الابتلاع يستدعى جهوداً طويلة، وعدة دقائق حتى «يمر» القرص فى النهاية ؛ وبين كل رشفة، كانت تعقد حاجبيها وتهز رأسها، وتتنهد.

وبعد ذلك كنت أُجْلسها على الفراش وأدفعها برفق نحو كومة الوسائد، ثم أرفع ساقيها وأنا أحاول فردها. وحين يتم ذلك، أعود إلى رأس الفراش لكى أسحب، واحدة بعد الأخرى، وبدون تحريكها، الوسائد التى كانت تحفظها فى وضع الجلوس : وهكذا كان نصفها الأعلى يهبط درجة بعد أخرى للوضع الأفقى. ثم كنت أوصل المخدة المدفأة التى كانت تصر على وجودها فوق بطنها، حتى فى شهر أغسطس. وحسب تعليماتها، كنت «أُرتِّب» أيضاً الكومودينو، من أجل الليل: كوب الماء بالعسل (حتى وإن لم تعد قادرة على الإمساك وحدها بأخف الأكواب)؛ المنديل المعطر بماء كولونيا الأندر والزنبق ؛ وحافظة مستحضرات التجميل الصغيرة (أصبع تلميع الشفاه

والماسكارا، التى لم تعد تستعملهما)؛ مفاتيح بيتها واللمبة الدائمة. وكنت أسند على المنضدة عصا ميشا التى كانت قد استخدمتها قبل بضعة أشهر ولازالت تعتقد أنها سوف تعاود ذلك فى الغد: كانت تسألنى بقلق، بدون أن تتجشم عناء فتح أعينها «هل تذكرتى عصاتى ؟».

وأخيراً، كنت أضع تحت الغطاء، حول جسدها ولصق سرطاناتها «أحبّة قلبها». كل العُدة التى كانت، منذ تدهور حالتها المرضية، تحتاج إليها لتخلد للنوم : مذياعها الترانزيستور (الذى لم تكن تفتحه) ؛ كيسًا من القماش الوردى (يحوى دبابيس ومقصا) ؛ والمراوح. أواه، المراوح. إن كل الاهتمام والمحبة التى كانت من قبل قادرة على إعطائها، تحولا فى العام الأخير إلى مراوحها. أو، لمزيد من الدقة، مروحتها، نحن الذين حوّلنا التميمة الثمينة إلى جمع لتفادى المآسى التى كان يثيرها اختفاؤها المتكرر: فبعد أن تعبنا من تقليب مخدات الأريكة عشرين مرة يومياً، اشترينا دستة منها من أحد الأسواق الصينية.

ولم هذه المراوح ؟ خلال العامين أو الثلاثة الأولى لمرضها، كان ذلك ببساطة لكى تتروّح: كانت تقول أنها تعانى من نوبات صهد، هل كانت نوبات خوف ؟ كانت تختنق. وفى هذه اللحظات، كان التروّح يريحها. كانت قد اكتسبت فى استعمالها للمروحة مهارة الأسبانية العجوز: وحتى بعد أن رفض جسدها المتهاوى كل مساعدة، احتفظت طويلاً فى قبضة يدها اليمنى بقوة وحمْية غير عادية؛ كانت وهى غاصة فى مقعدها، وعيونها مغلقة، تروّح بعنف، بضراوة وبعشق... ثم تراجعت بدورها هذه الحركة ؛ فسرعان ما لم تعد لديها القوة لفرد الأفرع المفصلية التى تفتح «الفراشة». وبعد أن كانت وظيفية، أصبحت المروحة المغلقة انتقالية، فهى تساعدها على الانتقال من مكان لآخر (فذات مساءٍ، وكنا ثلاثة نساعدها على صعود الدرج إلى غرفتها، أصابها الفزع فجأة، فتشبثت بيديها فى عامود الدرابزين الحديدى، وتمتمت : «يجب أن أتكئ على المراوح»). كانت المروحة تمنحها الاطمئنان فى كافة هذه الرحلات،

الذهاب من الغرفة إلى دورة المياه، ومن اليقظة إلى النوم، ومن الحياة إلى الموت، من المعلوم إلى المجهول: كانت تتعلق بالمروحة مثلما يتعلق آخرون بالصليب.

وذات مساء، بعد الانتهاء من الطقوس البطيئة لنومها، بقيْت قليلاً بجانبها للتحدث فى انتظار أن تؤتى المنومات مفعولها. وبين جملتين تافهتين (كم من التفاهات نقول للمحتضرين !)، جرؤت أن أسألها عما يمكن، فى سنها هذه (وكنت أعنى فى داخلى «حالتها»)، أن يكون جوابها لأحفادها إن سألوها عن معنى الوجود: « ماهو أهم شىء يا أمى فى نهاية الأمر ؟» وبدا وعيونها مغلقة ووجهها جامد، أنها لم تسمع سؤالى ؛ ولكنى كنت أظننى قادرة على توقع ردها مسبقًا، كانت ستقول لى «العائلة»، «ما بنيناه، ما نقلناه»... كانت صامتة ؛ وألححْت: « هيا، ما هو أهم شىء فى الحياة ؟ – الحياة»...

خرجت الكلمة همسًا – شفاهها تحركت بالكاد – ولكنها صعقتنى. أهم شىء فى الحياة، الحياة ؟ الحياة باختصار ؟ لم تقل لى «الاستمتاع باللحظات الجميلة»؛ فقد كان يمكن أن أتفهم ذلك ! ولكن «الحياة»، الحياة فقط، الحياة كيفما اتفق وبأى ثمن. حياتها إذن، كما هى اليوم، آلام ومورفين، اختناقات، نوبات غثيان، شلل، تبعية، لامبالاة، فراغ عاطفى. حياة عمياء وخرساء، بات الألم هو الشىء الوحيد الذي لا زال يُمكِّنُها من إدراكها، على فترات متقطعة. بل أسوأ من ذلك : فإذا لم يكن للحياة من هدف إلاّ مواصلة الحياة، إذا كان الغرض فقط أن نحيا من أجل أن نحيا، فهى ستفقد كل شىء !

بقيت فى ذهول أمام هوْل محنتها، وقسوة الرفض الذى أجبرتنى عليه: كنت قد اعتقدت دائمًا أن الحياة ليست هدفًا فى حد ذاتها وإنما وسيلة، وأن حياتى، وحياتها، تندرجان فى خط ومشروعٍ، وأنهما تسمُوان لكونهما ليسا إلاّ معابر، إن هما أدِّيتا إلى عالم أقل قبحاً. اعتقدت دائمًا أن حياة الإنسان تكبر بمستقبل الآخرين. واعتقدت أيضًا أن أمى وميشا هما من علّمانى ذلك... إن جملتها كذّبتنى، وكذّبّتها، ونزل الستار !

وبغية استئناف الحوار، أقنعت نفسى، فى وقت لاحق، أننى قد أسأت الفهم : من المؤكد أن أمى لم تفهم السؤال، هذا الوقت المتأخر، الإرهاق المفرط الذى يحول دون النقاش والتفكير، العقل الضبابى بسبب المسكنات والمنومات. «ما هو أهم شىء فى الحياة ؟» وردّدت الكلمة الأخيرة ، بشكل آلى، لكى أتركها لحالِها : «الحياة...»

«ما هو أهم شىء فى الحياة ؟»

الحياة...

لم تكن تلك إجابة، كانت صدًى

وهناك أيضًا بين «التمائم » التى تحب أن تحيط بها نفسها، حتى فى المستشفى، السُترة البيضاء، تلك التى كانت لوين، جارتها، شريكة أسرارها، وأفضل صديقاتها، قد غزلتها. ماتت أفضل صديقة، واهترأت السترة. أحيانًا نضطر إلى خلعها يومًا بأكمله – لإصلاحها أو غسلها. تطالب بها أمى (تنهدات، تقطيبة الجبين)، تفقد صبرها.

وتذكرت أخيرًا أن «الخالة لوين» كانت قد أهدتنى أنا أيضًا قبل عشرين عامًا سترة مماثلة لتلك الخاصة بأمى، حتى فى الغرزة. ومن وقت لآخر، أنجح فى استبدال إحداهما بالأخرى. وهى خدعة ضرورية خاصة وأن أمى لم تعد تقنع بسُترة «للّيل»، وإنما لا تريد مفارقتها حتى فى الصباحِ. هل ذلك من باب الخرافة ؟ أم لذكرى صديقتها التى أحبتها كثيرًا ؟

ومع ذلك، فحين توفيت لوين فجأة عند إحدى بناتها فى تولون، وأتوا بجثمانها إلى كليراك من أجل الدفن، وكانت أمى قد مرضت بالفعل، فإنها لم تُبْدِ سوى انفعالاً «مناسبًا»: وصممت، رغم حالتها، على الذهاب حتى المقابر، ولكنها لم تبْكِ. وخلال الشهور والسنوات التى تلت، لم تنطق أبدًا باسم الصديقة، الصديقة الوحيدة فى حياتها كلها. ولكن يبقى هذا التعلق العاشق بالسُترة ، التى لم نعد حتى بقادرين على إلباسها إياها، فنكتفى بوضعها على صدرها، مثل الغطاء. فى البداية (منذ عام)،

حينما لم تعد تشعر بملمس الصوف على ظهرها، كانت تواصل المطالبة: « سُترتى ؟ أين سُترتى ؟» وأحيانًا، كانت تقول مروحتى»، أو «كأسى»، فى ذلة لسان بسبب التعب. وإذا صححنا لها، كانت تتنهد: ألم نكن نعرف تمام المعرفة ماذا كانت تقصد ؟

فى هذه الفترة، كنت لازلت أعتقد أن السُترة لم تكن لها علاقة بلوين، أكثر من الماء بالعسل أو العصا أو المروحة. إنها لم تعد تفكر فى لويز. ولكنى كنت مخطئة. ففى كليراك، وجدت سونيا، مؤخراً، وهى ترتب الغرفة، تلك الغرفة التى يترك فيها أبى وموجيت جلوريوز التراب يتراكم، وجدت أسفل كومة من الروشتات، قصائد صغيرة مخربشة بأصابع مرتعشة : كانت أمى قد حاولت أن تكتب وهى مستلقية، إضافة إلى صعوبة إمساكها بالقلم. وفى هذه الأوراق التى انتزعَتها من الدفتر الذى كنا نسجل فيه «التعليمات»، والموضوع فوق الكومودينو، كانت قد شخبطت خمسة أو ستة أبيات – بدايات لقصائد حول جمال لويز، وضحكة لوين، وموت لويز.

كانت تريد أن تُصرِّح بحبها وحزنها بأسْمَى الطرق التى تعرفها: الأبيات. ولكنها لم تعد قادرة على الكتابة، ولا تعرف السجع. ورسائل الحب غير المكتملة هذه، نسيتها بين المناديل المتسخة والعلب الفارغة.

وفى المنزل، كنا نعثر أيضًا، ونحن نرتب سريرها، على حبات راح لونها، وهى نصف ممصوصة. كانت هذه أدوية الأمس، التى بصقتها فى فرش السرير. فقد كانت تأخذ أمامنا كوب مائها وتتظاهر بابتلاع حبتها، ولكنها تحتفظ بها تحت لسانها، إلى أن نعتقد أنها نامت. إن هذه الخدعة، البريئة تماماً فى الوضع الذى كنا قد وصلنا إليه، كانت تعيد إلى، للحظة، أمى الشابة التى كنت قد أحببتها: فى ربيع عمرها، وفى ربيع العام، كانت تعشق مص نوايات الكرز، وتحتفظ بها فى جانب من فمها طوال اليوم. كان يمكن أن تأكل وتشرب وتتكلم، بدون أن تفقد نوات«ها». وإذا حدث وعاد أبى، بالصدفة، بعد ثلاثة أشهر من الغياب، كانت تهرع لتقبيله، وإذا أذابه هذا اللقاء الجارف بين الفمين، كانت «تُلقمه» النواة القديمة ! ويغضب الكابتن العاشق، وتضحك المغناجة !

وهى الآن تجرب معنا حيلتها القديمة، ولكن، هل كانت لعبة حتى الآن ؟ لقد مر وقت طويل دون أن تضحك. بل لم تعد تبتسم. إلام تسعى بعدم تعاطى أدويتها؟ هل كانت تريد الموت بشكل أسرع ؟ أم كانت تخشى أن نعطيها هذا الموت، الذى كانت تطالب به قبل ثلاث أو أربع سنوات ؟

كانت تصيح عندئذ «لماذا تحُولون بينى وبين خلاصى من ذلك ؟» كانت تهاجم كل زوارها، وأقرباءها المسنين، والسيدات الطيبات الآتيات من بعيد، بل وحتى مصففة الشعر الصغيرة التى تأتى إلى «المنازل»: « ائتوا لى بمن يساعدنى. بصيدلى، بممرضة... ساعدونى !» وكل مساءٍ، عبر الهاتف، كانت نفس الجملة : «بمن ينبغى أن نتصلْ ؟» «ألا يمكن الاعتراف للمريض بحقه فى الموت حين يرغب فى ذلك ؟» «أود تسجيل نفسى فى أحد مراكز القتل الرحيم !» ولكن، فى الشهور الأخيرة، ورغم أن حالتها ساءت عن ذى قبل كثيراً، ولم تعد تحب شيئًا فى الحياة – لا عائلتها، ولا أصدقائها، ولا منزلها، ولا الخبز، ولا الهواء، ولا الضوء –، كانت تخشى أن نضاعف جرعة المورفين لكى نحقق لها الأمنية التى كانت قد عبَّرت عنها...

كانت تريد الموت، كانت منهكة تمامًا، خارت قواها، فقدت صبرها. كانت تريد الموت. غداً. كانت تريد الموت. قريبًا. كانت تريد الموت. نعم تريد. بعض الموت. القليل من الموت . ولكن ليس كثيراً.

ليزا

لقد ظلت أمهم، حتى النهاية، تلك الممرضة المتدربة التى كانت: جنديًا صغيراً لا يحترم القادة، ولكنه وفىٌّ للعَلَم. لم تكن تثق بالأطباء، ولكنها لم تصدق الدجالين. لا شراب بلچانسكى ولا أقراص چينسانج. حتى حينما كانت سونيا المُلتاعة على استعداد لأن تأتيها بالأوهام بأثمان باهظة :

سألت ليزا « شراب بلچانسكى، هل تعرفينه ؟

بلى. احتيال.

ولكن ذكروا لى أشخاصاً جربوه، وحدثونى عن نتائجه.

كفى يا سونيا ! اشرحى لى السبب فى أن بلچانسكى الذى اكتشف الوصفة العالمية لعلاج السرطان، توفى هو نفسه من سرطان ؟ هل ذهب به الإيثار إلى رفض «اختطاف» أى جرعة من دواءه المعجزة لنفسه ؟ إذن هو ليس فحسب عبقريًا غير مُقدَّر حق قدره، بل وأيضًا قديسًا وشهيداً ! هلُمّ يا سونييتشكا، عليك بشىء من العقلانية... تذكّرى هذا المعالِج الذى كانوا يتحدثون عنه فى طفولتنا، المعالج المخصص لكبار الأثرياء. سولوميداس. بفضل سولوميداس لم يعد كبار الأثرياء يموتون من السرطان... هراء !»

ورغم ذلك فإن «الابنة الثالثة» حادثت أمها فى المسألة، ورفضت هذه أن يتم خداعها. وقد فرحت الأخريان مع ليزا: كانتا فخورتين بأمهما. ولكن هذا لم يمنع سونيا من السقوط فى فخاخ أخرى: العلاج بالطبيعة والين واليانج والمذهب النفسانى.

إن سونييتشكا نفسانية بالفعل. وهى ديانة جديدة تزدهر فى تربة العلاج التخفيفى. لقد أشاع النفسانيون بين الناس هذه الفكرة الرائعة بأن المرء لا يموت إلاّ إذا استسلم. والدليل، وفقًا لهم: أن مرضى السرطان فى المراحل المتأخرة، حينما يكونون مسيحيين، يمنعون أنفسهم من الموت فى عيد الميلاد ؛ واليهود المحتضرون يتفادون يوم كيپور؛ والمسلمون يتشبثون حتى نهاية رمضان؛ وجميعهم «يقاومون» حتى عيد ميلادهم، أو زواج الابنة أو مولد الحفيد الأول. ولكن تحدُث لهم رغم ذلك، – حسب ما قالت إحدى كبار سيدات القرن الثامن عشر ، والتى نشرت كاتيا مراسلاتها – «لحظة شرود»...

لقد قرأت ليزا مؤخراً دراسة أمريكية هدمت هذه الأساطير من أساسها: تؤكد الدراسة أن «الذين لا شفاء لهم» يموتون أيضًا كل يوم من أيام السنة، أيًا كانت ديانتهم أو وضعهم العائلى ؛ فالموت يجهل الحفلات العائلية ولا يأخذ عطلات. وهذا ما قد لاحظه على أية حال الأشخاص غير المنحازين. وأيًا كان الوضع، فإن الخلاصة الأمريكية لم تقلّل من صلابة معتقدات «قسم الجدران الوردية»: لا نموت إلا اذا كنا نريد ذلك فعلًا، وإذا وافق المريض على بذل بعض الجهد...

سألَتْ طبيبة الطابق الرابع ليزا: «لماذا تبقى أمك على قيد الحياة لو أنها كانت تشعر بأن حياتها قد انتهت ؟» لماذا ؟ ليزا ليس لديها أدنى فكرة ! ماذا تنتظر بالفعل لكى تموت ؟ لقد وصل بها الحال الآن إلى عدم تحمل ثِقل الملاءة على سيقانها، قروح كثيرة، خراريج: وضَعْنا قوس صغير من الصفصاف على سريرها ونبسط فوقه الملاءة. وماذا عن الشُرب ؟ فلنغفل الحديث عن الأكل، ولكن الشرب ؟ لم تعد قادرة عليه، حتى من الكوب ذو الطرف المجوف: لجأنا إلى الغليون الصغير، ندخل الحافة فى فمها ونضغط برقة على المكبس لكى تتمكن من الابتلاع بدون أن تشرق؛ ولكنها تشرق، رغم ذلك تشرق، ويخطئ الماء طريقه مرة من اثنتين. إلى متى يا ربى ! «يا ربي» ؟ لو كانت ليزا مؤمنة، لكانت تصرفت معه هذا ال...: «لو كان المطلوب قتلنا، يا إلهى الطيب، ألم يكن يكفى البرمجة المسبقة للأزمة القلبية أو تمزق الأوعية الدموية لكل فرد ؟»

التعذُّب من أجل الموت، التعذيب من أجل الإماتة، يا للعبث ! ورغم ذلك، بالطبع، يتمسكون بفرضية الخالق العاقل... وإذا نحينا جانبًا هذه الفكرة المسبقة، فإن كل شيء يبدو متسقًا: فعذابات أمها لا تبدو أكثر عجبًا من انقراض الديناصورات، أو وفاة النجوم وروعة الكون، حوادث، حالات طارئة، غير متوقعة. لا شيء عجيب: مصادفات. لا شيء خاوٍ : بل فائض. لا شيء عادي: بل مذهل. «مذهل!»، هذا ما يقوله ويليام، وهو ملحد بدون أن يكون تعيسًا . إنه يعشق الحيوات العقيمة، تقلبات التطور، المصائر المُحطّمة، انقطاع التيارات، الطرق المسدودة، الظلم، المصادفة، الحماقة. ربما لأنه يقضي جُلّ وقته في صحبة نصف جمجمة نعامة من العصر الچوراسي الوسيط !

كاتيا هي أيضًا مثال حي على فعالية النظرية التاريخية، حينما يتعلق الأمر بقبول الحماقة واللامعقول: إنها حاصلة على دكتوراه في الرقصات الجنائزية وكاتبة للرواية عن مجتمع ريفي مندثر، وتحلّل كل شيء انطلاقًا من النسبية. حدِّثها عن الإيدز، عن حمى إيبولا «عَرَض حاد في الجهاز التنفسي»، أو أنفلونزا الطيور، سوف تجيبك ب ١٣٤٨، والكاتب الإيطالي بوكاتشيو والطاعون الأسود: «أكثر من نصف الأوروبيين قضوا في أربع أو خمس سنوات، من يزيد ؟ وقد استغرقت فرنسا أربعة قرون لكي تعود لتعدادها السابق على البكتيريا . إذن، تفهمون يا أطفالي...» إنها لا تلحظ حتى أنها تثير ضجر أصدقائها بهذه الطريقة التي ترفع فيها حاجز الماضي الكبير أمام أحداث اليوم والمشاعر التي تثيرها . أحداث العنف العنصري في الضواحي ومشكلات الحجاب أو تعدد الزوجات ؟ عجيب، لقد حزمت أمرها، هي التي رأت – القوط، ثم القوط الغربيين فالألمانيين يستقرون على التوالي في إمبراطورية قسطنطين – « وفي البداية، بشكل أكثر سلمية مما يقال»: إنها تواجه بابتسامة مُتْعَبة مثل النبيل الروماني خُطب ڤيرا المسهبة عن الاندماج وكذلك سونيا عن التعددية الثقافية... إنها ترقُب من قمة برجها العاجي الحضارات وهي تتهاوى.

في سلسلة الحياة الطويلة، كان الجزء السيئ من نصيبنا ... ليزا وڤيرا فقط تحافظان على التقليد العائلي عن الإرادوية والمقاومة. ابنتان خليقتان بأمهما وبميشا: المسؤوليات الترابطية، الدعاوى القضائية، المهام المحلية، النضالية، والتسلل لكيانات أخرى لتغييرها..إنهما تقاتلان، لا تستسلمان أبداً. كفاح طوال الحياة ! حقوق الإنسان ! حقوق المرأة ! أطلقوا سراح رفاقنا !

ولكن، هل ما زالت لدى ليزا القوة ؟ تشعر من جديد بالغثيان. تكاد تتقيأ روحها. هل هي مريضة ؟ كانت لويزا، صديقة أمها تقول «الحياة مرض قاتل». قاتل. هل أصبحت ليزا في نهاية الحياة بهذه السرعة ؟ هل هي عجوز ؟ كيف لها أن تعرف ؟ إن الكهولة تكون في البداية مثل الغثيان: تأتي على فترات متقطعة.

لو لم تكن أمها على شفا الموت، لكانت سألتها، وحكت لها عن مخاوفها. فور أن كانت تجد نفسها وحيدة في سيدني، حينما كان ويليام يرحل لخيانتها مع نعامته العجوز في غياهب الصين أو منغوليا، كانت تتصل بالمنزل في كليراك في مهاتفات طويلة. مع أن المحادثات مع أمها لم تكن دائمًا مثيرة للانتعاش. خاصة حينما يُعترف لها بقلة الحيوية و«الخواء» يأتي قولها قاطعاً: «إنه سن اليأس». فبدءا من بلوغ كاتيا الأربعين صارت تكرر على مسامعهم «سن اليأس» بين كلمة وأخرى. حالة حزن؟ الصهد ؟ إنه سن اليأس – «هل أنت متأكدة أن الطمث لم ينقطع ؟ على أية حال». فمنذ عشر سنوات، وفي أحد أيام أغسطس وكنّ تتناولن الغداء تحت ظلال الأشجار في كليراك مع الخالة لوين» و«بناتها الثلاث»، «جلسة نسائية»، ردت سونيا، التي كانت متألقة، وقد اشترت لتوها دراجة بخارية، رداً عنيفًا على الأم الحاكمة. فبعد أن شكت من شعورها بالحر الشديد، أُحيلت، بلا سابق إنذار، إلى سن اليأس (وهو تفسير غير مواتٍ في هذه الحالة حيث إن حالات الصهد التي تعتري سونيا ترتبط بالأحرى بكؤوس الويسكي-كولا وليس بساعتها الهرمونية):

«هل تعلمين يا أمي أنك بدأت في إثارة ضجرنا بموضوع سن اليأس ؟ (ما من واحدة من بنات لوجيلاك سبق لها استخدام مثل هذه الكلمات مع أهلها !

خاصة سونيا، وهى عادة فى غاية الوداعة ! لا بد وأنها أكثرت من شراب ما قبل الغداء.) نعم، تثيرين حنقى، لست إلا فى الثانية والأربعين، وكلا، معذرة لك، لم ينقطع طمثى بعد !

ردت الأم بحدة: «جدتك سولانج انقطع عنها الطمث وهى فى الأربعين »

وما المفاجأة ! جدتى سولانج كانت حالة استثنائية ! بل وحالة مرضية ! على الأقل على المستوى الهورمونى، ومن هنا جاء عقمها. لأن متوسط سن اليأس اليوم فى فرنسا يصل إلى الثانية والخمسين، تصورى ! بدون الدخول فى العلاجات البديلة»... فلتعذرينى إذا لأننى خيّبت ظنك، ولكن سيكون عليك الانتظار لبعض الوقت !»

كان العنف غير المعتاد من سونيا قد أصاب الجو المحيط بالبرودة. غير أنه لحسن الحظ أن الجمع كان قد وصل لتناول الحُلو وواتت لويز الفكرة الصائبة لاصطحاب الجميع للرقص بالمنزل «رقصة روك آند رول مثلما كنا نفعل وأنتن صغيرات». رقصت الصديقتان معًا حينئذٍ، والبنات تخبطن أكفّهن على الإيقاع، ثم قامت ڤيرا استعراض رائع مع أمها؛ وكالعادة، كانت الأم تقود وڤيرا تقوم بدور «الفتاة» ؛ كانتا تسحبان الخطوات بنفس الطريقة وتتوقفان عند الدقة السليمة – كانتا ترقصان كما الراقصة الواحدة أمام المرآة. ورقصتا على أنغام موسيقى الچاز، وإحدى أغنيات ألڤيس بريسلى القديمة وواحدة من أفضل ما غنى راى تشارلز. وخارت قوى ڤيرا أولاً : « الرحمة، لم أعد أستطيع التنفس ! قلبى يدق ألف نبضة فى الدقيقة !» ولم يكن انتصار الأم متواضعًا: « اعترفن إذن أننى وانا فى الستين أقوم بالمهمة على خير وجه... هيا يا لوين، دعينا نريهن الرومبا الحقيقية !»

كانت ليزا قد خرجت إلى الحديقة مجدداً. وبالقرب من «مقبرة النمل» وجدت كاتيا وسونيا ترسمان المربعات للعبة الحجلة وهما تُنحِّيان الحصى بعيدا:

«أواه ! لو كان أبى هنا لوبخكما بشدة : إنه يكره إزالة الحصى !

نعم، نحن خائفتان، قالت كاتيا . نموت خوفًا! ما يطمئننا هو أنه لا يتواجد هنا أبدًا .

احذرى، يا عصفورتى، نبّهت سونيا . ليزا تنقل الكلام ! (كانت تضحك) بلى، بلى ! سوف تَشى. بل ستقول كل شىء لأمنا، بل وتقول أننا سرقنا الشرائط !»

كانت المجنونتان تضحكان ملء شدقيهما: كانتا قد أتتا بشرائط من حقائب الصندرة، من «متحف الذكرى» هذا حيث كانت الأم تحتفظ ببعض الملابس الخاصة بكل منهن – صدريات، أغطية رأس صغيرة، ومرايل ذات مربعات. وكانتا قد ربطتا الشرائط حول عنقيهما وشعريهما . وكانت سونيا تلف أرجل بنطالها الچينز مثل «القراصنة». وراحت كاتيا تدفع القرص من مربع إلى مربع وهى تغنى :عمرى خمس سنوات، منذ أكثر من خمسة وأربعين عامًا وعمرى خمس سنوات... «ماذا حدث لكما؟ أنتما معتوهتان ! قالت سونيا – أمنا تريد أن نكون شقيقاتها . وها نحن نحاول، ولكن المسألة صعبة. لأنها أصغر كثيراً من أن تكون أمنا !» وبدأت بدورها تغنى : «عمرى عامان، اذهبى وقولى لأمى أن عمرى عامان. مجنونتان !

غير أن ليزا شعرت فجأة أنها تريد الانضمام إلى جنونهما . فخلعت صندلها وتنورتها الضيقة، وراحت تقفز خلف أختيها وهى بلباسها الداخلى: عمرى عامان، اذهبى وقولى لأمى أن عمرى عامان...

دفعت ممرضة شابة الباب بدون صوت ورأت أن المريضة تبدو نائمة ووجهت إلى ليزا ابتسامة متواطئة رقيقة، واضعة أصبعها على شفاهها، شفاهها الطازجة. «صه !»

ما عسى تلك الممرضات الصغيرات أن يظنّن فيما يخص بنات لوجيلاك الأربع ؟ كيف تنظرن إليهن؟ مثل سيدات ناضجات بالتأكيد، تساعدن سيدة أكبر سنًا، كائنًا بدون جنس ولا سن. فكاتيا مثلاً، «استدارت»، (كان هذا تعبير جدتى سولانچ، استدارات كثيرة : لقد «تغطّت». وسوف ينتهى بها الأمر، بأطقمها ذات الموديلات القديمة بعض الشىء إلى أن تشبه ملكة إنجلترا . ڤيرا تعطى انطباعًا أفضل. وهى

تحتفظ بشبابها أكثر. فلأنها رياضية، تجدها تزداد صلابة مع السن، وتميل إلى السُمْرة وهى تجِف. العيون زرقاء مثل الصلب، والبشرة برونزية بتأثير الأشعة فوق البنفسجية، والعضلات مشدودة والقوام منحوت. «كانت هذه امرأة جميلة»، هذا ما تقوله الممرضات ذوات الخامسة والعشرين عاماً.

وسونيا؟ سونيا بحذائها البوط ومعطفها ذى الطاقية الواقى من المطر ؟ رجل إطارات ميشلان ! بيبندوم. الكلمة اللاتينية هى التى تناسبها، بيبندوم «يجب أن يشرب» و«من شرب سوف يشرب ». حينما تدخل سونيا فى غرفة تنشر حولها رائحة جميلة للقهوة أو النعناع الطازج. إنها تُقرْمش طيلة اليوم حبات البن وتمص أقراص النعناع. الساذجة ! التى تعتقد أنها تخدع عالمها فى حين أن رائحة أنفاسها المُموّهة تفضح السكيرة العتيدة ! هل تمكنت الممرضات من التشخيص ؟ وهناك أيضاً، على صدغيها، هذه الشعيرات الدموية البنفسجية التى تخفيها بقدر المستطاع تحت طبقة ثقيلة من مسحوق البشرة فى الأيام التى تعمل فيها فى محل التجميل. ولكن جهودها غير مجدية، المسكينة: وهى ليست بالدعاية الجيدة للصالون التجميلى. إلاّ إذا كنا لا نرى سوى الأعين. عينان هائلتا الاتساع، تدعوانك إلى السفر: ليست بالزرقاء أو الرمادية، ولا بالرمادية أو الخضراء، إنها البحر البريتانى على شاطئ الزمرد، وزبد الأمواج على شاطئ شيڤينيچين الهولندى، وانعكاس بحيرات الكامارج الفرنسية.. ليس رمادياً ولا أخضر»: ها هى أغنية أخرى وتعود للتعبير عن الشجن :ليس رمادياً أو أخضر، مثلما فى أوستوند وكل مكان ! حينما نتساءل إذا كان ينبغى، ثم وبالأخص اذا كان الأمر يستحق العناء ! إذا كان أن نحيا حياتنا يستحق العناء ...

استيقظت الأم. اغلقت فمها ولكنها لم ترفع جفنيها. هى الآن تتنحْنح، أو تحاول. تُحرك رأسها قليلاً فوق الوسادة: « أنا هنا يا أمى، أنا ليزا» تضطرب الأم، تحاول إعادة شفتيها الجافتين فوق أسنانها المكشوفة، ولا تتمكن، تود الحديث، وتنطق أخيراً بدون أن تحرك شفتيها: « شكراً.» تنقض ليزا على اليد العظمية، وتقبلها، تقبلها وهى تبكى: «أحبك يا أمى...»

ممرضة أخرى تمد رأسها بدورها – هل هو موعد تغيير الفريق ؟ – وتلقى نظرة سريعة على الغرفة ثم تتراجع حين ترى أن « البعض» هناك. إن طابور الزوار، والتواجد الدائم للعائلة يُحرجان المعالجين. ليزا متأكدة من ذلك. وتتمخط بدون صوت، وتأمل أن أمها لم تشعر بسيل دموعها. قالت الطبيبة النفسية لسونيا مساء الأحد: «امنحوا أمَّكن الإذن بالرحيل.» هل هذه مَسحة علمانية بالزيت المقدس ؟ نعم ولا: «المسألة ببساطة هى أن تقولوا لها أنها أنجزت مهمتها بنجاح، وأن من حقها أن ترتاح. أن تطمئنوها على مستقبلكن (مستقبلهن، سيدات فى الخمسينيات !)، أن تشرحوا لها أنكن ستتمكّن من تدبير أموركن بدونها...»

حين نقلت سونيا لڤيرا وليزا هذا الحديث، علّقت الأولى بالقول: « علينا إذن باختصار، أن نعاملها كضيفة أطالت البقاء، أن نحدثها حديثًا من نوع: يا صديقتنا العزيزة، لقد أمضينا معًا لحظات رائعة، ولكن علىّ إنجاز بعض العمل، فتفضلى ! أن نطردها، هذا هو ! ولكن، لن أفعل ذلك أنا ! هل تفضلين أن تطول الأمور أكثر ؟ كلا، أجابت ڤيرا وهى تدير وجهها. سألت سونيا: «هل نحدث كاتيا فى ذلك ؟» رفعت ڤيرا كتفيها، بما يعنى أن كبراهن معقدة، ترد دائمًا بـ «لو» و«لكن»، وتستخدم سيلاً من الجمل الاعتراضية والمشروطة، وتنظر للتاريخ من منطلق «المدة الطويلة»، وتذكر كُتابًا لم يسمع أحد بهم، بروست ! وقررت الثلاث أن ليزا سوف تتولى طرد المحتضرة، لأنها «المفضلة»...

يجب انتهاز لحظة تكون فيها الغرفة خالية والمريضة فى حالة وعى كبير. ها هى اللحظة. ربما لن تتكرر أبداً : فخلال عشر دقائق، وفقًا للتخطيط المُلصق على الحائط، سيصل مجموعة من الأحفاد... وهكذا، راحت ليزا تتحدث عن الموت – جلست على ركبتيها بجانب السرير لكى تتمكن من إسناد خدها إلى اليد المحبوبة، ومداعبة ظهر اليد بخدها، ومداعبة خدها بملامسة الجلد الذى لا زال دافئًا، لا زال حيًا، جلد أمها، ملامسته مثل القطة. تحدثت إليها عن ضرورة الانفصال. عن الواجب الذى تم إنجازه:

«لقد فعلت من أجلنا كل ما كان فى استطاعتك. وفعلنا من أجلك كل ما كنا نستطيع فعله.» ووعدت بانتهاء الآلام، بالسلام.

وفى سريرها، تتنهد الأم، وتحرك رجليها، ويصدر عنها أصوات خفيضة مثل صوت السمكة، وتحاول جذب يدها، وتستجمع قوتها أخيراً وتقول، بصوت يكاد يكون حازما : «ولكن ماذا عساى أن أفعل لو أن صغارى... لو أن صغارى احتاجوا إلىّ ؟ لو... مرضوا ؟»

ڤيرا

مستشفى لوى پاستير. مبنى «الأمراض الباطنة». الخدمة الذاتية للمرضى الخالين من الإعاقة والزوار المتعجلين.

وضعت ڤيرا أمامها على المنضدة الصغيرة المماثلة لمناضد البارات، صينيتها (عيدان الكرفس وسمك القد والتالياتيللى وحبات اليوسفى)، فى مواجهة صينية ليزا (عيدان الكرفس وسمك القد والبطاطس المهروس وحبات اليوسفى). «هل آتيك بزجاجة إيڤيان ؟»، إلاّ اذا كنت تفضلين المياه الغازية. عندهم أيضًا نبيذ بوچوليه بالكأس. هذا أفضل للحالة المعنوية...

ولكنه أقل فضلاً بالنسبة للقامة !»

تركتا الغرفة الوردية المليئة بالأحفاد «غير المرتبطين فى وقت الغداء» ونزلتا لتناول شىء قبل أن تعود ڤيرا إلى نوازى وأن تعود ليزا لملاحظة أمها فى انتظار قدوم كاتيا التى تتناول الغداء مع أحد الكُتّاب.

قالت ڤيرا: «تُرى كيف تتناول كاتيا الغداء مع مؤلفيها فى حين أن السلسلة التاريخية التى تديرها لا تنشر أعمالاً إلا لكتّاب رحلوا !

غنت ليزا، كان الجو فظيعًا، وقد وضعوا الموتى على المائدة...

هذا هو الوضع بالتأكيد، نعم. كاتيا تتناول الغداء مع ميِّت ثم يذهبان للرقص فى مقابر پيير لاشيز : رقصة جنائزية صغيرة... خذى، ها هى زجاجة الإيڤيان.»

ليزا تمد يدها لتمسك بالزجاجة، أظافرها قصيرة جداً، لدرجة أن اللحم يتجاوزها. أظافر مضحكة لا تتناسب مع أناقة طاقمها من ماركة هوجو بوص وغُرَّتها الشقراء التى نكشتها ببراعة.

«لا تقولى لى أنك عدت لقضم أظافرك !

كلا ! (احمرَّ وجه ليزا). ولكن، مع السن، أصبحت الأظافر صلبة. هل تعرفين أن الأظافر مثل القلب؟ حينما نكبر، تصبح خشنة... لا، لقد قصصتها لضبط اطوالها: أول أمس انقصم لى ظفران حتى الحافة. بسبب هذه الدواليب الكئيبة فى الفندق التى يتعذر فتحها، و...

بمناسبة العادات السخيفة، هل تذكرين كيف عالج أبى سونيا حينما بدأت فى زم أنفها ؟ كانت فى الثامنة أو العاشرة، وعلى المائدة، دأبت على زم أنفها كل حين، بدون سبب، كما لو كانت مشمئزة، ولكنها لم تكن تفعل ذلك عن قصد بالطبع، هل تذكرين ؟»

كان أبوهم فى زيارة للمنزل ليومين أو ثلاثة، وتضايق من حركة سونيا؛ كان يعتقد أن الطفل السليم البدن ينبغى أن يكبر كالعود المستقيم، «مثل الصبى القوى»، بدون نقاط ضعف، أو عادات سيئة، أو تكلُّف: ولذا أمر بأن تجلس ثالث بناته على يمينه، حتى تكون «فى مرمى يده»، وكان يراقبها بطرف عينيه : وفى كل مرة كان وجهها يتقلّص، كان يعاجلها بصفعة قوية... وحينما رحل ثانية إلى ڤانكوڤر (أو البصرة، ڤيرا لم تعد تذكر)، كانت سونيا قد شُفِيت. نجح الأب فى خلق رد فعل مشروط : لا زم للأنف بعد الآن. واليوم يدفع السُذّج كثيراً للشفاء بهذه الطريقة: وقد أعادوا تسمية الأمر بالـ «العلاج السلوكى» وراحوا يصرحون بانبهارهم بفعاليته.

«لقد تلقت سونيا كل هذه الصفعات بدون أن يرمش لها جفن... يعع، إن طعام هذا المستشفى ردىء : أراهن أنهم يحفظون سمكهم فى الفورمالين !... إذن كانت سونييتشكا تظل جامدة تحت الضربات، تعرفينها. كاتيا هى من كان يتعذب. كانت

تنتفض مع كل صفعة. بل إنها تجرأت إلى حد ترك المائدة في يوم من الأيام... بدون أن تطلب الإذن ! أثناء تناول الحساء بلحم العجل ! صدقيني إن الحدث لم يمر ببساطة ! كانت أمي تتمسك بأن تَلقَى لحومها المطبوخة بالصلصة احترامًا كاملًا، تتذكرين ؟ والباشا، الذي لم يكن يرانا كثيراً، لم يكن يعجبه أن يواجه «معارضة» عندما يتواجد هنا مصادفة. في هذا الوقت، لم يكن يبخل الوالد بضربات القدم في المؤخرة ! بل كان ذلك مبدأه التربوي الوحيد. حينما كان يصدر أي فعل مخالف من الأطفال، كان التشخيص يأتي قاطعًا: يحتاج لبعض الرَّكَلات !. كان يقول: «ما أريده، أنا، هو فتيان حسني التربية، وليس بنات وقحات !» لاحظي أننا كنا بنات إذا دققنا النظر... ومع ذلك، فإننا حسنات التربية»

ڤيرا تتحدث وهي مبتسمة. تستطيع دائمًا، بالرغم من الأم، التي في الطابق العلوي والأب الذي كان فيما مضى، أن تمزح، إنها «إيجابية» على الدوام. ولكن ليزا لم تعد جائعة، لا تستطيع إكمال وجبتها.

تسأل أختها في قلق «هل أنت متعبة ؟»

بقايا صداع نصفي يتثاقل في الرحيل... أعطيني ما تبقى من مائك : سوف أتناول قرصين من اللمالين من باب الاحتياط.

ما هذا ؟

إنه مسكّن قوي.

لا ينبغي أن تبتلعي هذا الكم من القانورات ! أنا واثقة أن الجزء الأكبر من متاعبك سببه هذه القاذورات... ومضادات الاكتئاب، هل لا زلت تتعاطينها ؟

بلى.

ولكنك لست في حاجة إليها ! توقفي ! سوف ينتهي بك الحال مثل سونيا: إنها مُخدّرة كل يوم أكثر من اليوم السابق... مضادات للقلق، مضادات للسعال، مضادات

للألم، مضاد لهذا ومضاد لذاك: إنكما تدمران صحتكما يا صغيرتى ! أنا أيضًا حزينة، ولكنها الحياة. يا ليزوتشكا، ينبغى المقاومة ! لستِ من النوع الذى يستسلم، أليس كذلك ؟ ولستِ أيضًا من النوع الذى يرفض رؤية الواقع: تذكرى كيف استطعتِ أن تجعلى سونيا تعدِل عن رأيها بالنسبة لأدوية بلچانسكى ! كنتِ على حق... هيا لملمى نفسك : لو كنت تقيمين فى ليموچ لصحبتك فوراً للتظاهر ضد المبيدات. أو من أجل القطارات السريعة. لك الاختيار. إن ذلك يُقَوى الإرادة ويخفف من ضغوط العقل !... ألن تأكلى حبات اليوسفى؟ إذن إعطينى إياها. وسوف اطلب لك فنجانين من القهوة الثقيلة: الكافيين، إنه عظيم للصداع النصفى. وللاكتئاب أيضًا، على ما أتصور: الكافيين والحب، أليس كذلك ؟

كلا.»

كان ينبغى استجواب ليزا لمعرفة ماذا تُخفى هذه الكلا، التى تشبه صنارة الصيد. إن ليزا تصرخ ولكن ڤيرا لا تود سماعها. فيما مضى، كانت تساعد الصغرى على ارتداء ملابسها؛ وتراقب كراس دروسها، وتوجّهها فى ألعابها، تأخذها تحت جناحها... والآن، لم يعد هناك مكان تحت جناحها: إنها تُحضِّن على أمها، على موت أمها.

إن جسد الأم الجاثم يفصل بين الأختين، مثلما كان الحال فى الغرفة الزوجية بكليراك، حينما كانت ليزا تنام لا زالت فى مهدها الخوصى على يسار الأم، وعلى يمينها تنام ڤيرا التى كانت تشاركها سريرها. كان الوضع مؤقتًا: ميشا كان يكمل دهان غرفة الأطفال الثانية، التى ستشغلها بعد قليل الصغيرتان. وكانت الأم قد حاولت أن تأخذ معها الابنة الكبرى، ولكن كاتيا كانت تضرب بأقدامها أثناء النوم، وهكذا، أخذت الأم تحت غطاء سريرها الكبير من التيل، المزيّن برسم راعيات الغنم الوردية، ڤيرا، الأكثر هدوءًا. وفى إحدى الليالى، وبعد كابوس ملىء بالذئاب، استيقظت ڤيرا فجأة، ولكن بدون حركة. كانت ساكنة وصامتة، حين سمعت «الصوت»: لا، ليس طنين الفرن، ولا أنفاس أمها المنتظمة، الأعمق من أنفاس الرضيعة، وإنما شهقات متشنجة،

كما لو كانت مختنقة. الذئب ؟ ذئب يتنفس فى الظلام ؟ كلا : بل أمها التى كانت تبكى، تبكى وحدها، حين تنام بناتها.

ما العمل لمواساتها ؟ من الآن فصاعداً، راحت ڤيرا كل ليلة، عند النوم، تُكْثِر من النكات، وحركات الوجه المضحكة، والأغانى والقبلات، لكى تكف أمها عن البكاء... إنها مكلّفة بمهمة لا يعلمها سواها: السهر على أمها...

(١٢)

كانت أمى فى بداية مرضها تقول: «هذا الطبيب مجنون، قرصان ديانطالڤيك، هل تتصورى، اثنان ! على أية حال، لن آخذهما، إنها تؤلمنى فى معدتى... قرصان، إنه مخبول هذا الرجل ! معتوه تماماً ! يا أمى، اسمعينى، إننا نتعاطى حتى أربعة أقراص لأقل ألم أسنان ! واعتقاداً منى أنى اطمئنها، أضيف: « أنا نفسى حينما تأتينى حالة آلام المفاصل أتناوله. وقرصين فى المرة: هذه هى الجرعة لهذا الدواء. وأقسم لك أنه لا يسبب حرقة المعدة ! بل إننى حين يكون الألم شديداً أزيد إلى...» كانت تقاطعنى بغضب: «أنتِ ! أنت، بالطبع ! أنتِ،...»

هذه ال « أنتِ، بالطبع» الفظة، من أجل قرصين من الديانطالڤيك، كانت تُلْقى بى فى فئة المغرورين؛ منذ كنت صغيرة، حين كنت أجرؤ على الإشارة إلى أن شِارل العاشر ربما لم يتْبع شارل التاسع مباشرة، كانت العبارة اللاذعة تخرج «أنتِ، بالطبع» وتُلْزِمنى الصمت فى التو واللحظة. واحدة من «أنتِ، بالطبع» كانت تعيدنى فوراً إلى مكانى الصحيح: وحدى، خارج القبيلة الحامية.

لقد أثرْت دائماً حنق أمى. لا أعجبها منذ أن وُلدت. تُحبنى، ولكنها تتساءل لماذا.

فى السنين الأخيرة، حينما كنت أصعد لغرفتها لتقبيلها، وتنظيفها، وإلباسها ردائها وإطعامها، كانت تقول لى «أنتِ تُقرقِعين» ! «لا أفهم كيف تُقرقِعين هكذا !» كانت هذه كلماتها الأولى فور وصولى بعد أربع ساعات من السفر. الفرقعة: هو الدوى الهائل الصادر عن انفجار القنابل والمقذوفات. ولكنى لست مذنبة إلاّ فيما خصّ دَهْسى للصمت بقدمى، فى كسره بالسير بطريقة رعناء كما لو كنت أرتدى قبقاباً:

نعم، هذا صحيح... هذا العتاب الذى كانت تستقبلنى به أمى، كنت أخشاه لدرجة أننى كنت، وأنا أخطو فى المدخل، أنتظره، أسمعه حتى قبل أن يعبُر شفاها. كنت أحاول أن أصعد السلم على أطراف أصابعى. بلا فائدة : لا «صباح الخير» ولا «مساء الخير»، ولا « ها أنت !»، ولكن «أنتِ تُفرقعِين !»، هكذا فوراً.

كنت، فى بعض الأيام، أحاول أن أبرر لها : «هذا لأننى أرتدى بوت قصيرة» أو«إن كعب الحذاء مربع». هزة أكتاف. منذ الطفولة وهى تجد خطوتى ثقيلة، ومشْيتى غير رشيقة. وقد اعتادتها مع الوقت، ولكنها لم تستسلم. وحينما كفّت عن فتح أعينها، وصار للأصوات عندها أهمية مفرطة، عاد الدق الذى يسبقنى إلى إثارة ضيقها : إن الصوت الذى ينبئ بقدومى لا ينبئ بأى خير.

كنت أحاول أن أنظر للمسألة من الجانب الطيب. لا شك أننى لا أسير برشاقة مثل شقيقاتى، وأمى تتعذب من ذلك ؛ ولكن بما أنها لم تعد تنظر إلىّ، فهى على الأقل تعفى نفسها من صدمة رؤية تسريحة شعرى وملابسى، التى كانت تتأسى عليها فيما مضى :

«كاتيا يا مسكينتى، إن مصففة شعرك ليست بماهرة على الإطلاق !

يا أمى، تقولين لى ذلك منذ عشرين عامًا، وخلال هذه الأعوام العشرين، تعاملت مع عشر مصففات للشعر، من غير المعقول أن ألتقى بعشر فاشلات !

لا أعلم... انظرى إلى ڤيرا، شعرها دائمًا مصفف جيداً. ودائمًا حسب الموضة.

يا أمى، شعرنا مختلف: ڤيرا شعرها ناعم وكثيف جداً. شعرى أنا منسدل وخفيف. إضافة إلى أن زراعة الشعر على الجبهة تكون كارثية ! كم كنت أود أن أصفِّف شعرى مثل ڤيرا، ولكنى لا أستطيع، أقسم لك («لا تقسمى يا كاتيا»)، حاولت ولم أستطع !

أنت، تنتت، لم تستطيعى أبدًا إختيار مصففة شعر جيدة.»

وفى فترة ما، ترددنا، أنا وأمى، فى الصيف، مصادفة، على نفس صالون التجميل، وتوسَّلْتُ للسيدة الشابة التى كانت تصفف لنا شعرنا أن تشرح لأمى المشكلات التى يواجهها المتخصص، حتى وإن كان متمكنًا، مع شعر من نوعية مقشتى؛ وقد رحبت بالمهمة لسبب آخر أيضًا هو شعورها بالحرج لعدم استطاعتها تنفيذ التعليمات التى تعطيها لها أمى بشأنى عند كل زيارة : «حينما تأتى كاتيا ابنتى (ابنتها الأربعونية !) قصى لها شعرها القصة المربعة الشكل، مع فارق صغير على اليسار، وخصلة صغيرة ملساء على الجانب. ولتكن الجبهة مكشوفة تمامًا. مثل ابنتى الأخرى ڤيرا، خبيرة المحاسبات، التى تقطن فى الميدان: هاك صورتها الأخيرة...»

منذ كفت أمى عن فتح أعينها واكتفت بلوْمى على الصوت الذى أُحدثه، صرت أشعر أن شعرى مصفف بشكل أفضل.

«أيُّهن أكثر جمالاً ؟» كانت هذه لعبة ابتدعتها ليزا. كان عمرها ست أو سبع سنوات، وكنت أنا فى العاشرة أو الحادية عشرة. كيف كانت اللعبة ؟ الوقوف فى طابور أمام أمنا، بعد أن تكون قد«تجمّلنا» – وضعْنا كريم التلميع على شعرنا، والتُوَك الذهبية، والشرائط ذات المربعات السكوتلندية، ودهنا الشفاه بكريم الروزا، مع مسحة خفيفة من «أحمر الخدود». وكنا نقف بعدها فى صف واحد، على طريقة البرنامج التليڤزيونى بلوبل جيرلز، ونصيح: «أيُّنا أكثر جمالاً؟». وكانت أمى دائمًا تأخذ ليزا بين زراعيها قائلة : « أنت الأجمل يا حبيبتى !» لِمَ اللعب إذن طالما كنا نعرف النتيجة مسبقًا ؟» «لإسعاد ليزا»، ترد على ڤيرا التى لم تكن تكره التزيُّن.

عن نفسى، كنت أجد هذه اللعبة سخيفة ! لمدة سنوات، كانت أمى لا تحب إلاّ البنات التى لا تبكى، ولا تخاف من الفئران أو الكمادات، البنات التى تلعب لعبة الحرب، والكرة، والبلى، اللائى يرتدين السالوپيت والبنطلونات القصيرة، والسترات الرياضية والأحذية الطويلة – ثم غيّرت الاتجاه بدون إشعار سابق ! لأن ليزا كانت تحلم بحذاء لامع، وبغطاء الرأس المزيّن بالريش، كان المطلوب هو الابتسام

بتكلّف والتحدث إلى المرايا. على غرار ما يحدث فى قصة الأميرة والأقزام السبعة. وإضافة إلى ذلك، كانت أمى مرآة شريرة، لا تقول الحقيقة: لم تكن ليزا هى الأحلى، وإنما سونيا !

كانت رقم ثلاثة تزلزلنى، بوجهها الذى كالقطة، وعينيها التى تقْرُب من الخَضار، ولونها الوردى كسكر النبات. كما أن سونيا، التى كانت تكبُر ليزا بالكاد، كانت تشارك فى هذه اللعبة المغشوشة بملء مشاعرها. كانت تسأل نفسها بقلق «من هى الأجمل ؟» وهى تجتهد لكى تميل الكفة لصالحها وتستبدل بسرعة صدريتها القديمة ببلوزة بهتت ألوانها. كانت تلعب « جِقًا »، آملة فى كل مرة أن تكسب: «كنت ألحظ ذلك بوضوح، بعدها، فى نظرتها الحزينة... لو أن أمنا، وهى تفعل ذلك، كانت على الأقل تغمز بعينها للكبيرات الثلاث بنظرة متواطئة من نوع: «لا تقلقن يا بنات: ليزا ليست سوى رضيعة !». ولكن، لا شىء. وحينئذٍ، كانت سونييتشكا تبتعد، خافضة رأسها، وهى تشد على حذائها المهترئ. أما ڤيرا، فكانت لا تهتم: كانت تلعب من أجل اللعب. وكنت أعرف، من جانبى، أننى لم يكن عندى أية فرصة، فالطبيعة كانت قد بخلت على بعض الشىء : فبخلاف الابتسامة، لم يكن عندى ما هو ساحر. بل إننى تحسنت مع الكِبر، إذا قارنّا بصورى وأنا طفلة...

فى العام الماضى، وكنت قد ذهبت إلى كليراك للعناية بأمى، تصفحت مع أبى ألبوم صور قديم، ولاحظت، باندهاش، أنه عرفنا ونحن صغيرات. بلى، لقد عرفنا أبانا ! عن جَدْ. عن كل جد ! لا يوجد له أثر فى ألبوماتنا، ولا فى ذاكرتى ؛ ولكنه احتفظ، من إقامته القصيرة بالمنزل، بذكرى واضحة عن «شقيقتى الطفلة» (كما كنت أسمى ڤيرا حينئذٍ) ؛ إنه يحكى لى عن ألعابها، عن كلماتها الأولى: «كانت تعرف كيف تتعامل مع أُمِّكُن (نعم، كانت «مذهلة»، أعرف ذلك)، تنجح فى غَصبِها على الحب: كانت مُقتحِمة كالبولدوزر، تُلقى بنفسها حول رقبتها، وتقول لها «يا أميبى، آه يا أميبى !»، وتُغرق خدودها بالقبلات المبلّلة...».

أتفهَّم أن تحب أمى هذه البنت الصغيرة المليئة بالحيوية والجرأة. كما أحبت، بعدها، ليزا، هذه الجميلة. ليزا جميلة حقًا: أدركْتُ، بعد أن تجاوزْتُ الأربعين، أن أمى كانت على حق. إن جمال سونيا، وهى فى السادسة، والثانية أو الثامنة عشر، كان بسبب قسمات وجهها دائمة الحركة، وبراءة تعبيراتها، وبشرتها الذهبية، وشفاهها المنتفخة، واستدارة جسمها، باختصار بسبب اللحم ذى النوعية الممتازة الذى يغطى هيكلها العظمى من أعلى إلى أسفل. كل هذا الذى كان يجعلها تُحرِّك العواطف، ثم جعلها مثيرة للغرائز قبل الأوان، كان سينمحى مبكرًا: فاللحم لا يظل متماسكًا أبدًا – لقد ترهّل فى بعض المواضع، وفى أخرى اكتنز. الُّغْد، والخدود الهابطة، والجفون المنتفخة : لقد فقدت الزهرة أوراقها... وعلى العكس، أبرزت السنين جمال «الصغيرة الأخيرة، المرتبط بنقاء الخطوط، وتَناسب تكوينها : إن بشرتها تُزاوج وجهًا مثاليًا. أشبه بجريتا جاربو. إن ليزا الشقراء ليست مثيرة للعطف، لم تكن أبدًا كذلك : إنها مثالية.

أما عن طريقة المشى، وروعة القوام، فإن أُمَّنا إختارت ڤيرا مع ذلك، منذ دخلنا مرحلة المراهقة. فقد كانت «رقم اثنين» أكثرنا امتشاقًا، كانت ساقاها تزدادان طولاً... وكانت سونيا التى لا تحب إغضاب أحد تقول : «إنها ملفوفة على أفضل شكل». وتوافقها ليزا التى كانت تردد مثل الببغاء كل ما تقوله أمى «لديها المطلوب فى المكان المطلوب». وهكذا فقدت «رقم أربعة» كرسى العرش لمدة أربع سنوات. وكان التراجع مؤقتًا : فقد عادت إلى بلاط المُلْك فى عامها الثانى والعشرين، بكميات كبيرة من الكليشيهات – «الجمال الساطع»، «النظرة الصافية»، «القامة المَلكية»، الخ. وبصفة خاصة : «إن أختك أكثر رهافة مما تعتقدين، وأكثر حنانًا مما تتخيل» (كنت أنتظر «هناك قلبًا ينبض تحت روب المحاماة...»). لديها أحزانها هى أيضًا. لم تقل شيئًا، ولكنى أخمن ! إننى أجد فيها نفسى اليوم. أرانى حينما كنت فى نفس السن. كما لو أننا، أنا وهى، لسنا إلاّ كيانًا واحدًا – ولكنك خمرية، أليس كذلك ؟»

لم تكن أمي، وهي الابنة الوحيدة، تقدّر المآسي التي تُحدِثها هذه التصنيفات المستمرة بين الأخوة. لم تكن في تفكيرها سوى نوع من توزيع للجوائز يتغير كل عام. ليس كل من يُربِّي «خبيراً في الطب النفسي»، وأمنا، حمداً لله، كانت تسبح بعيداً جداً عن مياه أخطاء القرن : كانت تجهل ألف باء الفرويدية، ولا تمارس الاستماع»، وتبعث بالعقل الباطن إلى النسيان ولا تترك أحداً يستلقى على أريكة. وكانت في عُجالة من إصدار حُكمها، وتحكم على أساس الملامح، فتختار المفضلين لديها وتضع قائمة الشرف: « مارك هو أفضل أحفادى» أو «چيريمى هو الأجمل» أو «أنا فعلاً لا أتحمل جييوم». وبالنسبة لأزواج بناتها، كانت تبدى قدراً أكبر من الحياد: لا تحب أيًا منهم. بإستثناء ويليام ربما، آخرهم، رغم أنه سحب خلفه «رائعتها» إلى أستراليا...

في يوم من الأيام، وكنت قد نزلتُ من باريس لمساعدة أبي في إطعامها («قطعة صغيرة من فطيرة السميد يا أمي ؟ لا زالت ساخنة وسطحها مشوى جيداً، أظن أنني أجدت طهيها »)، فَرمتْني بأنها لن تلمس أكلاتي بعد ذلك طالما لم أتعلم بدهيات الطهو : « إن طعامكِ لا يؤكل يا ابنتي المسكينة ! عظيم شأن هؤلاء المثقفات، ولكنهن لا يُحسِنَّ عمل أي شيء بأصابعهن العشرة ! » ذهبتُ إلى دورة المياه لإخفاء دموعي – بعد الخمسين من عمرى ! لحق بي أبي: هل ليقول لي إنني لو بكيت كثيراً «سأتبوّل أقل» ؟ مسحت دموعي بسرعة وبادرته بالقول: « يا للسخف، إن الإنسان يصبح في غاية الحساسية بعد أن يظل كاتبًا لفترة طويلة !» قال – الإنسان يصبح كاتبًا من فرط الحساسية. كانت هذه أول مرة يقول لي فيها شيئًا بهذا العمق. وبهذه الدقة.

أعرف على أية حال أن الحب ليس عادلاً أبداً، والحب الأموي أكثر من غيره: «هو الذي، أنا التي...» وأعرف أيضًا، أن أمي ظلت، رغم كل شيء، أمًا حقيقية: فبعد أن تكون قد أغدقت على المفضّلين لديها بملء المغرفة، كان يتبقى في قاع الإناء ما يكفى من الحب لإطعام الجوْعى...

لا شك أنها كانت، في نهاية الأمر، أكثر مهارة في التربية الجماعية عما كانت عليه في التربية «على المقاس». فقد قامت، بالأطفال الأربعة (والثلاثة الخاصين

بصديقتها لوين)، وثمانية من الأحفاد (وجوقة أصحابهم)، وبالمنزل الخالى من وسائل الراحة، والأهل المسنين، والقليل من المال، والزوج المتغيب، قامت إذن بتجهيز نفسها، بدنيًا ومعنويًا، لإدارة كتيبة بأسرها: موائد كبيرة، توزيع للأعباء وتنظيم للاحتفالات. كانت تلك تربية ذات «مقاس واحد، ولكنها مليئة بالحرارة، والابتكار والمرح. على الطريقة الروسية ! وبسبب أو بدون سبب، كانت الأقنعة تأتى، وألعاب اليانصيب، والرش بالمياه، ورقصات الروك، وحفلات الرقائق، والأسِرّة المتلاصقة، والهدايا المفاجِئة، والنكات عبر الهاتف، ووجبات الغداء فى الهواء الطلق، وحلقات تقليد الأشخاص، والمقالب، والفوازير، ولعبة «الأستغماية»، ونوبات الضحك المجنونة – باختصار، كل ما لم أعرف أنا أن أمنحه لأطفالى. أنا الفردانية، أحبهم فرديًا، أنا المنعزلة، أحبهم بعزلة ؛ وربما، بحزن ؟

ولكنهم ينادوننى بـ «ماما الصغيرة». لم يكن من الممكن أن ننادى أمنا بـ «ماما الصغيرة». لا يتناسب معها ذلك...

ورغم هذا، كيف كان يمكننى البقاء لو لم تكن قد أحبتنى ؟ كانت شمسى. مثل الشمس، لا غنى عنها للحياة. ومثلها، من شأنها القتل. كنت أبحث عن حرارتها، وأخشى حروقها.

سونيا

ليموج. مدينة الشاتانييرى، الحادية عشرة من صباح الثامن عشر من ديسمبر.

فاتها القطار الأول، لم تسمع صوت المُنبّه : لا بد أنها قد أسرفت فى المنومات أو أنها ليس لديها رغبة فى القيام.... بل إنها نجحت، وتتساءل كيف، فى عدم اللحاق بالقطار التالى. لقد أخطرت كاتيا لتوها بأنها ستتأخر. لا بد وأن ڤيرا سوف تُعنِّفها . تلملم ملابسها المبعثرة فى الأنتريه وتحشرها فى حقيبتها. وتضيف إليها ثلاثة أو أربعة كتب التقطتها على الطاير : عشر قصائد زن وثورة مضادات الأكسدة (وتقرأ على شريط الكتاب « تأخير الكهولة والوقاية من الأمراض» والشفاء من كل شىء بفضل الصور الداخلية (وعلى الشريط: « نحن نحمل بداخلنا عالمًا إيجابيًا قادرًا على إنقاذنا»، وفى الصفحة الرابعة بعد الغطاء : « هذا الكتاب سوف يعلمك كيف تفتح أبواب كونك الشخصى المذهل وأن تستعيد القدرة على أن تحب نفسك ». غير أن مضادات الأكسدة هى الأهم الآن: فرغم أن سونيا لا تحاول النظر إلى نفسها واقفة أمام المرآة، إلا أنها تلحظ جيدا أن ساقيها تغطيهما التعريقات البنفسجية اللون والتى ستتحول إلى دوالى، والدوالى إلى قرح والقرح إلى خراريج... ساقاها توحيان بكبر السن أكثر مما كانت تبدو عليه ساقا أمها منذ ستة أشهر، وتبدوان أقل جمالا منهما. وماذا عن قدميها ؟ إنهما آخذتان فى التشوه، ففيهما الكاللوهات، والنتوءات الجلدية، والتشققات، ناهيك عن عين السمكة فى باطن القدم. هى التى كانت قدميها فى غاية النعومة: كان أحد عشاقها فى الماضى يتغزل فى نعومة قدميها... وكانت لا تصدق أبدا الرجال حينما يقولون لها أنها حلوة، وأن عيونها رائعة وفمها مصنوع للقبلات، وثديها جميل ومؤخرتها الصغيرة تشبه التفاح. ولكن الغريب أنها صدقت ما قاله لها

هذا الشاب عن قدميها. ومنذ ذلك الحين، كانت فى داخلها تتفاخر بهما... ولكن ذلك انتهى الآن. ولو لم يكن لديها بالفعل ما يكفى ويزيد للنواح، لانفجرت فى البكاء الآن لهذا السبب فقط.

حسنا، ثورة مضادات الأكسدة، ولم لا؟ . يسأل مؤلف الكتاب، وهو طبيب « هل تعرفون أن الأوكسيجين الذى تتنفسونه والذى لا غنى عنه للحياة، هو أيضا ألد أعدائكم ؟». شىء مرعب ! ويضيف الطبيب الذى يدير مركز أبحاث بيوكلينيكية للجهد التأكسدى، بلا شفقة: « الأوكسيجين يستهلك جسدك الذى يصبح هشًا وتصيبه الكهولة». ولكن (الآن هناك ولكن) « فى الإمكان إبطاء هذه العملية ! ». تنهيدة ارتياح ! صديقة لها فى مركز التجميل أعارت لها هذا الكتاب. مائتا صفحة : ستكونَ قد انتهت منها قبل الوصول إلى محطة أوسترليتز. ومادامت على أية حال لا تملك ما تشترى به علاجا مضادا للأكسدة، فسوف تبدأ منذ محطة أورليانز فى قراءة كتاب السيدة فاسور البديع حول الصور الداخلية. فالصور الداخلية لا تتكلف كثيرا: فهى، عن طريق التركيز على قدميها، وذكرى قدميها الشابتين، ومن خلال محاولة الاسترخاء والقيام «بحركات تنفس»، و «إسقاط الأليات الدفاعية»، ستكون قد فقدت بالفعل اثنين أو ثلاثة سنتيمترات من مسمار القدم هذا لدى وصولها إلى محطة باريس - أوستيرليتز. بالتأكيد...

تعرف سونيا أنها تقرأ سخافات. أو فلنقل «أحلاما». فهى ليست غبية لدرجة أن... ولكنها فى هذه اللحظة ليست... لا، فهى لم تعد منذ زمن طويل تقرأ إلا كتبًا عديمة الأهمية، وتترك نفسها نهبا للأوهام وتُقْسِم فى نفس الوقت أنها ليست بساذجة. لقد عشقت دائما حكاوى الساحرات. وأجابت على استبيان بروست « ما هى السعادة بالنسبة لك ! » بأنها قراءة إحدى قصص الساحرات وهى مستلقية. لا شك أنه يتعين عليها التماسك. تقول لها فيرا: « تماسكى». وأحيانا، حين تقول لها أختها هذه الكلمات فإنها تسمع فى صوتها رنة دامعة. «تماسكى»، أى « أعيدى طلاء جدرانك الأربعة يا سونيا، الأربعة ! الليمونى المُخضر أو الأخضر الينسونى، لا يهم، ولكن

أكملى المهمة ! »، و«اغسلى بنطالك الجينز »، « أنزلِى الصناديق »، « اكوى قمصانك »، « نادى على ابنك »، « اكتبى إلى التأمينات الاجتماعية »، « ادفعى ضرائبك »، أى باختصار « رتبى غرفتك ! »، رتبى غرفتك وإلا...

حاجياتها جاهزة. لا يتبقى سوى سحبها حتى محطة ليموج هذه التى كان ميشا يدَّعى، فى جداله مع زوج ابنته، أنها الأفضل موقعًا: فى وسط المدينة الأكثر مركزية فى فرنسا، والمُتصلة بكافة البحار الهامة - «لا يوجد مكان آخر يمكن لأولجتى أن تكون فيه أكثر قربًا من سُفُنِك». آه يا ميشا يا ملعون...

آه، لقد كادت تنسى أقراص الإسبيرال: لقد بقيت على منضدة المطبخ. إنها حاليا لا تشرب: تتناول إسبيرالها كل صباح، وتتمكن من « المقاومة » حيث إن تعاطى الكحول يكون مستحيلاً لخمسة أيام تالية لكل حبة- إذ يكون خلالها مؤلما وخطيرا -. سوف تقاوم حتى وفاة أمها. و لا يهم بعد ذلك. فمن أمها يأتى كل ألم، ، وكل عزاء، وكل الاتهامات أيضا. فيما بعد...

ولكنها ليست فى نهاية الأمر فى حاجة لأخذ أسبيرالها معها، مادام يظل فعالاً لخمسة أيام. - فقد قالت لها فيرا ما معناه إن أمهن ستكون قد ماتت فى غضون خمسة أيام... وإذا افترضنا أنها تركت اليوم إسبيرالها فوق منضدة المطبخ، وأنها لم تتمكن من تناوله فى الغد، سيكون فى مقدورها اذن أن تعاود الشرب قبل الجنازة مباشرة. فحينئذٍ ستكون بلا شك بحاجة لذلك. إذ يتعين عليها أن تستمد القوة كل مساء لكى تتمكن من المقاومة حتى اليوم التالى. أو ليس من المناسب إذن أن تنسى الإسبيرال منذ الآن، أليس كذلك ؟...

وألقت سونيا حقيبتها بسرعة على كتفها وأغلقت باب شقتها.

ليـزا

فندق سـتـار، محطة مـترو سـاڤـر. ليزا تغسـل كوبها وتضـعـه على الرف بجـانب الغـلاية الكهربائية وأكياس الشاى والبسكويت والقـهوة : الفندق لا يقدم الإفطار ولكنه يضـع، فى جانب من الغرفة، ماهو ضرورى للنزلاء الكسالى أو المفلسين الذين يفضلون تناول النسكافيه مع البسكويت على الكرواسون والقهوة بالقشدة فى المقهى المواجه.

ليزا تتسكع بقميص النوم. لديها فائض من الوقت هذا الصباح: أمـها ليست فى حـاجة لمرافقة ؛ لا بد وأن سونيا قد حضرت من ليموج، والأحفاد المقيمين فى الإقليم يأتون لرؤيـة« بابو »، يوم السبت، برفقـة الصديقـات الحـاليـات ، وهُنّ لا يطلبن أكثر من ذلك «أحب جـدتى، هل تفهمـينى ! خـالاتى يقلن أنهـا ستموت... ولكنى لا أصـدق ذلك. مؤكدٌ أن حالتـهـا سيئة، ولكنهـا الآن تلقى رعاية جيدة فى مسـتشـفى ممتـاز. إن ثقتى كبيرة»

مـر جـيـيـوم منذ قليل بالسـيـارة مع صـديقـه لاصطحـاب جـده من الفندق إلى المستشفى. ليزا ذهبت إلى هناك مرتين أو ثلاث يوميًا – ولم تتغيب سوى نصف يوم، بسبب الصداع النصفى. أمـامها مـا تعوضـه مقارنة بشقيقاتها : فكثيراً مـا لم تشارك سـوى عن بعـد فى أحـداث هذا المرض الطويل، الذى لا نهـاية له. هل ينبـغى القـول «الاحتضار» ؟ لا، فما من أحد يحتضر طيلة خمسة أعوام. ومع ذلك...

« أمنا واكتئابها، أمنا وعلاجاتها، أمنا وعمليتيها، أمنا وتمردها، أمنا وفقدان شـهيتـهـا، أمنا وعـجْزِها، أمـنا وقروحـهـا، لقد فـاض بى ! لقد صـرت عـجـوزا الآن، وأعـانى من التـهـاب المفـاصل، وشـعـرى يسـقط، ولم أعـد أرى عن كثب، إن تراجـعى

مُبرْمج وتُضاعف أمى من سرعة البرنامج، إنها تقتلنى !» كان هذا ما قالته لى كاتيا منذ شهرين أو ثلاثة عبر الهاتف، هى الغاضبة من ڤيرا بخصوص خادمة أو مساعِدة على الحياة... ليزا تعرف جيداً أنها «الأسترالية» تبقى مَدينة. عليها ديون. عليها ديون.

تذهب إلى المستشفى وتعود منها مرتين فى اليوم. محطة المترو، فالكنيسة، فالميدان. السماء تُمطر. أوراق شجر الجميز الأخيرة راقدة على الأرصفة، لم تتم إزالتها – ونحن فى منتصف ديسمبر! صحيح أن الخريف لم يأت مبكرًا هذا العام: فالأوراق لا تزال خضراء، ومتشبثة فى فروعها... شارع شيزى، ساحة شاتو، السماء تمطر، سقطت الأوراق وتكوّمت فى طبقة كثيفة، تسير بسرعة. تظن أنها تأخرت. ولكنها خائفة من الانزلاق. على امتداد حدائق المستشفى، الأوراق تغزو عرض الطريق، وتفيض من المزاريب. فى الصباح، لا تزال الدنيا ليلاً، وتصبح ليلاً بعد الظهر: تحت قدميها، السجادة المُصْفرّة تزداد زلقا كل يوم، تتعفّن، وتصير سائلة، إنها مثل العصيدة، مثل الإسهال. عيناها تؤلمانها، وتشعر بالغثيان... فى بعض الأحيان، النادرة، تسقط ورقة بعيداً عن الأخريات: قطعة ذهب لامعة على القطران الأسود. هل أفلتت من الهلاك ؟ لا، بل ماتت بجمالٍ، ماتت ميتة واضحة. فى عزلة.

ليزا ترفع الغطاء المُصْفر الذى يخفى نافذتها. اختناقات مرورية، طلقات نفير، مظلات المطر. فى الشارع أمام المستشفى، تُفْرِغ الستائر المعدنية فائضها من الماء فوق المارة. طوى الكُشْك فرشته، واحتمى البائعون بسرعة أسفل المترو الجوى. مظلات سوداء، ومظلات رمادية لامعة ، مثل الخنافس، تتدافع فى إشارات المرور الحمراء. اليوم مُفعم بالحماسة: إنه يوم سبت ما قبل الميلاد – ما قبل« الهدايا». سبْتٌ يحمل مصروفات ثقيلة. وقد أضاءت المحال واجهاتها.

ليزا تبحث عن السماء. إن السُحُب هى أكثر ما تستوحشه هنا، السُحُب الكبيرة التى تراها من مكتبها تعبر خليج سيدنى. قِطْعان، جبال، منحدرات، أجراف، ندفات، غزل البنات ؛ سُحُب تنتفخ، تنزلق، تتمدد وتتقطع، خيوط بيضاء فى رمادى، رمادية فى

بيضاء، وردية فى رمادى، سُحُبٌ تتجمع، تتكوّم وتتفرق، وتحملها معها، وهى ثابتة، فى هروبها المستمر. تتابعها على شاشة نافذتها الكبيرة، كما لو كانت تشاهد فيلمًا، مسحورة بمشهد السماء، ما بين ملفيْن، تلك السماء التى تُعتبر، بعد تفكير عميق، أجمل مشاهد أستراليا. ولكن، يتعيّن ألاّ تبتعد كثيرًا عن الساحل لكى تستمتع بها بأقصى درجة ! فلا يوجد شىء فى الداخل، لا هالات ولا غابات ؛ هواء دائم الزرقة، وتربة دائمة الحُمرة، والرمل، والدغل والحصى. سماء مسطحة، وتُربة عارية : القمر بدون الفوهات. لا أحد «يختار» أستراليا، إلا اذا كان رائد فضاء.

ومثل بنات جبل الليموزان، لم تكن تحب إلاّ الأشجار وينابيع المياه، شجر البلوط والشلالات، البحيرات وشجر القضبان. تجد ضالتها فى الصحراء ! ولكنها فى إحدى لحظات حياتها أرادت جزيرة – احتاجت جزيرة. وقابلت ويليام.

إن ويليام رجل تحوطه المياه. إنه قطعة من اليابسة، ولكنها منعزلة تمامًا. تعتقد وأنت بين ذراعيه أنك فى أمان – غير مرئى، لا يمكن الوصول إليك، بعيد عن المتناول. حينما قررت ليزا أن تحب ويليام، لم تكن تعرف أنه جزيرة « واضحة المعالم »: مواطن بريطانى مقيم فى أستراليا... لا يهم، من الأفضل أن تكون آمنًا عن نادمًا: ففى الجزيرة ستوجد بحيرة، وفى البحيرة صخرة، وفوق الصخرة قلعة.

كانا قد أمضيا سويًا أياما (ليالٍ) قلائل فقط، حين تمكّن ويليام من أن يقول لها أنه سيكون ملاذها. قالها وقد اقتبس كلمات شخص آخر – مُغَنٍ من السبعينيات، اتجه بعد ذلك إلى الدعوة تحت اسم يوسف إسلام. حينما كان اسم هذا الرجل كات ستيڤنس، ولم يكن قد وجد الله بعد، كان يتطرق إلى الشعر : وبمصاحبة بيانو لاذع ومعدنى الصوت، كان يغنى عن فتاة ضائعة فى الليل، فتاة تبكى دون أن تقول لماذا : «ليزا، ليزا، ليزا ليزا الحزينة ». هل تذكّر وليام الأغنية بسبب تشابه الأسماء فقط ؟ حينما ضم ليزا إليه وهو يغنى لها تُعلّق رأسها على قميصى وتبكى ! مؤكد أنها مجروحة جدًا، اعتقدَتْ أنه فطِنَ إلى ما بها. وأنه سوف يُخرِج ظلالها إلى النور. وعرفَتْ، وهى مستكينة إلى صدره، عندما همس لها بنهاية المقطع، أنها لن تتركه أبدًا.

الحقيقة أن حكاية الأغنية هذه كانت خارقة للعادة – من الصعب ألا ترى فيها علامة من السماء ! لأن أغنية ليزا الحزينة لم تكن قد نجحت كثيراً فى فرنسا، علاوة على أن ليزا وويليام حين التقيا فى الثمانينات، كانت كلمات الأغنية وموسيقاها، بل واسم يوسف إسلام ذاته، كان قد طواهم النسيان. ليزا لم تعرف هذه الأغنية إلا عن طريق كاتيا، التى كانت قد اشترت إسطوانتها فور صدورها ولم تكن تتوقف عن سماعها : « اسمعى يا ليزا، إنها سيدة ترتدى السواد وتحيك بخيط أسود. يوجد فى منزلها مفارش صغيرة من الدانتيلا، وهذا البيانو القديم الذى لا تضرب عليه أبداً. كانت أختها الصغيرة هى التى تلعب عليه... الجو بارد. وهى وحيدة. هل ترينها ؟» ليزا كانت تراها فعلاً. وتضيف كاتيا «سأكتب قصتها فى يوم من الأيام.» إن الروائيين، هؤلاء السُذّج الكبار، يتخيلون أنه سيكون لديهم الوقت لكتابة كل الحكاوى التى حكوْها لبعضهم ! ولكن كاتيا ساروف، فى سنها هذه، لن تكتب عُشر الروايات التى حلُمت بها. ولن يعرف أحد أبداً ماذا كانت ليزا الحزينة تُخفى.

أما ويليام فقد كان يواصل بذل قصارى جهده. فالكثيرون جداً من الرجال ما كانوا قد أطالوا البقاء مع امرأة مثلها ولكانوا قد تركوها بالفعل. فحينما يكف لوهلة عن ملاحقة ديناصوره المحنط ويعود إلى قرنِه، كما لو كان قد أخطأ فى ذلك، يجدها حيث تركها : وسط ملفاتها، ومنظماتها غير الحكومية وقضاياها النبيلة ودعاواها السيئة؛ كان يجدها وقد ظهر عليها الزمن بالكاد، بنفس الجمال، هادئة، واضحة، ويائسة؛ يجذبها إلى كتفه، يُملِّس على شعرها، يهدهدها قليلاً : ليزا ليزا، ليزا ليزا الحزينة.

وهنا – بالقرب من أمها، وبين شقيقاتها، فى فندق ستار أو فى الغرفة الوردية، أمام أبيها أو أبناء أخواتها – تحس أنها كالذبابة داخل كوب مقلوب. أين المخرج ؟

حتى وهى فى سيدنى،فور أن تتوقف عن العمل والتحمس، تعرف أنها محاصَرة، فى الفخ. لا بد وأن تكون غاضبة لكى يتوقف إحساسها بالحزن. لابد وأن تكسر الكوب.

لقد فهم جسدها منذ الطفولة ما رفض عقلها طويلاً أن يقبله : أنها عنيفة.

في البداية، كانت تُحطّم. كل ما تطوله يداها من أشياء صغيرة في القبو أو في ورشة ميشا... وفي يوم من الأيام، أمسكها جدها من ضفائرها : « قولي لي يا من تحطمين البيت، هل أنت التي تخربين أحيانًا الأشياء القديمة التي أجمعها وأُصْلحها لإسعاد أمك ؟ اسمعيني جيداً يا مُخرِّبة، إذا رأيتك ثانية تحومين حول ورشتي، سوف أعلقك من أذنيك !

كانت تحطِّم حتى ما تحبه : مثل هذا الصبي ذي العيون الناعسة المصنوع من السيلولويد، القوي ولكنه هش. في يوم من الأيام، سقط منها بسبب رعونتها على حَجرٍ في الحديقة، وانقطع اثنان من أصابعه؛ وكان حزنها كبيرًا لدرجة أنها اضطُرت لأن تكرهه ؛ ونزلت عليه بضربات كعب حذائها حتى فتّتته، «طفلها» – بلا ذراعين، بلا سيقان، وبلا بطن، شظْفات من البلاستيك الوردي، مغروزة جزئيًا في الأرض... غير أن الوجه قد بقِي؛ لم تجرؤ على المساس بالوجه الذي كان لا يزال ينظر إليها بحزن بعينيه الكبيرتين من الزجاج الأزرق. أمسكت بعصاة، وغرزتها في إحدى العينين ودفعت بقوة حتى انقلبت العينان وسقطتا في تجويف الرأس. وبعدها، شعرت بالراحة.

بدأت المشاكل حينما غزلت أمها صديرية صغيرة لـ«نيكولا» (هكذا كانت ليزا تسمي طفلها): «صنعتها لك بالأمس من بقايا صوف بعد أن انتهيت من بلوڤر ڤيرا. تعالي، سوف نجربها على سبّاحك، ستكون رائعة.»

ولكن استحال العثور على نيكولا: «هل أضعتيه ؟ هل تركتيه في مكان ما ؟» نفيٌ صامت من ليزا، ولكن بشدة. «أين لعِبْتي به آخر مرة ؟ – هنا !» (تشير إلى المهد). تكاد تكون صادقة. فهي لم تعد تعرف كيف حدث ما حدث. تشعر أنها بريئة ما دام لم يتبق أثرٌ من الجريمة: فبعد أن ترك الغضب مكانه للحزن – حزن مضاعف حيث لم يعد لها طفل تهدهده –، كانت قد دفنت البقايا أسفل حجر مكسو بالطحالب

عند الحاجز، تحت نبات الجلايسين. هل كان ذلك من باب الحيطة ؟ أم احتراماً! قبرٌ لنيكولا ! كلا، الأمر يتعلق فقط بالتخلص من الأشياء غير اللازمة، بإخفاء الفوضى والقذارة. إخفاء الماضى. ترتيب الحاضر. وحينما أصبح واضحاً، رغم تعبئة العائلة، أن نيكولا غير موجود، وأنه قد «اختفى» فعلاً، ذرفت ليزا دمعة سخينة - كيف يمكن العيش بدون طفلها !

وضاعف هذا الحزن الصامت من نشاط أمها. ففى اليوم التالى، وأثناء وجود البنات الأربع فى المدرسة، شرعت فى عملية تفتيش منهجية للحديقة ولمحت، بالقرب من نبات الجلايسين قطعة عظمية وردية : قطعة من السيللولويد بحجم ظفر الإصبع... ورغم أنها لم تفكر فى إزاحة أحجار الساتر، فإن هذا الاكتشاف جعلها تظن أن اختطاف نيكولا ربما انتهى بالاغتيال. والدافع ؟ عملية انتقام قامت بها «بنت»، صبية صغيرة. فاجرة. الرغبة الشريرة فى إتعاس ليزا. ولدى العودة من المدرسة، وأمام دليل الاتهام الوحيد، واجهت الكبيرات الثلاث استجواباً دقيقاً. ولم تعترف أيهن.

كانت ليزا التى استعادت الذاكرة تبكى: ولاذت بالصندرة بدون انتظار الحكم. ولحقت بها أمها واعتذرت لها لاضطرارها لإخلاء سبيل المشتبه فيهن لانعدام الأدلة ووعدت «الضحية» المُنهارة أنها سوف تجد فى المدفأة فى عيد الميلاد القادم نيكولا أكثر جمالاً من الأول: نيكولا من أحدث طراز «بشعر مزروع من النايلون»، طفلاً يمكنها غسل شعره بالشامبوه.

وفى أعقاب الموت المفاجئ لنيكولا، جاء إغراق خلية النمل، المفاجئ بنفس الدرجة. ثم حادث الكتاكيت. الذى وقع فى الطاحونة، حيث كانت الجدة سولانج تربى بعض الدواجن والأرانب. كانت ليزا تحب إطعام الأرانب من خلف سياج أقفاصها والركض وراء الدجاج. وكانت متعتها أكبر عندما يكون للدجاجات كتاكيت : فحينما كانت تجرى خلف عائلة صغيرة، كانت الأم ترتعب، تضرب بجناحيها، وتُنقْنق، وتحاول بلا جدوى تجميع أطفالها للعودة إلى الطريق الصحيح - تحت جناحيها الكبيرين-، فى حين

يتبعثر الصغار، ويهربون فى فوضى، وهى، بعد أن تعجز فى سباقها اليائس عن التحليق، تنزلق على بطنها بطريقة مضحكة وتتلوى على الأرض. وكانت الطريقة المثلى هى شق المجموعة، وعزل أضعف أو أغبى أفرادها، والركض أسرع منهم، وترك أمهم السمينة تصيح بملء حنجرتها.

وفى يوم تمكّنت ليزا بهذه الطريقة، أن تُبعد بابا ياجا – الدجاجة البيضاء، التى كانت تفقس أفضل البيض –، عن اثنين من أبنائها دفعتهما فى اتجاه البحيرة، لكى ترى إذا كانا سيتمكنان من العوم مثل صغار البط. ولكن هؤلاء الجبناء كانا يتحاشيان المياه، ويزقزقان فى هلع وهما يركضان على حافة البحيرة، ويغوصان فى التوت الشوكى ليختبئا. وكانت ليزا تخرجهما بعصاها ويُستأنف السباق. كانت تتمتم بغيظ : «سوف تسبح يا أحمق، سوف تسبح » وتضرب بعصاها فى الأغيال. وبدأ الكتكوتان يتعبان، كانا يجريان بسرعة أقل، وقد صمتا. وشعرت ليزا بغضبها يزداد : «سوف تسبح، أليس كذلك؟» وكان الكتكوتان قد التصقا أحدهما بالآخر، تحت نباتات السرخس بالقرب من الجسر الخشبى، وقد راحا يرتعشان، كانا يشعران بالبرد. وضربت ليزا بقوة أكبر. وانبطحا فى نفس الوقت.

تركت عصاها. واستغرقها بعض الوقت لالتقاط أنفاسها، كما لو كانت قد بكت طويلاً. ثم انحنت فوق الكرتين الصفراوين الصغيرتين وأمسكت بهما الواحدة بعد الأخرى فى يديها : كان الكتكوتان لا يزالان دافئين، ولكن عيونهما مغلقة. لم يكن قد سبق لها رؤية كتاكيت عيونها مغلقة. وأحست أن جفونهما بشعة، مثيرة للاشمئزاز: شىء وردى منتفخ ومجعّد؛ كرتين زجاجيتين ميتتين، بلا رموش، يعلوهما جلد خشن... ومع ذلك فالباقى كان كما سبق، ناعمًا للغاية، جميلاً للغاية : حتى الأرجل الصغيرة المُنكمشة، التى تشبه تمامًا أصابع المولود لدرجة أن المرء يرغب فى لمسها و الربت عليها... ولكن هذه الجفون الصلعاء، يا للبشاعة ! وألقت بالكتكوتين فى البحيرة، التى جرفتهما.

وكثيراً ما رأت لاحقًا جفونًا وردية فى كوابيسها . ولم تقتل بعد ذلك سوى دوداً أبيض وخنافس. وبدأت فى قضم أظافرها ، ونزع «قطع جلد صغيرة» من أطراف أصابعها، وحكّ نفسها حتى تدمى، والاصطدام بكل قطع الأثاث ، وجرح نفسها .

وكان إيذاء ذراعيها ويديها يساعدها على تفريغ غضبها ، ولكنه لم يكن يحميها من الجَزَع: ففوق جسدها الذى اكتسى بالدمامة، جسدها المكروه، كان الحب الهائل لأمها ، مسلّط كالسيف، ثقيل إلى حد الهشاشة، مشدود لدرجة أنه سوف ينتهى بالانقطاع.، فقد كانت حرارتها الزائدة يمكن فى كل لحظة أن تتحول إلى ثورة عارمة: «ماذا فعلت للرب لكى أُرزق ببنات مثل هاتى ! أُقسم أنك وأختك قطط هائجة ؟! حتى قالت فى يوم: « لقد قلت لك رأيى يا ليزا . أنت حرة إن لم ترغبى فى الأخذ به ؟. ولكن فى هذه الحالة، تتحملين التبعات وترحلين : الباب مفتوح...» لا، الباب مغلق حينما تكون فى السادسة عشرة: أين تذهب ؟ كيف تحيا بدون حب أمها ؟ خاصة وأنها المفضلة لديها . طفلتها الرضيعة، أسيرتها . «هل تعقّلت ؟ سوف ترين، سوف يخدرونك قليلاً، مثلما يحدث عند طبيب الأسنان...» ذبابة داخل كوب مقلوب.

اكتشفت ليزا القانون فى وقت لاحق، وهى فى الثامنة عشرة. القانون سلاح مسموح به. واليوم، هى تنزل على رأس العدو بضربات اللوائح، وتقصفه بمواد القوانين، وتشق صدره بالبنود... إنها تحطِّم الكوب، وتطرد غضبها ويستسلم العدو. إن لم يكن شريراً للغاية.

(١٣)

يبدو أن النهاية الطيبة للحياة يجب أن تُمكِّن المريض أو العجوز من تقبُّل ما هو حتمى، من أن يستسلم. قرأت هذه الفكرة القوية فى أحد الكتب النفسية التى نجدها على حامل المطبوعات الموضوع فى الممرات الرئيسية بين أقسام محال السوبرماركت الضخمة. وحسب هذا الوصف، أجدنى أتفهم بشكل أفضل تمرد أمى : فهى ابنة المقاوِم، ولا تستسلم. كان أبناء البلد يقولون عنها: «أمك، نرفع لها القبعة ! إنها مقاتلة !»

كانت تدافع عن المستهلك حينما كانوا لازالوا يلقبونه بـ «العميل». لقد احتفظت من طفولة عاشتها فى زمن السوق السوداء، بشىء من التوجس إزاء التجار، المتهمين بإضافة الماء إلى حليبهم والتلاعب فى زُبْدهم. وفى فترة حملة تابعوا البقرة، رأيتها، مثلما رآها الشارع بأسره، تُرغم صاحب السوبر ماركت الصغير على استعادة فخذة لم تخْش من أن تأتى بها فى طبق الپايركس الذى كان لا يزال ساخنًا: «إنها رقائق ورق يا سيدى، ليست هذه بشرائح لحم أُقطِّعها بعد الإنضاج، وإنما رقائق ورق! لأن هذا ليس بكتف: وإنما قطعة عظم، مجرد عظمة مُغلّفة، بل والأنكى أنها مغلّفة بفتات الطعام، النفايات ! وإذا تركناكم تفعلون ما يحلو لكم، لبعتم لنا قطع الذبيحة المخصصة للقطط على أنها كبد العجل !» أو ذلك الحلوانى الجديد، ذو الوسامة التى يستحيل معها أن تكون شريفًا، والذى أجبرته، أمام الزبائن الذين ملأوا محله، على ابتلاع قطع الإكلير الفاسدة التى يبيعها: القشدة فاسدة ! هل تعلم السبب ؟ لأنك بعت لى ما تبقى عندك من الأمس ! وعرّضت أطفالى لخطر التسمم ! هل تدّعى أن حلواك طازجة ؟ هل تجرؤ على الزعم بأنها طيبة ؟ إذن كلْها. بلى، بلى، أنا مصممة

على ذلك يا سيدى : كلْها أمامى ! هيا، كلْ المزيد ! اجتهد قليلاً ! وبعد أن أكل قطعة الإكلير الأولى، كان المتهم، الذى تلبكت أمعائه، يطلب العفو ويعترف بفعلته. واستدارت أمى، المنتصرة، إلى الحضور: «الأمر متروك لكم سيداتى وسادتى، لمواصلة الابتياع من هنا، ولكننى شخصياً لا أتعجّل السُكنى فى المقابر ! أما أنت، أيها المُسمِّم، انظر إلى جيداً، هل رأيتنى !»

حتى الحكومة، فى أكثر مظاهرها استبداداً، عانت من مُصلِحة المظالم هذه: مديرة مكتب البريد العابسة، الشرطى المتسلط، موظف شباك التذاكر فى شركة السكك الحديدية متقلب المزاج، كلٌ بدوره كان يتلقى نصيبه. لا تهديدات على الإطلاق (من نوع « سوف تسمعون أخبارى ») أو رسائل إلى المديرين: كانت أمى تفضل الشفهى عن الكتابة، والحاضر عن المستقبل – كانت تُسوِّى حساباتها بدون وسيط أو تأخير. ولكن مع قدْر من الابتكار : ففى عهد الرئيس رونيه كوتى، اخترعت الاعتصامات والوقفات. كانت، وحدها فى أقاصى إقليمها، تمثل ٦٠ مليون مستهلك ورابطة حقوق الإنسان !

ورغماً عن ذلك، فما من شىء فى حركاتها كان يوحى بالمرأة السليطة: فقد كانت، فور خروجها من المنزل تشعر بالحرج من تواضع أصولها ومداركها (« معرفتى الضئيلة»، كما كانت تقول)، ولا تبحث عن الفضائح. غير أن استغلال النفوذ السائد، كان يلقى بها فوراً فى معمعة الفعل. «مثلما كان الحال فى الأربعينيات» ! فقد كان شارب زورو يخفى أحمر شفاهها البيزيه، ولم تعد تتراجع لا أمام الخوف ولا التعقل : فقد كان تفاوت القوى يحفِّزها بدلاً من إيقافها.

لا عجب إذن أن تتمسك مثل هذه المرأة بأن يتسم أولادها بالجسارة ! ففور خروجنا من حفّاضاتنا، كنا نتلقى تدريبًا مكثفًا وسريعًا لقادة الشبكات: من أجل الحرب القادمة، كان يلزمها بنات مُخْلصات، جريئات وحمولات. فلم يكن فى هذه الذُرية التى أرادتها ذكورية، مجالاً للأمهات الدلوعات، ولا الآباء الليِّنين. وحينما كانت تصحبنا إلى مستوصف حماية الأم والطفل، من أجل التطعيمات وتحاليل الدم أو

لخياطة جرح، كنا نثير إعجاب العاملين والأمهات: كانوا يحقنوننا فى كل مكان، بدون أن نتحرك. وسألها أحد الأطباء مندهشًا فى يوم من الأيام « ولكن بماذا تَعِدين بناتك يا سيدتى؟ كم قطعة من الحلوى ؟ ردت أمى بفخر – بلا شىء على الإطلاق».

بلا شىء بالفعل، لم تَعدْنا بشىء – إلاّ بالأسوأ: الألم الذى لا ضرورة له والموت فى النهاية ؛ كان كافيًا أن تحدِّثنا (بجدية أو بقسوة ؛ فهما شىء واحد حين تكون فى الرابعة من العمر) عن تجربتها القديمة كممرضة متدربة: فى مستشفى تروسو، كانت قد اكتشفت عشرات الأطفال المستلقين فى أسرِّتهم الصغيرة البيضاء، أطفال شاحبون يفتحون لهم بطونهم، ويقطعون لهم أذرعتهم، وأرجلهم. كانوا يتألمون كثيراً ، ولكنهم أبدًا لا يبكون ؛ أحيانًا ، كان بعضهم يموتون، رغم قوة إرادتهم، فالأطباء لم يستطيعوا إنقاذهم، هكذا هى الحياة. « إذن يا بناتى، قبل أن تصرخوا لأنهم يوخزونكم فى أردافكن، أطلب منكن أن تفكرن لحظة فى المرضى الصغار بالمستشفيات الذين سوف يموتون بدون أن يبكوا . مجرد التفكير للحظة. وبعدها ، تفعلون كما يحلو لكن...» لكم أن تتخيلوا ! كان هذا الحديث يؤثر بفعالية كبيرة فى بنات أمنا !

لا شك أننى كنت أتساءل أحيانًا وأنا أكبر، كيف لصلابتى أن تخفف من ألم من بُتِرَت أطرافهم أو من أصيبوا بالسل... ومع ذلك : لم يسحبوا أبدًا منى دما للتحليل بدون أن تصحبنى «أسرِّتى البيضاء الصغيرة ! » ومنذ سن السراويل القصيرة، وحين يتم تحضير آخرين من أجل الشهادة الإعدادية، أو تسجيل أسمائهم فى السباق القادم، كنا، أنا وشقيقاتى، يتم تكريسنا لحرب العصابات أو التضحية ؛ كان لدينا أبطالنا الصغار، الذين سقطوا فى الجبهة...

وها هى اليوم السيدة التى علّمتنا أن نسمو على آلامنا، تخدعنا لمجرد تناول قرص الدواء ! ها هى تصف أنبوب التصوير التليفزيونى بأنه مدخل للجحيم ! ها هى تتكلم لشهور عدة عن علاج كيماوى استغرق يومين ! لم تُظهِر فى المرض، «المرض الطويل»، أنها على مستوى ما كانت علمته لنا. لا تكف عن الشكوى من ظلم القدر،

والثورة ضد العلاجات، والمعالجين، والمساعدين ! تواجه الموت بوجه حزين و الحياة بالعبوس، إنها ليست قوية وصلبة فى شىء.

وقد غضبت عليها لذلك فى البداية. كانت تفقد هيبتها، كانت تخون، وتهرب من الميدان. ثم فكّرت فى برنانوس، والرهبان الكرمليين، فى الموت الخائف، المُخْزى لرئيسة الدير، والموت الجليل للراهبة حديثة العهد، الفَزِعة. وقلت لنفسى إن أمى، هى أيضًا، قد قبِلت، عن حب، «مبادلة» موتها بموت شخص آخر : فبتنحيها أمام بناتها وأحفادها عن كل كبرياء، ربما كانت تُعِد موتًا أكثر نعومة لأقلنا صلابة – أنا، من عساه أن يعرف ؟

والمأساة فى حقيقة الأمر تكْمُن فى أنها تمتعت طويلاً بصحة ممتازة: فهى لم تُنقل للمستشفى أبدًا حتى الآن وهى فى الثامنة والستين. ولا حتى عند الوضع : فقد وُلِدنا فى «المنزل». إن عدم نقلها للمستشفى أبدًا يعنى أنها لم يتم تخديرها من قبل، ولا أخذ عينة منها للتحليل، ولا أُجْرى لها كشف بالمنظار الأليافى أو منظار المرايا؛ بل ولم تخضع حتى للتجبيس.

إن المستشفى، الذى كانت تحدثنا عنه كمن يعرفه جيدًا، لم تعرفه إلاّ فى الثامنة عشرة، كدارسة للتمريض : أى من الناحية الأخرى من الحاجز. واكتشفته وهى مريضة : « شىء لا يطاق أن يدخلوا الغرف هكذا كل لحظة، حتى فى قلب الليل ! لا أستطيع النوم... –لا جدال فى أنك لا تعرف الراحة فى المستشفى... – أما عن الوجبات ؟ إنهم لا يتورعون عن تقديم أى شىء... – وفوق ذلك يجعلوننا نتناول العشاء فى الخامسة بعد الظهر ! هل تتصورين ذلك ؟ – بلى، أعرف، هكذا هى المستشفى... – وتلك الضوضاء فى الطرقات، « طرقعة » العربات ذات العجل طيلة اليوم ! – هكذا هى المستشفى... – ماذا أقول لك عن الطريقة التى يعاملون بها المرضى : إنهم ينهروننا كما لو كنا أطفالاً فى الخامسة ! هذا شىء يصيبك بالطفولية ! – المستشفى يا أمى...»

الشيء نفسه بالنسبة للموت: كنا نعتقد أنها اعتادت الاحتضار والعبور، ومستعدة، أكثر من أى شخص آخر، للحظات الأخيرة – ألم يمت أبوها وأمها بين ذراعيها ؟ ألم تحْكِ لنا مئة مرة ، كيف، وهى ممرضة شابة، كانت تطيل البقاء مع المحتضرين – لِصْق فراش تلك المسنات الوحيدات اللائى كن يحتضرن وهن يطالبن بأبنائهن ؟ كانت تمسك بيدهن وتقول بحنان : «ها أنا ذا يا أمى»، وتبقى أحيانًا حتى النفس الأخير. وكان المعالجون المتمرسون يهاجمونها بقسوة : «يبدو أيتها المتدربة أن لديك فائضًا من الوقت!»

لقد تعاملت أمى طويلاً، وبشجاعة، مع الموت، ولكن من «الجانب الآخر». وهى تشعر بالدهشة، والغضب، لرؤيته عن كثب.

(١٤)

إذا حاولت أن أربت على ذراعها، تُبعد يدى بحركة حادة من معصمها، كما لو كانت تهش ذبابة. إذا ملّسْت على شعرها ترفع الحاجب وتتنهد. وإذا مسحْت لها، مثلما تفعل ڤيرا، وجهها بورقة معطّرة، تدير رأسها، وإذا بدأت فى تدليك قدميها، مثل سونيا، تنأى بكعبها لثلاثة سنتيمترات – وهى مسافة شاسعة بالنسبة لحالتها. جهد خارق لكى تهرب منى ... وفور أن تلامس أصابعى جلدها، فى أى موضع كان، تهمس: «اتركى ذلك !»، أى ارحلى من هنا.

إنها ترفض بدون تفكير كل ملاطفاتى،، بدون تفكير لأنها لا ترانى، ولا تسمعنى، ولكنها تعرف منذ اللحظة الأولى، أننى لست ڤيرا، ولا ليزا، ولا سونيا، أنا «الأخرى»، الغبية، الرعناء... إن أمى لم تعد تحبنى بما يكفى لكى تتركنى أحبها.

إن كل ما أفعله من أجلها، أفعله الآن من أجل «أمى السابقة».

أمى السابقة كانت تشاركنى أسرارها.كانت تشاركنى بدون أن تقول. كنت فى الخامسة عشرة وكانت تتركنى أُخَمِّن. ما دُمُت كبرى بناتها. كانت مع صديقتها لويز، التى كانت تحتفظ بذكريات ملهى المولان روج ونوبات جوع الباريسية. تأخذان السيارة وتذهبان للرقص – فى نادى المامبو بليموچ أو ويسكى ببيلاك، حيث لا أحد يعرفهما (« مئة وستون كيلومترًا ذهابًا وإيابًا، تصوروا ! مما يدُلُّ على اشتهائهما الكبير للرقص !» كانتا تذهبان، وأحيانًا كانتا على ما أعتقد لا تعودان بمفردهما. تجدر الإشارة إلى أن أيًا منهما لم يكن لديها زوج: كانت لويز قد تزوجت سائقًا لعربات النقل. حينما كان يصحبهما أحد (كنت أسمع، فى وسط الليل، سيارة أخرى تتوقف)،

كانتا «تتنامان فى المنزل المواجه»، عند لويز. وأتساءل إن لم يكن لهما، فى وقت ما، نفس العشيق. على أية حال، حينما كانتا تخرجان، كانتا تجمعانا كلنا فى «منزل أمى» – بنات لويز الثلاث وبنات لوجيلاك الأربع : وكنت، بصفتى الكبرى، أتولى مراقبة عش العصافير بكامله. كانت الصغيرات تستمتعن بلا حرج بأن تُتْركن بالمنزل، لا يثبتون فى مكانٍ، لا ينامون فى الموعد، يرشون الماء فى وجوه بعضهن البعض؛ وكان علىَّ أن أغضب، أن أجفّف الجدران، وأن أمرر مجفّف الشعر على الأرضية الخشب، لتفادى عقاب جماعى ... وإذا اتصل جدّاى أو (جاءا على حين غرة، فقد كانا يسكنان على مقربة كبيرة !)، كنت أتفادى الأسئلة عن غياب ابنتهما ؛ وحين كانت جدتى سولانچ تبدى فضولاً زائداً، كنت ببساطة أكذب: إنها فى ليموچ مع لوين، مع أعضاء رابطة أصدقاء العلمانيين فى مؤتمر لمعرفة العالم بقبائل الپاپو فى غينيا الجديدة.» كنت أحمى والدتى كشريكة فى السر بدون أن تكون قد أفضت به إلىَّ: فى مثل هذه الظروف، كانت تصبح بالفعل «أمى الصغيرة»، سواء أعجبها ذلك أم لم يعجبها.

ثم سافرتُ إلى باريس، وأعتقد أن ڤيرا قد خلَفتنى فى هذه المهام. لم تقل لى شيئًا عن ذلك أبداً، ولكن حينما بدأت رحلاتها من ليموچ إلى ڤييرزون، عُدْت إلى التفكير فى ملهى ويسكى ببيلاك...

وفى وقت لاحق، شاركْت أمى سراً آخر لحكاية حب. هو الأخير بالتأكيد: فبعده لم يعد هناك حب.

كان ذلك فى بداية «مرضها الطويل». كان مارك ابنى الكبير يعمل فى الصحافة المكتوبة : كان يتلقى مجانًا كمية من المجلات التى لم يكن لديه الوقت لمطالعتها – فكان يُنَحِّى جانبًا منها من أجل جدته، الجرائد التى من شأنها تسليتها، الصحافة الشعبية والمجلات النسائية. وكان كل أسبوعين، يأخذ سيارته ويقود لمدة أربع ساعات على الطريق السريع لكى يأتيها بها.

وحينما تم تعيينه بعد ثمانية عشر شهراً فى التليڤزيون، لم يعد يستفيد من هذه الخدمات المجانية. ولكنه كان يشترى كل أسبوع، من مرتبه الذى كان لا يزال

متواضعًا، مجلات جالا ، هولا!، ايل، وبوان دو ڤو أو فام آكتويال ، ويسلّمها كل شهر للمريضة، يقول لها وهو يعطيها لفافة كبيرة: «هاك، تلقيت كمية من المجلات التى لا أعرف ماذا أفعل بها !»

وكان يحذرنى: «إياك أن تقولى لبابوشكا أننى أدفع ثمنها ! سيغضبها هذا: تعرفينها، لا تريد أن ينفق أحد مليمًا من أجلها. إذا علِمَت أننى أحتاج الآن لميزانية أخرى من أجل جرائدها، لن تترك أحدًا يُدلّلها. وسيكون ذلك مؤسفًا، لأن هذه الأشياء الصغيرة تسعدها : فحينما تهتم بالنجوم، لا تفكر فى مرضها !»

وفى يوم وكنت قد ذهبت للعناية بها، قالت لى : « رأيت ابنك مارك فى الأسبوع الماضى. جاء بقطار الرابعة عصراً وغادر بقطار الثامنة وخمسين دقيقة : كانت سيارته معطلة. المسكين، كان مع ذلك يحمل مطبوعاته *التى لم تُبَعْ* ! حين أتذكر أنه يتحمل كل هذا العناء بلا فائدة ! فأنا شخصياً لا أعبأ بالأميرات وكبرى عارضات الأزياء، تفهمين بالطبع ! ثم أننى لم تعد لدى القدرة على مشاهدة الصور، وتقليب الصفحات... هاك، خذى معك لفافته، سوف تقرأينها. أنا لم أفتحها حتى. ولكن حذار أن تقولى كلمة عن ذلك لمارك: حبيبى المسكين، إنه يُسعده كثيراً الاعتقاد بأنه يسعدنى...«واستمرت هذه اللعبة حتى العيون المغلقة». وكتَمْتُ السرين.

- «لقد مرّت أمك بفترة تراجع للمرض لمدة ثلاث سنوات. إن كلمة تراجع مبالغة منى... ولكنها فترة استقرار، نعم. ولكنها لم تعرف كيف تستفيد منها!»

هذه هى المرة الأولى التى نلتقى فيها بالمسؤول الأول فى لوى پاستير، الذى كان يتابع أمنا منذ أربع سنوات خارج المستشفى. انه لا يُشاهَدُ إلاّ لمامًا فى الغرف الوردية : فهو نادرًا ما يعاين قواته وليس لديه الوقت للتخفيف عن المحتضرين – فالرجل المسكين لديه الكثير من العمل خارج المستشفى لنقل مواعظه. إنه أحد مُنظِّرى العلاجات التخفيفية». أى إنه تاجر، باختصار. لا يختص بصناعة السلعة.

ومع ذلك، فإنه يشكو في بعض الأحيان من المواد الأولية: يأتونه بمحتضرين من أفضل الأنواع. واليوم على سبيل المثال، هو يحاكِم محتضرتنا بقسوة: «حينما كنت أتلقى أشعة الرنين المغناطيسي الخاصة بها، كنت أقول لها إن حالتها لم تسوء كثيراً. إن الحالة شبه مستقرة. نعم يوجد انتشار، ولكنه محدود. بالتأكيد لم نكن نعلم كم من الوقت سيستمر ذلك : لا توجد معجزات، أليس كذلك؟ كنت أقول لها ذلك. لأنني كنت أدرك فوراً أنني أتعامل مع امرأة قوية. ولكن ما الذي يمكنني أن أفعله إذا كانت هذه السيدة لم تعرف في نهاية الأمر أن تعيش في الحاضر ؟» حاضر المحكوم عليهم بالنهاية... يا لك من غبي !

غير أن ذلك صحيح بالفعل: أمنا غاصت في الاكتئاب أكثر من المرض. فبالرغم من هذا التراجع المزعوم – الذي لم نسمع به أبداً –، كانت فاقدة للشهية، حزينة، قاسية، لم تعد تفتح نوافذها، لا تريد رؤية أحد، ولا ترد على الهاتف. ولكن بعد أن مرت مرحلة « لماذا يمنعونني من أن أقضي على نفسي ؟»، كانت في حالة معنوية جيدة جداً، أو على الأقل هذا هو الذي كانت تؤكده: « لم يحدث أبداً أن كنت أفضل من ذلك !» وكانت، رغم رفضها المتكرر، تُضطر للظهور، وتحمل سرطانها بأناقة، «أين المشكلة ؟»

أمنا لا تؤمن بآلام الروح. تنظر إليها على أنها من سمات الشخصية الضعيفة. الاكتئاب كَسَلٌ، والقلق قلة شجاعة. كان بالتالي مستحيلاً أن تجعلها تقبل بأخف مضادات الاكتئاب، أو أن تثير مجرد احتمال حدوث الاكتئاب، كان ذلك إهانة لها !

ورغم ذلك، خطرت لي فكرة في يوم من الأيام: لكي نعالج حالتها المعنوية بدون أن تسخط لذلك، يكفي أن نطرح عليها مسألة اكتئابها كمرض عضوي. فرغم كونها متدربة قديمة في المستشفيات، فإنها تكاد لا تعرف شيئًا عن التشريح؛ المطلوب إذن هو التلاعب بكلمة «أعصاب». كانت موقنة أن آلامها الرهيبة ناجمة عن تمزيق الأعصاب الذي تسببوا فيه بالتأكيد أثناء عمليتها الأولى: ومضادات الاكتئاب «تعالج

الأعصاب»، أليس كذلك ؟ يمكننا إعطائها إياها بحجة أنها تعيد تشكيل الأطراف العصبية لكبِدها...

وسعِدْتُ بفكرتى، وجاسرت بالاتصال بالإله الكبير لأقترح عليه حيلتى. ولكنى للأسف كنت أواجه واحداً آخر من أتباع الحقيقة. قال لى مباشرة: «سيدتى، دعينى أقول لك أننى سوف أنقل لوالدتك كل ما ستقولين لى : إنها قاعدة العمل بقِسمِنا. لا نعامل مرضانا على أنهم أطفال. المسألة علاقة ثقة بيننا وبينهم. والآن، يمكنك الحديث إلى، أنا مُنصت لك.» فوضعت السماعة.

وحصلنا من طبيب عام من ليموج (كانت والدتى تواصل تغييرهم مرتين فى العام)، على روشتة بمهدئ خفيف. وبالنسبة للباقى، لم يجرؤ الطبيب الشاب على معارضة قرارات لوى پاستير – هذه المؤسسة الطليعية فى اللون الوردى، هذه الوحدة العلاجية التى تقدم لكم، وفقاً للسان متملّقيها، لحظات من الإنسانية القوية التى لا مثيل لها، فرصة لا تُنسى للحميمية !

وبذا، لم تحصل والدتى خلال ستة أعوام من «المرض الطويل والوحشى، على أى دواءٍ للروح... ولكننا حصلنا نحن من جانبنا. نحن : سونيا، ليزا، وأنا أيضاً. لكى نستطيع التحمل. لكى نواصل الابتسام أمامها. لكى نستمر فى خدمتها.

أخاف على سونيا. منذ وقت طويل، أيام أن كانت أمى تُعلِّم أحفادها رقصة الروك، قالت لى، بنبرة من يصرِّح بواقع قائم، وهى ترقب أمى وهىَ ترقص، أنها لن تستطيع الحياة بعد موتها. «كيف لك أن تفكرى فى شىء كهذا يا سونييتشكا ؟ إن أمى سوف تموت قبلك على أية حال : من المنطقى أن تموت الأم قبل ابنتها ! – لا أعرف، لا أتصور... لا أتصور أن أستطيع الحياة بدونها.»

لم يحدث بيننا مثل هذا النوع من النقاش منذ مرض أمى. ولم تترك لنا أمنا، على العموم، وقتاً للاهتمام ببعضنا البعض. فلم نكن نتواصل كأخوات إلاّ لحل مشكلات عملية : فكلما كان علينا أن نتفق، كان كلامنا أقل. ففى كليراك، فى الأسابيع الأخيرة،

كنا حين تحل إحدانا مكان الأخرى، نترك للتالية تعليمات فى «دفتر اتصال». صفحة نخطها سريعًا قبل العودة إلى العمل، أو القفز فى القطار أو ركوب السيارة، صفحة لنقول ماذا قبِلت المريضة أن تبتلع، على أى وضعٍ ينبغى أن تستلقى، كيف نجعلها تشرب، متى تبرزت آخر مرة، وتبوْلت، نوع المرهم الذى يجب وضعه على القرحة الأخيرة، ماذا تقترح الصيدلانية، وماذا تطالب به الممرضة، اسم الطبيب النوبتجى فى عطلة نهاية الأسبوع، رقم هاتف سيارة الإسعاف، إلخ. وفى هذا الدفتر اقترحْت يومًا الاستعانة بعاملة منزل. لإزالة التراب، وتنظيف دورة المياه، وكى أطقم الأسِرَّة، وهى مهام لم تكن تدخل فى اختصاصات موجيت جلوريوز.

كان يجب على، كما يحدث قبل أى اقتراح يتعلق بحال أمنا من قريب أو بعيد، أن أشْرَع مُسبّقًا فى حملة «ترهيف»، أن أُحْصى أصواتى... ونظرًا لغياب هذا التحضير الماهر، وجدت على جهاز استقبال المكالمات، بعد أربع ساعات (الوقت الذى تستغرقه رحلة العودة)، رفضًا جماعيًا نقلَتْه، بكلمات مترددة، أختى سونيا : «يا عصفورتى الحبيبة (تلك ديباجة تختلف كثيرا عن لُبْ الموضوع)، بالنسبة لفكرتك، هممم، لسنا موافقات حقًا. أقصد، أننى، لا أستطيع شخصيًا، الآن، البحث عن عاملة منزل لأن الطبيب أعاد إيقافى عن العمل بسبب المرض، بلى، تعرفين، ينبغى أن أظل مستلقية، فقد تحرَّكت تركيبة رأس عظمة ركبتى...»

منذ الحادث الذى تعرَّضت له سونيا وهى تقود دراجتها النارية قبل عشر سنوات (كيف أمكن لأمى أن تأتى هكذا بمثل هذا التصرف غير الحذر حين أهدت سونيا دراجة نارية وهى تعلم بالفعل «مشكلتها مع الكحول؟»)، منذ هذا الحادث إذن، كانت لسونيا مفاصل من البلاستيك فى رأس الركب. وهى تعانى من صعود درج سكنها ذى الإيجار المعتدل، ويُحظَرُ عليها «الوقوف لفترات طويلة» – وهو ما يناسب أخصائية تجميل ! وهذا هو سبب ارتدائها فى بعض الأيام حذاءً رياضيًا بالرغم من البلوزة الوردية، « لو انتعلْتُ يا كاتيا العزيزة حذاءً عاديًا سوف أحتاج لعمل لثلث الوقت!» هى إذن «موقوفة» مرة أخرى.

« بالطبع لو كنت تأتين أكثر إلى المنطقة لعرفت مدى صعوبة العثور على خادمة » إنها الكلمات الخبيثة لمن سئمن بالتأكيد السكن على مقربة، وسئمن السهر على كل شيء، وتقطيع أنفسهن مائة قطعة. « تعلمين كم هو من الصعب أن تجدى فى لاكروز شخصا للمساعدة ! انظرى إلى كل هذا الوقت الذى أمضته ڤيرا لكى تكتشف موجيت !... ثم أننا سألنا ليزا عن رأيها (ڤيرا وليزا، الجالستين أمام جهازى الكمبيوتر فى طرفى الكوكب، تتحاكيان فى ساعات معينة عن حياتهما بالبريد الإلكتروني!)، وليزا تخشى فعلاً ألاّ تتمكن أمى من الاعتياد على وجه جديد» توت ! توت ! يقول جهاز تلقى المكالمات التليفونية : نهاية الرسالة.

وكانت سونيا قد اتصلت مجدداً لكى توضح بدقة: « ليزا تعارض الفكرة إذن.» وهى تعنى باختصار أنه : إذا كنتِ آسفة على عدم وجود مساعدة منزلية فتفاهمى مع ليزا.. التى تسكن فى الطرف الآخر من الكوكب ! أما سونيا، فهى «ليس لها وزن»، نعرف ذلك : إنها ڤيرا التى حاولت مرة أخرى أن تعاقب نفسها، وتعاقبنا معها، بجرِّنا إلى هذه المزايدة حول التضحيات. لماذا تتمسك بجلد ذاتها ؟ لماذا؟

لن نجرؤ أبداً على أن نسألها هذه الأسئلة. تماماً مثلما لن تواتينا الشجاعة فى سؤال ليزا عن ماهية المشكلة فى زواجها ولماذا لم يُرزقا بأبناء. إن هنرى، زوج ڤيرا السابق، هو الوحيد الذى يجد الطريقة المناسبة للاستفسار فى موضوعات حساسة كتلك. فى يوم من الأيام، منذ عشر سنوات، وكنا فى غداء عائلى، انطلق فى إشادة طويلة جداً بالتلقيح المجهرى . وساد صمتِ حرج. لا بد وأن أمنا كانت مشغولة بالمطبخ، وإلاّ لكانت قد غيَّرت الموضوع : إنها لا تقبل أن تُثار هذه المسألة – حتى معها، أو حتى وجهاً لوجه : « اعتبروا أن ذلك ماضٍ، ولا يجوز العودة إليه. وعلى أية حال، فإن ويليام لا يحب الأطفال...» وكانت سونيا، فى هذا الغداء، قد فعلت كل ما فى وسعها لمقاطعة هنرى، ولكن كان «ما فى وسعها» على طريقتها، اللطيفة وغير المباشرة : مُدوٍ للفُرشاة، ثم للفوطة، وعلبة السجائر، وأخيراً « نموت ظمأً هنا ! أعطنا شراباً يا هنرى !» ولكن ليزا هى التى أنهت المونولوج ببرود: « إن التلقيح المجهرى

شىء ساحر. ولكن، فى حالتى، هناك حاجة، على الأقل، لأم حاملة. أقولها بوضوح على الأقل...» والتفتت إلى هنرى: « هل تقدم لنا كأس المورسو هذا ؟ أنا مصممة على تناوله فى صحة أبناء شقيقاتى !»

ولم نتحدث فيما بيننا عن هذا الحادث إلاّ سنوات طويلة فيما بعد. بمناسبة زواج أحد أبناء الشقيقات: كنت قد أعطيت الطاحونة لڤيرا بهذه المناسبة. كانت أمى لا تزال هنا، وإن كانت قد مرضت بالفعل، وذهبَت لتستلقى فى إحدى غرف الدور الأول. وكانت الوصيفات الصغيرات بفساتينهن بلون التوت، تركضن بين الأشجار. وتقابلْنا، «توأمتى» وأنا على الجسر العائم فوق البِركة، ونحن نراقبهن. وجاءت الكلمات بطريقة طبيعية، كما لو كنا نواصل مناقشة بدأت منذ وقت طويل؛ بل إننا لم نكن فى حاجة إلى ذكر أن الأمر يتعلق بليزا:

حينما تحدثْتِ عن «أم حاملة» فهمت أنها مشكلة رحم.

رحم به عيب خلقى، نعم، أو شىء من هذا القبيل. إن مبايضها كانت تعمل بطريقة طبيعية، على ما أعتقد...

ليس مؤكد. بعض النساء تحتجن بويضات وأم حاملة فى آن واحد... ليس من المستبعد أنه لم يعد لديها... أعنى... ربما استأصلوا لها كل شىء ؟

لو أن ذلك حدث لكنا بالتأكيد علمنا ! أعتقد أنها منذ زائدتها الدودية – متى كان ذلك ؟، فى الثانية الثانوية ؟ – ، لم تمرض البتة... بل إنها كانت تذهب للسباحة، حتى فى مياه البحيرة، أثناء دورتها الشهرية !

وأنا أيضًا يا كاتيا ! تذكُرى ! كنتِ أنتِ الوحيدة يا مسكينة التى تعانين كل هذه المعاناة...

لم نكن نخفى عن بعضنا فى الماضى أى شىء عن «مآسينا الأنثوية الصغيرة» (وهو تعبير جدتى): التهابات المثانة، التهابات الغدد اللبنية، الدورة الشهرية المؤلمة،

التهابات المهبل، غثيان الحمل، التشققات الجلدية عند الحمل... لم نكن نخفى عن بعضنا شيئًا فيما يتعلق بأجسادنا، فأمنا كانت تعلم كل شىء، وتطالب بمعرفة كل شىء : «قولى لى يا ڤيرا، هل جاءتك دورتك هذا الشهر؟» «يا كاتيا، منذ متى لم تُغيِّرى لباسك الداخلى ؟» كانت تتابع حرملكها بعين لا تكَلْ !

ولكن أسئلتها الحميمية استمرت طويلاً بعد فترة مراهقتنا. وحينما تخلّصَت من العبء الثقيل («الإشراف» على أربع بنات شهيات من سن البلوغ وحتى الزواج)، قالت لنا كل شىء عن الورم الليفى للويز، وحَمْل قريبتها دونيز خارج الرحم، وإصابة سونيا بمرض السيلان. هل كانت لا تزال تأمل أن تثير تقززنا من الأنوثة ؟ أم أنه فقط جانبها «الريفى» الذى كان يعبر عن نفسه، الميراث الچينى الآتى من جدتى سولانچ ؟ بالطبع مثل هذا التشبيه كان سيثير حنقها : لقد وُلِدَت من ميشا وحده ! وُلِدَت، مثل مينرڤ(*)، من عقل وروح أبيها.

بالمناسبة... كيف كانت الحياة الجنسية لجدنا فى أعقاب «حادث الولادة» الذى وقع لزوجته : عشيقة قديمة فى الإبراشية أو « نساء خدومات» فى أيام الموالد فى ليموج، أو لا شىء، لا شىء بعدها؟ ووالد ابن سونيا، من هو ؟ هل يُعقل ألاّ تعرفه هى أيضا ؟ أن تعتقد أن فابريس وُلِد من بعض جرعات من الويسكى والروح القُدُس ؟ أذكر أننى فهمت، وأنا فى حوالى الرابعة عشرة، أن أختى، التى كانت لا تزال طفلة، قد «اعتُدِى عليها». ممن ؟ أحد الأقرباء ؟ أحد الجيران ؟ زوج لويز ؟ أتذكر بالذات أننى لم أرغب فى أن أعرف، لم أرغب فى أن أسمع. هل كان بسبب صَمَمى أن أصبحت سونيا اليوم تُثقل فى تناول الكحول ؟ ووالدى ؟ أين يذهب والدى حين يرحل ؟

(*) إلهة الجسارة القتالية والحكمة والذكاء فى الميثولوجيا الرومانية

إن الحرملك يتحدث عن المآسى الحميمة الصغيرة والعلاجات الخفية، ولكنه يحتفظ بالرعب من المشاعر؛ إن نساء القبيلة، حتى وإن استخدمن كلمات فجة، يَسكُتن عما هو أساسى. ويتظاهرن أنه لا تساؤلات لديهن. هناك أشياء لا ينبغى أن يعرفها أحد: مشكلات ليزا، قصص حب ميشا، الإدمان الكحولى لسونيا، عشاق ڤيرا، و «أين يذهب والدى حين يرحل ؟» قف ! أمى لا تسمح، السير ممنوع فى هذا الاتجاه. عُدْ أدراجك. إنها لا تسمح.

ليزا

تَودُّ ليزا أن تترك فندق ستار، وباريس. الهرب من أمها، وشقيقاتها، وطفولتها. أو الهرب إلى طفولتها. إلى بلد ميشا. تَودُّ على أية حال أن تختار أجمل ذكرياتها وأن تتحصن فيها. شاهدَتْ ذات مساء فى أستراليا برنامجًا عن الانتحار المُساعَد، التخلص الذاتى للمرضى: « الخروج »، وهى جمعية بچنيف، تقدم لأعضائها المشروب القاتل الذى يُمكِّنهم من الخلاص بدون خطأ فى إصابة الهدف. يتم جمع بعض الشهود، ويقوم المرافق المتطوع بإذابة السم فى كوب كبير من شراب البرتقال (أو الخوخ أو عصير التوت – يتركون للمحتضر هذا الاختيار الأخير)، ثم يُطلب من الراغب الطوعى فى الموت أن يشربه أمامه حتى آخر قطرة. ويُلِحّ: آخر قطرة. مثلما يحدث بالنسبة لنبات الشوكران السام(*): نحن لا نطحن يا سقراط إلاّ بالقدر الضرورى..ويوصيه فى نفس الوقت بالتفكير فى ذكرى جميلة: « رأسك سوف تدور فى الحال، سوف أساعدك فى الاستلقاء ؛ كل شىء يحدث بسرعة، اختر من الآن ذكراك، وفور أن تشعر بالنعاس يغزوك، عليك أن تغوص فى هذا الماضى الجميل.»

ليزا سوف تختار العَجَلة. حركة عجلة الطاحونة، المنتظمة، الهادئة، الباعثة على النوم. كان جدها قد ترك عجلة الطاحونة القديمة تدور طويلاً، – حتى تآكلت القوائم واضطُرَّ إلى تفكيكها كلها وتحويل مياه قناة الطاحونة إلى البحيرة مباشرة. قبلها،

(*) الذى حُكِم على الفيلسوف اليونانى سقراط بالموت به .

كانت ليزا تجلس فى المرْج المنخفض مع « نيكولا الثانى »، وترقب العجلة بالساعات الطويلة، وهى أحيانًا شاردة (تجْدِل أسبتة من الخوص وتخلع لنيكولا ملابسه)، ولكنها أبدًا منتعشة ومبهورة. كانت الجدة تقول: «حذار من الثعابين، إنها أكثر من الجراد فى هذا المرج !» ولكن ليزا لم تكن تخاف شيئًا. ولا حتى الثعابين. كانت تهدأ فى المرج. حركة العجلة تستغرقها والصرير البطىء للمحور يُنعسها.

تَودُّ بشدة أن تعود فى عُطلة للطاحونة. النوم فى الطاحونة. ولكن الطاحونة مِلْك لكاتيا : حينما تُوُفى الجدان، وطُرحت مسألة هذه الجدران الأربعة، كاتيا كانت الوحيدة التى لديها إمكانية أخذ البناية. وكانت ليزا من جانبها تمر بفترة طويلة من غياب الحظوة – انتهى عهد « من تفضلّها الأم ».

لهذا السبب لم تعد تشاهد انعكاس الأشجار الحمراء فى البِركة خلال الربيع – هذا الأحمر الذى يسبق وصول الأخضر الرقيق إلى أطراف الأغصان العارية. ولم تعد تسمع الصوت المستمر لشلال المياه، عنيف فى الشتاء، و كالغناء فى الصيف، صوت هذا الشلال الذى أصبحت القناة تصب عبْره فى البحيرة. لم تعد تشم الرائحة اللاذعة للدخان فى نوفمبر وفى أغسطس رائحة الزَبَدْ التى تنبعث من جدران الجرانيت العتيقة، والتى تدعوك إلى وضع الأرجل فى الماء.

أجَلْ، عندها على الأقل منزلها فى مورترول، على بعد عشرة كَيلومترات من الطاحونة : فى أعلى التلال، مع «بانوراما كاملة» كما جاء فى الإعلان. هدية من ويليام لمسكينته ليزا. هدية أكثر من سخية حينما نعلم أنهما لا يقضيان بها سوى شهرٍ فى العام... والمزرعة الصغيرة للغاية لا تقارن بالطاحونة بالتأكيد ؛ ينبغى أن يُخلَق فيها ماضٍ ثم يتم تكبيره بعض الشىء. ولكن، كما تقول أمها : «هذا يكفى تمامًا لشخصين !»

فى سبتمبر الماضى، نزلت ليزا ذات صباح حتى بحيرة لامود الصغيرة. كان الضوء حامضًا وخفيفًا مثل النبيذ الأبيض. ونظرت إلى بيتها من بعيد. بالمنظار

المعظَّم. من خلف الغابة الصغيرة، وفى أعلى الأراضى الجرداء، عند قمة شجر الحور، كان يمكن رؤية النجيلة، والشبابيك المفتوحة على مصاريعها، ومنضدة ومقاعد الحديقة. وتخيلت حياتها كما يمكن أن يفعل الشخص العابر من هنا فى نزهته: من الخارج. وحسدت نفسها، شعرت بالحسد من نفسها.

« لديك كل شىء لكى تكونى سعيدة !» كلام غبى نادراً ما يقولونه لها لأنهم يعلمون ما ينقصها لكى تكون سعيدة. ولكنها ينقصها أكثر مما يعتقدون: عجلات الطاحونة، وعربة اليد والدراجة... فى لاروش، كان ميشا عنده حمار عجوز أعمى، اسمه باكونين، يربطه إلى عربة لإدخال الحطب، وجمع التبن من الحديقة أو المرج. وكانت العربة قد طُلِيَت فى الماضى باللون الأزرق، وقد بقيت بعض آثار اللون على جوانبها، بل وعلى الألواح وأجنحة العجل. أزرق باهت، بالٍ، تُتابعه ليزا بعينيها حينما كان ميشا يمسك الحمار باللجام: كانت تنتظر، آملة أن يأخذها الجد فى ذراعيه ويصعد بها إلى العربة فوق كومة التبن أو كومة الحطب: «هيا حاا!، ها هى زوجة صاحب الأرض فى مركبتها التى تجرها الجياد !» العجلة الزرقاء... أن تتذكر، فى لحظة الموت، ضرورة النظر إلى العجلة الزرقاء.

والعجلة البيضاء لدراجتها. التى تراها تدهس الرمل فى طرقات لاكروز، وتترجرج فوق الحصى، فى الزمن الذى كانت فيه، كراكبة مبتدئة، تركز عينيها على المِقْود. تتذكر تراب هذه الطرق التى لم تكن أيها مُعبَّدة حينئذ. وترى الطرق البيضاء، المبهرة فى ضوء الشمس بأخاديدها المرصوفة ببلورات الصخور وقطع الكوارتز المهروسة وحجارة الشيست اللامعة. كانت الطرق تحملك لمكان آخر وكل الطرق تلمع.

منذ بداية مرض أمها، أمضت ليزا عطلاتها الصيفية فى لاكروز، ليس بعيداً عن شقيقاتها وذكرياتهن، فى « مزرعتها الصغيرة ذات البانوراما ». كانت تقطع كل يوم الطريق بين مورتورول وكليراك. طريق أسود، مُعبّد؛ يأخذها من الحزن إلى الموت، ومن الموت إلى الحزن. لقد خضعت للسراب. إن الطفولة بلاد لا نعود إليها أبداً.

فى السلسلة الطويلة للحياة ! كان السيئ من نصيبنا : ضاعت بعض الكلمات بين بداية ونهاية الجملة. ثقب فى الذاكرة. ولكنها استطاعت أن تسترجع اسم المغنى - فيليكس لوكلار، من إقليم الكيبك -، وكذلك لحن هذه الأغنية التى سطع نجاحها فى الخمسينيات وكانت لويز وأمها تغنيانها كدويتو:حينما سيحيا البشر بالحب ! لن يكون هناك بؤس ! الجنود سيكونون شعراء ! ولكننا نحن، نحن سنكون قد مِتنا يا أخى. وقد مات فيليكس لوكلار. والجنود ليسوا بشعراء.

يجب الهرب ! إلى الأبعد باستمرار. إعادة ترتيب الحقائب. لا بد وأن هناك مكانًا آخر، حقيقى. جزيرة، جزيرة أخرى. أستراليا لا تناسبها. إذن ؟ نيوزيلاندا ؟ آيسلاندا؟ مريحة أكثر من اللازم. مريحة أكثر من اللازم أيضًا. بشر يزداد عددهم باطراد، وأرض تزداد جفافًا: سيأتون، سيأتون فى كل مكان تبدو لهم الحياة فيه أفضل، حياة قابلة للحياة، مجرد قابلة للحياة. وسيصلون إلى الجزر عن طريق البحر، ولكنهم سيأتون...

يجب الهرب ! البحث عن جزيرة غير مضيافة، مُنفِّرة بوضوح. ربما ليكيرجولان ؟ ما من أحد تحمَّل أبدًا ليكيرجولان. الثلج، الثلج. ولو أن مع الاحتباس الحرارى... أو جزيرة سان پول : الضائعة فى المحيط الهندى، الصغيرة (أربعة عشر كيلومترًا مربعًا)، غير المأهولة بالسكان، ولكنها ليست مجمّدة تمامًا. ويوجد زرع. وقد تمكنت بَقَرات بريطانية من التأقلم على العيش بها. لكن المُزارع هو الذى لم يتمكن من التأقلم. والبقرات التى تُركت بها توحَّشت، وتكاثرت بسرعة. كارثة بالنسبة للنظام البيئى. وكل خمس سنوات، ترسل الحكومة الفرنسية من جزيرة لاريونيون مجموعة من البحارة الرُماة يُكلّفون بالقضاء على الفائض... الترفيه غير موجود فى سان پول، ولكن البوفتيك متوفّر بغزارة: وشريحة الفيليه موجودة على حافة فُوْهة البندقية. - إنها مرّة أمكن فيها تحقيق مثل أعلى ثورى !

نعم، يمكن الاحتمال فى جزيرة سان پول. لا يوجد مطار، وخليج فوهة البركان هو نقطة الرُسُو الوحيدة، وأقرب الجيران يبعد ثلاثة آلاف كيلو مترات. البقاء حيًا والاحتمال، بالتأكيد... ولكن، لكى ننقل ماذا ؟ ولمن ؟

ليزا ابنة أم تحتضر وعالمٍ محكوم عليه بالفناء. سيأتى آخرون، إن آجلاً أو عاجلاً، تعرف ذلك. آخرون لن يكون عندهم ما يخسرونه. والسعداء، العُزّل، سوف يتم إزاحتهم، سوف يُستبعدون فى فوضى بعيداً عن المدن، بعيداً عن السواحل، إلى الداخل. فى الجبال، فى الصحارى. وسرعان ما يصبحون بدورهم من أهل البلد الأصليين، ويختفون. وتنتقل الحياة إلى الآتى بعدك فى الطابور... العودة الأبدية إلى الموت.

«لونك كئيب يا ليزوتشكا ! هل نظرتِ إلى نفسك ؟ لا تتعجّلى فى القيام صباحًا، أتوسل إليك. خذى وقتك، اذهبى إلى المتاجر، روِّحى عن نفسك !».

المتاجر ! ڤيرا هذه مضحكة فعلاً ! كما لو أنه يمكنكِ أن تتركى أمك على فراش الموت للركض إلى قسم العطور ! وإذا كانت ليزا ستتغيب صباح اليوم عن ميدان الغرفة الوردية، فلن يكون ذلك إلاّ من باب الواجب؛ سوف تعمل. لكى تُكفِّر عن ذنبها. أوصلت حاسوبها الشخصى بالكهرباء وفتحت صندوق بريدها إلا وأرسلت بعض التعليمات إلى شريكها الشاب الصغير، ثم انكفأت على قضية سوف تترافع فيها قريباً فى مدينة داروين، من أجل قبيلة أصلية بالمناسبة. حينما تُسأل ما هو تخصُصكِ ترد بابتسامة : «الضحايا.» لا شك أن ذلك ليس بتخصص فى القانون؛ وهى على أية حال تترافع فى المحاكم الجنائية، والمدنية، وتنتقل من قانون البيئة إلى قانون العمل، ومن قانون البحار إلى قانون الصحة، ولكن دائمًا من أجل ضحايا، هذه هى النقطة المشتركة فى ملفاتها جميعًا إنها تدافع عن الأنواع المهددة بالانقراض – الساكن الأصلى بأستراليا (جمعية ذاكرة حية)، وثعلب التسمانى (الصندوق العالمى للحياة البرية)، الحوت الأزرق فى القارة القطبية الجنوبية (جرين پيس) – وتناضل من أجل كل المُعْدمين فى الأرض : السجين الميلانيزى من كاليدونيا الجديدة فى نوميا (العفو الدولية)، المهاجر الإندونيسى السرى (جمعية روبين هود)، طالب اللجوء الأفغانى (جمعية أخوة)، عاهرة ملبورن الصينية (جمعية الإخوة النسائية). وفى كل مرة، يتعين

عليها استيعاب قواعد قانونية جديدة، وتغيير الملعب الذى تقف عليه، والاكتشاف، والتعلم، والتأقلم، والتحرك – أى الهجرة، باختصار. إنه عمل ضخم.

وفى مقابل ذلك، فإن وسائل الإعلام الأسترالية تعرف ميتر ريتشارد چونز (وهو اسمها كزوجة). إنها تكاد تكون نجمة : وتُشاهَد صورتها أحيانًا فى الصحف. وحسب سونيا، فإن قَوامها له دخل كبير فى ذلك. أما كاتيا فتعتقد أن نجاحها يرتبط قبل كل شىء بالموضوعات التى تتناولها : « لا أعنى أن ليزا تنتصر دائمًا على المستوى القانونى. ولكنها تفعل على المستوى الإعلامى ! حتى من قبل أن تترافع ! إن أختى ليست بطلة القضايا الخاسرة، ليست ڤولتير، كلا ! فهو حين اشتعل حماسة من أجل كالاس، اعتقد الرأى السائد أن هذا الشخص «قاتل أطفال» : لا شىء أقل شعبية من ذلك ! وحينما قام زولا بمساندة دريفوس، اعتبر الرأى العام المتهم خائنا...»

هذه مقولات ترجع إلى سبع أو ثمان سنوات. ولكن ليزا لم تشكك فيما نقلته لها أمها عنها، فهى لا تكذب أبدًا ؛ ثم إن مثل هذه الحجج، تتفق تمامًا مع شخصية كاتيا ! العودة إلى الوراء، مقارنة الحاضر بالماضى، تطبيق النسبية... بل يبدو أن أختها أضافت: « لكى أحكم على شجاعة ليزا وقدراتها كمحامية أنتظر أن أراها تدافع عن عجوز يضاجع الأطفال. أو عن شخص عنصرى. لا بد وأن هناك حقيرًا أو اثنين حُكم عليهما ظلماً، أليس كذلك ؟ واعترضت ڤيرا – ليست غلطة ليزا أنها من اليسار! ردت كاتيا بحنق – اليسار؟ » (علمًا بأن الشقيقتين الصُغْريين تشكّان منذ بعض الوقت فى أن كبيرتهما تعطى صوتها ليمين الوسط). نعم، كانت المؤلفة تتهكم: «إذا كان اليسار هو ما يزعزع ما هو قائم – تحطيم الرموز والأصنام، بودرة العفريت –، إذن فإن ليزا ليست من اليسار ! إنها محافظة، محافظة ملحدة من القرية العالمية. لو كانت قد عاصرت القرن التاسع عشر لكانت واحدة من سيدات العمل الخيرى...

وكان هذا النقد قد أحزن ليزا. إن كاتيا لا تعرف التضحيات التى تواكب هذا الاختيار الذى تظنه «سهلاً»: إن ليزا تعمل كثيرًا، ولكن ويليام هو الذى يقوم على الإنفاق. فحتى مع رواج العمل على تخفيف المآسى فإن ضحاياها لا يُوفّرون لك

لقمة العيش... لا شك أنه كان يمكن لميتر ريتشارد چونس، مثلما يفعل آخرون كثُر، أن تدافع بمزيد من الضجيج فى قاعة المحكمة عن الأرملة واليتيم، وأن تقدم النصح للقَتَلَة بصوت خفيض، فى مكتبها. ولكنها ليست من هذا النوع. النفاق، واللعب المزدوج، لا مجال لذلك معها ! إنها تدفع ثمنًا غاليًا لهذه الحرية..: صحيح أنها لم تتحدث قط عن هذا الكسب الضائع، لأن أمها - التى كانت من أفراد المقاومة فى الثالثة عشر ! -، كانت ستردُّها بعنف: « وماذا تَساوى الحرية التى لا تُكلّف شيئًا يا بنيتى الصغيرة!»

إنها بالقطع غير قادرة على التركيز. أطفأت الكمبيوتر ووضعته فى حقيبته، لكى تحمله إلى المستشفى: إلسْتار ليس فندقًا مأموناً. ملاحظة تثير حنقها. مرة أخرى.

تَودُّ أيضًا لو أخذت حمامًا بالأملاح البحرية، ولكن لا يوجد سوى دوش مساحته بالغة الضيق، ولا يعمل فيه صنبور ضبط الحرارة على أكمل وجه...

مزاجها متعكر. لقد أفسدت صباحيتها. ولم تستطع حتى العمل. تشعر بالذنب تجاه أمها. ومن أجل سكانها الأصليين. إنها نصف آسفة. نصف آسفة لأن رئيس القبيلة ، الذى التقته أربع أو خمس مرات، بدا لها كريهاً، ثقيلاً. ذكوريًا لدرجة غير مقبولة. عدوانيًا ومستبداً : ساعتين فى البرارى مع هذا الشخص وتُصبح راغبًا فى مساندة حليقى الرؤوس أتباع الأمة الواحدة(*) ! الضحية المَقيتة، باختصار، الفقير الشرير: أكثر ما تخشاه فى مهنتها! إنها موقنة بلا شك أن حقوق هذه القبيلة قد سُلبت. ولكنها أيضًا واثقة، فى هذا الخصم، أنه سيتم تعويض شخص حقير. لم يكن سيُعوِّض أحدًا، لو كان هو الذى سرق.

فى سلسلة الحياة الطويلة. كان الجزء السيء من نصيبنا. تتذكر حركات أمها المريضة فى الصيف الماضى. كانت حركاتها، وهى فى الثانية والسبعين، أشبه بحركات كهل كبير. عندما كانت، مثلاً، تتحسس بأصابعها الخالية من اللحم، بطريقة آلية، عشر مرات، مائة مرة، المسند الخشبى لمقعدها... كانت ليزا تفضِّل لو أنها كفَّت عن الحركة. وتلوم نفسها على ذلك.

في سلسلة الحياة الطويلة... ها هي ! جاءها الجزء الناقص. الكلمات المَمْحية من منتصف الجملة. في سلسلة الحياة الطويلة، حيث كان علينا أن نتواجد، حيث كان ينبغي أن نمر، كان الجزء السيئ من نصيبنا. ماذا كان ينبغي أن نكون ؟ حلَقة بالتأكيد. حلقة من السلسلة. هذا ما كانت قد أرادت نسيانه: إن السلسلة تنقطع معها، يتوقف الطريق – ليزا طريق مسدود.

« هل تعرفين أنك ينبغي أن تكتبي تاريخ الأغنية الشعبية !» سونيا كانت مبهورة بصدق (تحبُّ الإعجاب بأخواتها، ذلك أحد جوانبها الطيبة) : «لم أكن قد لاحظت أنك تتذكرين كل هذا الكم من أغنيات أمنا، ولويز وميشا...»

كان ذلك قبل ثلاث أو أربع سنوات : اجتمعت كل العائلة في كليراك « في إحدى ليالي عيد الميلاد الأخيرة لبابوشكا». كان الأحفاد قد اتفقوا، «جميعنا عند بابو في بداية العام !»، تخلوا عن أصدقائهم : «لأننا لا نعلم إن كانت جدتنا في العام القادم س...»

ما من أحد – ولا حتى الأطباء – كان بإمكانه في ديسمبر أن يقول «كيف ستكون» بابوشتهم في الصيف : المرض القاتل ليس حَمْلاً نعرف موعد انتهائه. لقد كَفُّوا عن التنبؤ بما سيكون.

بعد العشاء، ومن أجل إسعاد بابو، نظَّمت الأجيال الثلاثة مسابقة في الأغاني. وبغية حثِّ أمهن على الاهتمام باللعبة، كانت البنات تحاولن العثور على مقاطع من أغنيات الخمسينيات، بل وما قبل الحرب... وسرعان ما أثبتت ليزا أنه لا يمكن هزيمتها:

السماء زرقاء والبحر أخضر، اتركي النافذة مفتوحة قليلاً.

سوزي سوليدور !

الطريق الصغير ذو رائحة البندق...

ميراى !

لقد تفوقت «الصغيرة الأخيرة بلا وجه للمقارنة. وبعد أن خلدت أمهن للنوم (كانت لا تزال تصعد الدرج فى هذا الوقت)، وتوجّه الشباب إلى «الملهى»، تواجدت البنات الأربع وحدهن فى المطبخ حيث رُحْن ينظفن أدوات الطعام. ڤيرا تغسل وكاتيا وسونيا تجففان. وليزا ترتب الأشياء فى أماكنها. ها هنا واتت سونيا فكرة قاموسٍ للأغانى تُعِدُّه ليزا وتنشره كاتيا.

قالت ليزا « لن أستطيع ذلك. فلم تؤهلنى أمى للكتابة عن الأغنية، وإنما لمسابقات الغناء الإذاعى. ولسوء الحظ، حينما صِرت فى العشرين، لم يعد هناك وجود لهذه المسابقات، ولم يكن برنامج الستار أكاديمى قد ظهر بعد ! »

وقالت ڤيرا – لا أعتقد أن أمنا كانت تتخيلنا فى مجال الفن. ولا حتى أنتِ. فى رأيى أنك حققتى لها سعادة كبرى حينما أصبحت محامية. لقد ربّتنا جميعًا لهذه المهنة: القتال... ولكننا وصلنا فى وقت متأخر جداً، كانت الحرب قد انتهت.»

وراحت سونيا، التى كانت قد سكِرت بعض الشىء تردد أغنية: حينما ينتهى الأمر، يبدأ من جديد ديد ديد.... وانطلقت كاتيا، بجدية أكبر : سوف تقع الحرب، ذات يوم أو آخر، نعرف ذلك جيداً.... أما ليزا، ليزا التى كان يحبها ويليام وتعرفها شقيقاتها قليلاً للغاية، ليزا فى ليزا الحزينة، فقد أكملت صوت الدويتو: وا أسفاه على الجنوب، رغم أنه كان جميلاً، كان يمكن العيش أكثر من مليون عامٍ، ودائمًا فى الصيف... كان يمكن...

سـونيـا

الإثنين ٢٠ ديسمبر. السابعة صباحًا. محطة القطار. سونيا عائدة إلى ليموج. كاتيا تحمل حقيبة أختها كسبًا للوقت. هواء مثلج يهبّ على قاعة المنتظرين والأرصفة. حمَام يدور خلف الفتحات الزجاجية. إنها محطة مهجورة: لم تعُدْ تغطى إلاّ الهضبة الوسطى.

كاتيا تفقد أعصابها: كل ماكينات ثُقب التذاكر معطلة. « سوف تضطرين لانتظار المراقب فى القطار لتشرحي له... – لا تشغلى بالك !» تتقدمان كما لو كانتا فى سباق للتزلج المتعرج بين الحواجز الخشبية التى تخفى «مواقع أعمال جارية » لا يتم استكمالها أبدًا؛ عصافير تلتقط الأسمنت أمام محل السندوتشات الوحيد المغلق : «أرجو أن تتمكنى من تناول بعض القهوة فى القطار... – أستبعد ذلك : لا يوجد أبدًا عربة بوفيه ! أحيانًا، فى الأيام الموفّقة، يمر من يبيع. ولكن لا تقلقى على ».

محطة منسية، متروكة، تحكى أرضيتها التى تم ترقيعها – فهنا أسمنت، وهناك قطران، وفى مواضع أخرى بلاطات من الحجر الرملى – تحكى تاريخ السكك الحديدية من يوم القطارات البخارية حتى القطار المرجانى : فى محطة أوسترليتز، توقفت الحداثة عند ظهور هذه العربات البرتقالية... وتلحظ سونيا على الرصيف أيضا كابينتى تليفون صفراوين من السبعينيات ؛ هواتف من التى تعمل بالنقود المعدنية، والتى كانوا بالتأكيد قد طوروها للعمل بإدخال البطاقات، ولكنها أُنحيت إلى قسم الآثار مع ابتكار المحمول. لو أن صيانة المحطة لم تكن بهذا الإهمال لكانوا قد أزالوها بالفعل. رغم أنه... ربما لا يزال هناك من يستخدمها ! أناس مسنون. أبوهم، على سبيل المثال.

إن أباهم غاضب من التقدم. يرفض شراء محمول. ولهذا يلجأ للكبائن العمومية. أكثر حتى مما ينبغى... منذ ثلاثة أعوام، وكانت سونيا فى طريقها إلى كليراك على حين غرة رأت القبطان يتصل من كابينة البلدية، فى الميدان. وظنت أنه يتحدث إلى واحدة أخرى من بناته أو إلى الطبيب، وأنه لا يريد أن تسمع المريضة حديثه: إن سونيا، المُثْقَلة بالخطايا فى كل شيء، تنْزعُ دائمًا إلى اختلاق الأعذار للآخرين.

وكانت قد واصلت طريقها إلىَ المنزل بدون أن تتوقف ؛ ووصل أبوها بعدها بقليل وفى يده رغيف خبزٍ : «ها، أَنتِ هنا يا صغيرتى ؟ (يكاد يكون حانيًا مع سونيا، فالصفعات خلقت بينهما أواصر صلة)، إنه وقت «شراء الخبز»، كما تعلمين... هل تصعدين لرؤية أمك ؟»

وكأن شيئًا لم يكن، وفى بحثها عن المحادِثين المحتملين، فكرت أن المكالمة مع شقيقاتها - هل اتصل بهن مؤخرًا ؟، - ثم مع الأطباء : أليس من المفروض أن يعاود الاتصال بالممارس العام و«أخصائى العلاج التخفيفى» للسؤال عما إذا...». ولكن الباشا لم يذكر قيامه بمهاتفة أيًا منهم مؤخرًا. ولا بأى أحد آخر.

هل عادت سونيا، فيما بعد، خصيصًا فى وقت «شراء الخبز»، انطلاقًا من الفضول أم لأسباب أكثر تعقيداً - الحاجة إلى التعذب ؟ وفى كل مرة، كان الأب يتحدث فى كابينة الميدان ؛ وبعدها، حين يجدها بالمنزل، كان يكذب - مع الاقتصاد فى ردوده : ما من حديث طويل أكثر من اللازم، أو محدّد.

وفى وقت لاحق، بعد ذلك بكثير، حدث شيء أكثر غرابة، خلال عطلة نهاية الأسبوع، وكانت تجالس أمها بمساعدة موجيت جلوريوز. كان أبوها قد صحب بعض نقّاشى البحرية من إقليم الأوڤارنى فى نزهة - لزيارة اثنين من البراكين، فالبحرية تحب الرواسب : ظلت سونيا تدندن طيلة يوم السبت هذا بهذه الكلمات «البحرية تحب الرواسب»، وهى ترنيمة أطفال من تأليفها. وفى ظهيرة الأحد، اتصل الأب كما هو مُتَّفق، للسؤال عن أخبار الأم. وكانت سونيا قد أعطته رقم محمولها بحيث تتمكن من

الابتعاد عن الغرفة لكى ترد عليه. وبعد الحديث عن القرحة الأخيرة لأمها، سألت: وأنت، هل الجو حسن هناك ؟ أين أنتم ؟ رد الأب – فى ڤولكانيا، هذا الصرح الذى أقامه چيسكار. – هل هو جميل ؟ – دعكِ من ذلك...» ونظرت سونيا بشكل آلى إلى رقم المتصل، الظاهر على شاشة المحمول : رقم «خط أرضى» يبدأ بمفتاح ٢... ومفتاح إقليم الأوڤرنى ٠٤، والليموزان ٥. إن المفتاح ٠٢ يغطى الغرب – النورماندى، وبريتانيا... أبوها يكذب، مرة أخرى. بدون أن يدرك العجوز المسكين أن التقدم قد أفشى سره !

غريب: سونيا لم تفكر مجدداً فى هذه الحادثة إلاّ حينما لاحظت هذه الهواتف الصفراء القديمة على رصيف المحطة. «البحرية تحب الرواسب». إنها تنسى كل شىء، بسبب الكحول، وأقراص المهدئ المتعددة. «بسببها » ؟ وليس بفضلها.

(١٥)

حينما تم استقبال أمنا فى قسم لوى پاستير، كانت خاضعة منذ أربع سنوات لمتابعته الاستشارية : فرئيس القسم هو الذى كان يكتب لها، كل ستة أشهر، الجرعات المتزايدة من المسكنات التى كانت تحتاجها. لم تكن تحب الذهاب إلى باريس من أجل مثل هذه الاستشارات، كما أنها لم تكن تحب رئيس الأطباء هذا الذى كانت تعتبره جافًا ؛ ولكنها كانت ترضخ للعقل : هي التى قررت وقف العلاجات الثقيلة، هى التى اختارت، وهى تعى جيدا اختيارها، « العلاج التخفيفى»؛ لم تكن تجهل أنه سيكون عليها، بكل تأكيد، أن تُنقل إلى الطابق الرابع بالمستشفى: « ينبغى ألاّ أقسو عليهم، أن أحافظ على الصلة. سوف أحتاج إليهم فى النهاية.»

كانت تقول فعلاً « فى النهاية ».

حينما تم تحويلها، منذ تسعة أيام، كما توقّعَت وخَشِيَت، من العلاج الخارجى إلى العلاج الداخلى، نظّمنا أنفسنا لكى لا تبقى وحدها أبدًا. وأخرج ابنى رافائيل من حاسوبه برنامجًا أسبوعيًا أخذ فيه كل واحد، من البنات إلى الأحفاد، وأولاد وبنات العم والخال، كل من كان يقيم فى باريس، أو يستطيع «القدوم إليها لفترة وجيزة»، نوبته فى الحراسة. وتم تعليق البرنامج قرب سريرها، حتى يمكنها، إذا فتحتِ عينيها «مصادفة»، أن تطّلع عليه بدون أن تدير وجهها. قلت لها : «اعلمى أن أحدنا سيكون بجانبك دائمًا »...

تنهدت وقالت فجأة، بصوت قوى كِدْت أن أنسى نبرته :

« ليس هذا هو ما أريده.

نعم ! قولى لنا ! لا تترددى ! ماذا تريدين ؟

الشفاء.»

إن فترات الإقامة فى قسم العلاج التخفيفى تصل، فى المتوسط، إلى عشرين يوماً (حقيقة إحصائية)، ولا يخرج المرء منها على قدميه (حقيقة عن تجربة). كانت أمى تعرف، منذ أربعة أعوام، هذه الحقائق تمام المعرفة ؛ ولكن «فى النهاية»، فى آخر النهاية، كانت تأمل فى الشفاء... الشفاء ! لم تكن هناك من إجابة على ذلك. ومن الآن فصاعداً، ورغم وجودنا المستمر، سوف تكون وحدها.

تسعة أيام مضت. من العذابات والانتظار، من التمرد، من الكذب، من الصمت، ومن الوحدة الجماعية.

سونيا عادت من ليموج ثم عادت إليها للمرة الثانية. صَحِبْتها للقطار لأحمل عنها متاعها – تسير زاحفة، مشكلة مفاصلها تزداد حدة. وهذا مؤسف، لأن «مشكلتها مع الكحول»تبدو فى طريقها للحل: حينما كانت عندى، لم تشرب سوى مياه الكونتركس، ولم تكن أنفاسها برائحة القهوة.

تظل ليزا فى أبهى صورها (هل هذا من أجل لو تصادف ونظرت إليها أمى ؟)، ولكن، خلف قناعها الذى لا غبار عليه (كحل العين، الماسكارا والبودرة الرقيقة)، لم يعد لها وجه: خطوط قسماتها غير المُحدَّدة تنفصل عن الماكياج. كل شىء يبدو فى غير مكانه.

ڤيرا لا تزال تأتى إلى المستشفى كل صباح، ولكنها الآن تقضى ما بعد الظهيرة فى غرفتها الصغيرة بنوازى، تحاول، عن طريق المحمول واللابتوب والإنترنت، أن تختم قبل نهاية ثلث العام حسابات المؤسسات التى «تنتهى سنتها المالية» فى الثلاثين من سبتمبر : إن فقدان الأم فى منتصف ديسمبر ترفٌ لا يستطيع أى محاسب أن يسمح به لنفسه...

. أما أبى فهو متماسك. يجلس كل يوم فى نهاية الصباح عند رأس سرير أمى – ليس عند «رأس السرير» بالفعل، وإنما فى أبعد مقعد عن رأس السرير. كما لو أنه يخاف من الاقتراب من السرير. ماذا يخشى ؟ الموت ؟ أم المحتضرة ؟ همست له ڤيرا ذاك اليوم: «تشجّع، فهى لن تَعُضَّك!» ولكن دعونا نعترف بأنها كانت تعضه، فى الشهور الأخيرة. يتصرف الآن، وهو داخل الغرفة، بخجل الرجل المضروب. أما خارج الغرفة، فإنه على العكس يكتسب باقتدار مهارات الترمُّل: يغسل جواربه فى حوض فندق ستار، ويفرد ملابسه الداخلية فوق المدفأة الكهربائية ويأخذ قمصانه إلى المغسلة المجاورة... حياة منظمة جداً: فى الظُهر، يتناول غداءه فى مطعم الخدمة الذاتية بالمستشفى، ثم يصعد إلى الغرفة الوردية بعد احتساء القهوة، ينعس لنصف ساعة على مقعده، ويخرج لشراء صحيفته ويعود لقراءتها إلى جوار المريضة وينسحب فى نحو الخامسة عصراً، (على أطراف أصابعه: « أنا ذاهب يا حبيبتى، لا تتحركى (نصيحة لا ضرورة لها !)، إلى الغد صباحًا.» ويستقل المترو، يعود إلى الفندق، يتحمّم، يشاهد الأخبار على القناة الثالثة وينتظر ليزا لاصطحابها للعشاء فى المطعم القريب. إنه يحتفظ، فى خضم الإعصار الذى يعصف بنا، «بهدوء قُدامى المحاربين»، حسب تعبيره المفضل، الذى يضاف إليه « ضربة الحذاء فى المؤخرة»، و «البنت الصغيرة التى تهمل نفسها»، مُفردات البحرية.

أما أنا فمتْعَبة. أمى صغيرة جداً على الموت، وأنا، كبيرة جداً على مساندتها : سأبلغ الرابعة والخمسين بعد عشرة أسابيع ؛ ثم إلى التقاعد رأسًا، فى غضون ست سنوات، العمر الثالث، بطاقة الكهولة. دعونا نُصرِّح بالكلمة، امرأة ستينية. ليزا تعترض : «أنت تبالغين». أبالغ ؟ «سوف ترين يا ليزا، ست سنوات تمر سريعًا فى هذا العمر ! سوف ترين حين تصبحين «خمسينية» ! فى الشهر القادم، أليس كذلك ؟» هل تعرف أننى تخليت عن الكعوب الرفيعة وأصبحت أنتعل المربّعة وأننى اشتريت مرتبة أكثر صلابة ؟ لست مريضة، ولكن جسمى كله يؤلمنى: الكتف (تكلس فى جدران المفصل، لا حل)، الفقرات (تكوّم الفقرات القطنية، لا حل)، الحوض (هشاشة قابلة

للتدهور، لا حل). إننى أتهالك ويتخلى عنى جسدى بدون أن أكون قد خُنته : لم أشرب، لم أدخن، أرضعت ابنائى، تناولت الفاكهة فى جميع الوجبات، أكلت خضروات ذات ألياف، تعاطيت الفيتامين سى، تحاشيت تسمير البشرة، استبدلت السيارة بالمشى... ! هى أشياء لا جدوى منها. وفضلاً عن ذلك، لدى عمل، عمل متأخر، دائمًا متأخر ! سوف تصدر مراسلات المستشارات السريات للانتفاضة فى فبراير ولم أنته بعد من إعادة قراءة الهوامش وتصحيح البروقات. وقد بدأ العاملون عند الناشر فى استعجالى : «نريد تصحيحاتك يوم ٢٢ يا سيدة ساروف. آخر موعد !» فبعدها تغلق الدار؛ ويرحل العاملون جميعًا فى عطلة لخمسة عشر يومًا، وهى قاعدة تختص بها فرنسا: وتسمى تعويض فارق تخفيض وقت العمل(*).

ليس لديهم تخفيض لوقت العمل فى أستراليا، ولا حتى «هدنة قبل عيد الميلاد»، وهذا ما لا يوافق ليزا: «يجب أن أترافع بعد ثلاثة أسابيع أمام محكمة داروين. إنه ملف هام. ولا يستطيع شريكى أن يحل محلى » ...

أمى تقاوم. اضطُروا منذ عدة أيام لأن يُركِّبوا لها قسطرة بولية. الكيس الموضوع أسفل سريرها يمتلىء الآن بسائل مُحْمِر، مخلوط بالدم. بالأمس، عجزنا عن أن نجعلها تشرب، فهى لم تعد قادرة على البلع، حتى من خلال الشفاط أو المَحقنة. بل ويشك الأطباء فى وجود انسداد معوى، «يشكّون»، ولكنهم ليسوا موقنين: ينبغى إجراء أشعات، ولكن قسم الأشعة فى مبنى آخر ؛ وبين الاثنين لا يوجد ممر أو طريق سفلى – وبالتالى فإن النزهة فوق نقالة فى الحدائق فى شهر ديسمبر مستبعدة ! «سوف نرى كيف تتطور الأمور...» سوف نرى. «ولكن إذا ثبت الانسداد يا دكتور ؟ إن الانسداد مؤلم جداً، أليس كذلك ؟» بالفعل. خاصة وأنه لا مَجال لأى عمليات جراحية : إن السرطان هو الذى...

(*) صدر القانون الذى يطلق عليه أيضًا قانون الـ ٣٥ ساعة فى عام ٢٠٠٠ وقضى بخفض ساعات العمل الأسبوعية من ٣٩ إلى ٣٥ ساعة . ويحصل العاملون على عطلات تساوى ما زاد من ساعات عمل .

غير أن الطبيبة المساعدة لرئيس – الأطباء – الذى – يُلقِى – محاضرات – فى – الخارج – قالت لنا «اطمئنوا، اطمئنوا: لكى نقضى على آلامها سوف نعطى لها مُجفِّفًا». مجففًا ؟ فى الوقت الذى لم تعد فيه قطرة ماءٍ واحدة تدخل هذا الفم الجاف الذى يتقشّر لسانه ! ولا قطرة ماءٍ واحدة فى هذا الجسد الذى يتشقّق جلده مثل الجلد المحروق ! هل هكذا يموت المرء «بلا ألم» فى هذا القسم ذى الجدران الوردية ؟

فى المساء، لم أجرؤ حتى على نقل هذا التشخيص (الحُكم ؟) عبر الهاتف إلى سونييتشكا؛ ولم أقل شيئًا أيضًا إلى أبى: تكفى نحن الثلاثة لحَمل جَزَع هذه العذابات المقبلة. أمنا تقاوم، على غرار الڤيرماخت(*) والجستاپو. تقاوم ثلاثة سرطانات. تقاوم. لم تعد تتحرك البتة تحت ملاءتها المقوّسة، إنها تقتصد فى نفسها فوق مرتبتها المائية. أحيانًا تطلق تنهيدة عميقة، تتنهد مثلما يلهث الحصان وهو يهز رأسه. إنها فى كامل وعيها، تئن بعض الشىء، على فترات متباعدة. كم من الوقت سوف يُمْكِنها... ؟ لا نجرؤ على طرح السؤال. «هُم» حاليًا يُجرون لها غسيلاً، مرتين فى اليوم، من باب الاحتياط... قالت إحدى الممرضات لليزا إنهم زادوا الجرعات فى مِضخة المورفين. زادوها قليلاً، لأننا نقترب من السقف الحرج. «الحرج ؟» ! وبينما نحن هنا، أنا واثنين من أبنائى، جاءوا لطلب تأكيد اسم ورقم تليفون الشخص الذى يتم إخطاره فى «حالات الضرورة»، القريب الذى يُرجع إليه.

آه من حكاية الذى يُرجع إليه هذه ! ففى اليوم الأول، وأثناء إجراءات تسجيل أمنا، طلب منا الاستقبال فى الطابق الرابع أن نحدد مسؤولاً، أو فرد العائلة الذى يخبرونه أولاً «إذا...» وقلت للفتاة التى كانت تملأ الاستمارة أننى أقطن على بعد ربع ساعة من المستشفى: فى باريس، بالطبع، ولكن على الشارع العريض الخارجى، أو بالتقريب. «عظيم. أعطينى رقم هاتفك. كلا. اعذرينى. بالنسبة للقريب الذى يُرجع إليه،

(*) القوات المسلحة الألمانية فى الحرب العالمية الثانية .

يبدو أن زميلتى الشابة من الطابق السفلى، قد سجّلت اسمًا بالفعل.» من هو ؟ السيد لوجيلاك ؟ لا ليس السيد لوجلاك (لقد لاحظ الجميع بالفعل أنه لا يُعوَّلُ عليه كثيراً. إنه لا يريد أن يُعوّلُ عليه كثيراً). إنها السيدة ڤيرا لوجيلاك يا سيدتى.

« إنها شقيقتى، وهى تقطن فى ليموج، وهى مقيمة هنا عند أصدقاء، فى الضاحية الشرقية، ولكن يلزمها ساعة ونصف من أجل الوصول... إذن، ففى حالة الطوارئ...

ماذا نفعل إذن ؟ هل نغيِّر الشخص ؟ ربما تغضب هذه السيدة ؟ على أية حال، يتعين، بما أننى لست من سجَّلت الاسم الأول، أن أحصل على موافقة المُراقِبة على التعديل »...

إن الإدارة تُعقِّد دائمًا المسائل السهلة ! وفى نهاية الأمر اتفقنا على أن أحصل على موافقة ڤيرا ؛ كنت واثقة أن المسألة لا تتجاوز مجرد الإجرا :

« إذا وافقت يا ڤيروتشكا، أُعطى رقم هاتفى بدلاً من رقمك: أستطيع أن أكون بجانب أمنا فى عشر دقائق سيراً على الأقدام...

وأنا أيضًا لا يلزمنى وقت طويل.

كيف ذلك ! من نوازى ! قطار الضاحية ثم المترو : ساعة ونصف. أما بالنسبة لسيارتك، فانسيُها : مع كل هذه الاختناقات المرورية...

اختناقات مرورية، نعم، توجد فى الصباح، ولكن ليس ليلاً. فى الليل المرور سلس : إذا طلبونى فى الليل يمكننى أن أصل فى عشرين دقيقة، نصف ساعة على أقصى تقدير.

فى الليل أو النهار، المسألة واحدة بالنسبة لى: ربع ساعة، بالثانية. خاصة فى الذهاب: الحركة فى الاتجاه المعاكس هى البطيئة !

نعم (صمت طويل). ولكنى أفضل مع ذلك أن نترك اسمى »...

وفجأة، أدركت الموقف: لن نتعارك على معرفة من هو قريبنا الذى يُرجع إليه ! على أية حال، إذا كانت مُخطئة بالنسبة لسرعة التواجد، فإنها مُحقّة فيما يتعلق بطبيعة المشاعر: إنها اليوم، بالفعل، قريب أمى، الوصى عليها، مُرضِعتها؛ أما أنا، فلست سوى ابنتها... وأُعجِبت، بعدئذ، بحيطة الإدارة - إذ يبدو أن قسم العلاجات التخفيفية يعرف الكثير عن إدارة العائلات فى أوقات الحزن - وانسحَبْتُ بنفس راضية من المنافسة: ستظل ڤيرا «الشخص الذى يتم إخطاره ».

وأكدْتُ ذلك اليوم مجدداً للسكرتيرة الصغيرة التى تَعيّنَ علىَّ مصاحبتها إلى البهو للتوقيع على ورقة «لعدم تشغيل جهاز التلفاز». بل إن هناك تأمين سيتم استرداده عن الخط التليفونى بما أن المريضة ليست فى حالة تسمح لها برفع السماعة. وصل بى الأمر إلى الاستمتاع بهذه الإجراءات التى تُخرجُنى من الغرفة : للبيروقراطية جوانبها الجيدة... هل أردتُ إطالة وقت التسلية حين سألت السيدة الشابة عن إحدى اللوحات الموجودة فى البهو الوردى ؟ كنت قد لاحظت منذ وقت طويل هذا الحامل المصنوع من الفلين على الحائط فى آخر القاعة، والذى أُلصقت عليه حوالى عشرون صورة شخصية؛ وأمامها أسماء : إيلودى، سيجولين، چوليان... معظمهم صغار السن كما يبدو.

قالت لى السكرتيرة «إنهم زوار متطوعون». ولكن الغريب، أننى لم ألْتَقِ خلال الأيام العشرة التى أتيت فيها إلى هنا بأيٍ من هؤلاء المرافقين البورچوازيين الذين دفَعَهُم احتضار رئيس إلى صفحات نجوم المجتمع فى الجرائد اليومية. بل ولم أشاهد حتى، على ما أعتقد، عجوزًا مترمتة تعشق اللحظات الأخيرة...

« متى يأتون ؟»، تبتسم الصغيرة: « بأمانة، لا أعرف: أنا أعمل هنا منذ عامين ولم أرَ منهم واحداً فقط ! وعموماً، فإن هذه الصور لا يتم تغييرها على الإطلاق... هل انحسرت الموجة ؟ هل لم يعد هناك متطوعون لهذا العمل غير الجذاب ؟ صحيح إنهم إذا كانوا قد جاءوا تصديقًا لما يرويه الإعلام - عن الموت بلون الورود، ومرح مؤسسة نهاية الحياة -، فلابد وأنهم قد تلقوا صدمة كبيرة ! وربما كانوا يضايقون المحتضرين،

الذين ليسوا بالضرورة راغبين فى بذل المزيد من الجهد لكى يَروقوا لأشخاص لا يعرفونهم... نهاية وهم.

لحسن الحظ أن ڤيرا هى قريبنا الذى يُرجع إليه ! لحسن الحظ ! أنا لا أصلح لأى شىء: « الرعناء» ! وكلما ازداد خوفى من عدم إتقان عمل شىء، كلما أعوزتنى المهارة أكثر.

لقد بلغْتُ أعلى درجات الرعونة : فقد خطر لى، مادامت أمى لا تستطيع الشُرب، أن أشترى لها رشاش مياه إيڤيان، لكى أبلّل لها فمها. إنها فكرة جيدة، لا يعترض عليها الأطباء، طالما، على الأقل، لم يتأكد الانسداد. إن أمى، التى لازالت عيونها مغلقة، تُبْقى الآن فمها مفتوحاً : سيكفينى إذن، بعد أن أخطرها بذلك، أن أُقرِّب من فمها طرف الرشاش وأضغط مرات متتالية لإرسال بعض القطرات الصغيرة على شفاهها وأغشيتها المخاطية التى جفت لدرجة أنها تتشقق وأن لسانها مُغَطًّى بالجلد الميت. أشرح لأمى العملية وأريت عليها، فى إشارة إلى أننى سأبدأ ؛ أنحنى وأضع طرف الرشاش وأدوس عليه بحرص... وفجأة أصبحت المياه فى كل مكان : بحيرات تجرى فى حنجرتها وعلى خدودها، وابتل الجزء العلوى من قميص نومها ! وراحت تكح، وتشرَق وتلهث، وترفع حاجبيها بغضب؛ و فيما أنا أحاول، بقدر المستطاع، تجفيف التلفيات بالمناديل الورقية، أشاهد بسمة الاحتقار ترتسم عند حافة فمها، دليلاً على أنها تعرفت علىّ...

وعُدتُ للجلوس بسرعة. إنها تتألم، وتئن أحياناً. وانا جالسة هنا بجانب السرير، لا أتكلم ولا أجرؤ على الإمساك بيدها : من الأفضل أن أتركها تنسانى... ولكنى مع ذلك أريد التخفيف عنها، ورغم المجادلة، فإن الفريق لا يريد تقديم موعد حقنتها : يمكن لأى جرعة زائدة من المسكنات أن «تميُتها». ومن المؤسف أن يحدث ذلك. إنهم يحترمون الحياة فى العلاجات التخفيفية ! نحب الحياة، ونجعلك تشربها، حتى الرمق الأخير !

ولكى أشْغِل أمى عن ألمها، وامنحها لذة متاحة، أحاول رش ماء الكولونيا على سترتها الليلية ومنديلها. تُجعّد جبهتها وترفع كتفها : إننى أضايقها. عندئذ، أعرض عليها أن أُهوّى لها : فمنذ لم تعد قادرة على تحريك الهواء، أصبحنا نفعل ذلك لها – نقف بجانب سريرها، والمروحة فى الذراع الممدودة، نحاول ترطيب وجهها: بعشر حركات ذهابًا وإيابًا فى الثانية، نصل إلى ٦٠٠ حركة للمِعْصم فى الدقيقة... وخلال نصف ساعة، يأتى التقلص ! وأحيانًا، حينما أرقب أحد أبنائى أو أولاد شقيقاتى يفعل ذلك، أتذكر مراوح الريش التى كان عبيد كليوپاترا يحركونها لطرد الذباب. ويبدو لى أننا عبيد فى الواقع. عبيد مَلِك تُوُفى...

ما دامت أمى لم ترفض عَرْضى (هى لا تتحدث إلاّ للممرضات على العموم، وبكلمات أحادية المقطع)، فإننى أقوم بتهويتها. ولكنها سرعان ما تتنهد: لقد ضاق صدرها. حسنا إذن، فأنا أيضا قد ضاق صدرى. إن «جلسات المروحة» هذه، تزيد يومًا بعد يوم من آلام تآكل جدار مفصل كتفى... لم أعُدْ فى العشرين أنا الأخرى ! يُنتظر من المسنين أن يساعدوا الكهول، ومن المعاقين أن يَحْمِلوا المحتضرين : عقابًا مُسْتحقًا على طول عمرهم. إن وجودنا نحن الأربعة حول أمنا أشبه بمشهد من مسرحية البرجراف لفيكتور هوجو. مشهد هزلى. «أخرجوهم !».

ڤيرا

ولكن ماذا كانت شقيقاتها تعتقدن ؟ إن الخدمات التخفيفية تمارس الموت الرحيم ؟ إن أمهن «سوف تنام» بسلام بين اثنين من المرافقين المفتونين ؟ يا للغبيات ! إنها، ڤيرا، كانت تعرف منذ البداية، أنه يجب تفادى المستشفى بأطبائها المراوغين وممرضاتها التقليديات، وأيضًا تفادى الآخرين الثُّقلاء، المساعدين على الحياة، الخادمات المتطفلات، المثرثرات، الواشيات: هذه الأمور يتعين أن تظل فى نطاق العائلة، مثلما هو الحال فيما يتعلق بميشا.

شقيقاتها لا تعْلمن، ولكن أمُّهن أنجزت مسؤولياتها بالنسبة لميشا: قامت بما يلزم لكى لا يتعذب. لم يكن ليتحمل أن يبقى طويلاً حبيس السرير؛ لم يكن يخشى الموت، ولكنه كان غير قادر على المرض. ولحسن الحظ، كانت أمهن، المرضة السابقة، لا تزال تحتفظ فى هذه الفترة ببعض العلاقات « فى مجال الطب »، كانت تعلم، منذ ما يقرب من عام، أن أباها مصاب بمرض لا شفاء منه : وشيئًا فشيئًا، تحصّلت على جرعات المورفين التى ستحتاجها، وحينما توسَّل إليها أن تأخذه فى الخارج، لكى يموت بشكل أسرع، فى الجليد، أعطته بنفسها الحقنة التى أغرقته فى الغيبوبة ؛ وبعد عدة ساعات، كان قد توقف عن التنفس. «سوف تفعلين الشىء نفسه معى يا ڤيرا، أليس كذلك ؟ أقسمى لى !». وأقسمت ڤيرا.

ولكنها أخصائية محاسبة. لا تعرف كيف تعطى حقنة فى الوريد، أو تُركِّب قسطرة، أو تعلِّق محلولاً. وبالنسبة «للتموين»، فهى تعتمد على الصيدلى المجاور. منذ شهور وهى تحاول بكل الطرق بلا جدوى. جربت كل شىء: أصدقاء الأصدقاء، المعامل التى تُراجع حساباتها، الجمعيات المتخصصة... وفى كل مكان، أجابوها بأنه

طالما أن هذه السيدة لا تزال واعية، فيجب عليها أن «تُحادث» طبيبها فى ذلك. كما لو كان لأمها طبيب ! إنها تغيِّر الممارس العام كل ستة أشهر ! أما عن الملاك الطيب للوى باستير، حاشد الزبائن ومُسوِّق خدمات العلاج التخفيفى، فإن زبائنه لا يلتقون به إلاّ فى الصور، المنشورة فى المجلات ! فقط أبدى صديق لصديقة، تعرفت عليها فى نضالها من أجل الأفغانيات، تَفهُّمه – من خلال طرف ثالث – لم يطالب، من أجل التدخل، سوى برسالة مكتوبة من المريضة، على أن تكون مُوثّقة : تلك التى يسمونها، فى البلاد المتحضرة، وصية حياة. ولكن أمها لم تعد للأسف قادرة على الكتابة، ولا حتى على التوقيع...

وفى الوقت الذى كانت فيه ڤيرا، المهووسة بوعدها والمُحطّمة بصمت المحتضرة، تواصل الطرْق على كل الأبواب ، كانت كاتيا تردد بحماقة: «أنا متعبة، فلْنأتِ بأحد إلى جانب أمنا.» وقد دفعت ليزا، بإعطائها صورة قاتمة عن الوضع، إلى الزعم، من سيدنى !، أنه لم يعُد ممكنًا التحكم فى قروح المريضة وآلامها من المنزل ؛ ثم قامت ليزا بإقناع سونيا. ووجدت ڤيرا نفسها، لأول مرة، «فى وضع الأقلية». بل والأنكى : قامت شقيقاتها بتكليفها، هى، بإقناع أمهن بالقبول بسيارة الإسعاف، والحقيبة، والرحلة الأخيرة إلى باريس – لأنها تحظى، أكثر من أخواتها كلهن، بثقة المريضة. وبالثقة التى منحتها لها هذه الثقة فإن ڤيرا كذبت، كذبت على أمها كما تكذب الأم على طفلها : «لن يستغرق ذلك طويلاً. بضعة أيام فقط. ستكونين أحسن. ينبغى ذلك. وهمست الأم – ما دمت تقولين ذلك »...

هل كانت بمُغّفلة ؟ حينما نقلوها فى لوى باستير من الكرسى المتحرك إلى السرير ، تنهدت وقالت : «المشكلات لا تزال فى بدايتها !». حسب كاتيا، كانت هذه الجملة (أطول ما نطقت به منذ شهور)، تعنى: «أخشى أن الشفاء ليس بالقريب العاجل.». وأضافت الأخت الكبرى «لأنه من الواضح أنها دخلت هنا وهى آملة فى الشفاء ! إنها لا تريد الموت ! لا زالت لا تريده ! لديها... رغبة مجنونة فى الحياة !» واختتمت سونيا بنبرة فخيمة : « إن أمنا فى حالة إنكار»

ڤيرا لم تدرك الأمور بهذه الطريقة ؛ إن عبارة «المشكلات لا تزال فى بدايتها » تعنى بالنسبة لها: «إنك بمجيئك بى إلى هنا إنما تُأخِّرين خروجى، لا تُوَفِّين بوعدك، تخدعيننى...» لأن ڤيرا تعرف جيداً، هى، أن أمهن تريد الخلاص؛ وأن ذلك لم يكن مجرد كلام فقط ؛ لأنها قد مارست بنفسها فيما سبق الموت الرحيم.

وحاولت سونيا بالأمس، عبر الهاتف، (ولم تكن قد عرفت بتدهور حالة المريضة وفظاعة المُجفّف)، أن تبرر مساندتها لكاتيا قبل خمسة عشر يوماً:

« اسمعى يا ڤيروتشكا، إن الفريق يبدو لطيفا. «ثقيلاً» بعض الشىء ولكنه لطيف. أنا على يقين من أنه إذا ازداد ألم أمنا وأصبح غير محتمل، فإنهم سوف...

لا تكونى بمثل هذا اليقين ! فكّرى : فى مؤسسة لا تستقبل إلاّ المحتضرين، إذا كان المطلوب من المعالجين اختصار أيام المرضى، لكان يتعيّن الإتيان بهم من السلخانات ! ولصار الموت إنتاجًا مستمرًا... ولما استطاعت ممرضة واحدة تحمُّل ذلك لمدة شهر !»

ولهذا السبب فإنهم فى لوى پاستير لا يلعبون بالمورفين. ولكن ذلك لا يحول دون إجراء «ترتيبات صغيرة» مع الموت. فالقاعدة مثلاً أنه لا محاليل، ولا تغذية إلاّ بالفم وبالطلب ؛ يمكن القول إذن أنهم يتركون المريض الذى يُعْجِزه إنهاكه عن الضغط على الجرس، يموت جوعًا. ما علينا: فالموت جوْعًا لطيف بالأحرى. وفى المقابل فإن الموت عطشاً... وأمهن سوف تموت عطشاً.

الأصول المتداولة، مخصص للاستثمار، الأوراق المالية، اثنان زائد اثنان تساوى أربعة، وأربعة زائد أربعة تساوى ثمانية، ترحيل الرصيد، خسائر وأرباح... وإيداع الميزانية ! إيداع ميزانية ڤيرا لوجيلاك، لقد سئمت؛ لم تعد تستطيع الجمْع، ڤيرا لوجيلاك، ولا التقييم، ولا الترحيل. سوف تُصفِّى الحساب، سوف تبكى، ڤيرا لوجيلاك. تريد أن تُصَفِّى كل شىء.

قالت لها سونيا في يوم من الأيام «أنتِ محظوظة، ففي إمكانك أن تفْصِلي بين الطبقات. أففف، من هذه بمفرداتها النفسانية الأنيقة ! نعم، كانت ڤيرا، بشكل ما، تفْصل بين الطبقات بالفعل. بالتقريب. العمل من ناحية، والأولاد من الأخرى. الأصدقاء الرياضيين، ومناضلي الجماعة. الزيجات والعلاقات. ليموج وشاتورو. ليموج زائد ڤييرزون، شاتورو، رغم ڤييرزون. كانت تفْصِل. ولكنها اليوم لم تعد قادرة على ذلك، الغضب يغزوها بأكملها. أمها، المحبوسة، تحت قوس فراشها ! وهي نفسها، أُمِرت بالصمت ! سجينتان للأصول ! ما دام وزراؤنا يؤمنون بمزايا العلاج التخفيفي، يتعين إذن أن يتظاهر المواطن،.. لا أحد يجرؤ على فضح الاحتيال، على القول أن الملكَ عارٍ وأن هذه العلاجات تقدِّم للمحتضرين ما تقدمه الولادة بدون ألم للماخضات: دواء لا فائدة له، جهاز لالتئام الجروح مُثبَّت في ساق من الخشب ! هُراءٌ ! إن المرضى، لا فحسب يشعرون بالغباء (حيث أنهم «من المفروض» ألاّ يتألموا)، بل وأيضًا يُدعَوْن إلى أن يكونوا بمثابة القدوة : لا صراخ، لا بكاء، يتم تصويركم،.. ينبغي أن يتم الموت مثلما يتم الوضع : مع احترام الطبيعة، من أجل إرضاء المؤمنين، وبدون جلَبة، من أجل عدم مضايقة اللامباليين.

ضاقت ذرعًا بالنفاق ! تَوَدُّ ڤيرا الذهاب إلى أحد هذه البرامج الحوارية المتلفزة لكي تقولَها، لكي تصيح في «سادة الجامعة» هؤلاء : « إذا كان الوضع بدون ألم مثلما تحكون، لماذا لم نعد نجد أمهات تفضّلن التنفس المحسوب على حقنة الإبيدورال(*)؟ لماذا ؟ يا قطيع من المنافقين ! متى ينتصر الخليط المُذاب على الكلام المعسول، بالنسبة للأموات المقبلين ؟ ».

سوف تقاتل أيًا كان الوضع. الانضمام إلى جمعية «الموت بكرامة». تعبئة العائلات. الكتابة إلى نائبها. توزيع منشورات. التظاهر أمام الجمعية الوطنية. ملاحقة

(*) تُعطى للتخدير الموضعي أثناء الوضع.

الأوساخ، والمنافقين، والـ... صرخت: الهاتف يدق ! «أوووه، هذا أنت ياعزيزتى ؟ لو تعلمين كم ارتعبت ! لقد انتفضت: إنه الضغط العصبى... أفتقدك يا حبيبتى... كلا، كنت أحاول أن أختم السنة المالية لمؤسسات مارتان، ولكنى غير قادرة على التركيز على... نعم، هذا صعب... أن نرى أمنا فى هذه الحالة ! أعلم يا عزيزتى، أعلم، وأعتقد أنها هى الأخرى كانت ستحبك لو عرفتك... أووه، هل تظنين ذلك ؟... لقد كانت أمى متفتحة، لا شىء فيها من سذاجة نساء الأقاليم... على أية حال أعتقد أنها كانت تُدرك بالنسبة لك... طريقة حديثها لى عن ڤيرزون، ونصف الابتسامة، وتلميحاتها... بل إنى كثيراً ما تساءلت إن كانت لم تكن هى أيضاً، مع لويز... أفتقدها، أمى المتواطئة، آه لو تعلمين !، أفتقدها من الآن. وأنت أيضاً أفتقدك يا حبيبتى... كلا، الأسترالية»، كما تقولين، ليست على ما يرام بما يكفى لكَى... أنا التى أقدم لها الدعم بالأحرى... لا أعلم، ليس لدينا الوقت لنتحدث سوياً أنا وهى، إننا نادرا ما نلتقى بدون الأخريات... وأنا أيضاً، وأنا أيضاً، يا حبى. هل تعرفين ما أفتقده الأكثر حين أكون بعيدة عنك ؟... كلا، ليس مداعباتك، ولو أن... حَزِّرى... رائحة الأنثى !»

(١٦)

إن أمنا، مثل أى من سكان لاكروز الأصلاء، لم تشعر أبدًا باهتمام حقيقى بالأمور الدينية؛ ولكنها ليست ضد الإكليروس، بل وليست ملحدة مُعلنة. كانت فى الماضى تمارس شعائر الأجداد وتصلى على «أمواتها» فى عيد القديسين، وفى يونيو، أثناء امتحان أحفادها فى البكالوريا، كانت تُشعل الشموع فى كافة الكنائس وتحادث أهلها المتوفين: «إذا كنتم من عِليِة القوم فى أعاليكم، استخدموا معارفكم : فالصغير ضعيف فى الرياضيات، ينبغى مساعدته. »

لا شك أنها لم تكن لتعترض اليوم على أن يأتى قس للزيارة ؟ لكنها لم تطلبها؛ ولا يمكننى اقتراح أى شىء: ليزا وڤيرا لن تسامحانى إن فعلت. مع أن الرجال، مثل الأطفال، حينما لا يستطيع أحد أن يعالجهم، يحتاجون كثيرًا لمن يهدهدهم - بل ولمن يهدهدهم بالأوهام.

إن الشخص الذى أشرف على الموت «ولا يؤمن»، المحتضر الذى يُترَك «بلا أمل»، مآلهما الفشل. يدخلان فى الجدار مباشرة. الجدار القائم هناك، على بعد متر من سريرهما. فى لوى پاستير، أشاهد أمى وهى تنطلق بسرعة نحو الجدار، ولا تكف السرعة عن الازدياد، أَوَدُّ مساعدتها ولكن الضغط على الفرامل أو لف المِقْود مستحيل : فأنا لست فى سيارتها...

لماذا يستمرون، فى أماكن الموت الفخمة هذه، التى يشيدونها بين الحدائق، فى وضع الأسرِّة بمحازاة الأشجار والزهور ؟ أسرِّة لا تنظر إلاّ للجدار ؟ إنهم يحوُلون دون تمكّن من لم يعد قادرًا على أن يدير رأسه، من الهرب.

حينما سأموت، أريد أن يقولوا لى إنه لا يوجد جدار: يوجد فقط سراب انعكاس لسحابة، ستار خفيف. أن يؤكدوا لى أننى لن أتحطم، بجسدى وروحى، فى هذه الكتلة الأسمنتية، وأننى سوف أعبر السور، وأننى لن أشعر، أثناء العبور، إلاّ بلمسة باردة على وجهى. اقسِموا لى أنه يوجد، فى الجانب الآخر، جانبًا آخر. وَضَعُوا سريرى أمام النافذة..

لو كنت قد تواجدت فى هذا السرير، بالطابق الرابع، ما تركتنى أمى لحظة. لم تكن تترك «صغارها» أبدًا ولا تتخلى عن المحتضرين. كانت ستقف هنا، بالقرب منى. الأم كانت واقفة(*). كانت سترطِّب جبهتى، وشفتيّ ؛ وتمسك يدى بمهارة ؛ ولم أكن سأخاف شيئا. حينما تكون أمى موجودة، لا أخاف شيئًا.

لماذا لم أستطع أن أفعل من أجلها كل ما كانت ستفعله من أجلى ؟ «لماذا ؟» لأننى لم أكُن أبدًا أم أمى ! أُغيِّر لحامِيَتى حفاضاتها، أهدهد مُعلمِّتى: إن عودة الأنهار إلى منبعها ربما كان أسهل من ذلك ! إذن سوف أظل حتى النهاية، طفلة هذه السيدة المنهكة، الهشة مثل المولود.

حينما كنت فى كليراك، أُوجّه أمى عبر الطُرُقات، وأدفعها، أو أسحبها لصعود الدرج، وأحملها من مقعد لآخر، وأضع لها ملابسها، مثل الدمية، وأُفرِّش لها أسنانها، وأضعها فى الفراش، كثيرًا ما فكّرت فى هذه الكلمات من الكتاب المقدس : «سوف يأتى يوم يُلْبسُك آخرون حزامك ويقودونك إلى حيث لا تريد الذهاب.» وفى هذه الأيام، وفى مواجهة الجدار القائم أمام فراشها، تأتى إلى أُذُنى أيضًا آية إنجيلية: «لقد تقدّموا حتى الحافة، وظلُّوا مشدوهين.» ذهبنا معه حتى الحافة، ولكننا نتوقف هنا، وهى تواصل بمفردها.

(*) غناء كنسى يُعبِّر عن عذاب القديسة مريم أثناء صلب المسيح .

أول أمس، فى الرابع والعشرون من ديسمبر، واليوم الثالث بدون شراب، طلبت أمى ماءً مباركًا، من اثنتين من المرضات حدثتانى عن ذلك؛ ولكن إحداهما قالت «ماءً من لورد(*)»، فى حين ذكرت الأخرى «ماءً مباركًا». ما هى الكلمة التى استخدمتها أمى ؟ اذا كانت قد قالت «ماءً من لورد»، فهى إذن لا تزال تأمل فى الشفاء ؛ وهى تقدّر بالطبع أن الأمر يحتاج إلى معجزة، (مع سرطانات ثلاثة وانسداد !)، ولكنها، من أجل حدوث هذه المعجزة، تتمنى أن تكون كل الفرص فى جانبها : «ماذا تريدين ؟ – الشفاء !» وبعد اثنى عشر يومًا عند المحتضرين، لم تتغير حالتها الذهنية: الحياة، ولا شىء غير ذلك.

أما إذا كانت فى المقابل قد تحدثت عن « ماء مبارك»، فإن ذلك معناه أن تطوراً قد حدث، فهى تبحث عن العزاء أكثر من الشفاء. إنها وهى ترى أمام سريرها هذا الجدار الكبير، جدار الموت الذى يقترب، تحاول، فى انتفاضة من القوة، أن تقضى عليه، أن تسحقه: «ماء مبارك.

بعثتُ أُخطر القس الملحق بالمستشفى. إنه مُثقل بالمواعيد، نحن فى فترة عيد الميلاد، اصْحَى يا مزامير ودوّى يا قِرب ؛ ولكنه مر رغم ذلك منذ الصباح التالى. غير أن الوقت كان قد أزف : كانت أمى قد دخلت فى غيبوبة جزئية، لم تفق منها إلاّ بعد الظهر، لمدة ساعاتٍ. كانت غير واعية حين بللّتُ جسدها بالماء المبارك، مثلما كنت قد بللته، بالأمس، بماء الكولونيا، بزهر اللافندر والزنبق، ذات الطعم المُسَكِّر، الشبيه بنبيذ جزيرة ماديرا، الذى كانت تحبه كثيراً. ودعانى القس إلى تلاوة صلاة. وقلت سلام عليكِ يا مريم. أحب مريم. أعلم جيداً حقيقة تاريخيتها، بل وأيضًا نجاحها الباهر أكثر من اللازم ؛ ولكنى أحبها.

(*) مدينة فرنسية بها تمثال للعذراء مريم ويزورها المرضى من جميع أنحاء العالم طلبا للشفاء.

ثم اقترح على القس أن أتلُوَ أبانا. رفضْتُ. لا أستطيع. هناك الكثير من الحسابات بيننا، خاصة فى لحظة مثل تلك. «لماذا تخليتَ عنى ؟» بجانب الصليب، لم يكن الأب موجوداً. كلا. لا فوق ولا أسفل. فى حين كانت هى، الأم، واقفة هنا، مسحوقة، عاجزة، ولكن قريبة جداً. كانت واقفة هنا. وتلوْت سلام عليكِ يا مريم مرة ثانية.

« لماذا يتعين أن نتألم لكى نموت ؟»: ليزا طرحت على السؤال كما لو كان الأمر يتعلق بموضوع فلسفى. كانت قد استعادت نظرتها الحزينة التى كانت تصاحبها وهى مراهقة – نظرتها وهى فى السادسة عشرة، حينما لم تَعُد «المفضّلة» ؛ لا أعلم ما كان قد حدث بينها وبين أمى، ولكنها بالفعل كانت قد أُزيحت للخلف لصالح ڤيرا، لبضع سنوات. وفجأة، لم تعد تطلب مشورة «رقم اثنين» فى واجباتها وامتحاناتها المدرسية ؛ كانت تتوجه إلى سونيا، التى لم تكن قادرة على المساعدة، أو إلى. «لماذا يا كاتيا ؟ لماذا ينبغى أن نتعذب بهذا الشكل لكى نموت ؟»

أحاول الإجابة عليها كما علّمونى – فى جزئين. الجزء الأول: الألم الجسدى، الذى يُنذر، ضرورى من أجل الحفاظ على الحياة – ويلى ذلك المثال التقليدى لهؤلاء الذين لا يشعر جلدهم بالحروق، ويتركون لحمهم يحترق. ولكن (الجزء الثانى)، حينما يفقد الألم وظيفة الوقاية هذه، فإنه يصبح بلا فائدة ؛ ولذا هو ليس بضرورى للموت... ويتوقف حديثنا هنا. ونواصله فى صمت، كلانا من جانبها : إن الخالق الماهر لا يأتى فى عمله بشىء ليس بمفيد أو جميل ؛ وإذا أمكننا أن نتخيل، عند اللزوم، خالقًا خبيثاً،لعوباً، يضيف، من أجل المتعة، ما يفيض عما هو ضرورى – بضعُ فرسات بحر، شوكتين أو ثلاثة، زهرة آكلة للّحم –، خالقًا مزهوًا بنفسه، لدرجة ألاّ يُحرّم عليها الخيال الجامح، فإن فكرة أن يضيف عذاباً «من أجل المتعة»، لا تتفق مع فكرة الخالق المحترم... ما هى قيمة «ربّ قادر على كل شىء ولا حدود لطيبته»، لا يستطيع، أو لا يرغب فى منح مخلوقاته «الموت الطيب» ؟ إن الإنسان يعامل كلابه بشكل أفضل ! لا «أبانا الذى» إذن، ولا أسف.

فقد قفز غياب الرب أمام عينى بغتة: غياب يخطف الأبصار. بل إنى أتساءل فجأة، إذا كانت أمى قد طلبت بالفعل ماءً مباركًا. إنها عطشى للغاية. ثلاثة أيام بلا شرب. لا بد وأنها رجَتْهم: « ماء، ماء»، وأن الممرضات الشابات، العاجزات وإن كن شديدات الرغبة في فعل شيء سمِعْن : «ماء، من لورد..»، أو شيء من هذا القبيل. إن كافة المعالجين فى القسم التخفيفى مؤمنون. ليسوا بالضرورة مسلمين، يهود، بوذيين أو مسيحيين - رغم أن... ولكن، حتى الأقل تدينًا هنا، يحتاجون إلى الإيمان: ولذا يجعلون من أنفسهم مؤمنين «نفسيين».فالصغيرات حدثننى عن الماء المبارك رغبة فى إقناع أنفسهن أن أمى لا تزال تنتظر تحركًا من قِبل العائلة، وأنها لم تكن مستمرة فى معاناتها العذاب كل هذا الوقت بلا فائدة. فالانتظار كان يبدو لهن أقل عقمًا، إذا افترضن أننى أملك وسائل تقصير أمده. لا بد وأنهن كاثوليك فوق ذلك :.فالماء المبارك هو بالتأكيد، فى تفكيرهن، التصريح بالرحيل، الذى كانت قد حدثتنى به الطبيبة الملحدة قبل أيام، بتلطف شديد... «تصريح بالرحيل، ليس إلاّ، مرادفًا الاستسلام، وهو مبدأ مؤداه أن المحتضر يختار لحظته. ووفق دكاترة پانجلوس، المتفائلين المتكلمين أبدًا، لا يموت المرء إلاّ حينما يكف عن الرغبة فى الحياة: يا للخبر الرائع. أو ليس العالم بكامل الأوصاف ؟ والملاحظة الباردة تُفْضى للأسف إلى حقيقة أكثر بدهية وقسوة : لا يموت المرء إلاّ حينما يكف عن القدرة على الحياة. ولكن الواضح أن أمى قادرة. إنها قادرة، رغم الماء المبارك والتصريح بالرحيل.

لقد غرقت فى الغيبوبة مجدداً منذ الأمس. غيبوبة تكاد تكون هادئة، مثل النوم العميق. إن هذا الهدوء يسبق عاصفة جديدة، ولكننا لا نعرف ذلك، ونعتقد أنها ارتاحت، فى أعقاب حالات الجزع التى انتابتها وراحت فيها تدير رأسها يمنة ويسارا بلا توقف على الوسادة، وجبهتها متقلصة. كثيرون نحن فى الغرفة، البنات والأحفاد، جالسون فى دائرة. أبى يبكى فى مقعده. يبكى بحق، هذا غريب. ڤيرا وحدها تظل واقفة، بجانب السرير، مشغولة - تمسح وجه أمنا، تدلك لها ذراعيها، تبلّل شفاهها، تُهوّى لها، تُعطّرها، ترتّب لها الفرش، وحين تنتهى من كل ذلك، تعيد الكرة: الزيوت

الطبيعية، مناديل الأطفال المرطبة... سونيا الجالسة بجانبى تقول لى بصوت خفيض : « متى ستتركها لحالها ؟»

قلنا لأمنا، على مدى ست سنوات، كل كلمات الحب التى نعرفها. وهى قد «اتخذت ترتيباتها» منذ وقت طويل وأعطت توصياتها. وكما كانوا يُلحون علينا فى المستشفى، فقد منحناها، ليزا وأنا على التوالى، التصريح بتركنا. لقد طَمأنْتُها على سعادة الأحياء الذين تتركهم، وحدثتها عن الأموات الذين أحبتهم، أبيها، ولوين، قلت لها أنهم هنا، قريبون جداً، وأنهم يتحرقون شوقًا لرؤيتها من جديد، بل إننى ذكرت «الرب»، بغض النظر عن أى شىء. كنت مُقنِعة ما دمت أقنع نفسى... والنتيجة ؟ خمسون ساعة من الاحتضار، بصوت أشبه بالحوض المسدود، الذى تتسرب منه المياه بصعوبة : بعد كل زفير، تأتى كركرة سيفون من نهاية الحنجرة، بقْبقَة ثقيلة، قذرة، لا تنتهى.

إنها تحيا، بدون أن تنتظر أى مزيد، فلم يعد لدينا مزيداً نقدمه. تحيا، بدون أن تشرب قطرة ماء واحدة منذ خمسة أيام. تحيا لأن عضلة قلبها «ثابتة»: ها هى ذى الحقيقة !

أمى ستموت من انسداد معوى. إن سرطانها ، حسب الأطباء، ينتشر بقوة من هذه الناحية. هذا على الأقل ما يفترضونه، بما أنهم لم يستطيعوا التحقق من أى شىء، لعدم وجود أجهزة قريبة.

وحول أسباب هذه المشكلة الأخيرة، تَسُوق سونيا فكرة مغايرة لرأى الأطباء مفادها : أن أمنا تموت من انسداد لأنها نظيفة أكثر من اللازم.

حينما وَصلَت إلى لوى پاستير، كانت أمى لا تزال معتادة على أن نحملها لتقضى حاجتها : كانت المسألة تزداد صعوبة، ولكننا كنا نتمكن من ذلك على اثنتين أو ثلاثة.

حين رأينا «الغرفة الوردية» بالمستشفى، غرفة القرنفل، (كل الغرف تحمل أسماء زهور)، شعرنا بالفرح : مراحيض واسعة وسهل الوصول إليها، المقعد المجهز خصيصًا : يُسهّل التعامل. خطأ: فبعد تجربة أولى، قررت مساعِدات المعالجِات أنه من

المستحيل تحريك مريضتنا؛ مستحيل «ثنْيها»، لإجلاسها، ثم مستحيل فرْدها «بعدها»، أى من المستحيل القيام بهذه العملية تحت الطلب. ولما كان من غير الممكن أيضًا أن نضع لها الحوض أو الحفاضات، بسبب قروحها، طُلب منها أن «تترك نفسها»: « هل فهمتى يا سيدتى الصغيرة ؟ إذا شعرت بالحاجة، لا تتحرجى ! يوجد قماش بين المرتبة والفرش للحماية، أخذنا احتياطنا، هيا ! لا حاجة لاستدعائنا، تقْضين حاجتك فى فراشك – بكل بساطة!»

أمى نظيفة، بل رقيقة. حينما أُدخلت فى لوى پاستير، كانت قد كفّت عن التحكم فى الشىء الكثير من حياتها، ولكنها كانت لا تزال تتحكم فى تلك الوظائف: «فأمسكت نفسها». وبعد أيام ثلاثة لم تتبوّل فيها، «قاموا» بتركيب قسطرة بولية. ولكن، من الناحية الأخرى، لم يكن ذلك ممكنًا : ومرت الأيام. ..

ليس السرطان هو الذى سيقتلها، وإنما عدم قدرتها على أن تترك نفسها، والقوة، الكاملة، لإرادتها، وكراهيتها للفوضى.

لن تموت أمى من انسداد، مثلما يزعم الطبيب، ومثلما تريد سونيا أن تقنع نفسها: «سوف تموت عطشًا.»، تقول لى ڤيرا. صحيح أن المُخفِّفين، بموجب مبادئهم، لا يخففون الجفاف أبدًا، حينما لا يستطيع المريض أن يشرب. والأنكى: من أجل ألاّ تتألم أمى من انسدادها المُفترض، فإنهم يواصلون حقنها بمادة لتجفيف أغشيتها المخاطية – قابض للشعيرات الدموية يحرق فمها، ومجفّف يُشقّق شفاهها. «انظرى يا كاتيا، جلدها الذى يتغضّن ! إنهم يحنطونها وهى حية !»

(١٧)

مساء أمس، السابع والعشرون من ديسمبر، توفيت أمى. ليس من الانسداد، كما تعتقد سونيا، ولا من العطش، كما تظن ڤيرا.

توفيت حينما استطاع المعالجون فى لوى پاستير أخيرا أن يفعلوا «اللازم.»

كنا جميعًا موجودين. إنهم لا ينفردون بها إلاّ ليلاً – من منتصف الليل، حينما يرحل آخر الباريسيين وحتى السابعة صباحًا، وقت أن يصل أول المقيمين بالضاحية. حينما دخلت أمى فى الغيبوبة، مع هذا الشخير الآلى العالى الذى تسمعه من عند المصعد، لم يكن الفريق مكوّنًا إلاّ من الصغار، – عناصر جديدة فى طريق الآلام ؛ وفى الليلة الثالثة فقط تسلّمت المناوَبة ممرضة متمرسة (عشر سنوات من الخدمة فى القسم) ؛ وبعد ساعتين، كانت تتصل بقريبنا الذى يُرجع إليه قائلة أن أمنا ماتت «فى سلام»، أمام الفريق المجتمِع هنا...

مساكين أفراد قوات دور الموت ! إنهم واقعون بين سندان نفاق القوانين، ومطرقة عدم واقعية العائلات. هم محكوم عليهم بأن يتصرفوا خِلسة، بين زيارتين، بسرعة...

إن فعل «الموت»، تنقصه بعض الأزمنة. أزمنة لتصريف جميع مراحل الاحتضار، أزمنة يحق للأطفال تكوينها: أمى « ماتت» طويلاً... الآن، هى ميتة – أى فى حالة مستقرة.

ليـزا

ليزا تعرف جيداً مم ماتت المريضة، ليس من الانسداد. ولا من العطش. ولا من جرعة مورفين زائدة. شقيقاتها الثلاث مخطئات. أمهن ماتت لأن بناتها لم يستطعن السير – الأكل – التنفس بدلاً منها.

مع أن ليزا كانت ستفعل ذلك عن طيب خاطر. التنفس «عوضًا عن أمى». إعطائها قلبها، أنفاسها. لأن أمها كانت تحب الحياة، بجنون، وهى، ليزا، ليست متمسكة بها فعلاً... ثم أن «الصغيرة الأخيرة»، كانت معتادة على أن جسدها ليس ملكًا لها ؛ على أن أمها وحدها تقرر ما هو جميل وجيد لهذا الجسد. «تريدين رئتى يا أمى، تريدين كبدى ؟ خذيهم.» كان ينبغى زرع جسد ليزا الأجدد فى روح أمها، الشابة جداً، المفعمة بالحيوية. خاصة وأن الأم قد أخذت، بنجاح، أجزاءً من أجساد بناتها الثلاث الكبيرات – شعر ڤيرا، على سبيل المثال، أو رحم سونيا. أو بشكل أكثر دقة، مُنتَج هذا الرحم الشاب: فابريس.

كانت ليزا لا تزال تقيم «فى المنزل»، فى ذاك الوقت: وشاهدت كيف قامت الجدة النشيطة بمصادرة أول أحفادها. لا شك أن سونيا لم تكن قادرة على تربيته، على الأقل فى البداية. ولكنها بعد أن تلقت تدريباً، ووجدت عملاً، واستأجرت شقة صغيرة، واكتسبت سلوكًا طيبًا (مؤقتًا)، ساقت أمى العديد من الحجج لعدم إعادة الطفل إليها: التهابات الأذن المتكررة، حساسيته المعوية التى تستلزم متابعته عن كثب، حبه للجدة العجوز سولانج، صداقته مع موجيك، كلب ميشا، حاجته الحيوية للهواء الطلق والأشجار العالية، عِشقَهُ لأقفاص الأرانب، كوخه الصغير فى آخر الحديقة، تميُّز الحضانة فى كليراك، تفاهمه الشديد مع مُدرِّسة صف الأولى الابتدائية، ونتائجه

الممتازة فى الثانية الابتدائية، ثم، حينما بدأت ڤيرا وكاتيا بدورهما فى «التكاثر»، تذرّعت بالتزاور المنتظم مع أولاد خالاته الذين يعشقهم : «هل تريدين حرمانه من هذه الفرصة ؟ إن أولاد العمومة أهم شىء بالنسبة للابن الوحيد !»

«بابو» لم تطلق سراح فابريس إلاّ فى سن الكلية. لأنه لا توجد كلية فى كليراك. وأنه، من الناحية المادية، كانت الولادات الأخريات قد ضغطت كثيراً على وقت الجدة الطيبة... واستعادت سونيا ابنًا على أعتاب المراهقة لم تعِش أبداً معه. ولم تكن العيشة المشتركة سهلة – خاصة وأن فابريس كان يفتقد جدته وأنه سرعان ما وجد فُرَصًا تجعله لا يقدِّر أمه. أسَرَّت سونيا يومًا إلى أختها: «لو كنت قد استعدته قبل ذلك، أو لو كان معى وهو رضيع، لكان ذلك قد دعَمنى، وهذّبنى، كنت أحبه، تعلمين، إنه تفاحتى الصغيرة. من أجله كنت سأتوقف عن السلوك الأخرق ! أنا متأكدة من ذلك. شبه متأكدة» ...

حصل فابريس على استقلاله فور حصوله على البكالوريا. بمساعدة مالية من جدته، التى لم يعد مع ذلك هو المُفضّل لديها. واليوم هو شخص جيد. حاصل على عدة شهادات. قليل التواصل. وأعزب. لديه أسماك حمراء. يعيش فى لوزان بسويسرا. هوايته ؟ جمع الطوابع. مُحبٌ للنظام.

وأضافت سونيا يومها «ربما كانت عدم قدرتى على الاعتناء به كما كان حَرِيًا بى أن أفعل، ربما كان سببها... سببها أنْتِ.

أووو، كلا ! لن أتحمل كافة خطايا العالم !

لا تغضبى ! لستِ مسئولة عن أى شىء: أتحدث عن ذنبى أنا. فى هذه الفترة، حينما علِمْت مشكلتك مَن أمى، قلت لنفسي إننى كنت لك قُدوة سيئة. وبعدها، حين سمعت عن حالات إجهاضك، لم أرغب فى الكذب على نفسى: إن مولد فابريس هو الذى حكم عليك بالعقم. لقد عوقِبْتِ عن أخطائى ...

هذه مبالغة، أليس كذلك ؟ ».

كانت سونيا قد أخرجت من حقيبتها الكبيرة زجاجة المياه : يجب أن تشرب، حتى وإن كان الماء، لكى تهزم خجلها وتعبّر عن نفسها بدون أن تتلعثم. ولكنها لا تشرب الماء فقط بالتأكيد. خاصة حينما تُخرِج زجاجة الكونتركس. فهى عندما تبدأ فى سحب زجاجتها اللعينة معها فى كل مكان واستعراضها فور تناول الآخرين نخبًا، فذلك يعنى أنها بحاجة إلى فرد الستار الساتر... لا شك فى أن سونييتشكا-المتحفظة قد كسرت لتوها مرة أخرى حالة «الفِطام» ؛ فمنذ زمن بعيد بالفعل، توجد الأشهر «مع» والأشهر «بدون».

متى تحدثتا سويًا من جديد عن المأساة ! إبان العملية الثانية لأمهما. ليزا تسترجع المكان بوضوح، الذى يتّسق مع خطورة كلامهما : كافيتيريا مستشفى جوستاڤروسى، – بعض المناضد من الفورميكا البيج، الكراسى المعدنية، وبعض المرضى الذين نزلوا هاهنا ببيچاماتهم ومحاليلهم المُعلّقة، وضماداتهم، عائلات منكوبة... كانتا قد طلبتا شايًا روسيًا. «آسف، ليس لدينا – إذن اثنان كاپوتشينو، ولا هذا أيضًا. – إذن اثنان أى شىء».

كانت سونيا تشرب ماء الكونتركس من الزجاجة رأسًا:

يا ليزا، فى العام ٧١، حينما حدثت لك هذه المشكلة الضخمة...

ضخمة هى فعلاً الكلمة المناسبة: جنين عمره أربعة أشهر...

كنت قد ألقيت لتوى بفابريس بين ذراعى أمى، يا لها من هدية، وإذا بالحادث يتكرّر ! لا بد وأنها ظنت أنها لن ترى أبداً نهاية له. إضافة إلى أنك لم تكونى قد بلغت السادسة عشرة بعد !

السادسة عشرة ونصف...

لقد خافت من القيل والقال.

لم تكن من هذا النوع !

خافت من غضب أبى حين يعلم: يا للعَظَمة، السيدة المربية، الأم المثالية ! ففى الوقت الذى كان البحّار الفاضل يذرف العرق ليجلب قوت عائلته، لم تكن زوجته بقادرة حتى على الحفاظ على الصغيرات «المُتبولات». ! المسكينة ! هى التى تمنّت بشدة أن تُرزَق بصبية ! على أية حال، بأية أموال كنتِ ستُربين طفلك ؟ الأبوان لم يكونا بأصحاب الملايين: كانت أمى تُحْصى القروش، لقد أحصَتها على الدوام. عامة، ضعى نفسك مكانها، فى مثل هذا الموقف...

أستطيع بالتأكيد أن أضع نفسى مكانها، طالما هى وضعت نفسها مكانى.

ليزا، ليزوتشكا، يا قطتى الصغيرة، كل الأمور انتهت نهاية سيئة، ولكن كان لديها ما يعذرها...

ما يعذرها، إنك يا سونيا تجدين أعذاراً للكل. حتى لنفسك.

اصطبغ وجه سونيا بالحُمرة، ثم عاودت الهجوم بلُطف – بما يبرهن على أن ماء الكونتركس، حتى الكونتركس، كان يمنحها لذاعة :

« ماذا فعلتِ بيدك ؟ تنزعين الجلد ! أنتِ... يا إلهى، هل تقضمين أظافرك فى سنك هذه ؟»

كانت ليزا قد نظرت إلى أطراف أصابعها المنتفخة، وآثار الجروح المُحمرة، والجروح الصغيرة على عقلات أصابعها العلوية: حاشا لله ؟. لقد تخلّصْت تماماً من إدمانى ... مثلك.

ميتر ريتشارد – چونز، ليزا ريتشارد – چونز ذات الأناقة الفائقة، تترافع دائماً وهى ترتدى القفازات. وهو تَفرّدٌ أسهم كثيراً فى نجاحها الإعلامى فى ميلبورن وسيدنى. حُضور قوامه خمسون شخصاً فى قاعة المحكمة يستمعون لمحامية تترافع وخمسة ملايين يشاهدونها فى «التلفاز»: صارت الشهرة من الآن فصاعداً تُكتسب بالمجىء إلى المحكمة وأنت تنتعل حذاء العجلات أو تقود التريسيكل، والشعر ملموم فى

هيئة كعكة، إذا كنت رجلاً، أو رأسك حليقة، إن كنت امرأة – ميتر ريتشارد–چونز ترتدى قفازات بيضاء، فى أطراف أكمامها السوداء. ميتر ريتشارد–چونز تُخفى عُصابَها فى أكمام المحامية.

فى ذاك اليوم، فى حانة السرطان، قبل أربعة أعوام من موت أمهما، تبادلت «الصغيرتان» لوجيلاك، اللتين تخلصتا لمرة من «التوأمتين» الحديث بحْرية. عن هذه الحقبة، التى ليست بالبعيدة تمامًا، حيث كان الإجهاض ممنوعًا، والأمهات والبنات والأطباء يتعرضون لخطر السجن، وحيث كان منع الحمل، الذى صُرِّح به منذ وقت قليل، يظل وقفا على من تجاوزن الواحدة والعشرون.

تحدثتا عن هذا الزمن، كما كان يمكن لجدهما أن يتحدث عن الخنادق: بكلمات غير واضحة، لأن الكلمة غير الواضحة تكفى لمن خاضوا التجربة؛ فى حين أن اطول الأحاديث لن تُعَلِّم شيئًا لمن لم يَعِشْها.

فى عام ٧١، فقط لويز، الصديقة العزيزة، والشريكة فى الحدث وسونيا، الأم الشابة، كانتا قد أُخْطِرتا بالسر. تمت استشارة ليزا بالكاد، إنها «كاذبة صغيرة» و«خبيثة»، لم تعد فجأة المفضّلة. لويز هى التى عثرت على « من سيُجْرى العملية» – من منطقة بورچ – وجهّزت الحملة : السيدتان والطفلة اختفيتا لمدة يومين. حمْلة ومجزرة : إذا وضعنا فى الاعتبار حَمْلاً عمره أربعة أشهر. وبعدما عادت إلى كليراك، تعرضت ليزا لآلام مبرحة ؛ ولكن بدون أدنى شكوى: بداية لأنها كانت مخطئة، وكان عليها أن تستعيد احترام أمها، وحبها، بأى ثمن؛ ثم أن أمها لا تحتمل الشكوى. «تذكروا مستشفى تروسو يا أطفالى، هؤلاء الصغار المصابين بسرطان الدم فى أسِرَّتهم البيضاء...» وحين وصل بنا الأمر إلى الالتهاب البريتونى، وافقت عيادة فى ليموچ، فى اللحظة الأخيرة، على إصلاح الخسائر. نجح الأطباء بمعجزة فى وقف تسمم الدم. ولم يفضح الجراح أحداً. كان إذن التهابًا فى الزائدة الدودية، التى استئصلت فى أوج الأزمة، مع بداية التهاب بريتونى: « لحسن الحظ يا حبيباتى أن لدينا المضادات الحيوية، قبل عشرين عاماً كان يمكن لهذه الزائدة الدودية اللعينة أن تأخذ منا ليزتنا.

كل ذلك بسبب قطعة لحم صغيرة عديمة الفائدة، قطعة زائدة : هذه الزائدة التى لا لزوم لها ! آه، إنها سيئة الحظ طفلتى المسكينة » ...

فى ڤيل چويف، سونيا تأكل الحلوى بعد أن تنزع عنها غطائها الورقى الذى تلفه بين أصابعها وهى تحاول أن توضح لأختها موقف أمها: «لقد ظنت أنها ستفقدك... خافت بالطبع ! كانت لا تتركك فى العيادة، ليلاً أو نهاراً.» تتذكر ليزا بالفعل: « هناك تعقيدات يا كَنزى. ولكن لا تقلقى يا صغيرتى، لن يكون لها عواقب...» وتضيف سونيا «كانت جدتى هى التى تراعى فابريس، فى كليراك. لن تتذكرى بالتأكيد، فقد كنتِ شبه فاقدة للوعى، ولكن أمنا كانت تنام على مقعد بجانبك: ظلت ملتصقة به طيلة خمسة عشر يومًا ! لو كان فى استطاعتها منحك حياتها لفعلت. هى التى أنقذتك على أية حال، هل تعرفين ذلك، هى التى شخّصت التهابك البريتونى فى حين لم تكونى تشْكين حتى ! كانت حرارتك إحدى وأربعين درجة، وبطنك مليئة بالصديد، ولا تقولين شيئًا... فى النهاية، من المفيد أن يكون لك أمًا ممرضة !

كانتا قد طلبتا قهوة أخرى.

سونيا كانت تود لو أنها قالت لأختها أنه، حين تكون فى الخمسين، لا يوجد فى النهاية فارق بين أن يكون لك طفل من عدمه: فابريس يهاتفها مرة فى الشهر – يوم الأحد، فى ساعة محددة؛ ويأتى كل عام فى شهر أغسطس لقضاء نصف أسبوع فى ليموچ ؛ لا يبيت عندها لأنه لا يحب الأريكة – السرير؛ ينزل فى فندق صغير بالقرب من مبنى المحافظة ؛ يصطحبها للعشاء ؛ يحصل على دخل جيد؛ لا يرقص، لا يدخن، لا يزداد وزنه، لا يشرب، لا يقرأ ؛ ليس بينهما ما يقوله أحدهما للآخر ويتحدثان عن «أبناء الخالات»، أو «بابوشكا».

كانت قد شربت جرعة أخرى كبيرة من زجاجة الكونتركس وأشعلت سيجارة. قالت لها ليزا وهى تشير إلى اليافطة «ممنوع هنا. ليس من حقك أن تُصابى فى الطابق الأرضى بسرطان فى الرئة ثم تذهبين ليعالجونك منه فى الخامس...» سونيا بحثت عن منفضة. ولم تجد. فأطفأت لفافتها تحت حذائها. واحتسيتا قهوتهما. ثم

عادت كبرى «الصغيرتين» لنزع غطاء الحلوى ولفه فى كرات صغيرة، بدون كلام. كُراتٍ من الصمت، رمادية، ومدكوكة.

كانت ليزا تودُّ لو أمكنها الإفضاء بسرها إلى أختها: لو أنها كانت قد رُزقت بهذا الطفل قبل ثلاثة وثلاثين عامًا، لكانت قد وجدت جزيرة من أجله. لم تكن بالقطع ستصبح محامية، ولم تكن ستقابل ويليام، لا بأس ! كانت ستسافر إلى أيسلنده. فى أيسلنده لا يوجد سوى ثلاثمائة أيسلندى، عندهم براح. خاصة وأن الرضيع يسكُنُ بأكمله فى حضن أمه، يسكن الأرض بدون أن يطأها، يعيش على حساب هذا الحُضن، ولا ينتظر من خارجه إلاّ بعضًا من الأوكسيچين – لم يكن سيسرقه من الأيسلنديين، لأن الأم والابن كانا سيذهبان مباشرة للاستقرار فى عرض البحر، فوق قطعة صخر؛ جنوبى تلك الجزيرة، مثلاً، التى يصعب اسمها وحده على حنجرة فرنسية أن تنطقه: فكيف كان يمكنهم البحث عنهما هناك ؟ فى هذه الجزيرة، المنفصلة عن جزيرة، هذه القطعة من هذا الجزء، كانت ليزا ستُخْفى ابنها، وكانت سلالتهما ستحيا هنا، منعزلة وسرية، لأكثر من مليون عامٍ...

سونيا كانت تود لو أنها سألت ليزا لماذا كانت تتمسك هكذا بهذا الطفل : «هل كان... لديك مشاعر تجاه أبيه ؟» ولكنها لم تجرؤ. حينما تُوجِّه مثل هذا النوع من الأسئلة يعتقد الكل أنها تعنى: «هل كنتِ تعرفين اسمه ؟»، وبسبب فابريس، فإنهم يسخرون منها.

وكانت ليزا تود لو شرحت لسونيا أنه «بالنسبة للأب»، لم تكن المسألة تتعلق بالمشاعر: كانت تريد فقط الإحساس بأن لها جسدًا يخصها، مستقلاً، جسدًا يمكنها منحه أو منعه. أن تكف عن كونها دمية أمها – جمالها، وصوتها الثانى، لحم لحمها. «زائدتها الدودية»... ولكن الأم استولت أيضًا على جسد ليزا الجديد: أفرغته، انتهكته، وبترته، حسب مزاجها. كل أجساد ليزا كانت ملكًا لها. القارة تأكل الجُزُر.

ولم تقل سونيا لليزا، كيف أن أمهما، لم تتوقف، مع ذلك، عن التكفير عن العنف الذى جرى ضد ابنتها: فإذا كانوا يُجْرون لها اليوم جراحة ثانية فى ڤيل چويف، وإذا

كان خطأ التشخيص الأولى قد حكم عليها بالموت فى القريب العاجل، فذلك لأنها ظلت وفية لعيادة ليموج، التى أنقذوا فيها ليزا، بدون توبيخ. وقد رفضت بتعنت أن تستشير جهات أخرى خلال الثمانية عشرة شهراً الأولى من المرض، تمسكًا منها بذكرى غلطتها، وألمها، وبما بدا، فى الماضى، بعد فرحة البعث، شبيهًا بالاعتذار

فى كافيتيريا جوستاف روسى، فى يوم الجراحة الثانية هذا، تلاقت أفكار الشقيقتين فى صمتٍ، مثل القطارات الأشباح والآن تتباعد بدون صوت... أخرجت ليزا فجأة علبة سجائر، واعترضت أختها: «لقد قلتِ لى لتوك أن هذا ممنوع ! – نعم، ولكننى أشعر بالاحتياج... ثم تبا !» هى التى تلتزم بقوة بالقانون ! أضافت كما لو كانت تبرر : «هل تعرفين ما الذى قالته لى أمى لإجبارى على... قالت لى أننى لو، لو احتفظت به... (كتمت البكاء فى حنجرتها ولكى لا تُرى الدموع فى عينيها كانت تنظر إلى السقف، تنظر إلى دخان سيجارتها الذى كان يصعد إلى السقف :) قالت لى أنها لن تحبنى بعد ذلك... وأنها سوف تطردنى... لقد... لقد أشارت إلى الباب... حسنًا (أعادت ليزا النظر فجأة إلى سونيا، وفجأة، والعين فى العين، قالت :) هذا ما لم يكن القانون يمنحها الحق فى فعله ! هل تتصورين، مع قاصر ؟ وماذا عن واجب الإطعام ، ماذا فعلت بواجب الإطعام ؟ إن تهديداتها كانت من الناحية القانونية محض هراء، عبثية ! غير ذات معنى، لم يكن لديها الحق، هل تفهمين ؟»

كلا، سونيا لم تكن تفهم الشىء الكثير من هذه الفوْرة القانونية المباغتة – كل هذا الغضب، وخارج الموضوع ! –، ولكنها كانت قد عبثت فى حقيبتها فوجدت، تحت زجاجة الكونتركس، الأنبوبة الذهبية التى لا تنساها أبدًا: « حسنًا، أنا أيضا أحتاج إلى جرعة... وتبا !» وتجرّعت رشفة كبيرة من خمرها السكوتلندى: « واحد آخر لن يحصل عليه الألمان !»

فى بهو لوى پاستير، الأكثر أناقة من جوستاف روسى، علمت ليزا لتوها أنها لن تستطيع أن ترى جثمان أمها : لقد نُقل بالفعل إلى «المُدرّج» – أى إلى المشرحة، بلى ! « وهناك لن يتمكن مندوبونا من التعامل معه إلاّ بعد الظهر. ليس لدينا ما يكفى من

العاملين... ولكن سيمكنك رؤيته فى المساء. لكن حذار، هذا القسم يغلق أبوابه فى الخامسة وخمس وأربعين دقيقة... إذن سيكون الوقت ضيقًا لهذا المساء. عودى بالأحرى غداً صباحاً. يفتحون فى التاسعة والنصف».

أحست ليزا بالارتياح. إنها تفضل الانتظار لبعض آخر من الوقت، حتى وإن كان ابن شقيقتها رافائيل قد هاتفها بلطف صباح اليوم ليقول لها أن بابوشكا، التى توفيت مساء أمس كانت جميلة جدا، و«هادئة»، كادت تبدو «متألقة».

أمامها يوم طويل من الحرية : كاتيا تتكفل بكافة الإجراءات الپاريسية ؛ وسونيا، تُشْرِف، من ليموج، على مقابر الأسرة فى صوليار؛ وغداً، بعد وضعها فى النعش، سوف تتولى ڤيرا نقل «رُكّاب» فندق ستار فى سيارتها.

يوم من الحرية... بداية، قررت أن تصفّف شعرها. ثم تذهب لشراء معطف أسود ضد المطر من أجل الدفن: يا للسخف، فهى لم تفكر فى الأسود وهى تعد حقيبتها فى سيدنى. فى الميدان، تعرض إحدى دور السينما أعمال إنجمار برجمان، يروقها أن تذهب إلى حفل السادسة مساءً. برجمان شىء يناسب الحداد، أليس كذلك ؟ على أية حال، هو ليس بالمرِح .سوف تدعو بعدها أباها إلى العشاء : فى مطعم حقيقى، للترويح عنه. مطعم يكون مشهوراً «بفواكه البحر»، نقطة ضعف البَحّار، القبطان البريتانى. يجب القول إنه لا يجد هذه المتعة فى كليراك. سوف يعودان قبل الحادية عشرة حتى تلحق بمكالمة ويليام الذى سيتصل قبل محاضرته فى معهد ما قبل التاريخ. فى الجزيرة الكبرى هناك، سوف يكون الوقت صباحاً، جميلاً مشمساً : سيقول لها ويليام أن الجو حار جداً، عاصف تقريباً، وسوف تطلب منه أن يصف لها السُحُب...

لقد عادت للحياة، باختصار. عادت للحياة منذ ماتت أمها. جملة فظيعة ولكنها حقيقية بفظاعة. إنها لا تبكى حتى. لم البكاء ؟ الكل يشعر بالخلاص، بدءاً بالمحتضرة ذاتها.

حينما خرجت ليزا من عند مصفف الشعر، كان المطر قد توقف. وفوجئت بانعكاس صورتها فى إحدى الواجهات الزجاجية: امرأة حلوة... طلبت من العاملة فى المحل أن تغسل لها شعرها بشامبو «يعيد البريق»، نوع خفيف: واستعاد شعرها فى التو لونه الحقيقى، لون طفولتها – عسل نبات السنط. فى الماضى، حين كانت إحدى حفيداتها تشكو من ألم الحنجرة أو البطن، كانت الجدة سولانج تعد لها دواءها الكونى، تركيبتها السحرية التى لا مناص منها ضد الألم : عصير ليمون ساخن تذيب فيه ملعقتين من العسل الرائق. وقبل أن تتناول هذا المشروب السحرى كانت ليزا أحيانًا تُقَرِّب من الكوب إحدى ضفيرتيها الطويلتين، لترى إن كانت درجات اللون تتطابقان : نعم، أمها لم تكذب عليها، لقد وُلدت فعلاً من التقاء نقطة من عصير الليمون وبعض سائل العسل... واليوم، وهى تمر بسرعة ولامبالاة أمام الواجهات الزجاجية، تجد هذه السيدة ذات الذهب السائل والپوپلين الأسود غاية فى الأناقة. رائعة ! والآن، إلى السينما: هيا بنا يا برجمان أنا وأنت !

•

ليزا، بعسل السنط ومعطف الحداد، لا تزال فى حالة اليوفوريا التى يمر بها كل من نجى من زلزال: رجال الإنقاذ خلّصوه من ثقل الكتل الأسمنتية التى كادت تسحقه، وعاد الهواء يملأ رئتيه، والدم يتدفق فى أطرافه. كيف يجوز تصوُّر أن هذا الخلاص يمكن أن يقتله؟ إن الغرغرينا التى كانت حتى الآن محصورة فى أطرافه سوف تغزو جسده بالكامل. ويمكن لقلبه أن يتوقف تحت وطأة التدفق المفاجئ للدم. إن عنف توابع الصدمات يزداد بمقدار سرعة زوال الضغط. إن ليزا الجميلة لم تنْجُ : إنها تزيل الضغط..

(١٨)

لم يكن لنا - أمي وأنا - اهتمامات مشتركة، بخلاف حب الأطفال. ولكني، على الأقل، كنت آكل طعامها بشهية شديدة وأرتدى فساتينها بفخر. كنت معجبة بمهارتها.

لم ترغب أبدًا فى تذوق طعامى: ولم تكن تقرأ كتبى، حاولَتْ فى البداية، ولكنها كفّت عن المحاولة. ومع ذلك، فقد كانت تقص المقالات القليلة التى كانت الصحف تخصصها لى (« شىء لا يصدق، كم أنت جميلة فى الصور ! أنت أكثر جمالاً فى الصور من الواقع ! لهذه الدرجة، شىء مذهل!») كانت تسأل عن موعد ظهورى فى «التليڤزيون»، وترى أننى كنت متبسمة وأتحدث بلباقة («ينبغى فقط أن تغيّرى طريقة تصفيف شعرك ! بهذه التسريحة تبدين كالجدة ! ليتك تستشيرين أحد خبراء الوجوه ! »). وحينما كان أحد كتبى يلقى رواجًا، كانت تنقل إلىَّ تهانى مكتبة البلدة.

كانت مع هذه الابنة الكبرى التى تشبهها قليلاً جدًا، مثل الدجاجة التى وجدت قلماً. فلأنها تركت المدرسة فى الرابعة عشرة، لم تكن تجرؤ على انتقادى : كانت تشك فى قدراتها. وكأم متواضعة، كانت تشك فى قدراتى أنا أيضًا : أتذكر ذلك اليوم، فى كليراك، الذى جلسْتُ فيه للكتابة فى غرفة الطعام، حيث كانت تحيك ؛ كنت قد أتيت بالقاموس ؛ وحينما رأتنى أفتحه للمرة الثالثة، تعجّبت: «تحتاجين لقاموس ؟ هل من أجل الإملاء ؟ » (كانت «قوية» فى الإملاء، وتنجز جميع مسابقات پيڤو فى الاستهجاء.) - كلا يا أمى، ليس من أجل الإملاء، أو نادراً ما يكون ذلك. - إذن لماذا ؟ لا تعرفين كل المفردات ؟ لا تعرفين معناها ؟»

وفجأة سقطْتُ فى تقديرها : فالكاتب الذى ينظر فى القاموس لا يمكن أن يكون كاتبًا جيدًا.

كل ذلك لم يكن يمنعنى من أن أقْبَل بفرحة مربى الكرْز التى تصنعها وآنية حساء الحميض، وأن أطلب نصائحها التربوية وأن أدعوها للنجدة كلما مرض أحد أبنائى. كنت أتلقى الكثير منها. ولم تكن تريد شيئًا منى.

ولكننى فُزْتُ بعد موتها: سوف تُدفَنُ «بملابسى»، ملابس كنت قد أهديتها إياها، ولم ترتدِها على الإطلاق – كالعادة.

كانت على حق على أية حال، فهداياى كانت، مثل حركاتى، العنيفة والرعناء. غالية أكثر من اللازم، ملفتة للنظر وغير ذات فائدة. وحينما كنت أسألها، رغبة فى تفادى الاختيار الخاطئ: « ماذا تريدين فى عيد الميلاد ؟» أو« ماذا تحتاجين؟»، كنت أتلقى نفس الإجابة: «لدى كل ما أحتاجه، لا تبددين نقودك فى سخافات !» – ولكن يا أمى، تعرفين جيدًا أننى سوف أهديك شيئًا فى كل الأحوال. لا تقولى لى أنك لا تريدين شيئًا، ساعدينى...»

لم تكن تساعدنى وفى كل مرة، كنت أخطئ الهدف ! ليزا فقط كانت تختار هدايا جيدة، ممتازة: مدهشة (من أستراليا) و« مقبولة» ؛ أتساءل كيف كانت تفعل ؛ لا بد وأنها كانت تفكر فيها طيلة العام. أنا فعلاً كنت أؤجل التفكير فيها طول الوقت...

وفور أن كفّت أمى عن الخروج من المنزل بعد أن تم تحديد مرضها ومعرفته، رُحت أُهديها ملابس منزلية جميلة، حفِظتْها فى دولابها بعناية وهى مطوية. أنا التى أهديتها قميص النوم الأبيض الطويل، المصنوع من الدانتيللا والحرير، الذى سترتديه فى قبرها ؛ قالت لى «إنه رائع. جميل أكثر من اللازم، بالنسبة لى بالطبع، ولكنه مناسب جدًا لردائى الأخير !»

وقبِلت كلامها الذى كانت تقوله على سبيل الحديث العابر ! وقبل أن تدخل فى الغيبوبة مباشرة، كنت قد طلبت من سونيا، التى كانت تستعد للقدوم من ليموج، أن

تذهب لتأتى بهذا القميص من «دولاب الأهل». بالإضافة إلى شال كبير، أزرق بالبنفسجى، كنت قد جئتها به منذ عامين. فى هذا الوقت، كنت قد ترددت طويلاً بين هذا الأزرق – البنفسجى وبين آخر أحمر برتقالى. وكنت خائفة من أن يكون اختيارى غير موفّق. كنت أتمنى بشدة أن يحوز شالى على إعجاب أمى، وأن يكون جميلاً عليها... كنت قد جرّبت الشالين على إحدى البائعات، طويلة وسمراء مثلها، واخترت الأزرق. وأكدت لى البائعة حينها : « أن الأزرق أكثر جمالاً بالنسبة لأمٍ قمحية.» وبقِى هذا الشال، الفخم أكثر من اللازم، مطوياً فى لفّته الحريرية...

وحينما فقدَت أمى الوعى للمرة الثانية، أعطيت هذه الملابس للمُراقِبة، خِلسة : «إذا حدث ذلك... لأمى فى الليل، يجب إلباسِها هذا... هذه الأشياء. وصاحت المراقبة – كم هذا جميل ! إنه رائع ! ولكن، سوف نُضطر إلى قص القميص: حينما ستكون هذه السيدة.. هممم...لن نستطيع إلباسها إلاّ قميصاً مفتوحاً من الظَهر... هذا القميص البديع، خسارة ! يبدو كالجديد.»

لم أدَعْ نفسى أتأثر بهذه الحجج: تسلحْتُ بمقص، فى صالون العائلة، وقصَصْتُ بنفسى القميص الجميل من أعلاه إلى أسفله... سوف ترتدى أمى لمرة، لمرة واحدة فقط، هداياى الجميلة أكثر من اللازم: سوف تدخل إلى الموت وقد ألبستها من رأسها إلى أخمص قدمها.

(١٩)

أول أمس، اتصلت بى ڤيرا، قريبنا الذى يُرجع إليه، فى اللحظة التى كنت عائدة فيها من المستشفى، فى نحو العاشرة مساءً. كانت الممرضة الشقراء «المتمرِّسة»، اللطيفة ذات النظرات المضيئة، قد هاتفتها لتوها على محمولها: «أمُكُن... كنا نقوم بخدمات العناية بها، حين... ت... تنفسها ... كنا جميعًا حولها، تعرفين، كل الفريق...»

صِحت فى أختى: «أنا ذاهبة ! ذاهبة فوراً !» ارتديت المعطف وركضت، طائرة إلى المستشفى.

يا لغبائى ! لم أفكر حتى فى تغسيل الموتى ! فى الوقت اللازم للمعالجين «لإعداد» الجثمان، الحيلولة دون ارتخائه وخروج السوائل: سدُّ الفتحات، تثبيت الذقن حتى تجمد العضلات ويتثلج اللحم. أنا : «قادمة !»، ناسية كل ما تعلمته عن الغسيل الأخير فى كليراك ولاروش، كافة هذه الحركات التى قمت بها مع أمى من أجل جدِّاى. كم أنا غبية ! كنت أنزل بخطوات سريعة الطرقات التى صعدتها قبل لحظة وأنا متعبة، وأقابل نفس الأشخاص الذين يسيرون بكلابهم، وأخوض فى نفس بِرك المياه اللزجة، وأركض بين السيارات، أركض بلا تفكير فى أى شىء...

غير أن «الفريق»، الذى أخطرَتْه أختى لحسن الحظ، أثبت مهنية جديرة بالإعجاب ؛ ففى غضون ربع الساعة، قبل أن أنقضَّ هناك، كانت المرضات قد أنجزْن كل شىء: حين دفعت باب الغرفة، كان كل شىء مرتبًا، كل شىء يبدو ناعمًا، هادئًا.

كانت أمي مستلقية، رائعة، فى الغرفة التى كانت لمبة صفراء صغيرة، تُخْرِجُها بالكاد من العتمة. كانوا قد ألبسوها قميص نومى الدانتيل الأبيض وكتفاها مخبآن تحت الشال الأزرق البنفسجى الذى كان يغطيها حتى منتصف فخذيها. ومن الشال، تظهر فقط، فى الأعلى، الياقة العالية للقميص، ومن أسفل، أربع شرائط من الدانتيللا، وفى الوسط، يديها الجميلتين بأظافرها المطلية، معقودتين على بطنها وتُمسكان بمروحة مفتوحة. أميرة. ذات شفاه مترفّعة...

تحولّت التكشيرة الهازئة التى كانت تلوى فمها فى الأسابيع الأخيرة إلى مطة مُشمئِزّة، مطّة على شاكلة أفراد عائلة هابسبورج الملكية. بدت لى أمى الأخيرة «شامخة» – هل يجوز القول على امرأة مستلقية أنها «شامخة» ؟ ولكنها الكلمة التى خطرت لى أمام هذه الراقدة ذات الذقن المرفوع، والابتسامة المتعالية. أميرة أسبانية. أو ربما من بيرو، بسبب الشال الكبير وهذا الوجه ذى الوجنتين العاليتين، والسمات الشبيهه بوجوه شعب الإنكا، والذى تركه لها الموت. أمى، أنيقة وبعيدة.

كان الشال الأزرق والمروحة الوردية والأباجورة الصفراء تشكل «لوحة منزلية» هادئة وساخنة، على غرار أعمال ڤويلار أو بوننار ؛ كنت أرغب الدخول فى اللوحة وأن تقْبَلْنى السيدة ذات الشال فى حَرَم أناقتها، رغم سترتى الواقية من المطر القديمة، وشعرى الأشعث، كما كانت تتركنى، وأنا طفلة، أُملّس على فستانها، وأتشمّم عطرها، حينما كانت ترتدى ملابسها للذهاب للرقص. وانحنيت لأقبلها. جلدها لا يزال دافئًا تحت شفاهى، وطريًا. تشعر بالكاد على وجنتيها هذه الرطوبة الخفيفة لمن ظلوا بالخارج طويلاً فى الشتاء :« أمى، هذا البرد ؟» – لا تقلقى يا صغيرتى: إنه الريح، فقط ريح الليل...»

كلا، ليست الراحة والنعومة هما ما فاجأنى فى الغرفة: إنه الصمت.

هذا التنفس المريع – هذه الكركرة التى كانت تجبر الممرضات على طردنا من الغرفة فى كافة الأوقات من أجل «شفطها»، هذا الشخير الغليظ الذى كان يطرقع فى

جوف الحنجرة مثل الطعام الذى يُقْلَى - كان قد توقف أخيرًا، ولكن ما من صوت آخر حلّ محله. لم تكن تسمع شيئًا، أو، بالأحرى، كنت تسمع اللا شىء: لا ذبذبة، ولا رجفة، ولا حركة. أمى لم تعُدْ فى جسدها، ولم تكن فى مكان آخر. لا أثر لعَجَب سحرى فى الجو... لم تتحول إلى فراشة أو يعسوب، تاركة وراءها يرقتها، روحها لا تهيم حولى، خفيفة ؛ وكل ما تبقى منها، هنا والآن، لا يُسمى قوقعة، ولا غشاء، ولا غلاف أول، وإنما جثمان.

«جثمان». تعبير جاهز يصبح جديداً فور أن نتعامل معه حرفيًا: ثقيل هو «الجثمان»، مثل الطائر الذى تم اصطياده. «صمت الموت» هذا شىء مفزعٌ، مثل صرخة بلا صدى. لم يبْقَ فى غرفة المستشفى، سوى جثمان وصمت موتٍ، رغم اللمبة الصفراء والشال الأزرق.

انفتح الباب: دخل ابن أختى چيريمى، وتبعه آخر أبنائى، رافائيل - بين أولاد الخالات، المحمول يعمل بسرعة أكبر من أى وسيلة أخرى لنقل الحدث ! . قالا لى: «إن فريق الليل يسأل إذا كان يمكن إعداد حقائب بابوشكا. يفضلون أن نحملها معنا الآن: ستأتى المشرحة لأخذ الجثمان فى السادسة صباحًا، وإذا كانت الدواليب فارغة، سيمكن لفريق الصباح أن يعيد ترتيب الفراش. وبذا يمكنهم استقبال نزيل جديد فى الظهيرة...» دار الموت لا تعانى من البَطالة. وأضاف ابن أختى: « بالمناسبة، أمى تقول لك أن تخلعى عن بابو المجوهرات التى لا تزال تلبسها. - يمكن أن نتركها لها، إنها ليست بالمجوهرات الثمينة...

أمى تعرف ذلك ولكنها تقول أنهم سوف يسرقونها من بابوشكا فى كل الأحوال : سوف تُسرقُ منها أثناء نقل الجثمان أو فى المشرحة. وهى تفضل بالتالى أن تخلعيها أنتِ.»

من الأفضل فعلاً أن تأخذ بناتها أشياءها بدلاً من الأغراب... تذكرت دفء الجبهة الشاحبة تحت قبلاتى: لا بد وأن الجسد لا زال مُحتفظًا ببعض المرونة، يمكننى

أن أحرّكه، ولكن يتعين العمل بسرعة. فى أثناء ما كان الفتيان يُخليان الدواليب ودورة المياة الجميلة التى لم تَخْطُ إليها أمى على الإطلاق، رفعْتُ كتفيها لأكشف قفل العقْد الذى كانت تحتفظ به حول رقبتها. ثم فككْت يديها المعقودتين وسحبت خاتمها الأخير؛ ثم غوائشها، واحدة بعد الأخرى. وفى الذراع اليسرى، بقِيَت الساعة: ساعة من الفضة، تكاد تكون جديدة، لا تحمل حتى أى ذكريات. وعدَلْتُ عن استعادتها. لم تعد لدى القوة. لست قادرة على أن أخلع عنها الوقت. أعدْتُ ذراعها الأيسر فوق بطنها وضممْتُ يدها اليمنى على المروحة. وصل بدورهما جييوم، «ثالث» أبنائى، وچيل، بِكرى ڤيرا، فى زيارة أخيرة لجدتهما. نظرة أخيرة إلى السيدة المتكبّرة والمزيّنة، العظيمة الشبه بلوحات فريدا كُويللو، المستلقية على السرير الأبيض. تبِعْت رافائيل والحقائب...

فى اليوم التالى، فى المشرحة، كانت أمى قد فقدت كل جمال: فبحجة «تطهيرها»، كان العاملون قد حمّموها وأفسدوا وهُم يفعلون مظهرها، فالْتَوَى جسدها، وتشعث شعرها. بل ولم يعرفوا كيف يعيدون إلباسها أشياءها، فوضعوا الشال على قدميها، مطويًا مثل الغطاء: وقميص النوم الذى لم يُحسنوا شدَّه كان يكشف عن كتفيها التى رحل عنهما اللحم، وأصبح لون الحرير الأبيض يُبرز الآن لون جلدها المُخضر. وأسفل الوجه، كان الذقن مُعوَجًا، منحرفًا، كما لو أن أحدًا قد حطمه بضربات من قبضة اليد. وكانت المِروحة المزمومة موضوعة تحت إبطها... ولم أستطع «إصلاح» أى شىء؛ ولكنى، كنت أودّ لو أننى أعدت إلى هذا الجثمان، الذى يتم تسليمه على هذا النحو من الفوضى، شيئًا من وقاره، قبل الرحيل إلى ليموچ ووضعه فى الصندوق، الذى سيحضره أبى، وليزا، وڤيرا، واثنين أو ثلاثة من الأحفاد؛ ولكنى لم أتمكن من تحريك الأطراف المتجمدة أو تجميل الوجنات: فكريم البشرة لا يثبُت على وجه مثلج. لقد سرق شباب القاعة من أمى كرامتها الأخيرة، ولكن ليس الساعة، لم يسرقوا ساعتها...

وحاولت أن أعطر شعرها للمرة الأخيرة، عوضًا عما هو أفضل. شعرها الميت. كنت قد أخذت زجاجة ماء الكولونيا من غرفتها بالمستشفى. وللمرة الأخيرة، بللْت صدغيها بهذا اللاڤندر والزنبق الذى كانت تحبه. وملّست على شعرها المبلل وأنا أردد لها ما قلته لها كثيرا فى أذنيها فى الأيام الأخيرة: «لقد كنتِ أمًا رائعة. لقد منحتِنا الكثير ورددْنا لك الكثير. ولم نكن نستطيع شيئًا فيما هو أبعد من ذلك، تعرفين، لم نكن نستطيع.»

وفجأة، وأنا أنزلق فى موجة التأثر، تلبّستنى قرينتى، الخرقاء، التى «تُفرقِع»، وتكْسر المراوح وتجرح بمداعباتها أذرع المحتضرين: فبسبب خطئى، باتِ شعر أمى مبللاً تمامًا – وما من شىء فى العالم يمكنه تجفيفه ! إذ أننى لم يخطر لى لثانية واحدة أن الماء لا يتبخر فوق الجسد المثلج، وأن أى سخونة لن تأتى من الخارج بما أن «المُدرّج» مثلّج ! ما العمل ؟ لا يمكننى العودة إلى المنزل لآتى بمجفف : فليس هناك إبريز كهربائى لإيصاله. ولو حدث فإن الحارس سيسمع صوته ويُلقى بى فى الخارج :مُدنّسة القبور !

لا أرى حلاً آخر: أنحنى فوق أمى، وأنفخ أنفاسى الساخنة على صدغيها – أنفخ حتى الإنهاك – ... لا بد وأن التُربى قد فقد صبره فى البهو. أنفخ وأنفخ، لا أزال...

وعند العودة إلى المنزل، أفرغت زجاجة ماء الكولونيا فى الحوض – كنت منذ زمن أكره هذه الرائحة؛ وهى الآن تثير غثيانى.

مضى يومان قبل أن أكتشف حماقتى الأخيرة – التى ربما كانت قد أضحكت أمى : الساعة كانت تعمل بالبطارية، وهذه البطارية «تدوم» ٣٦ شهرًا ! لا شك أن المارة بمقابر صوليار الصغيرة، سوف يلتقطون أحيانًا، إن هم أنصتوا السمع، دقات قلب غريبة، يضاعف من قوتها خشب التابوت وعمق القبر... كيف بهم أن يتصوروا أنه يوجد فى مكان ما هنالك مُتوفية تركت لها ابنتها الوقت ؟

ولكنى لست عاتبة على نفسى: فأُسوة بما كان الأحياء يفعلون فى الماضى، حين يُهدون للراحلين الأطعمة، وقطع الأثاث، والحُلِى، والعبيد، ويحيطونهم هكذا، فى رحلتهم الأخيرة، بأثمن ما كان لديهم، لم أستطع حرمان أمى مما يبدو لا غنى عنه للأحياء اليوم: قياس الوقت.

ليزا

لقد اكتشفت ليزا الكارثة عشية وضع الأم فى التابوت، لدى عودتها إلى فندق ستار، عقب فترة العصارى الترفيهية التى أمضتها فى السينما وعند مصفف الشعر: مُفكِّرتِها، مفكرتها الصغيرة الجلدية السوداء لم تعد فى حقيبتها. أفرغت الحقيبة على السرير، لم تكن هناك. حاولت جاهدة التنفس بهدوء، وفتّشت بدقة فى الغرفة. أخرجت كل أدراج المنضدة الملاصقة للسرير، ونظرت أسفله. المفكرة ليست هناك. عادت راكضة إلى المطعم الذى تناولت فيه العشاء مع والدها: كان الجارسونات قد بدأوا يضعون المقاعد على المناضد، لم يشاهدوا مفكرة سوداء...

وحينما دق الهاتف في الغرفة، لم تسأل ويليام إذا كان الجو حاراً فى سيدنى، إذا كان يرى البعض يتزلجون على مياه الخليج والأشرعة البيضاء لقوارب التنزه : باغتته فوراً: « لا أجد مفكرتى» ! تصوّر : جميع مواعيدى ! لا أعرف حتى ما لدى من عمل فى الأسبوع القادم...» وأشار ويليام، بفلسفة إلى أن: « العام قد انتهى على أية حال... – كلا، إنها مفكرتى الجديدة ! مفكرة العام الجديد ! إضافة إلى الأسبوعين الأخيرين من العام الحالى... أووه يا ويليام، إنها كارثة !»

ويليام، الذى لا يحب الحديث غير المُجدى، لم يسأل: « ولماذا لا تحتفظين بنسخة كاملة فى المكتب بتخطيط مُحَدّث يومياً ؟ وماذا عن شريكك ؟ » ولم يتعجب أيضاً – مثلما كانت ڤيرا ستفعل بالتأكيد –، كيف لمحامية فى الألفية الثالثة ألاّ تكون قد انتقلت للآن إلى استخدام المفكرة الإلكترونية : لقد انتهى اليوم عهد المفكرة الصغيرة !» فالورق يحتفظ بسحره لرجل الديناصور الدبلودوكس الضخم... ثم أن زوج ليزا يعرف أن له وظيفة وحيدة فى حياة زوجته: الطمأنة. سألها بهدوء عما فعلته في يومها،

ونصحها بالعودة قبل نقل الجثمان إلى محل البون مارشيه الذى اشترت منه معطف المطر وإلى صالون مصفف الشعر: « لا تقلقى يا عزيزتى. أعيدى تنقلاتك فى الاتجاه المعاكس : سوف تعثرين عليها ...»

ولكن ما من أحد أتى بمفكرة سوداء إلى بائعات القسم، ولا غاسلات الشعر فى الصالون ولا إلى المُحَصِّلة فى اتحاد دور السينما. وصلت ليزا متأخرة ومنهارة إلى قاعة تجمُّع الأقرباء قبل الجناز: لقد فقدت مفكرتها لأول مرة فى حياتها ! وهى أيضًا المرة الأولى التى تفقد فيها أمها...

لقد أضاعت مفكرتها، «المطلوب عملَه»، الكتالوج الدقيق لأيامها. إن الماضى الذى يلاحقها، الذى يلتهم حاضرها الجميل، قد أكل غدَها أيضًا ! لا أم بعد الآن، ولا مستقبل.

(٢٠)

لماذا القداس ؟ لأننا لا نترك جثامين راحلينا للصقور، لا نُلقى بها فى البحيرة.

لو أن أمى كانت يهودية، لكنت دفعت تذاكر الطائرة لأولاد عمومتها فى إسرائيل لكى يأتوا لإنشاد صلاة القاديش؛ ولو كانت قد عاشت فى عهد الفراعنة لكُنْت رشوْت مُحنّطى الأمراء، وملأت قبرها بالصمغ المعطر لشجر المر وبالذهب. ولكنها روسية من إقليم الليموزان ؟ إذن هو الإنجيل، والبخور، والقداس الجنائزى !

أريد لجسد أمى طقوسًا وأناشيد. لقد وارت بنفسها أهلها الثرَى بشكل دينى وذهبت فى التزامها بالأصول إلى حد المطالبة «بقداس نهاية العام»، الذى يرمز فى مناطقنا، إلى نهاية الحداد. وبالنسبة للباقى، فمؤكد أنه لم يكن لديها الإيمان. ولا حتى فضول الإيمان.

ولم يحُل هذا دون ضرورة الاختيار، لدى كتابة الدعوات : احتفال دينى أم دفْنة مدنية. وقد أوضحْت أن أمى طلبت قبل قليل من وفاتها ماءً مباركًا... غير أن ليزا وڤيرا تمسكتا بنفس الحزم بمعارضة «مسرحيات القساوسة». وخطر لى أن أسأل أبى – الذى لا أحد يفكر فيه أبدًا؛ واختار الكنيسة؛ ليس لأنه يمارس الشعائر، ولكنه بريتانى، وفى بريتانيا، هناك أصول تُتّبع... وبعد ذلك، يأتى دورى ! فقد كانوا جميعًا، بما فيهم أبى، لا يهتمون بما سيتبع، ربما اقتناعًا منهم، أن مهمتى ستكون سهلة: فقد صنّفتنى شقيقاتى منذ وقت طويل فى خانة «دراويش الدين»، حيث إننى اهتممت فى الماضى بالنصوص المقدسة، إضافة إلى أن أقرب صديقاتى شديدة التديّن»

ومع ذلك فالحقيقة أننى لا أعرف قساً واحداً. أما بالنسبة لقساوسة لاكروز، فما من واحد منهم يمكنه التفاخر بأن أمى كانت فى أى وقت من بين رعيته ؛ بل إن قس كليراك لم يكن قد شاهد قط ابنة إبراشيته ! ولكى أتغلب على هذه المشكلة، اضطررت، من باريس، أن أُحرّك كافة معارفى فى مجال الأدب والنشر: وإذا كان لم يعد هناك « شاعر كاثوليكى واحد شهير» حتى فى الأكاديمية، فلا يزال يوجد بعض المؤرخين المتخصصين فى دراسة المسيحية... وبعد أن قلّبْت «السماء والأرض» – وبالأحرى الأرض – حصلت على كاتدرائية ليموچ إضافة إلى فريق الأرغن الكبير. حتى وجدت نفسى على شفا الوصول إلى كبير الأساقفة ! ما من شىء كان يبدو لى جميلاً بما يكفى : لو كنت هندية من سواحل نهر الجانج، لشيّدْتُ لأمى أعلى محرقة، بأكثر الأخشاب عطرية وأكثر النوّاحات نُواحًا.

وبحثت فى النصوص المقدسة عن مقتطفات قوية وصوراً رائعة. وأنا أفكر بلا هوادة فيما يمكن لليزا وڤيرا أن تتحملا سماعه. من الصعب أن تتحاشى صدمة المؤمنين والملحدين على حد سواء... وأخرجتنى سونيا من الحيرة بأن أرسلت لى بالفاكس نصًا تمت تلاوته فى دفن أحد أصدقائها. إنه من نوعية الوعظ الرقيق الذى يحبه الدعاة الإنجيليين الأمريكيين الذين يقدمون دعوتهم عبر التليڤزيون : المُتوفَى يحادث عائلته، يقول لها بألا تغيّر شيئًا من عاداتها، وأن تواصل الضحك كما لو أنه كان موجوداً فى الغرفة المجاورة ؛ وهو على أية حال موجود فيها : «لماذا أكون خارج تفكيركم لأننى خارج رؤيتكم ؟ أعطونى الاسم الذى أطلقتوه على دائمًا؟»

وكان النص يبدأ بعبارة قوية: « الموت لا شىء». وهو تأكيد لم يصدمنى لحظتها: فَبعد الاحتضار اللانهائى لأمى، وصرخاتها وعذاباتها، وعداواتها، بعد الأيام الطويلة من الشخْر والاختناق، الموت كان لا شىء فعلاً. مجرد إجراء.

غير أن القس الليموچى جَفل حينما رأى مشروع كُتيّبى على بريده الإلكترونى. اتصل بى قائلاً: « الموت لا شىء ؟ كلا، لا يمكننا أن نقول ذلك !» من الواضح أنه ليس بالقس الذى سيصيح مع الأجراس: « يا موت، أين انتصارك ؟»... وشرح لى :

لقد سبق وقابل مرة خلال حياته العملية من اختار النص الذى إقترحته عليه. كانوا أهل شاب فقدوا لتوهم ابنهم الذى كان فى العشرين من عمره. « الموت لا شىء ؟ إن هذا يا سيدتى هو ما يأمله الأحياء. بالتأكيد. ولكن، بعد عام من وفاة هذا الصبى، فإن والدته ... والدته حاولت الانتحار.»

سابقة محزنة ولكنها لم تُثنينى عن اختيارى، لأنه كان اختيار سونيا. علاوة على أن الجملة الأخيرة فى النص كانت تعيد الأمور إلى نصابها ؛ فالأحياء إذا كانوا لا يبكون على الراحل، سيكون لديهم ما يبكون به على أنفسهم. كان المتوفى يقول: «أنتظركم، أنتظركم : هنا، فى الجانب الآخر من الطريق...»

قام ابنى داميان بتلاوة النص؛ إنه يجيد القراءة ؛ بل إنه نجح فى إضافة المشاعر إلى النص، وتلى كلمات التعزية بصوت تخنقه الدموع. وفى النهاية، كان الحضور يبكون، كما كان أملى.

أما أنا فلم أكن أبكى. فالآن وبعد أن انتهت أمى من الموت، ستعود إلى المنزل، سوف أجدها مثلما فى السابق - ضاحكة وراقصة - « فى الغرفة المجاورة». انتهى موتها. « الموت لا شىء»

لم أكن أعلم أننى لن أراها بعد ذلك أبداً شابة ومرحة. ولا حتى فى الحلم. موتها مَحى حياتها ؛ ووفاتها كانت لا تزال فى بدايتها فقط.

وفى نهاية القداس، دعانا القس إلى المرور أمام التابوت لنثر الماء المبارك فوقه. إنه علامة إجلال أخيرة، إن طريقة هذا الوداع لا تهم كثيراً، هذا هو على الأقل ما ظننته دائماً... وأمسك أبى بالمِرَشَّة، ومثَّل البريتانى الذى يحترم العادات، رسم علامة الصليب. ومن خلفه، وأمام الجموع التى تملأ الكاتدرائية، رحنا نتقدم حسب الأقدمية: أنا من وراءه مباشرة، ثم ڤيرا وسونيا وليزا؛ ومن خلفنا أبناؤنا الثمانية حسب أعمارهم.

ناولنى أبى المِرشة فباركت الجسد وأعطيتها لڤيرا. ولم أكد أخطو خطوتين حتى سمعت من خلفى دقة ناقوس زاد من قوتها صمت الحضور : ڤيرا ألقت بعنف المرشة الفضية فى الإناء المعدنى للماء المبارك... مِرَشَّة، لهذه الملحدة المعلنة ؟ كانت تحرق أصابعها ! وكما لو أننى فى موقف يمر بالحركة البطيئة، كنت أتخيّل ذهول القس، وحرج الحضور، ولكنى أتقدم، أواصل التقدم، بادية الهدوء، نحو الممر الرئيسى ومكان الخروج. وفى ظهرى، طرقعة كعب حذاء أختى فوق البلاط؛ إنها تسرع الخطى. وأقول لنفسى إن الأسوأ قد مرّ على أية حال، طالما مرت ڤيرا... وأثناء تقدمى، عالية الرأس، فى إتجاه البوابة، فجأة دوّى الصوت «بونج !»: دقة ناقوس أخرى، هناك فى موقع جوقة المرتّلين ! وانهارت الكاتدرائية فوق رأسى... فى ثانية واحدة، أدركْت ما لم أره أو أتوقعه: سونيا، أرادت التصرف كما يجب وإسعادى، أمسكت المِرشة حيث كانت ڤيرا قد تركتها ؛ وقامت بخجل من يُعدُّونهم للتعميد، نثرت الماء المبارك على جسد أمى ثم وضعت بسرعة، بسرعة، الكرة الفضية فى يد من يليها: ليزا، للأسف ! ليزا التى تخلصت فوراً من الشىء فى الدلو المعدنى - بونج - لكى تثبت أمام العالم أنها تشارك ڤيرا أفكارها: هاتان الاثنتان تتصرفان بفظاظة... وفى هذه اللحظة، انطلق عازف الأرغن - حمداً له - بأعلى صوت فى عزف مقطوعة غطت على الفرقعات الأخيرة للمعركة.

وخرج التابوت بهدوء، والبعض ينثره بالماء، وآخرون يحيونه على الجاف. ونثر رجل المطافىء الذى كان فى الخدمة موجات من موسيقى باخ، كما لو كان الأمر يتعلق بمتظاهرين غمرهم الحماس ؛ حتى أن فناء الكنيسة ذاته كان غارقًا فى الموسيقى.

سـونيا

كان هذا القداس مُنهكا ! إن النص الذى اقترحته سونيا ذاتها جعلها على حافة البكاء. لقد بكت بالفعل. وفابريس أيضًا، إنه يوم أسود سيُذكّر بشىء إيجابى لا يُنسى: فنادرًا ما تنتابها هى وابنها نفس المشاعر فى نفس الوقت !

المؤسف أن كاتيا، كتلميذة مجتهدة، قد بالغت فى الحماسة: فلنكن صرحاء، لقد فاقت صلاة الشكر الحدود. ربما طالب القس بشكر « الإله» وكل جماعته، ولكن ليس إلى هذه الدرجة ! « نشكرك يا ربنا أنك أعطيتنا مع هذه التى تركتنا كائنًا كان، الذى، إنه...» كلا، ليست لدى أى رغبة فى شُكْرِك، يا ربنا، لأنك إذا كانت لك علاقة بمولد أولجا ميخائيلوفتش ساروف، فإنك لم تكن بريئًا مما حدث بعد ذلك. حيث إن نهاية القصة، يا ربنا، لم تكن على مستوى بدايتها...

إن هذه الصلاة أعطت على الأقل لكاتيا فرصة الحديث عن الفقيدة : فالقس كان سيجد مشقة فى أن يقوم ذلك ! بالمناسبة، ما الكلمات التى اختارتها الأخت الكبرى لوصف أمهم ؟ « كائن ضرب لنا المثل فى السخاء، والتراحم والسعادة.» ، ليس هناك أدنى شك فيما يخص السعادة: « فما من أحد أقام حفلات جميلة مثل أمِّكُن»، كما أكدت جارة عجوز بكليراك للبنات الأربع المجتمعات فى فناء الكنيسة. كان لأمّهن حسًا عاليًا وموهبة بالاحتفال: ففى لاروش، أو كليراك، كانت تذهب إلى حد تنظيم ضيافة «طويلة» للمدعوين إلى الاحتفالات – فى أعياد الميلاد، والرابع عشر من يوليو، والمواليد الجدد والزيجات. كانت تتحول إلى مالكة فندق (من ينام أين، وفرش سريره !)، ورائدة فريق الكشافة (سباقات البحث عن الكنز للصغار، ومباريات

كرة الطاولة للكبار)، وصاحبة مطعم – تُحصى عدد الأكواب، وتمدُّ المفارش وتوقد سخانات الأطباق والساموڤار... كل ذلك وهى لا تكف عن المزح أو الغناء ! ولم تكن تكتفى بالتنظيم، بل كانت ترتجل (« فى الخامسة صباحًا : وماذا عن أعداد حساء بالبصل ؟ »)، وتظهر متنكرة فى هيئة متشردة، أو فى نسخة مقلدة – من الخيش لفستان مجنون من تصميمات چان پول جوتييه، وتدعو فى اللحظة الأخيرة ضيوفًا جُددًا، وتُكثِر من المقالب، وتلهو دون توقف، تستمتع لمجرد التفكير فى الحفل، وتستمتع كذلك لذكراه...

إنه جانبها الروسى. وهذا هو الحال أيضًا بالنسبة للسخاء. كانت محفظة نقودها دائمًا مفتوحة. ويمكن لسونيا أن تشهد على ذلك : فالحبل السُرى بين حسابها المصرفى وحساب أمها لم ينقطع أبدًا. «بابو» كانت تشد الحزام على بطنها لكى تعطى كل من يطلب، بل ومن لا يطلب أيضًا: مصروف جيب للأحفاد، مظروفات تُمنح فى السر للكبار. كانت تردد لسونيا، التى كانت تحصل وحدها على حِوالة منتظمة « ولكن تذكرى جيدًا أننى لن أستطيع مساعدتك بعد وفاة والدك...» كانت دائمًا على قناعة بأنه سيرحل أولاً. إنها مسألة إحصائيات، وعمر افتراضى : وقد كانت أصغر سنًا من زوجها على أية حال. نعم، كانت قلقة من عدم القدرة على تدليل «صغارها بعد ترملها.

ولكن يبدو أن العكس هو ما كان على صغارها أن يخشوا منه : ففى سيارة ڤيرا التى أعادته إلى ليموچ، كان الأب قد أعلن بالفعل لبناته أن المساعدات لهذه وتلك قد انتهى أمدها : « لن أتبنى المفاهيم التربوية لأمِّكُن. ففى الخمسين، ما من أحد يحتاج لمصروف جيب ! حتى أحفادى كبروا على هذه الطفوليات: إنهم أصحاء، أليس كذلك ؟ لا وجود لأدنى إعاقة ؟ إذن فالمسألة واحدة من اثنتين: إما أنهم لديهم عمل ولا ينقصهم شىء، أو أنهم يفشلون فى الحصول على عمل، وهذه مشكلة تخصهم. وعلى أية حال، فإن لديهم أهل... وأظن أنكن ستوافقن على هذا التوزيع للمسؤوليات، الذى يحترم استقلاليتكن.»

بالطبع، حين تُعرض القضية على هذا النحو... إن أيام سونيا القادمة لن تكون سارة.

«... أعطانا مع السيدة التى تركتنا لتوها، كائنًا ضرب المثل فى المرح والسخاء والتراحم.» فقط الإشارة إلى التراحم لم تكن بضرورية. ولكنه تأنّق الكاتبة: فكاتيا تعشق الإيقاع التواترى الثلاثى. فالتراحم لم يكن من كبرى صفات أمنا. هل يجوز، على أية حال أن يكون الشخص مقاوِمًا ومتراحمًا ديجول مثلا، هل كان... ؟ ومع ذلك يُحتمل أن تكون كاتيا قد عرفت أُمّا متراحمة. فقد لاحظت سونيا على سبيل المثال أن الأحفاد الثمانية حين يتحدثون فيما بينهم يتضح أن صورة «بابوشتهم» ليست واحدة عند كل منهم : فقد وجدها بعضهم حَمولة، ولكن عنيفة؛ والبعض الآخر رآها حانية ولكنها لا تتحمل الألم ؛ منهم من أُعجب بمثابرتها ومن عانى من افتقادها للصبر؛ من يتذكر غُبْنها ومن لا يذكر سوى تعاونها. هذا طبيعى تمامًا : حتى وان انتموا جميعًا إلى نفس العائلة. لم يكن لجييوم ومارك، ولا لفابريس وچيريمى نفس الجدة. ما القول إذن عن البنات الأربع ! بين الأشقاء، يوجد الكبار والصغار، المغامرون، والخوافون: ليس لهم نفس الأهل. سونيا مُتابعة جيدة لهذه الاختلافات: ففى كل أسبوع، يتناول التليڤزيون الموضوع فى برنامج طبيب نفسى فى المنزل أو فلنتكلم بدون تابوهات. كما أنها قد وجدت أيضًا أمثلة مفيدة فى تلك الكتب التى تثير اشمئزاز ڤيرا: كيف تديرين عائلتك وأعضائها من الزيجات السابقة، بل وما هو أكثر إثارة الأم والابنة، فلنجعل العلاقة إيجابية.

« نشكرك يا ربنا أنك أعطيتنا مع هذه التى تركتنا...» أيا كان الحال، فإن صلاة الشكر هذه، حتى وإن تغنَّت بمآثر الفقيدة، لم تحْظ بإعجاب « المتشددات» فى العائلة: لا يبدو الألم على ليزا وڤيرا، وإنما الغضب المكتوم. وجوه من الحجر، نظرات حادة كطرف الشنيور. شفاه ممتعضة... كل شىء فى هذه الطقوس يثير حنقهما. صحيح أن القداس كان طويلاً للغاية. خاصة بالنسبة لمُلحدات.

سونيا ليست فقط فى حالة حداد، ولكنها تشعر أيضًا بالتعاسة. لأنها تارة تضع نفسها فى مكان كاتيا، التى تجشمت متاعب جمة، ثم تارة أخرى فى مكان ڤيرا، التى لا تحب الخداع. إن سونيا مثل الإسفنجة. تتشرب كل شىء منذ طفولتها... ليس فى هذا ما يضحك صدقونى ! فلسنا هنا فى معرض الحديث عن كأس ويسكى بالكولا ! سونيا تتشرّب أحاسيس أخواتها، تمتلئ بمشاعر الآخرين، تحمل كافة انزعاجات أسرتها. فى يوم من الأيام أفضت إليها أختها الكبرى التى تحب كتبها كثيرًا، أنها هى الأخرى تتشرّب كل شىء : وحينما تعجز عن استيعاب المزيد ؛ فإنها تكتب ؛ تطرد كل هذا السوائل الغريبة، تُعبِّر عنها وتستعيد صحتها. ولكن سونيا لم تدرس؛ ولهذا فإنها تستوعب بدون أن تستطيع التعبير. ولهذا السبب هى تنتفخ. يلومها ابنها على ازدياد وزنها، على صدغيها المنتفخين. إنه بسبب عذابات الآخرين.

هذا إضافة إلى عدم البوح. لديها «عِجْلٌ فوق لسانها». يمنعها من حكْى ما تعرف. تحتفظ بداخلها بحزن ليزا، وبسبب حزن ليزا – ليزا التى عادت لقضم أظافرها وخدش ذراعيها. رغم جمالها الفائق. كما أن سونيا لا تقول لأحد ما تُخمّنه عن علاقات ڤيرا، وقصص حبها فى القيبرزون. بل ولم يصدر عنها ولو ابتسامة حينما نمت من ڤيرا وهما تتناولان الغداء فى مطعم للوجبات السريعة فى ليموج إشارة عابرة عن «رَجُلِها». ولم تقل لأى من الثلاث الأخريات ما تعرفه عن أبيهن : كابينة التليفون العمومى فى كليراك و«ظهور الرقم». إنها لا تتكلم أبدًا : «العِجْلُ» هناك، يحول دون انطلاق لسانها.

فى البداية، كان الأمر لا يتعدى عجلاً صغيرًا. وُلد حينما كانت سونيا فى الثانية عشر. فى الفترة التى بدأ فيه ثدياها ينبُتان. وضع شخص يديه يومًا عليهما – كانت المرة الأولى، ومجرد لمسة خفيفة وهو يمزح : « ماذا، إن هذا ينتفخ على ما يبدو !»، كما لو أن ذلك حدث مصادفة – فى ممر ضيق، ودرج... كانت حركة مَوَدّة، أليس كذلك ؟ فالبالغون من حقهم مراقبة نمو الأطفال. وفى كل الأحوال فإن أجساد الأطفال ملك لأمهاتهم، ولكل الآباء وأصدقاء الأم. هذا هو القانون. ومع ذلك فقد شعرت سونيا

بالغرابة: أحست كما لو أنها مريضه، أو متسخة. لو أن أمها شرحت الحكاية لقالت إنها مسألة هورمونات - كاتيا كانت تكره دورتها الشهرية وتحبس نفسها فى حجرتها فى كل مرة تعودها؛ وسونيا كانت تخجل من ثدييها الجديدين ؛ هذا هو كل ما فى الأمر ! سوف تتعوّد...

ولكن «الشخص الما» عاود فعلته : فكان وهو يمرّ يرفع ثدييها عرَضًا بدَفعة وقحة : ثم راح يزنْ أحدهما أو الآخر بكامل يده - بسرعة فى البداية، ثم بتَرَوٍّ ؛ وحينما بدأ يبحث عن عينيها فى نفس الوقت، عرفت سونيا أنها لن تتعود. طلبت من أمها أن تشترى لها مشداً للصدر ؛ اعتقدت أنه إذا تسلل أحدٌ بأصابعه تحت قميصها فإنها على الأقل لن تشعر بها على جلدها ؛ مشدٌ للصدر بأسلاك مثل الدرع الواقى... وسخرت منها أمها : « ولكنك يا مسكينة ليس لديك ما تملئينه به ! ماذا تظنين ؟ سوف يغرقان بداخله ! حتى فى قياس الـ ٧٥ أ !»

وراحت حينئذ سونيا تتّبع مسارات معقدة لتفادى الفُرَص، فرص حدوث ذلك. وكانت تراقب الجُوار قبل النزول إلى القبو، أو عبور الحديقة أو المرور من أحد الأبواب. ومن غرفتها، كانت تتنصّت على الأصوات الآتية من أسفل. ولكن، كان عليها لكى تهرب من «الحركات» أن تغادر المنزل...

وبمرور الوقت كان « الآخر» يزداد جرأة : ومثلما يقول الإعلان، بعد «الجزء العلوى» كان يريد «السُفلى» - الردفين الصغيرين الملفوفين فى البنطال الچينز. الاقتراب من الخلف. كما لو كانت لُعْبة. سونيا التى سمرّتَها الذراع من حول خصرها، سجنتها، تشعر باليد تتوقف عند ما بين ساقيها... هذه الحركات الآتية من شخص كانت أمها تعشقه عشقًا، كانت تفوق العقل. بالمعنى الحرفى. لم يكن فى وسعها أن تَعْقلها. ولا أن تصفها. وعلى أية حال، حتى لو كانت قد تكلمت، لما صدّقتها أمها. ولو صدّقتها لماتت كمداً.. الصمت إذن. عدم الصياح حين كان «الآخر» يزنقها خلسة، الوقوف كقطعة خشب ؛ افتعال عدم الفهم، عدم الملاحظة، والهرب بعيونها، إفراغ عيونها. سونيا لم تكن ترى شيئًا، لم تكن هنا، وما من أحد كان فى وسعه إجبارها

على أن تكون هنا. تحت مداعبات لوين، كانت سونيا تغيب تماماً، مثلما كان يحدث لها تحت صفعات أبيها.

وفى النهاية، كانت كاتيا هى الوحيدة التى ثارت على هذا «الغياب» المتكرر : حينما كانت تساعد شقيقتها فى مراجعة دروسها، كانت لا تتحمل رؤيتها تختفى كل هنيهة ؛ صحيح أنك حين تعثر على وسيلة للهرب لا يعود لديك سبباً حقيقياً للبقاء، خاصة لمواجهة مصاعب لا طائل من ورائها، من نوعية الحروب القديمة أو الصراع على الخلافة فى أسبانيا... كانت كاتيا تقول بكل سُلطة أعوامها الخمسة عشر « أراكِ بدأتِ البداية الخطأ يا صغيرتى » وكانت تُعيد أختها للواقع بضربات العصاة. لم يكن للأسلوب أهمية : كانت سونيا مُمْتنة لكاتيا لمحاولتها إدراكها... وكان امتنانها قوياً لدرجة أنها تخيلت، يوماً، أن كاتيا ربما تتفهم إن هى جرؤت على الحديث إليها.

وقد حاولت، مرة واحدة، بكلمات مبْهمة وبدون ذكر أسماء، تلميحات غير محددة لأشياء غريبة تجرى فى هذا البيت، مع شخص تعرفينه. بل إنها لم تجرؤ على الإفصاح أنها كانت ضحية هذه الأشياء الغريبة : العِجْل، العِجْلُ على لسانها كان يمنعها من التحديد. ماما ستحزن كثيراً لا يمكن لأمها أن ترضى بذلك... ولكن حرجها، ولحظات صمتها كانوا يتكلمون نيابة عنها - بشرط أن توجد الرغبة فى الإنصات إليها.

ولم يكن ممكناً لكاتيا أن ترغب فى ذلك : كانت الأخت الكبرى ذات الأعوام الخمسة عشر والتلميذة فى مدرسة غير مُختلَطة، مُفرِطة فى الاحتشام، تهتم بفلاسفة ما قبل سقراط أكثر من اهتمامها بأمور الجنس. بل إنها ربما عجزت عن تخيّل هذه الأشياء الغريبة ! هل فكّرت فى اغتصاب ؟ «اغتصاب !»، كانت تعرف الكلمة ولابد وأن لديها بعض الشيء فكرة عن الشيء، ولكن... الاغتصاب شيء رهيب ! وصاخب ! الاغتصاب لا يتم بدون أن يلحظه أحد، تماماً مثل المعركة ! لو كان قد تم اغتصاب سونيا، لكنا قد علمنا... إذن أى أشياء تلك ؟ قُبُلات ؟ ماذا يوجد فى منتصف الطريق بين القُبلة والاغتصاب ؟ سونيا تتذكر جيداً أنها تفوّهت بصفة «المثير للقرف». ولكن

كاتيا لم يكن لديها أدنى رغبة فى تصور المثير للقرف: لا بد وأنه يُحْدِث لديها نفس تأثير علم الهندسة فى الفضاء- شللٌ فورى فى قدراتها الذهنية. ولكن الأهم هو خوْفها. كانت تخشى لو أنها استجوبت أختها أن تكتشف، وراء عباراتها المبتورة وتلميحاتها المعقدة، شخصاً تفضل أن تحبه. تخشى من أن ينهار الديكور : بل أنها ربما كانت قد استعرضت، مثلما يحدث أثناء الغرق، الوجوه الحميمة، حتى وجه ميشا، وأبيها، ورأتها، تقطب الجبين قبل أن تسقط، واحداً وراء الآخر... لعبة المذبحة... يجب حماية المنزل. حماية الصمت. منع سونيا من أن تلذَ مسخًا: «لَمْ تجيبينى يا سونيا.. متى نستخدم الجملة المصْدرية ! والاسمية ! والمفعول به المباشر !

وقد جاء تحرُّر سونيا فى نهاية الأمر على أيدى رفاقها فى المدرسة. ففى الحفلات كانت، بعد أن تكون قد شربت قليلاً، تترك نفسها فى أحضانهم، وترقص بلا هوادة ولا حدود. ومنذ الرقصة الهادئة الأولى، كانت تترك نفسها للمداعبات واللمسات والتحسيسات : كانت الأيادى الشابة تُنظِّفها من المداعبات العجوز «للآخر». ولكنها لم تكن تشعر بأنها قد أصبحت نظيفة بما يكفى، فكانت تُغطى جسدها بالصابون، وتعيد تغطيته من خلال الجلد الناعم للشباب. كانت هذه مرحلة ارتدائها لمشدات الصدر الصغيرة والتنانير القصيرة ذات الخصر الهابط الكاشف للسُّرّة. كانت أمها تثور فى بعض الأحيان: «ماذا يا سونيا، ألا ترين أنك ترتدين ملابس جريئة بعض الشىء ؟ إذا وقعت لك مشاكل يا بنيتى لا تأتينى باكية !»

ولم تبْكِ سونيا أبداً. ولم تتكلم. إلاّ إلى الخالة القذرة، فقد رفعت صدرها ذات مساء، وراحت تهز ردفيها عن قصد، قبل أن تصيح بها: «ارفعى يديك عنى !». فالآن وبعد أن لمسها العديد من الشباب، كانت تعرف أنه لا يجوز لمسها: إن العاهرات تتفوْقن كثيراً على ذوات الرداء الأحمر- إنهن لا تحترمن الجدات... كما أن لغتهن تتميز بالثراء ! فى ذاك اليوم، شاهدت سونيا للمرة الأولى الارتباك على وجه أفضل صديقة»، بل والخوف، ثم الحزن. ولكنها لم تحْك أبداً. ولا حتى إلى ليزا، التى كانت تود حمايتها من «الكِبار»: كان «العِجْل» يثقُل كثيراً فوق اللسان.

كان قد بدأ بالفعل يطالب بالطعام والشراب. حين كان فتيان فصلها ينسكبون عليها لكى ينظفوها، لكى ينظفوا جلدها من القاذورات، عن طريق ريق قضبانهم وقبلاتهم، كان العِجْلُ يطالب بالشراب. وكانت سونيا تطفئ ظمأ عِجْلها كل مساء. وهو عِجْلٌ تضخَّم بمرور الأيام بأسرار جديدة، وجعَلَ يطالب بمزيد من السائل «من أجل الابتلاع». لدرجة أنه راح يسمن ويسمن بحيث احتلَّ الحنجرة بكاملها، والمعدة، وكل بطن ثالث بنات لوجيلاك. وأصبحت «رقم ثلاثة» كائنًا مُهجّنًا ومشوّهًا: برأس طفلة صغيرة فوق جسد عِجْلٍ سمين. واليوم، بات العِجْلُ ثقيلاً لدرجة تمنعها من الحركة: تعرف أن عليها مثلاً أن تَفْرز صوَرِها القديمة، وأن تُنْزِل لصفائح القمامة ملابس الطفلة من قياس ٣٨، وكل هذه الأغلفة الفارغة والعلب المفتوحة والأكياس المثقوبة، التى تُنحّيها فى أركان غرفة المعيشة. عليها التخلص من الجلد الميت... ولكن، لكى تُلقى بكل ذلك، ينبغى هبوط الدرج، وهبوط الدرج يتطلب رُكَبًا قوية، والركب القوية تستلزم تقليل الوزن. قولوا لى كيف يمكن تقليل الوزن مع هذا العِجْل الذى ينتفخ بالداخل مثل الورم ؟

(٢١)

فى المقابر، اعترت ڤيرا حالة من الإعياء. كانت تسير بيضاء فى معطفها الأسود، ويحيطها من جانبيها اثنان من أبنائها حين انسلَّت فجأة من الموكب وتقيأت خلف إحدى التُّرَب. تقيأت طويلاً، مثلما ينخرط المرء فى نوبة نحيب. واندفَعَت سيدة شابة شقراء نحو أختى، زميلة لها فى العمل دون شك، وسندتها ومسحت لها فمها... كانت ڤيرا تترنح. لم أكن قد شاهدت مثل هذا اليأس البدنى، تمرُّد الجسد هذا، إلاّ عند نساء يتم دَفْن أبنائهن.

سونيا أيضًا أصابها الوهن قبل القداس ؛ سقطت مرتين. واعتقد الأصدقاء فى انزعاجهم أن الحزن وراء السقوط المتتالى. أما الأقرباء، الأكثر اطلاعًا، فقد تذكروا حادث الدراجة البخارية الذى تعرضت له وعملياتها الجراحية المتعددة فى الركبة ؛ إن مفصلها يختل من وقت لآخر... وأكملت المسيرة وهى تعرج بعض الشىء، وسترتها الواقية من المطر وقفازاتها ملطخة بالوحل. وعند الخروج من المقابر اقتربت منى ليزا قائلة : « حتى فى يوم مثل هذا تَشطحُ سونيا ! يبدو أن الدهشة ظهرت علىَّ. فأخبرتنى : « هل تعلمين لماذا سقطت ؟ خمِّنى أين كانت بعد القداس ؟ فى القهوة، خلف الكاتدرائية. لقد شربت نخب حدادها... طبيعى، أليس كذلك ؟ على أية حال سونيا تشرب نخب كل شىء !» أشعر أننى أكثر تساهلاً من ليزا: لو لم تشرب سونيا هل كانت ستتمكن من السير حتى القبر. كانت تقول لى فيما سبق: « يا كاتيا، لو حدث وماتت أمى، لن أتمكن من العيش بعدها... – إنها أمك، من الطبيعى أن ترحل قبلك! – يجب أن تعيش. لو عرفتى ماذا فعلْتُ كى أجعلها سعيدة، كى تظل سعيدة... لو عرفتى يا كاتيا !»

نعرف. نعرف أنها، حتى النهاية، زيّنت وجهِ المحتضرة، وطلَت لها أظافرها ودلّكت لها قدميها. نعرف... مسكينة سونيا، بكيلوجراماتها الثمانين من الحزن، ومفاصل ركبتيها، وسترتها الواقية من المطر الموحلة ! وأبانا الذى قطع الآن الزاد عنها ! وليزا التى تُدينها ! وصاحبة العمل التى وجهت لها تحذيراً ثانياً !

كانت عيون ليزا حمراء وأنفها يسيل. كانت تبكى أثناء إلقاء أبنائنا للقصيدة التى أعدّوها لجدتهم. يزيد من بكائها الرشْح الذى تعانى منه. الجو بارد: بالتأكيد فنحن فى ديسمبر ! إضافة إلى كوننا فى الهضبة: الهواء المثلج والممرات الموحلة. ليزوتشكا لم تكن ترتدى سوى معطف صغير ضد المطر: لا بد وأنها اعتقدت أنها فى سيدنى. كانت متجمدة. كنت أنظر لمنديلها المبلّل ولسترة سونيا المتسخة وقنينة كحول النعناع التى كانت سيدة عجوز تمدٍّ يدها بها إلى ڤيرا. أما أنا، فلم أكن أتقيأ، أو أسقط، أو أبكى. إن حزنى جاف.

كنت منشغلة تماماً فى تنظيم الاحتفال، فى المقابر كما فى القداس. إرسال الإخطارات، والترتيب للموسيقى، والتلاوات والخُطَب. كنت بصفتى الابنة الكبرى مسؤولة عن حسن سير العمليات برمتها. لم يكن أبى مكلّفاً بأدنى شىء. حتى التابوت أنا الذى اخترته. وكانت المُعضلة الدينية : هل ينبغى أن أُثبِّتَ فوقه صليباً ؟ صليب أم لا صليب ؟ صليب كبير أم صليب صغير ؟ نعم، صليب، طالما هنالك قداس ؛ لا ينبغى صدْم مشاعر القس، على أن يكون ظاهرا بالكاد ؛ فلا ينبغى صدْم مشاعر ڤيرا.

كانت عربة الموتى قد تأخرت فى هذه المرحلة الأخيرة من العمليات: فقد كان متعهدو التغسيل ونقل الجثامين قد شربوا هم أيضاً نخب الحداد أثناء الرحلة؛ وضلُّوا بعدها الطريق... بين ليموج وصوليار! وكانت المقبرة مفتوحة – فالُتربى قد أتم عمله –، ولكن كان مستحيلاً أن يفرشوا الزهور حتى وصولهم . فقد كانت الباقات التى زيَّنت الكاتدرائية فى عربة نقل الموتى. ومما زاد الطين بلة، أن الثلوج بدأت فى التساقط !

وخطر لى رغمًا عنى أن الثلوج لم تكن لتسقط فى كونكال، وأن متعهدى نقل الموتى بها أقل غباءً، وأن يافطات الطرق هناك تحمل بالتأكيد إشارات الاتجاه إلى المقابر: لماذا ضغطنا على أبى ؟... فقد كان علينا، قبل ثلاثة أيام، حل المسألة الشائكة المتعلقة بالقبر. كانت أمى قد رددت دائمًا أنها ستلْحق بأهلها فى القبر ؛ غير أن أبى كان له أيضًا أهل فى بريتانيا ؛ وكان لديهم هم أيضًا مقبرة واسعة -«وتُطل على البحر» فوق ذلك. وحينما كانت أمى، وهى لا زالت فى صحة جيدة، تقول لأبى، الذى كان لا يزال فى الخدمة: « سوف أُدفن مع ميشا ! كان أبى يقول - وماذا عنى ؟. كانت أمى ترد - ولكنى لا أنوى أن أتركك !. بقى مكانان فى مقبرة صوليار : سوف أضعك بها. - شكرًا جزيلاً. مع عشرة أو اثنى عشر من الغرباء الذين لا أعرفهم البتة ! (تجدر الإشارة إلى أن قبور لاكروز قبور بنائين: إن مساكن الخاتمة هنا أوسع من البيوت - إن جَدِّ جدّنا، الذى كان حفّارًا ووالدًا للقهوجى، لم يدَّخِّر لا فى عرقه ولا فى مواد البناء). كان أبى يستطرد قائلاً لدَى مقبرة فى كونكال، فى مقابر ساحرة، وبقى لى هناك أربعة أماكن : لماذا لا تذهب إلى هناك ؟ لقد سئمت هضبة لاكروز أنا ! أو فلنأخذ مكانًا هنا، فى الوادى، فى مقابر كليراك... - لا بد وأنك تمزح ؟ أربعة أماكن فى كونكال واثنين فى صوليار ؟ هل ربحت فى اليانصيب أم ماذا ؟»

وفى نهاية الأمر، بعد مناقشة قصيرة، وافق أبى بسماحة من بقِى حيًا، أن يترك أولجا تلحق بميشاها.

وسألته سونيا بصوت خجل « ولكن، ماذا فيما بعد ؟»

أوه، فيما بعد سوف تقرِّرن يا بناتى.! سوف أترك لكن تعليمات تفصيلية. أعِدُ بذلك !

وقالت ڤيرا مُنهية الحديث - سوف يكون ذلك مريحًا فى عيد كل القديسين... واحدا فى صوليار والآخر فى كونكال !»

بصفتي رئيسة للاحتفال، لم أعد أعرف كيف يمكنني، في غياب «الجثمان» والورود، أن أشْغِل الجموع التي احتشدت من أجل ابنة ميشا: أولاد عمومة من الهضبة، قُدامَى المقاومين، وقُدامى القُدامى من المعارف. إن عمليات الدفن تعتبر بمثابة حفلات عندنا : فمنذ اختفاء المَعارِض، أصبحت فرص التجمع نادرة؛ كما أن الحانات أغلقت أبوابها ؛ وحلّت شجرة عيد الميلاد محل راعية الغنم وخرافها، ولم يعد الإنسان يلتقي بالإنسان إلاّ بين قبرين. إذن، هُم «يأتون»، حتى في نهاية شهر ديسمبر، وتحت الثلوج : ففي دائرة قطرها الثلاثين كيلو متراً المحيطة، يترك العمال مواقعهم، ويُنزِل التجار ستائر حوانيتهم – «مُغلق لأسباب دفن».

ينبغي أن نقدم بعضاً من الفُرْجة. وجعلتُهُم يجمعون حول القبر الباقات التي أتى بها إلى المقابر مباشرة المعارضون لتدخل رجال الدين في الحياة العامة؛ وفي هذه الأثناء، كان اثنان من أبنائي يجاهدان أمام جهازي اللابتوپ للعثور على عربة الموتى – ولكن الاتصال كان سيئاً، فالعاملون في التشغيل عن بعد يرفضون إنشاء نقاط توصيل لخدمة أهالي في طريقهم للاندثار. لا قطارات فائقة السرعة، ولا محمول، ولا إنترنت سريع ولا مكاتب بريد، ولا محطات سكك حديدية، ولا مدارس، الهضبة تغوص في الظلامية. قال لي مارك: «تمكنت من التقاطهم لمده خمس ثوان، وأظن أنه قد بقي أمامهم ربع ساعة من الطريق.» ولكي أحث الحُضور على الصبر، كنت «أُلقي» قصائد أبنائي التي راجعتها معهم بالأمس في منزل كليراك. مع خلفية موسيقية صادرة من جهاز بالبطارية. كانت ليزا تبكي، وڤيرا تغلق عينيها، وفابريس يسند سونيا. ولكن صندوق الموتى لم يكن هنا بعد!

كانت الثلوج تهطل بشدة الآن. واضطررت لإعطاء الكلمة لرئيس المقاوِمين من حاملي النياشين، كهل ارتدى زيا بألوان العَلَم الثلاثة كان مرتبكًا بعض الشيء لاضطراره التحدث عن راحلة تبخّرت جثتها. ومع ذلك، فقد تكلم جيداً عن هذه الأولجا التي لم نعرفها، المقاتلة الصغيرة في الظل، حورية الغابات، أيقونة القوات الفرنسية بالداخل. وقام العمدة بدوره بالتذكير بـ «الرجل العظيم ميشا»، هذا الروسي الذي

أصبح واحداً من أهالى لاكروز، هذا المتمرد المِعطاء، الثائر المرح. وتذكرتُ حينئذ أن ميشا كان يريد أن يسمى ابنته ڤولجا(*). لم تبتعد ڤولجته كثيرا فى نهاية الأمر،فقد أنهت تدفقها على بعد مائتى متر من المكان الذى وُلِدت فيه. لم تستطع ترك منبعها...

كان العمدة قد أطال بشكل مقبول إشادته بجَدّنا، حين ظهرت عربة الموتى وتنفس الجميع الصعداء. وبدأت استعدادات المعركة على ظهر السفينة : كانت الباقات التى جىء بها من الكاتدرائية - حمراء ووردية وصفراء - كثيرة جداً لدرجة أنها سرعان ما غطت المدرجات المجاورة وحتى الجدار الخارجى للمقابر. ثلوج. سماء بيضاء، أرض بيضاء. مُخملية مثل ليلة صيف. وفى الوسط، هذه الباقة الهائلة من الألعاب النارية.

وسار بقية الاحتفال كما كان مرتبًا له. ولم أكن قد حظيت بوقت للتأثر. فحينما دخلنا إلى المقابر لنتجمع حول القبر، تذكرت بتخوف « إن عربة الموتى لم تصل بعد !» ؛ ثم حين تم وضع الكفن على الحلبة وتوزيع تيجان الزهور على القبور المجاورة قلت بداخلى «نعم ! ولكن عربة الموتى تأخرت»؛ وبعدها، حين نزلت أمى وسط تزييق الحبال إلى تربتها وتلقينا العزاء فى الممر الطويل قلت لنفسى «عظيم، ولكن عربة الموتى قد »...

(٢٢)

بيع منزل أمى. باع أبى منزل أمى – بصيغة المبنى للمعلوم. يمكن أن نرى فى ذلك تدريبًا لغويًا ؛ ولكنه تدريب روحى قبل أى شىء: تعلُّم الانسلاخ.

أفضى إلينا بنواياه فور عودتنا من المقابر. فى منزل طفولتنا («على حافة نجع، منزل كبير، حديقة مساحتها سبعة آلاف متر مربع. تدفئة مركزية بالحطب، إصلاحات لازمة»)، كانت ڤيرا قد أعدت للعائلة وجبة خفيفة: كان لكلٍ موعد يجب أن يلحق به – القطار إلى باريس، سفر إلى لوزان، الطائرة إلى لندن، رحلة طيران طويلة إلى سيدنى؛ كانوا يأكلون بسرعة بدون الجلوس؛ لم تعد وجبات الجنازات مثلما كانت.

كنا أنا وليزا نشرب نبيذًا دافئًا. ولحقت بنا سونيا بزجاجة مياهها الكونتكس. كانت تُشيع رائحة حلوى النعناع: تريد باختصار أن تُعلِمنا أنها نجحت فى استعادة التوازن بين نقاط ضعفها وقوتها. أمسكتها من رقبتها. سونيتشكتى الهشة والقوية. تَقدّم أبونا منَ المجموعة وبحركة عابرة أشار إلى الغرفة من حوله: «لن أستطيع البقاء هاهنا. وحدى ! سوف أرى أمكُّن فى كل مكان...» كان هذا صحيحًا، والمرأة التى سيراها فى هذا المنزل وقد أنهكتها ست سنوات من المرض، ستكون المُحتضرة وليس تلك الجميلة الشابة التى كانت تنتظره بفستانها العارى الأكتاف على الباب لكى «تُلُقمْه»نواة الكرزة وهى تقبله فى فمه.

وقدم لنا، ونحن نتناول مُقّبلات السجق، أسبابًا أخرى معقولة جدًا. ففى سنه، يُستحسن التخلى عَن البيوت، بدَرَجِها، وتفضيل الشقق الصغيرة فى الطابق الأرضى، حيث التدفئة الجماعية، والزر الذى يفتح الباب، والسواتر الدوارة ودورة المياه ؛ بدون

بانيو تحديداً ! يتمنى لأيامه القادمة كابينة الدوش. كان المطلوب أيضاً مغادرة البيئة الريفية والضاحية فى الوقت المناسب والاستقرار «فى المدينة»: ففى يوم من الأيام، لن يستطيع القيادة ؛ ويحتاج المرء حينما يتقدم به العمر إلى المطاعم والمكتبات ودور السينما – بل ولِمَ لا نعترف بذلك ؟، إلى الصيدليات...

« سوف أبيع: وأتصور أن ما من إحداكن تريد العيش هنا ؟ ڤيرا تقيم فى سان ليونار، وهى أكثر جاذبية من هذه البلدة ! ثم أنها قد بَنت منزلاً... أما أنت يا ليزا، فليس لدى ما أحدثك به فى هذه المسألة، أليس كذلك ؟ وأنت يا كاتيا، فعِندك من الريف الطاحونة التى لا زلت تفضلينها على ما أعتقد؟

همم...هكذا فجأة، بلا مقدمات... إن الطاحونة موجودة فى العائلة منذ وقت أطول، وترجع إلى القرن السادس عشر. إلى ١٥٣٣تحديداً، وهى سنة ميلاد مونتانى(*)...

بالفعل هذا شىء هام بالنسبة لواحدة منغمسة فى الأدب. (كان يسخر، ولكن بدون سوء نية. إنه مبتهج للغاية بالنسبة لرجل أرمل) ! وأنت يا سونيا، أظن أن البيت سيسبب لك هموماً كثيرة من الناحية المادية ؟

مرة أخرى قالها بشكل جميل. بلياقة: لو كانت أمى لتلفظت بكلمات أكثر صراحة.. بلى، وإضافة إلى ذلك، فإن أبى كان يُغرى سونيا بإمكانية أن تحصل على شىء من هذه البيعة... كلا، لم يكن يُغرى بأى شىء: « لا أريد بالطبع أن أصبح مالكًا مرة أخرى فى سنى هذه !... سوف استأجر مكانًا. ومادام البيت كان مِلكى الخاص، فسوف أضع ثمن البيع فى البنك، وسيُدِرُّ على هذا بعض الدخل. ولكى تستردوا رأس المال، سيتعين عليكن انتظار وفاتى. ولكنى آمل يا صغيراتى العزيزات، ألاّ أتركَكُنَّ تنتظرن طويلاً. وعلى العموم، فإن الحياة بدون أُمِّكُن... لقد كانت تملؤها كثيراً !». تنهيدة.

على أية حال، كانت هذه ضربة عنيفة لسونيا، التى كان أبى قد حرمها بالفعل من دخل إضافى منتظم. لم يعد هناك غطاء للنجدة الآن، ولا رأسمال. وهمستُ لسونيبيتشكتى ذات العيون الحنونة، دبدوبتى الصغيرة، إنها إذا واجهت صعوبات فى نهايات الشهر، سوف نرى ڤيرا وأنا ماذا يمكن عمله : فقد كانت، بعد التحذير الثانى من رئيستها، معرَّضة بالفعل للعودة إلى البطالة.

كانت ليزا منذ أفصح لنا أبى بنواياه، تبدو وكأنها تحت تأثير الصدمة كما يقولون فى التليڤزيون. كانت ليزا تحت تأثير الصدمة، أما ڤيرا، فسوف تغضب فور علمها بذلك: فما من أحد كان أكثر ارتباطًا من توأمتى» بمنزل أمى – ومِلْك أبى. أما أنا، فقد فوجئت، وإن لم أندهش؛ فوجئت بالسرعة التى حدثت بها الأمور ولكنى لم أندهش حقًا من اختيارات أبى. والغريب أن سونيا – التى دائمًا ما تكون شاردة الذهن حسب قول ڤيرا – كانت أول من استعاد تماسكه :

«إذا أردتنى أن أبحث لك عن سكن فى ليموج، يمكننى أن أبحث فى مكاتب الإيجار...

شكرًا يا بنيتى الصغيرة، ولكنى كبير بما يكفى لكى أفعل ذلك بنفسى.

أضافت سونيا : «نعم، وربما أنك لا تريد بتاتًا أن يكون ذلك فى ليموج ؟

لن أُخْفيك أننى قد سئمت من ليموج... – فرغم ما كان يزعمه جَدُّكم من أن محطة ليموج للسكك الحديدية تتوسط فرنسا بامتياز، بل إننى سمعته مرة يقول إنها أكبر موانئ العالم ! –، فأنا حينما أُعمِل حاسة شَمّى فى ليموج، لا أشعر إطلاقًا برائحة الحشائش البحرية.

إذن سوف تستقر على شاطئ البحر... فى الغرب بالتأكيد ؟

قال أبى برقة مخادعة – يا إلهى أنا بريتانى أليس كذلك...»

نعم، أنا التى كنت هذه المرة تحت تأثير الصدمة. حتى وإن كنت أعرف أن أبى جاء من سان سيرفان وأنه درس فى سان مالو ولديه قبرا فى كونكال... وكان أول ما تبادر لذهنى هو مُبيّضى البحرية فى إقليم الأوفارنى والليموزان: ماذا سيحدث لهم ؟ ثم تساءلت عما دفع سونيا لتخمين حكاية «الغرب» ؟ إذ أنها لم يبدُ عليها الانزعاج. وما خطر لى ثالثا هو : أن ليزا وُلدت هنا، فى غرفة الطابق الأول، وهى بذا تفقد المنزل الذى خُلِقتْ فيه. ثم كانت الفكرة الرابعة التى عبّرتُ عنها بصوت عالٍ لحظة أن جالت فى ذهنى: « ولكن يا أبى، إذا كنت تريد العيش فى المدينة، فلماذا لا تكون باريس ؟ يمكنك السُكنى بالقرب منى ومن أربعة أو خمسة من أحفادك. فضلاً عن أن ذلك سيُسهِّل الأمر على الباقين كلهم: فابريس من لوزان، وچيريمى من لندن؛ بل وليزا ...» قاطعَت ليزا استرسالى قبل أن أتمكن من الإيضاح: « لا عليكِ يا كاتيا، لم يكن أبى معتاداً زيارتنا قبل مرض أمنا. إنه يهفو للعودة إلى حياته كرحّال، سوف يلتقى ببناته مرة فى العام – كما كانت العادة...»

وقد أتى وصول موجيت جلوريوز، التى كانت ڤيرا قد دعتها إلى نَخْب الدفن، بتسلية موفقة. وكانت قد ارتدت، تكريماً للراحلة، ثوب بوبو مورِد أسفل سترتها المبطنة بالفرو. كانت ضخمة بلا حدود. راحت وهى تلتهم السندويتشات تحكى لنا عن «السيد» الذى كانت مرافقة له حاليا: « ليس مِثل أُمّكن على الإطلاق... إنه قاسٍ ! لا يريد الموت ! إنه ينفعل، يا إلهى. كما أنه عنصرى فوق ذلك، هذا الغبى. – قالت ڤيرا، التى كانت تباشر موجيت بالطعام (صينية ملأى بساندويتشات الجبن والپيتى فور) : «ولكنكِ لستِ مجبرة على تحمّل مقولاته العنصرية يا موجيت ! أبلِغى الشركة التى تعملين لديها، اطلبى تغيير المكان... ردت موجيت بنبرتها الموسيقية – كلا ! ليس هذا بالأمر الخطير. فعندنا فى الكاميرون أيضًا لن يرحب العجائز بأن يتولى شخص من قبيلة أخرى العناية بهم ، إلا ذلك !يا ساحرة ! يا دجالة . كل هؤلاء العجائز على شاكلة واحدة، هم يريدون حياتهم الماضية، حياة طفولتهم: يطالبون بأمهم... أم سوداء شابة لعجوز أبيض، ما هو العيب فى ذلك !». وضحكت.

إن سوق العقارات «فى كامل عنفوانها»، حتى فى إقليم الليموزان: بعد شهر من الدفن، أعلن لنا والدنا أنه قد وقّع اتفاقًا للبيع مع بعض الإنجليز. وسوف يبدأ المشترون أعمال الإصلاح فى شهر إبريل. وأنه ينبغى إخلاء المنزل قبل الربيع. وفى غضون ذلك، سوف يقطن عند ڤيرا، ما بين سفراته للغرب الذى يبحث فيه بنشاط عن مكان للهبوط.

نحن مُكلّفات بتفكيك منزل طفولتنا، غرفة غرفة. منذ ست سنوات والمنزل يفتقد التدفئة والإضاءة والحب، خاويا من الروائح والأصوات، ولكنه كامل : علينا أن نقطِّعه، أن نُخْليه من العظام، من القبو وحتى الصندرة، ثم ننثر أجزاءه.

إزالة قواعد الأكواب، إنزال الستائر، تجميع اللمبات، فك الأسِرَّة، إخلاء الدواليب، جمْع أوانى الزهور: عملٌ يكشف الوجه الآخر للأشياء. لا شىء هنا له قيمة، كنا نعرف ذلك والآن نتأكد: كان هذا منزل امرأة ليست بالثرية، «فى يديها مهارة ذهبية»، ولديها حاسة التزيين. كل غرفة تبدو مليئة بالدفء، والضوء والذوق العالى، ولكن ما من قطعة أثاث أو أى شىء لم يسبق إصلاحه ! كانت أمنا تشترى أغراضها من عند بائعى العوائد وأسواق التلات، وتتحصّل على أشياء من مخازن الغلال، بل ومن على الأرصفة. ثم، تقوم بعدها، بموهبة كبيرة، بعمليات إعادة اللصق، ودق المسامير، والدهان والحياكة : وكانت النتيجة مبتكرة وساحرة. غير أنك إذا نظرت عن كثبٍ، سوف تلاحظ المزهريات المشروخة، والفخاريات المشقوقة وأدوات المائدة غير المتشابهة وكل هذه المناضد العرجاء وساعات الحائط التي لم تدق أبدًا !

والأفظع من ذلك: كانت هذه السُويقة الشرقية تضم كمًا كبيرًا من الأشياء الكريهة. فأمي، التى ذهبت بالكاد إلى المدرسة ولم تحب المتاحف أبدًا، كان يمكنها أن تُعلّق جنبًا إلى جنب رسمًا أصليًا من القرن العظيم ونسخة رديئة للوحة قصّتْها من إحدى المجلات. هذا بدون ذكر علب الزبادى التى كان يزينها أحفادها !

ومع ذلك، فطوال إقامتها – إقامة كاملة – فى هذا المنزل، كان كل شىء متماسكًا : كان الجميل والقبيح، والقطع الجديدة تمامًا مع تلك المُتقوّسة أرجلها بعض الشىء،

يُكوِّنون حولها دائرة مرحة: أما زهور الحديقة والنباتات الغريبة، وروائح البخور والمُربّى و طقطقة النار فكانت تُوحِّد في النهاية التفاوتات. كان المنزل الدافىء امتدادا لجسد أمى، كان المنزل المضىء أجمل فساتينها، يلف ويلف مثل التنورة ذات قصة أوراق الوردة حينما كانت أمى ترقص.

كم أحبَّت الرقص ! أحبَّت الحياة والرقص. فور انطلاق لحن تحبه من جهاز الراديو، كانت تترك حياكتها، وآنية الطهو وتندفع، وحدها فى وسط المطبخ أو الممر، لترقص الڤالس أو غيرها. أحيانًا، كانت تقتنص أصغرنا، لرقصة روك: «هيا، تتبّعى الإيقاع ! تحرّكى ! أسْرعى !» كانت تضحك: «لا، ليس هكذا !» «ليست هذه الرقصة... أواه ! تعالى يا ڤيرا لكى ترشديها !» وتضحك، وكنا جميعًا نترك كتبنا وكراريسنا لنرقص حولها.

وقد علَّمت فيما بعد أحفادها الخطوات، والحركات وفرحة الإيقاعات، كانت تهيم فى الرقص مع الرضَّع: تحملهم بين ذراعيها، فى أمان جسدها، وكانوا يدورون معها على ألحان مجنونة.

قلت لسونيا وأنا أغلّف جهاز الڤيديو الخاص بأهلى « غريبة، لم أجد إسطوانات أمى. هذه الإسطوانات البلاستيكية، تعرفينها... كانت لديها مجموعة رائعة من موسيقى الرقص ! كافة رقصات الخمسينيات، التشا تشا، والمامبو، والبامبا. والستينيات ؟ التويست والدچيرك ! حتى الثمانينات : تذكرين مجموعتها لرقصات الديسكو ؟

لا بد وأن أبى قد تخلّص من كل شىء حينما مرضت. لم يعد لديهم دائرة البلاتين لسماع كل هذه الأشياء. ثم إن علاقة أبى والروك آند رول لا تَخفى عليك !

يا للخسارة. كنت سأسعد كثيراً لو...

ألا يكفيك ما لدينا من مجموعات علينا ترتيبها ؟»

بلى، فقد تركت أمى وراءها الكثير من «المجموعات» ! كانت تجمع كل شىء وأى شىء. كان أبى يقول بنبرة متذمرة: « إنها تجمع كل ما هو صغير ولا قيمة له !»

كانت قد طلبت منا فى الماضى فى رسالة إلى ليزا، أن نُقسِّم بين أحفادها «مجموعاتى من البيض الملوّن، والمراوح، وعلب التبغ، وأقلام الحبر القديمة، ومشابك القبعات»... ونقوم بالفرز، والتقسيم، وتكوين الأنصبة - كل واحد من الفتيان سوف يحصل على أربعة مشابك قبعات. ماذا عساه الشاب أن يفعل بأربعة مشابك قبعات فى القرن الواحد والعشرين ؟

لا يهم: يجب تقسيم ونثر كل ما أمضت حياتها فى تجميعه... أكياس صندوق القمامة، علب كرتونية، ورق التغليف، نازعات المسامير، المفكّات: إننا ندمر منزل أمنا.

تصالحتُ مع ڤيرا، ونحن نفرز الملابس البالية، وأوانى الطهو ولُعبنا القديمة. منذ وفاة أمنا وهى تترك نفسها تذوب تأثرًا. اختفى عريِّف البحرية الذى كان يصدر لنا أوامره عبر الهاتف ! اليوم، لم تعد ڤيرا تزُمّ شفتيها، إنها تبتسم : لم تعد تعطى الأوامر، إنها تُعطى. وفى عمليات التقسيم، لا تطلب شيئًا. يظهر عليها هذا التهاون الفرِح للشخص البالغ الذى يرقب بعض الصبية يتنازعون على علّبة بِلْى...

تركت لى فِراشنا ونحن صغيرات، ذلك الذى نمنا فيه سويًا حتى سن الثانية عشر، وخاتم الجدة سولانچ، بفص الفيروز الذى كانت جدتى قد وعدتنى به وأنا فى الثامنة. أنا سعيدة... بالطبع لا أعرف ماذا سأفعل بالسرير، الذى سوف أُخزِّنه فى صندرة الطاحونة؛ ولا بالخاتم، الذى لم يعد فى إمكانى ارتداؤه، وسوف ينتهى به الحال فى درج منضدة السرير.

كنت أكثر طولاً من سرير الأطفال، وأكبر سنًا من خاتم الفيروز... ولكن شخصًا ما بداخلى، قصير جدًا وفى شرخ الشباب تسحره هذه الكنوز ويشعر حيال ڤيرا بعرفان لا حدود له.

« لقد وجد أبى شقة ! خمنوا أين ؟ فى لوهاڤر(*) !»

لوهاڤر ! ولكنه كان يبحث فى بريتانيا !»

كانت عطلة نهاية أسبوع عادية أقضيها فى كليراك مثل أيام مرض أمى: وإذا كان المنزل هو الجِلْد الثانى للمرأة، فإننا الآن نخدش جثمانها... ڤيرا تعلن لنا خبر سُكنى أبى ونحن فى جلسة لتغليف الأشياء. إنها لا تفهم حكاية لوهاڤر هذه : « لقد وقّع العقد بالفعل. مكان بغرفة واحدة. فى مبنى مواجه للميناء... حسنا، إنه كان يذهب إلى هناك من وقت لآخر بسبب جمعية البحارة التى يقع مقرها فى هذه الجهة... لقد ذكر لى على أية حال أنه سيبقى هناك عدة أيام بسبب الإجراءات الإدارية – المياه والكهرباء وخلافه. سوف يحتفظ بقليل من أثاث كليراك: فالمكان صغير للغاية. ولكن الخبر السعيد هو أنه سوف يشترى هاتفًا محمولاً ! وقد أعطانى مؤقتًا رقم هاتف فندقه.

قالت سونيا وهى تنظر للورقة الصغيرة: « ما هذا ؟ إنه نفس رقم ڤولكانيا...

ڤولكانيا ؟ بالقرب من كليرمون ؟ إنك تمزحين : إقليم الأوڤارنى مفتاحه ٠٤ !

ليس أوڤارنى أبى... إنه يظل وفيًا لهذا الرقم، حتى حين يذهب إلى بوردو أو تولون، يحتفظ بهذا الخط الثابت... أواه، إن والدنا قد سبق التكنولوچيا !

ماذا تريدين أن تقولى ؟

لا شىء يا كبيرتى، كلٌّ يحيا كما يريد، أو كما يتمكن. أنا أعشقك، كم أنت رائعة !»

تمط شفتيها إلى الأمام، كما لإعطاء قبلة. لقد شرِبت. والأفظع، هو أنها لا تكترث البتة ! لم يعد هناك ماء كونتركس، ولا حبات بُنْ: نظرتها غائمة ورائحة أنفاسها ثقيلة. قبل برهة أسقطت لمبة. كما فُصِلت لتوها من معهد التجميل ! لقد انهارت سُمعتها كأخِصائية تجميل فى ليموچ. تقوم صديقة لڤيرا بالبحث عن مكان عمل لها فى ڤيرزون...

وفى المساء ، حدثتُ ابنى مارك بقرب إقامة جده فى لوهافر وعن كلام سونيا الغريب. عاود الاتصال بى بعد نصف ساعة. استطاع الاستدلال على صاحب الهاتف انطلاقا من الرقم ذاته وليس من أسماء دليل التليفونات، وأخبرنى بأن الرقم الذى تركه أبى ليس بهاتف فندق وإنما هاتف شخص. أو شخصة بالأحرى، التى كان يمكن لاسمها – مونيك – أن يوحى لقسم المستهلكين بالمتاجر الكبرى بأن «العميلة» من مواليد ما قبل ١٩٥٠.

إن أرملنا السعيد على علاقة. بدأت، إن صدق ما قالته سونيا، قبل ترمُّله. الأرمل السعيد كان خائنًا لرباط الزوجية. خائنًا له وإن كان لديه ما يعذره. لا بد وأنه التقى بهذه المرأة بعد عام أو عامين من العملية الأولى لأمى، كان يحتاج حينئذ لتغيير حالته الذهنية ؛ أتخيله فى المأدبة السنوية لقباطنة البحرية التجارية ؛ السيدة، التى أجلستها الصُدْفة إلى جانبه، أرملة حديثة العهد، شديدة الأناقة، لديها معرفة طيبة بالسفن، إنها تسكن أمام الميناء القديم، حوض التجارة هذا الذى يحبه كثيرًا، تدعوه إلى تناول قدح من الشراب بمنزلها... لقد ذهب أثناء احتضار أمى الطويل ثلاث أو أربع مرات إلى لوهافر يبحث عن العزاء. والآن، فإن العجوزين يجمعان وحدتهما، وإذا كان لم يقل شيئًا بعد، فذلك احترامًا للأصول، «عِدّة الترمل»... قررت أن أحتفظ لنفسى بالمعلومة حتى يحدثنا بنفسه عنها : فذلك من شأنه حاليًا أن يُحْزِن ڤيرا، ويثير حنق ليزا. وأمامنا على العموم عمل ينبغى إنجازه : أبونا يرحل والإنجليز قادمون.

وأخذت على عاتقى مهمة دواليب المطبخ... هناك الكثير من الأشياء القديمة التى يتعين التخلص منها.

كان أهلنا قد بدآ حياتهما بدون ملعقة صغيرة واحدة. وكانا يحتفظان بما اكتسباه بصعوبة كما لو كان جنيهات من الذهب ويدافعان عنه بقوة : مستحيل أن يكسر أحد الأطفال قدم كرسى وهو يتأرجح عليه، أو مزهرية وهو يركض، أو نافذة وهو يلعب. كنا نمرُّ عبر المنزل بدون أن نحرك الهواء، ولا نلمس كنوز أمى سوى

بعيوننا ونخلع أحذيتنا قبل السير على السجاد. لقد تربينا على عبادة الأشياء، ليس الاحترام: وإنما العبادة.

وقد لقنْتُ أبنائى نفس المبادئ : كان خوفى شديداً أن تموت الأشياء قبلى ! حينما كان صبْيتى الأربع يتعاركون، كانت جروحهم أو تورمهم بسبب الاصطدامات تقلقنى بالكاد؛ كنت أخشى فقط من أن يُسقِطوا أباچورة أو يُحطّموا علبة ملبس صغيرة أو آنية فخارية - وإن حدث ذلك كان الضرب ينهال على المؤخرات الأربع، والحرمان من حصالات النقود، والمواعظ: «هل رأيت هذا الملاك الذهبى الصغير الذى قتلته لتوّك: لقد وُلد فى عهد لويس الخامس عشر. وتمكّن من الخروج حيًا من الثورة، ولم يكن ذلك بالمهمة اليسيرة بالنسبة لملاك ! كما تمكن من البقاء عبر حرب ١٤ : ولم يكن هذا بسيطًا بالنسبة لقطعة من الصينى ! كما نجح فى الخروج سليمًا من الحرب العالمية الثانية. لقد تمكن من البقاء طيلة ثلاثة قرون ! ثم التقى بك...» وكان أبنائى والخجل يملؤهم يحافظون على آلهتى الهشة.

وقد أدركت سَخَفى وأنا أُفرِغُ خزانات المطبخ : كانت ڤيرا قد أوصتنى بأن أُغلّف (لمن يا إلهى ؟ لسونيا؟)، طقمين من أدوات المائدة من الإينوكس الصّدئ وبعض الأطباق التى لم تعُد أمى تستخدمها سوى مع أبى ؛ كانت حينما نأتى على الغذاء تُعِدُّ مائدة غرفة الطعام وتُخرج «طقمها الجميل» من بورسولين ليموچ، الذى اشترته فى تخفيضات بكليراك.

تعرفْت فورًا على الأطباق «العادية» التى لم أعُد أشاهدها منذ مدة طويلة : طقم صغير من الخزف العادى المزين بالورود كانت أمى قد ربحته عن طريق كوبونات البقالة. أطباق بلا قيمة أو جمال كانت تُستعمل منذ طفولتى «فى جميع الأيام» والمناسبات. ومع ذلك، فقد بقى منها على الرف أحد عشر طبقًا: ستة مسطحة وخمسة عميقة. نصف هذه الأطباق التى لم يعاملها أحد برفق قد قاومت وما زالت موجودة، قديمة، قبيحة، فى حين أن أمى لم تعُد هنا ! وانقشعت غمامة عينى: إن العُمر الطويل لطاقم من الخزف يصيبك بالصدمة .

لن أتعامل بعد الآن مع حوانيت الأشياء المستعملة....

لم تكن سونيا هنا حين وزّعنا المجوهرات: كانت قد أصابت كاحلها بالتواء عند سقوطها من على الإفريز. وقد رفعت ليزا عينيها إلى السماء وهى تتنهد حين سمعت بحادث سونيا الصغير. كانت قد عادت من أستراليا من أجل عمليات التقسيم الأخيرة (وكانت قد خسرت قضية لا يمكن خسارتها، فى معركتها الكبيرة من أجل «السكان الأصليين»، وتعرضت لإنتقاد زملائها والصحافة، ولا يبدو عليها المرح). وكنا قد اتفقنا على أن نترك للغائبة بعض «القطع» غالية الثمن أو الغالية على قلبها: إسورة من الذهب القديم نسبيًا، العُقد الذى كانت ترتديه أمى عند موتها وحجر الجمشت الذى كان قد أهداه لها أبى فى عيد زواجهما الأربعين.

وزعقت ليزا: « هل تعرفين ماذا ستفعل سونيا بالحجر ؟ وكذلك بالعُقد ؟ هل تعرفين ؟ »

نعم، ردت ڤيرا، وأضفْتُ أنا: «هذا شأنها، أليس كذلك ؟

بالنسبة لتوزيع الأثاث والأشياء التى لا يريد أبى حَمْلها إلى لوهاڤر، لم تُبْدِ ليزا كرمًا مثل ڤيرا ولا عدم اهتمام، مثل سونيا. فرغم أنها لم تكن أبدًا باحثة عن المصلحة، فهى تريد كل شىء، تطلب كل شىء.

تُوزّع أنصبة، ثم تعيد فرزها، تقايض وتفاوض وتثور، كما لو كنا فى سوق للعاديات : « كلا، إذا أخذْتِ المقعد الأصفر سوف أضيف إلى شمعداناتى الصورتين الصغيرتين وإبريق الشاى !» « هذه المرآة جميلة. أعرف أنها كانت بغرفتك ولكن ذلك ليس بسببٍ كافٍ. إذا تركتُها لك تُعيدين لى ساعة الحائط.» ومن مساومة إلى مساومة انتهى بها الأمر إلى الاستحواذ على جميع عرائسنا ! لا شك أنها لم تسْلُ أبدًا فقدانها «نيكولا» فى الماضى».

هذا إضافة إلى كل التفاهات التى اكتشفنا أن أمنا كانت قد خَصَّتها بها اسماً: فى كل مرة كانت ليزا تُهدى أمى فى عيد ميلاد أو فى عيد الميلاد علبة أو رسمًا، كانت

أمى تُلصِق فى ظهرها ورقة بالمنشأ: «مُهدَى من ليزا». أما هدايا الثلاث الأخريات، التى كنا نتعرف عليها فى بعض «الأنصبة»، فلم تحظ بنفس الاهتمام : كانت بالتأكيد أقل ذوقًا... تقول ليزا إن أمى كانت تبغى لها أن تستعيد، عند وفاتها، كافة هداياها. ونحن لم نناقش هذه المقولة : فهى تبدو واضحة.

وسألَتْها سونيا: «ولكن أين ستضعين كل هذه السويقة ؟ ». فنحن نفترض أن كل أغطية القدمين القديمة هذه والمنافض السيراميك لن تسافر إلى الطرف الآخر من العالم... كما أن مزرعتها الصغيرة فى مورترول، التى تبعد عشرة كيلومترات من الطاحونة وخمسة عشر من « منزل أمنا »، غير قابلة للاتساع. وهى تزعم مع ذلك أنها سوف تُكدِّس مغانمها فى تلك الغرف الثلاث. إنها تؤكد لنا: « كل شىء له مكان هناك !»

وأساعدها فى نقل حمولة من المقاعد وأظل مشدوهة: فكل ما يمكن تعليقه على جدران قد تم تعليقه - جنبًا إلى جنب ! والمناضد والقواعد تتهاوى تحت ثقل البيبلوهات وتختفى البلاطات القديمة أسفل قطع السجاد التى طرّزتها أمى.

أقول لليزا: « يا مسكينتى، سوف تحتاجين لترتيب الكثير هذا الصيف !

كلا، لقد انتهيت من ذلك بالفعل. كل شىء فى مكانه، انظرى. (وتبدأ الطواف). ها هو الفنجال البورسلين الذى أعطته لى أمى فى شهادة الابتدائية، وهنا، فوق سريرنا، شهادة الثانوية التى وضَعَت لها الإطار بنفسها. وهذه، تتذكرين قاعدات الأطباق الموسيقية التى اشتريتها لها فى أحد أعياد الأم. وهنا المطبوعات الحجرية لمواسم العام : كنا قد جلبناها سويًا، هى وأنا، فى أحد أسواق العاديات. وتحتها، أباجورة سريرها من طراز العشرينيات وآنية الطهو النحاسية الكبيرة . بل إنى نجحت فى إعادة تعليق أيقوناتها ! بلى، أقسم لك ! نعم أنا لا أتيه عشقًا فى التُحف الدينية، تعرفين ذلك، إضافة إلى أنها ليست أيقونات قديمة : كانت أمى قد جاءت بها من روسيا، فى المرة الوحيدة التى استطاع فيها أبى أن يصحْبَها فى سفر. كانت قد وافقت حينئذ لأنها

كانت «تريد أن تتعرف على بلد ميشا»، هل تذكرين ؟ ليننجراد عن طريق البحر، ثم موسكو وكييف وأوديسا... كانت قد عبرت الستار الحديدى فى طريق العودة وهى مُحمَّلة مثل الحمار الصغير: شيلان بالورود، صوانى مرسومة، عرائس الدولاب، العلب الصغيرة من الورق المعجون وهذه التماثيل الجديدة لوجوه تبشيريين نُحِتوا على خشب قديم... مسكينة، كانت تنقل أحمالاً كبيرة ! تصورى أننى فَكَكْت اثنتين من خزانات مطبخى هذا ذى الماركة الشهيرة: والآن تسكن الأيقونات الأربع فوق الحوض مباشرة، رائع، أليس كذلك ؟ انظرى، انظرى أيضًا كيف رتَّبْت حمّامى: نعم، هذه مَمْخضة اللبن القديمة لجدتنا، وكرسيك الصغير وأنت طفلة...»

وفهمت ما كان ويليام، الهادئ دومًا، يقصد بقوله حينما كنت أصحبه آخر مرة من محطة القطار إلى مطار رواسى: « إن أختك سوف تجعلنى أقضى عطلتى القادمة فى تابوت حجرى. كلا، ليس تابوت وإنما: « ضريح». هذه هى الكلمة... منزلى فى لاكروز، ينبغى ألاّ ألمسه بعد ذلك، إنه ضريح !» وأعرف أيضًا لماذا تطالب ليزا بأصغر الحلِيات وتستولى على التُحف السخيفة التى لا قيمة لها : إنها لا تريد هذه الأشياء، إنها تريد أُمَّنا - أُمنا بكاملها، لها وحدها... « إنها لم تُتِم حدادها بعد»، هذا ما قالته لى سونيا فى تحليلها النفسى، بين جرعتين من الخمر، وقدمها فى الجبس.

(٢٣)

أغلقت ليزا ضريحها الخاص وحملت المفتاح إلى أستراليا؛ وفي لوهاڤر، يراقب أبى أعمال تجهيز مسكنه؛ أما سونيا، التي باتت لا تتحرك إلاّ بعِصيّها، فلم تعد تغادر شقتها في بنايات الإيجار المعتدل. وتضيف ڤيرا بغضب: «ولا بِطالتها أيضًا !». شرعْت وحدى، مع «توأمتي» في التعامل مع خزانات «غرفة اللبس»، هذه التسمية الوقورة المستخدمة للدلالة على حجرة المهملات القائمة في نهاية الممر بالطابق الأول بمنزل كليراك. نقوم بفرز ملابس أمي. ما من واحد من «الأطقم الشابة والأنيقة» التي لم تعد أمي ترتديها منذ ست سنوات قد تمكّن من النجاة؛ إن أقمشة البوتيكات الباريسية الصغيرة – المصنوعة ١٠٠٪ من الڤيسكوز، وأفضل أنواع الإلاستان – يصيبها القِدَمْبدون أن ترتديها : وعلى الشماعات الحديدية المصبغة قمصان تكاد تكون جديدة تبدو مُجعّدة وفساتين صيف ٩٩ تنوح فتحة صدورها وذيولها ؛ والقماش الصناعي الذى «لا يتجعد» انهرس هرسًا، بَلِيَ في المعمعة وجَفّ مثل الخشب القديم.

«لا يتجعد» ! يعني ذلك أنه لا يمكن حتى كيّهُ ! احشرى هذه الأسمال في الحقائب القماشية ، من أجل الصليب الأحمر...

تساءلت ڤيرا – ماذا عساهم يفعلون بها ؟ ما من أحد بلا مأوى يمكن أن يقبل بها... ومع ذلك، فقد كانت رائعة وأمي ترتديها ، هل تذْكرين: هذا الطقم القطعتين، كان في عام رواج اللون الفوشيا. أنا أيضًا لبست منه. هل أصبح عام الفوشيا بعيدًا جدًا لهذه الدرجة ؟».

وفى مساء أول أمس، وقعت يدى وأنا أنتهى من إفراغ دولاب أحذية أمى، على مظروف فى جوف علبة كانت أمى تحتفظ فيها بجواربها المقطوعة (التى يمكن استخدامها تحت السراويل – علام التبديد؟)، وقد كُتب عليه بالحروف الكبيرة: «رغبات أخيرة.

سألتُ فى دهشة «هل كنت تعلمين أن أمى قد تركت وَصية ؟

كلا، أرينى: ربما تلك تعليمات خاصة بالقبر... غريبٌ ! لماذ لم تكلّمْنى عنها ؟»

مددْت يدى بالمظروف إلى ڤيرا بحركة آلية : أليست هى قريبنا الذى يُرجع اليه؟ فتَحتْه وانهارت.

كان المشهد صاعقًا، لأن ڤيرا لا تبكى كثيراً: كانت دموعها تسيل مثل الدماء – نزيف. كانت تبكى مثلما تقيّأَت فى المقابر. تلهثُ ألمًا.

استعادْت الرسالة منها. خط أمى الصارم، خط «ما قبل»: اليوم، وأنا فى كامل عقلى وعلى دراية كاملة بكل شىء، أتوسل إلى أبنائى وإلى الأطباء بألا يجعلونى أتألم بلا جدوى بإطالة أمد العلاجات التى لا طائل منها. لا أريد أن أصبح شيئًا بائسًا لا يمتٌّ للكائن البشرى بصلة. أوَدُّ، حين أُعرب عن رغبتى لدى نهاية مقاومتى، أن يُنصتوا إلى رجائى : ساعدونى على أن أموت بشكل كريم... إذا وَجَبَ الموت !...

كانت ڤيرا تتمتم بين شهقتين : «تلك الورقة... لو كنتُ قد قرأتها... أووه، يا للمسكينة ! ظنَّت أننى أخونُها... منذ البداية، بعد العملية الأولى، كنتُ قد وعدتها بـ... أن أجد شخصًا، شيئًا... حين يلزم الأمر... «ولكنهم» جميعًا كانوا يطالبون بورقة، ورقة تحمل توقيعها، ولم يكن لدى شىء. لا شىء... أااه يا كاتيا، لو أننى فقط ! إن غضبَها، فى النهاية، غضبها كان منى، ضدى...».

هذا إذن هو التفسير ! سبب تعنت أختنا فى تركنا وحدنا، نحن البنات، مع أمنا. فى رفض المساعِدة فى المنزل، ورفض النقل إلى المستشفى، رفْض «الأغراب» والنظرات المتطفِّلة : كانت قد وعدت...

ڤيرا الجالسة على الأرض وسط الأحذية، كانت فى هذا المساء تنتحب كما ينزف الإنسان. أنا لم أكن أبكى. إنه العَجَز - ضمور الغدد الدمعية، جفاف القرنية:

«بينى وبينك لقد أخْفَت أمى جيداً هذا «التصريح بالقتل»... أخفته جيداً لدرجة أن ما من أحد كان يمكنه العثور عليه ! وسط الجوارب المقطوعة، هل تتخيلين ؟ لو كانت قد أرادت أن تحصلى عليه لكانت قد حدثتك عنه يا ڤيروتشكا، أو كانت تركته فى مكان ظاهر، على المنضدة الملاصقة لسريرها... ثم هذا العنوان الغريب الرغبات الأخيرة ! هل كنت ستفتحين هذا الظرف بعنوانه هذا، لو أنك عثرت عليه مصادفة ؟

كلا، ليس فى حياتها... كلا، كنت سأظن أنها تتحدث فيه عن قبرها... أو عن القداس... أو ربما عن تقسيم مَشابِك قبعاتها (قالت ذلك عبر دموعها، وهى تكاد تبتسم)»

مدَدْت إليها بمنديلى وأحطْت كتفيها بذراعى، كما كنت أفعل حينما كانت أصغر منى. ظلت الرسالة فوق خزانة الأحذية، أمامنا. كانت عيون ڤيرا لا تزال دامعة بحيث لا يمكنها إعادة القراءة، ولكنى كنت أساعدها: «ليس هناك ما تلومين نفسك عليه يا قطتى : إن أمنا لم تُخْفِ فحسب رسالتها مرتين - خلف جواربها وخلف «عنوان» غير مناسب -، بل إننا أيضًا قد التزمنا برغباتها ذاتها ، التى لم نكن نعرفها. اسمعى، دعينى أقدم لك شرحًا للنص.» وتَغلَّبَ عندي جانب التلميذة النجيبة: «أَعدُكِ بتتبُّع رسالتها كلمة بكلمة : إنها تطلب منك عدم تركها تتعذب بلا جدوى بعلاجات ممتدة - وما من أحد مارس عليها عنفًا علاجيًا. فهى لم تتناول خلال السنوات الأربع الأخيرة إلاّ علاجات للراحة، مُسكّنات، مورفين. لم تُحقَن بالمحاليل ولم تُغذّ بالأنبوب. اتفقنا ؟ هل فهمتينى حتى الآن ؟ حسنا، الآن أواصل: ساعدونى على الموت بشكل كريم... امسحى منخارك يا ڤيروتشكا، نعم، أعرف أن هذه الجملة هى الأصعب. حينما شاهدنا... احتضارها، فإن هذه الجملة... وأيضًا الشىء البائس الذى لا يمَتُّ للكائن البشرى بصلة، أعرف... ولكن يا ڤيرا، هذه العبارة ساعدونى على أن أموت بشكل كريم سبقتها جملة ظرفية، انتبهى ! ظرفية شرطية: حين أعرب عن رغبتى لدى نهاية

مقاومتى. متى أعربت أمى عن هذه الرغبة ؟ منذ عامين أو ثلاثة أعوام، متى ؟ لم يحدث أبدًا ! بالعكس : لدى الدخول إلى المستشفى، فى قسم العلاجات التخفيفية - التخفيفية نحن نعرف ماذا تعنى الكلمات، وهى أيضا ! - ، طلبت منى الشفاء. الشفاء ! وقبل ساعات من الدخول فى الغيبوبة، ما هى الرغبة التى أعربت عنها للممرضات ؟ أن يُؤتَى لها بماء لورد ! وليس ماءً مباركًا مثلما فسّرت بغباء الشابة الصغيرة ذات النظارات : ماء لورد يا ڤيرا ! طلبت المعجزة ! من أجل الشفاء... كُفِّى عن النشيج يا ڤيروتشكا، تمخّطى ،،،! إنكِ كما تبغين ولكن تمخطى. لأننى لم أنْته بعد : بين هذا التوسُّل، ساعدونى على أن أموت بشكل كريم، وكلمة شكرًا التى سبقت التوقيع، ماذا تشاهدين ؟ ثلاث نقاط تليها أربع كلمات لها أهميتها إذا وَجب الموت. بل وفوقها هدية، علامة تعجب: ساعدونى على أن أموت بشكل كريم، إذا وجب الموت ! اسمعى يا حبيبتى: إذا !. ها هى جملة شرطية أخرى ! حينما وجّهت إلينا أمنا هذه الرسالة التى لم تعطنا إياها أبدًا، كانت مريضة وحَكَم عليها الطب بنهاية قريبة وهى تعرف ذلك... لقد كنْتن واضحات، أليس كذلك ؟ غير أن الموت بالنسبة لها كان يظل افتراضًا، مجرد افتراض : يجوز ألاّ تُضْطَر للموت، من يعلم ؟ يجوز لبعض البُشَر، عجائز ومرضى مثلها، أن ينجوا من المصير المشترك. يجوز ألاّ يموت البعض أبدًا...»

كانت ڤيرا قد وضعت رأسها على كتفى، ونحنُ جالستان على الأرض جنبًا إلى جنب، أمام كومة الأحذية البالية : لم تعد تبكى الآن، أو لم تعد تبكى تقريبًا.

« لستِ مُذنبة فى أى شىء: كانت أمى تتمنى أن نمنحها الموت حينما تصل إلى نهاية مقاومتها : حسنًا، هى لم تصل إليها أبدًا ! لم تصل إليها أبدًا بطريقة واعية ! فبخلاف سرطانها، كان لديها صحة من الفولاذ، وإرادة من نفس المعدن !»

طَويْت الخطاب بهدوء وأعدته إلى المظروف ووضعتهما فى حقيبتى وأنا أحاول عدم إزعاج ڤيرا التى لا زالت متكئة علىّ: « إن أولجتنا ظلت حتى النهاية هى الطفلة

التي كانت، في الثالثة عشرة، تأتي بالمعلومات لأفراد المقاومة الملتفين حول أبيها... لم تقْبل بالمحتوم : تعرفين تعسُّف المرض، ديكتاتورية الاحتضار. لم يكن في وسعها أن... تتعاون على موتها...»

وانكسر صوتي... إنه العَجْز مرة أخرى - حين أنْفَعِل يتهدَّج صوتي. استطردتُ بصوت مخنوق، مباعِدة بين الكلمات لالتقاط أنفاسي: « في الماضي كنت أحب هذا الدعاء الذي يوجهه ريلكي(*) إلى... هممم...أحد الآلهة.. لا أعلم من..بلى، هو إله بالطبع، أعذريني : امْنَحْهم الميتة التي وُلِدَت من حياتهم ذاتها... إنها ميتة متسلق الجبال... الذي يسقط وهو يصعد جبل الأفرست. ميتة البحّار الذي يَقْضي في عزض البحر. لقد كنتُ غاضبة لأن... لأن أمي لم تلْقَ في نهاية الأمر الميتة التي وُلِدت من حياتها. لماذا تكون النهاية بمثل هذا البطء ؟... بهذه الدرجة من... المهانة». ڤيرا استدارت ناحيتي، إنها الآن تهز رأسها، تبتسم ابتسامة حزينة، تداعب خدي. « هل تعرفين يا ڤيرا، إنني أشعر بأنني أفضل حالاً منذ قرأت هذه الرسالة : إنها... إنها ماتت ميتة المقاومة. لم تتصالح أبداً مع العدو.» واختنق صوتي. ها أنا ذا أبكي أخيراً، قليلاً. لأول مرة منذ أسابيع. دمعات صغيرة. ثم كبيرة. ڤيرا تقبّلني. أُحبُها.

حينما كنت صغيرة، كنت أعتقد أن أختي ڤيرا هي أجمل هدية أهدتها إلى الحياة.

(*) شاعر وروائي نمساوي.

ڤيرا

تعود من جاءت بعد البِكرية لحالتها الطبيعية: قَوام مصارع الثيران ولكن صلابة رعاة البقر. تشعر بالراحة منذ أن شرَحت لها كاتيا رسالة أمهما الأخيرة كلمة بكلمة، وأثبتت لها أن عشق الحياة تغلّب عند المحتضرة على الرغبة فى الموت، حتى النهاية. وبناءً عليه، فقد أمسك «مصارع الثيران» الثور من قرونه وشرع فى العمل فى موقع آخر : استيضاح حكاية الأب.

معرفة كيف يكون لڤولكانيا، الكائنة فى پوى دو رون، نفس رقم هاتف أحد مطاعم بوردو أو فندق فى لوهاڤر. سونيا ليست مهتمة بالإجابة، رغم كونها الأولى التى اعترتها التساؤلات – إنها تفتقر إلى المثابرة... وليزا خارج اللعبة بالطبع، بفعل بُعدها الجغرافى. أما كاتيا، فهى ليست من النوع الذى ينبش فى غطاء المظاهر: « الحقيقة ؟ لماذا ؟ أبونا يكذب علينا، فليكن، ولكن سنه تسمح له بأن يعيش حياته، أليس كذلك ؟ بماذا ستفيدنا الحقيقة ؟» وإن هى انطلقت، يمكنها أن تأخذ بمحادثها إلى مجال الفلسفة ! فلنهرب من هذه الغيوم. ولنظل على الأرض حيث تحمل ڤولكانيا اسم مونيك پلران...

وتمكنت ڤيرا من أن تعثر على اسم وعنوان السيدة، بفضل رقم هاتف «فندق لوهاڤر». بالنسبة للسن والمهنة، فقد سلّمت أمرها إلى ڤييرزون : إنها ضابطة شرطة. من الصعب أن تُصدِّق ذلك حينما ترى « الضابطة» بهذا النحول والشعر الأشقر ! إن تلك الرقيقة ذات الشعر الذهبى، تقول إن الشرطة كانت فى البداية مسألة رغبة فى هذه المهنة أو استعداد لها. ولكنها الآن سببا للمشاكل: فهذه الجميلة مُضطرة للعيش فى ثكنة – أى فى إحدى البنايات ذات الإيجار المعتدل، التى يجمعون فيها الضباط

وعـائلاتهم. لا تجرؤ على أن تستـقبل فيهـا ڤيـرا. تقـول الأغنيـةإن مـشـهـد امـرأتين متشـابكتـى الأيدى ليس به ما يصدم الأخلاق. الأخلاق، نعم، ولكن الشرطة... امرأة مع امرأة ! تَضطران إذن للذهاب إلى الفندق، ودائمًا خارج المقاطعة: تطلبان غرفة واحدة، ولكن بفراشين. يعتقدون أنهمـا صديقتان مسافرتان. أو شقيقتان: ڤيـرزون الناعمة والشاحبة تشبه ليزا بعض الشيء ، ليزا القديمة. كلا، ليستا بشقيقتين: إنهما أم وإبنة بالأحرى؛ فعشيقة ڤيرا تبدو صغيرة جداً، إنها تَكبُر چيريمى بثلاث سنوات... وحينما تفكر ڤيرا فى ڤييرزون الشقراء تقول لنفسها الصغيرة.

ولكن ما يطمئنها مع ذلك هو أن الصـغيرة جريئة، رغم هشاشـة مظهرها: إنهـا مقـاتلة فى مـهنتـهـا، وفى الحب مـجنونة، تأخـذ كل المبادرات. ولكن ذلك لا يمنع من أن تحتـاج الجَسورة إلى «أمٍ» من وقت إلى آخر... توجد فتـيات مثل هذه لا تهربن حينما يتهدل صدر « الكُبرى» بعض الشىء، ويتسع خصرها ويصبح بطنها أقل تسطحًا. تلك الفتيات تحببن المرأة، المرأة بكاملها، المرأة فى جميع حالاتها. وهذا ذوق يندر وجوده عند الفتيان ! فهُم، بعد العشرين، يهربون من «العجائز».

وكان هذا وراء عدم فهم ڤيرا شيئًا من المعلومات التى جمعتها ڤييرزون عن الحالة الاجتماعية لمونيك پيلران: سكرتيرة إدارة سابقة، غير متزوجة، مقيمة فى لوهاڤر منذ أكثر من ثلاثين عامـًا، حسنًا، ولكن أن تكون «مـولودة فى ٢٧ يوليـو ١٩٢٠» ! خمسة وثمانون عامًا ! فذلك كثير على رجل فى السابعة والسبعين تحمّل لتوه، لست سنوات طويلة ، زوجة مريضة، غلبتها المرارة، ثم أصبحت طريحة الفراش. إلاّ إذا كان قد اكتشف فى نفسه ولعًا منحرفًا بالمَعوقات : هل تُراه مثلاً قد نشر إعلانًا قصيراً فى جريدةالصياد الفرنسى، «أرمل مرح يبحث عن سيدة على مقعد متحرك لدفعها وتقديم العناية الحميمة » ؟ كلا، بالتأكيد لن ينجرف أى رجلٍ – وبالأحرى رجلا مُسنا – إلى القيام بشقْلبات بهلوانية مع عشيقة تكبُر زوجته باثنى عشر عامًا !

«خمسة وثمانون ربيعًا لهذه المونيك پيلران، هل تتصورون المشهد !». ڤيرا تتخيل نفسها وهى تحكى القصة برمتها إلى كاتيا، إنها تحدث كاتيا، تضحك معها، حتى

وهى تعرف جيداً أنها لن تقول لها شيئًا مما اكتشفته. لقد أخطأت سونيتشكا فى كل شىء ! لا بد وأنها لم ترَ بوضوح بسبب سُكرها فى هذا اليوم الذى قرأت فيه رقم هاتف ڤولكانيا على محمولها... حين أتذكر أن الشكوك ساورتنا فى أبينا المسكين ! شكّكْنا فى أنه على علاقة محرمة مع صاحبة بونسيون أنهكها المرض.

إلاّ إذا. إلاّ إذا كان لمونيك پيلران ابنة، ابنة غير شرعية تكون فى الستينات، ابنة يمكن للكابتن أن...

«اسمعى، هل يكون للسيدة پيلران ابنة ؟»

كان هذا فى إحدى عطلات نهاية الأسبوع بعيداً عن كليراك، عطلة بدون مقصات وشريط لاصق، بدون علب أو صناديق ؛ فقد كانت كاتيا مُنشغلة : مضطرة للبقاء فى باريس بسبب جثة من القرن الكبير غزت الإعلام فى عودة غير متوقعة فى القرن الواحد والعشرين.

الحبيبتان أخذتا غرفة فى لوش، مواجِهة للقصر.

قالت ڤيرا بنبرة متذمرة، وهى تضع حقيبة السفر على سريرها: « فى إمكاننا القول أننا زرنا قصور لالوار(*)!»

ردت ڤييرزون – هيا تحدثى ما شئتِ، سوف تتأسفين على لالوار يوم أن ينقلونى إلى تارب أو بريونسون !

بلاها سيرة المصائب ! أعطينى ملف پيلران...

لا داعى لذلك. إننى أحفظه عن ظهر قلب. نعم رُزِقَت السيدة پيلران بابنة غير شرعية: رائع يا مُقدِّم لوجيلاك ,لقد أصبت الهدف، وستحصل على ترقية ! ولكن هذه

(*) واحد من الأقاليم الفرنسية الـ٢٧.

الابنة غير الشرعية، واسمها آن، توفيت فى عام ١٩٧٣ ...ثلاثون عاماً فى القبر: هل لأبيكِ عشقٌ لمجامعة الموتى !

كل شىء ممكن يا حبى: إن معرفتى له محدودة جداً !

لقد ماتت الطفلة فى الثامنة عشرة على أية حال. وهذا ما يدعو ضابط شرطة جيد إلى التساؤل : هل فى الأمر حادث ؟ جريمة ؟ عيوب خِلقية ؟ لأن فى هذه الأوقات السحيقة، (ڤيرا تكره أن تتكلم ڤيرزون الجميلة عن عام ٧٣ على أنه عهود سحيقة)، نعم، حتى فى هذه الحقبة البعيدة، لم يكن الشباب يموتون مثل الذباب... انتبهى، حينما اطّلعت على البيانات، جاءنى تصوّر معين عن آن پيلران : تخيَّلت مُعاقة ذهنية – إن المتخلفين، كما كان يُطلق عليهم حينئذ، لم يكونوا يعيشون طويلاً...

إذن لم تكن حياة مونيك پيلران هنيئة للغاية. سكرتيرة فى نفس الشركة لمدة ثلاثين عامًا – صناعة الكمادات والضمادات اللاصقة. غير متزوجة. أم لطفلةٍ غير طبيعية. ومحبوسة فى لوهاڤر طيلة حياتها...

أُذكّرِكِ مع ذلك أنها لم تولد هناك، لقد جاءت من إيل إى ڤيلان...

ها ! من أى ضيعة ؟

شىء يبدأ بحرف الراء. مثل رولون. هممم... روتينوف، ها هى !

روتينوف ! إنها قريبة من سان سيرڤان !

وما معنى ذلك ؟

معناه أن أبى وُلد فى سان سارڤان، وقد توفى أهله فى سان سارڤان. لقد دُفنوا فى كونكال، وأحد أشقائه يقيم فى سان مالو، أن تكون كل هذه مصادفات أمر عجيب بعض الشىء... فلنذهب إلى لوهاڤر ! فوراً، أريد أن أتأكد...»

لقد أعادت ڤيرا ترتيب الأمتعة، وأخطرت الاستقبال وحجزت غرفة فى شارتر :

« لو أخذنا الطريق السريع فى بلوا سنصل هناك قبل منتصف الليل. وغداً نصحو فى السابعة و...

شكراً لليلة الحب الكبيرة !

الحُب يُمارس أيضًا بعد الظهر يا عزيزتى. بل إنه أفضل بعد الظهر... ومن شارتر، ننطلق إلى درو ونأخذ طريق الأربعة مسارات حتى لوڤييه، ثم طريق أ ١٣ حتى لوهاڤر : نتناول الغذاء على البحر ! عن نفسى، سآكل سرطان البحر...»

القيبرزونية تعرف أنه من غير المجدى محاولة إيقاف ڤيرا حين تنطلق فى فكرة ما: من الأسهل أن توقِف دبابة بقولك لها «لو سمحت» ! وعلام الاعتراض على أى حال ؟ إن هذا التسلط يُعجبها ؛ مثلما تُحب السفر مع ڤيرا بالسيارة، وأن تتركها تقودها ؛ أن تضع ذراعيها حول أكتاف الطيار، وأن تُشعل لها سجائرها، وتضع يدها على فخذها... لا شىء أكثر من ذلك. إنهم فى الشرطة يحترمون قواعد أمان الطرق !

تتواجدان فى اليوم التالى، عند الظهيرة، أمام البحر، عند الباب المحيطى، وأمام العقار. «ڤيبرزون» رأيها أن العقار كئيب الشكل : بالحديد المسلح للأربعينيات. لدى وصولهما، شرحت لها ڤيرا أن معمارياً شهيراً أعاد بناء المدينة التى كانت قد دُمرت فى الحرب ؛ والآن هى مُدْرجة فى قائمة التراث العالمى لليونسكو. قالت الصغيرة « إذا استمروا فى هذا سوف يضمّون إلى القائمة قطاعات السبعينيات: تعرفين هذه المساكن بنوافذ الألومينيوم والزجاج الفيميه القاتم... - لاحظى أننا، نحن، كنا نرى هذه القطاعات فى غاية الفخامة حينما كنا شباباً.» ليس هذا فى الواقع ما يصلح للقول. فليكن : عقل ڤيرا فى مكان آخر. إن العقار، حائط رمادى، يطل على ميناء: لا تفصله عن البحر سوى الصفوف الثلاثة من السيارات فى الموقف ؛ ومن بينها تعرفت فوراً على البيجو الجديدة لأبينا:

« إنه بالمنزل...

هل أنت متأكدة يا ڤيرا أنك تريدين مضايقة هذا العجوز ! لا زال الوقت مُتاحًا لنسيانه والذهاب لقضاء عطلة نهاية أسبوع هادئة فى سانت أدراس: ويمكن أن نذهب حتى إتريتا، ونشاهد الإبرة المجوفة، ونزور لوكلولوپان...

اسمعى يا قطتى الصغبرة، أنت لطيفة، ولكن...

لستُ قطتك الصغيرة، هل فهمتى ؟ ولا أرنبكِ الصغير. ولا حتى كَنزكِ الصغير. لا شيء صغير.

يا صديقتى العجوز إذن ؟ اسمعى يا صديقتى العجوز ، إننى فى حاجة لأن أعرف. إن الحقيقة حيوية بالنسبة لى.

فهمتُ تمام الفهم. وأتصور أنك تعتمدين على شُرطيتكِ الصغيرة لكى تُجْرِى التحقيق،بمن أبدأ إذن ؟ بحارسة البيت، مثلما فى المسلسلات التليڤزيونية ؟»

كانت صناديق البريد بمدخل البيت قد أفْضت بمعلوماتها : وَاحدة من البطاقات اللاصقة تحمل اسمًا مزدوجًا «پيلران-لوجيلاك (الطابق الرابع)، وكانت مُصْفرة والكتابة باهتة: السُكنى المشتركة لم تبدأ بالأمس... وفى المقابل، بطاقة لاصقة أخرى حديثة، على صندوق آخر، كُتب عليها «السيد يان لوجيلاك (الطابق الأرضى).» إنها ذريعة جيدة لسؤال الحارسة. الڤييرزونية ادعت أنها ابنة أخ صغيرة تريد إعادة الاتصال بعمها العجوز. الطابق الثالث أم الأرضى ؟

«الشالش.»

وسرعان ما أغلقت الپرتغالية بابها، إنها أقل ثرثرة من حارسات دور السينما. ولزِم دق الجرس مجدداً، والإلحاح، وادِّعاء الحيرة:

« إن الأستوديو الصغير فى الأسفل هو الذى استأجره عمك مؤخرا. من أجل عمله...

عمى العزيز موجود فى العمل على الدوام !

إنه ليس من النوع الذى يستمتع بالتقاعد، أبداً ! ولكنه توقف على الأقل بالنسبة لأفريقيا : فالعمل الإنسانى فى سنه، ها ؟ ثم إن عمتك المسكينة، بدأت معنوياتها تتأثر من كثرة البقاء وحيدة...»

إن ڤييرزون الشقراء التى لم تُربكها هذه المعلومات بدرجة ڤيرا، فحصت بعين خبيرة هيكل المبنى:

«لديهما فى الطابق الثالث شقة من ثلاث غرف ومعيشة... هل تريدين معرفة منذ متى ؟ بالتحديد ؟

نعم. هل نسأل صاحب المخبز ؟

إن الفرّان ليس له قيمة فى المدن. فلنمر بالأحرى على الكوائين... ولكن بعد الغذاء يا حبى ! فأنا أتضوّر جوعًا ! أعتقد أنك كنت قد وعدتينا بسرطان البحر !... أوه يا ڤيرا ! لا تتحركى ! لا تستديرى ! يوجد شخص بجانب البيچو الخاصة بأبيك. رجل شعره أبيض، يُخرج المفاتيح... تبًا، إنه أبوك بالتأكيد !

اختبئى، أنا ذاهبة لهناك. نلتقى فى بوفيه محطة القطر. ارحلى !»

يان لوجيلاك يدير المُحَرِّك. ڤيرا تركض وتنقر على النافذة:

صباح الخير يا أبى.

ما هذا...»

تبدو عليه الدهشة ولكنه غير مُرتبك. يظل رابط الجأش: صخرة فى الجانب الأيسر من السفينة ! الكل ينتقل إلى الجانب الأيمن، وحذار من الذعر. وها هو الذى يبادر بالسؤال :

« ماذا تفعلين هنا يا كبيرتى ؟»

هى التى تشعر بالحرج:

« كنت... فى إتيرتا، عند بعض الأصدقاء... أنا، هممم، إن المكان قريب جداً... إذن، طالما أننى هنا، هل يمكننى الزيارة ؟

كلا مع الأسف. فالأشغال جارية: بعض التأخير فى تسليم الأشياء، ومشاكل فى السباكة... ولكننى سوف أدعوكن أنتن الأربعة فى الاحتفال بالافتتاح. هذا وعد منى.»

هل لا زال آملاً فى إمكانه خداعها ؟ فى إمكانه أن يُبْهِرها مثلما كان الحال حينما كانت فى العاشرة، الأب الغريب والخفى، من نوعية يهوذا، ولكن مع قلة الكلام ؟ ڤيرا، ذات الرابعة والخمسين عامًا تدور حول السيارة وتفتح بتصميم باب الراكب وتجلس فى المقعد:

« لا تقل لى أنك كنت تنوى جديًا فى وضع سرير فى شقتك ذات الغرفة الواحدة ؟ لقد ماتت أمى : وحان الوقت لمواجهة الأشياء. هيا انطلق بالسيارة: سنجد حتمًا مطعمًا فى الجوار... أعرف أن مدام پيلران فى انتظارك. سوف تحدثها من المطعم لطمأنتها : قل لها أنه شخص ثقيل فرض نفسه عليك، كنت تقطع معه فى الماضى إحدى الرحلات بين الموانىء على ناقلة الموز... أثق فى قدراتك فيما يخص خصوبة الخيال... هل تستطيع مدام پيلران إعداد غذاءها بمفردها ؟ إنها ليست بمُقْعدة على الأقل ؟ »

رفع أكتافه :

« كلا بالتأكيد ! أشكرك على أية حال لقلقك على صحتها...»

تجرعا وحدهما فى ثلاثة أرباع الساعة زجاجة النبيذ التى كان الأب قد طلبها. هو الذى اختار الشراب والحانة. حانة ميتر كانتير مثل تلك الموجودة فى ليموج أو ڤييرزون. قال موضحًا: «إننى أتفادى الأكمنة التى تُنصب للسائحين !»

ڤيرا دخلت فى صلب الموضوع مع تقديم باقة الجمبرى (الطازج للغاية هنا والذى أوصى به الباشا): «هل بدأت حكايتك مع مدام پيلران قبل وفاة أمى بوقت طويل ؟ –

نعم. – قبل مرضها ؟ – نعم. – منذ متى ؟ ثمانى سنوات ؟ عشر ؟» تبدو عليه الصدمة ؛ صدمة أن يُفترض أن متقاعداً فى مثل صلابته لا يمكنه إغواء سوى امرأة مُسنّة ! صاح بنبرة فخر « أكثر من عشر سنوات. – عشرين ؟ – أكثر»

إنه يبتسم الآن. لا أثر للارتباك أو الندم. يبدو عليه الرضاء بالأحرى. أما ڤيرا فتشعر وكأنها تشارك فى هذه المسابقة المتلفزة عن تخمين السعر الصحيح لشيء ما: هل «أكثر»، أم «أقل»...

« ثلاثون عامًا إذن؟ – أكثر». خفض عينيه بالكاد ! قالتها بلا لف ولا دوران « خمسون ؟ – أكثر قليلاً ».

أنفاسها مقطوعة : أكثر من خمسين ! إذن كان هذا قبل الحمل فى كاتيا، كان هذا قبل الزواج ؟

القبطان سعيد للغاية، يشرح، ويبرر، ويستفيض، إنه فى قمة الانشراح. لقد أخذ الكلمة ولا ينوى التنازل عنها – تعويض خمسين عاماً من الصمت: مونيك، يعرفها منذ الطفولة، كانت رفيقة الفصل لأكبر إخوته، واحد من هؤلاء الأعمام البريتانيين الذين لم ترَهُم البنات على الإطلاق« لأن سان سيرڤان بعيدة عن جبل الليموزان، كما أن أمك لم تكن بالمِضيافة كثيراً، حيال عائلتى على الأقل. لم تكن تدعوهم للمجيء. كان ذلك مستحيلاً فى البداية على العموم: ففى حانة صوليار، كنا نتكوّم بالفعل سبعة فى غرفتين ! وكنا من ناحيتى، ثمانية شقيقات وأشقاء، مثل كاثوليك الغرب : ومع أولجا، الابنة الوحيدة، وجَدُّكِ الذى لم يكن بكاثوليكى عتيد، كانت العوامل المشتركة قليلة بالتأكيد !» كان يان لوجيلاك قد دخل فى علاقة مع مونيك وهو فى السابعة عشرة. علاقة عابرة. ثم خُطبت مونيك التى كانت تخشى من العنوسة لواحد آخر. وفقد كل منهما أثر الآخر. وفى يوليو ١٩٥٠، فى حفل المحافظة : كانت أولجا. « وكما قد يقول أولادك، انجذَبتُ بقوة إليها... يا إلهى، ما هذا الجمال ! ما هذه الشخصية القوية، هذه الفاجرة ! كانت كالجواد المنطلق... كنتُ عاشقاً مجنوناً بها حين وُلِدت كاتيا! وما زلت

مفتونًا حين تبِعتِها أنت سريعًا، هاا يا دُبتى الصغيرة الرعناء. هل تذكرين أننى كنت أسميك بـ «الدبة الصغيرة الرعناء ! بذراعيك البضين وساقى لاعب الكرة، وجسمك القوى، كنت كالشاب فعلاً... كان عمرك عامًا أو اثنين حين عثُرت على مونيك مصادفة وأنا ذاهب لزيارة عائلتى فى سان سرڤان : لم تكن قد تزوجت فى نهاية الأمر وكانت تعمل سكرتيرة فى پارامى. وأمضينا سويًا ثلاث ليالٍ. كانت تقيم فى سكن صغير بداخل المدينة، فوق الأسوار، فى مواجهة الخليج الكبير. كانت الأبواب - النوافذ لشقتها فى الطابق الرابع تطل على البحر... وفى طريق عودتى بعد كل مهمة - سواء فى دانكرك، أو بوردو أو نانت - اعتادت المرور على سان مالو قبل العودة إلى المنزل. بالنسبة لتواريخ الرُسُوْ كنت أُبْقى الأمور غير واضحة بالنسبة لأمك ؛ كان ذلك سهلاً : فقد اعتقدَت دائمًا أن سفن الشحن تعمل مثل المراكب القلاعية، وأن وصولها للشاطئ يتوقف على سرعة الرياح... هذه هى الحقيقة، لا الروس ولا أهل الليموزان ببحّارة : ففيما يتصل بالمحيط، لم ير ميشا ما هو أكثر اتساعًا من الڤولجا ! أما بالنسبة لأمك، فلم أفلح أبدًا فى أن أجعلها تتعلم العوم... هؤلاء الناس يحتاجون للإحساس باليابسة تحت أقدامهم ! باختصار، لاحظْتُ شيئًا فشيئًا أن أمك رائعة بلا شك، ولكنها صعبة العشرة. بداية، لقد تزوجْتُ بامرأة متزوجة، تصوَّرى : نعم، متزوجة بالليموزان، متزوجة بميشا... وسرعان ما ترنّح زواجنا... باختصار، لم يكن بيننا ما هو مشترك... - رغم بناتٍ أربع... كان بينكما أربع بنات مشتركات ! - أووه، أربعة... هذا كلام متسرع يا قطتى ! لم يكن من اللائق أن أسبِّب مشكلات بالنسبة لليزا، مراعاة للمساحة التى كانت تشغلها مونيك فى حياتى : ولذلك فقدأخذت المسائل على عاتقى»، إننى أتحمل التُهم... ولكن هذا المولود الذى جاء بعد ثمانية أشهر من الحمل - بل وسبعة أشهر ونصف حسب كلام أمك - والذى كان يزِن بالفعل ثلاثة كيلوجرامات، بدا لى جميلاً أكثر من اللازم لكى يكون شريفًا... فلو كانت أُختُك قد وُلِدت فى موعدها، على عكس ما زعمته لى أمك - وحسبما كان يَشى به شكلها -، لكنت أنا يا عزيزتى فى وقت زرع بذرتها ،فى عرض المحيط فى اتجاهنا إلى الأرجنتين، مع شحنة من النحاس حمَّلناها فى شيلى ! إن أمك والداية، صديقتها، ظنتا أننى أحمق ! ولكنى، من

جانب آخر، لم أكن ملاكًا، وبذا فقد لزمت الصمت. اليوم، يمكن أن نعرف بالطبع مع تحليل الحامض النووى »...

هل هو تهديد ؟ بل ولا حتى ذلك، كان قد طلب زجاجة نبيذ أخرى لاحتسائها مع طبق اليوم، سمك ومحارات القديسَيْن، مع خضرواته الصغيرة. السمك طازج جداً هو أيضًا. إن القبطان، الذى تميَّز دائمًا بشهية كبيرة، يعرف الأماكن الجيدة. ولكن ڤيرا لم تكن تحتفى بالمأدبة، فقد ابتلعت الجمبرى الصغير والكبير لأن الاعترافات التى رافقتها كانت مجرد مُقَبِّلات. أما سمك القديسَيْن، هل كان ذلك كثيراً على فتاة من هضبة لاكروز ؟ ربما. ولكن ما هو مؤكد هو صعوبة هضم الأسرار المُفْضَى بها، الأسرار الثقيلة للغاية: كيف يمكن بعد ذلك الاحتفاظ «بمكان صغير» فى المعدة من أجل فطيرة الحلاوة الساخنة !

تحدث الأب كثيراً. ليس لإخبار ابنته بقدر ما ليزيح عن نفسه ويتحرر من خمسين عامًا من الأكاذيب. لكى يتحرر أم يتباهى؛ لا تتصوروا أنه ينقصه السحر؛ فآخرون يعتبرونه لا زال شاباً بالنسبة لسنه ! إن الرجل بارع فى المواجهة ! لا يشذُّ عن البحارة الذين يتباهون بالفوز بـ «كل اللائى كنت أرغب فيهن»...

فلنُلَخِّص: فى ١٩٥٦، استقرت مونيك فى لوهاڤر. ويان لوجيلاك أيضًا. وحينما ضمّه سكن واحد مع مدام پيلران - المُلصقيْن على صندوق البريد -، كان يان متزوجًا فى الليموزان منذ ست سنوات، وكبرى بناته فى الخامسة وصغراهن ذات ثمانية عشر شهرًا. وماذا عن آن، البنت التى ستُتوَفَّى ؟ كان عمرها سنة واحدة بالكاد. يبدو أن مولدها هو الذى جمَّع العاشقَيْن: مونيك، البريتانية، تلك الأم غير المتزوجة تزوجت النورماندى والضمادة اللاصقة. أما يان، الأب الخائن، فقد اختار لوهاڤر، كمَرْسى يلوذ به.

إن ڤيرا مقتنعة أن الأمل حداه مرة أخرى فى الصَبى، ولكنه حصل على بنْت أخرى، بل ومريضة فوق ذلك : لقد نال ما يستحق ! ولكنها لم تُوجِّه أى أسئلة بشأن

آن، بل ولم تُلمِّح لها : ولا الأب أيضًا : الجميع يتحاشى هذه الصغيرة ؛ فمن جهة لوجيلاك، الموضوع مؤلم، وكذلك من جهة بيلران، تبدو أيضًا المسألة حساسة. فلنخوض إذن فى عرض البحر.

الأب يفضل الاستفاضة فيما يخص رغبته فى العدل: إن الاتفاقية الجماعية، عند أهل البحر، تميل لصالح أفراد الأطقم المُبْحرة: فعن كل شهر على ظهر السفينة، يقضون خمسة عشر يومًا على الأرض. كنت أُبحر ثمانية أشهر فى العام، وأحصل إذا على أربعة أشهر: شهرين مع مونيك وآخرين مع أمك. كانت مونيك تعرف منذ البداية، لم أخدعها أبدًا... أمك ؟ لقد اعتَقَدَت دائمًا أن البحرية لا تمنحنى سوى ثمانية أسابيع من العطلة ! لم تكن فضولية. أقصِد أنها لم يكن لديها فضول فيما يخص حياتى »...

من السهل الكذب حين يكون من الصعب التحقق مما يُقال، وكان من الصعب بمكان التحقق مما يقوله الأب: كيف كان يمكن لأمها أن تفرِّق بين الأكاذيب والحقيقة ؟ ولكن الحقيقة أيضًا أنها لم تكن تهتم لا بالبلاد البعيدة، ولا بالكتب الصعبة ولا بالنفوس المعقدة.

وفجأة، تعقدت الحياة الخاصة للأب فى عام ١٩٦٢ (هل تدهوْرَت حالة آن بيلران ؟)، لأن حياته المهنية أصبحت أكثر بساطة : فلأنه لم يكن قد أصبح قبطانًا (نعم، فَرجُلنا الرحّال لم يصبح باشا أبداً وأنهى حياته فى البحرية كمساعد)، قام بترشيح نفسه لعمل مكتبى فى مقر الشركة فى لوهافر. وهكذا، مثله مثل كل العاملين على الأرض، لم يعد يحقٌّ له إلاّ ثلاثة أسابيع من العطلة السنوية. كان يمكنه التواجد مع مونيك أحد عشر شهراً من السنة. وثلاثة أسابيع فقط مع أولجا – سرعان ما أصبحت، بفضل الطفرة فى الحقوق الاجتماعية، أربعة ثم خمسة. ولكنه كان يحتاج للمزيد للمحافظة على المظاهر. فكان يأخذ، على حسابه، عطلتين طويلتين لنهاية الأسبوع.

كان يصل إلى ليموچ مساء الجمعة ويبقى فى كليراك حتى صباح الثلاثاء، ثم يرحل بسيارته بحجة مقابلة أصدقاء له فى بورچ، أو الصيد ليومين فى سولونيا. وكان يترك سيارته فى المحطة، ويستقل القطار إلى لوهافر، ثم يتصل هاتفيًا بكليراك ويعلن أنه سيتأخر فى العودة عما كان متوقعًا – «مشكلة فى محرك السيارة»– ثم يظهر مجدداً صباح السبت، حاملاً الكرواسون الساخن، وأرنبًا باردا، ويختفى مجدداً مساء الثلاثاء، ولا يعود فى ظهيرة الأربعاء رغم انتظاره على الغذاء، ويتصل فى الثانية والنصف متذرعًا بأمر طارئ لدى البحارة القدامى فى بيرى، أو مُبيِّضى البحرية بإقليم الأوڤارنى، ويَعدْ بالعودة يوم الخميس، ويعود صباح الجمعة حاملاً ثلاث قنينات من النبيذ ورسمًا بالجواش المِخضر، ويصطحب زوجته إلى المطعم، ويطالع فى جلسة مهيبة دفاتر درجات «اليتيمات»، وتقارير حالتهن الصحية، ويزِنْ الأجساد الأربعة الصغيرة ويقيس طولها، ويُشذّب سياج الشجيرات بالحديقة، ويقضى يوم السبت عند أصهاره، ويحكى قصة رأس الهورن، على مائدة العشاء، وجزيرة الفصح على مائدة الإفطار، ويزور أبناء العمومة فى مزارع الهضبة يوم الأحد فى ساعات الظهيرة، ثم فى مساء الأحد (أخيرا !)، تصحبه العائلة بالكامل مُودِّعة إلى محطة ليموچ، متأثرين لرحيله ولكن مقتنعين بأنهم رأوه لمدة خمسة عشر يوماً.

تقول ڤيرا « كان هذا مُنهِكًا ! ألم يكن من الأبسط الطلاق ؟

لست من أنصار الطلاق: إن تأثيره كارثى على الأطفال.

ها!. هل تذكر أنى طُلِّقْتُ مرتين ؟

إننى لا أُدينُك يا بنيتى ».

بعد الكعكة بالتفاح طلب قدحين من القهوة وتكلم عن ميشا. فى الواقع، هو يُقِر بأن عدم طلاقه ربما يكون بسبب حماه أكثر من الأطفال: ميشا كان الأب الذى وَدّ لو أنه كان أباه – فأبوه الصياد البحرى بسان سرڤان، لم يكن يحظى بإعجاب أحدٍ. وتتذكر ڤيرا بالفعل ما كانت تقوله أمها: «إن جَدِّك لأبيك سكير...». ولم يشأ الأب

أن يفقد احترام الروسى. وبسبب هذا جاءت قصص رأس الهورن والأمواج العاتية وترنح المركب واهتزازها وتمايلها، ورسائل الشَفْرة والفيلم الذى أنقذ فيه القبطان سفينته بفضل أجهزة البث التى ابتدعها هواة... لا وجود لحافظات ملفات معلقة، وبصّامات وأوراق استنسل ولا لعشيقة ولا لطلاق. إنها أشياء لا تتمشى مع الصورة المرجوة.

وفى ١٩٦٧، حينما غيَّر يان مهنته مرة أخرى وترك بناء السفن وتحوّل إلى الضمادات اللاصقة – حيث كانت مونيك تترعرع منذ عشر سنوات – حين تشارك الاثنان ليس فقط الأمسيات وإنما أيضًا ساعات العمل، لم يتسرب شيئًا إلى كليراك عن هذا النقل الجديد. كان الأب يواصل المجىء إلى الليموزان مرتين أو ثلاثًا فى العام، قادمًا من طنجة أو هونولولو.

ڤيرا تستقبل بدون حركة هذه المراجعة للتاريخ؛ تحاول فى عُجالة، وهى تحتسى قهوتها فى جرعات صغيرة، أن تعيد النظام فى ماضيها ؛ فرغم عدم وضوحه، بدا لها فجأة أن مستقبلها يمكن التنبؤ به أكثر كثيرًا من ذكرياتها. تحاول بجنون أن تعيد ترتيب القصة : فلنأخذ مثلاً اللحظة التى التحق بها أبوها بشركة سانيپلاست – للشرائط المطاطة ومُخفِّضة الحساسية–، كانت هى فى الخامسة عشرة، ولكن سونيا كانت فى الثالثة عشرة وليزا لم تكن قد بلغت حتى الثانية عشرة. وفى هذه السن، كانت «الصغيرات» لا زلن يشعرن بالفخر لتلقى بطاقات أبيهن من آخر العالم («مع حبى، لوجيلاك»): قالت ڤيرا « البطاقات البريدية، كيف كنت تتصرف لإرسال بطاقاتنا البريدية ؟

ابتسامة مُستمتعة من الرجل المواجه لها: « كنت قد جَمعْت منها مخزونًا قبل أن أتوقف عن الإبحار. رتّبْتُ لما سيكون خلال جميع الموانئ الأخيرة التى توقفت فيها. لم يكن من الصعب بعدها أن أجد بين الأطقم المسافرة شابًا لإرسالها بالبريد: « هل ستعبر الكاب ؟ ضع لى هذه فى مكتب البريد الرئيسى بداكار».

ڤيرا ظلّت سارحة. « لهذا السبب إذن كنا نتلقى فى النهاية نفس الآثار دائمًا ! نوتر دام دو لاجارد المُصوّرة من الميناء القديم، تمثال الحرية المُصوّر من على متن الباخرة نورماندى... كنتَ قد أتيتَ على مخزونك ورُحتُ تبحث في قاع العُلب... ؟

اعترف بأن الاتهام صحيح...» يبتسم.

وتمضى فى الاستجواب. تودّ أن تعرف كيف لم تنتبه أمها من جانبها لأى شيء : « فمُرَتّبِك مثلاً... لا بد وأنها لاحظت أن التحويلات قادمة من جهة عمل أخرى ؟ – لقد تسلمْتُ دائمًا مرتبى على حسابى في المصرف الترانساتلانتيك. وأنا الذى كنت أُحوّل النقود إلى صندوق توفير أمك. ثم عليك أن تثقى فى أننى لا أترك أبدًا أوراق حسابى متناثرة هنا وهناك، ولا كعوب الشيكات »...

وتتذكر ڤيرا فعلاً أن أباها لم يستخدم أبدًا البطاقة الذكية ونادرًا ما كان يلجأ لدفتر شيكاته، فقد كان يدفع كل شيء نقدًا، وكانت أمها تمزح فى هذا الخصوص : « ها هو رجل يدير ناقلات عملاقة، برادارات غاية فى التطور، وليس بقادر حتى على أن يُحــرِّرَ شيكًا !». نعم، ڤيرا سمعت هذا الكلام وهى طفلة، وفى وقت لاحق، لم تشرحها ڤيرا الخبيرة الحسابية لڤيرا الطفلة. مع أن خبراء المحاسبة يعلمون أن الرجال غير الأوفياء يمْحون آثارهم من خلفهم، مثلهم مثل الآباء الروحيين للمافيا: لا استخدام لبطاقات مصرفية ولا دفاتر شيكات على الإطلاق – الأوراق المالية لا غير... البنكنوت فقط.

حينما خرجا من الحانة، كانت الدنيا تمطر، وأخذ الأب ابنته تحت مظلته. يكاد يكون حنونًا. فى السيارة، لم يعد لديهما الكثير ليقوله أحدهما للآخر. فى الماضى، كان الصوت الآلى لمساحات الزجاج يمكن أن يملأ فراغ الصمت؛ ولكن اليوم، فى هذه البيچو الجديدة، حتى المَسّاحات بقيت صامتة. تنهدت ڤيرا لإحداث بعض الصوت.

« هل أنت متعبة يا صغيرتىَ ؟

بالتأكيد. فالطريق طويل من سان ليونار إلى هنا. لم أنم كثيراً.

ولكنك قوية، أليس كذلك ؟ أقوى بناتي. في الماضي، كنت أسميك الصغرى البشوشة : كنتِ دائمًا على استعداد للضحك... هل تذكرين مسابقات تقطيب قسمات الوجه في تعبيرات مضحكة يا دُبّتي الصغيرة ؟ »

بقي أن يقول لي «بابيشو أسْمِيني الضحكة الصغيرة» ! إنه ليس شريراً. ڤيرا تعرف جيداً أن أباها ليس بشرير ! لقد تحمل عبئًا مجنونًا لكي ينقذ كل شيء، يحتفظ بكل شيء. نعم، مجنون هي الكلمة المناسبة. عاش حياة مجنون ولم ينجح في نهاية الأمر إلاّ في إتعاس امرأتين... تتساءل إذا كانت أمها لم تدرك بالفعل شيئًا من هذه الحياة المخادعة. كيف أمكن لامرأة قوية ولمّاحة مثلها أن تتعامى إلى هذه الدرجة ؟ ألم تحاول أبداً أن تذهب إلى ما وراء الديكور ؟ ڤيرا تتذكر تلك الليلة، وكانت لا تزال صغيرة جداً، حين بدا لها أنها سمعت أمها تبكي... ولكن يان لوجيلاك أعلن بجدية أثناء تناول الحلوى (وكانا قد أوشكا على الانتهاء من زجاجة النبيذ الثانية): « إن أمك لم تُعانِ أبدًا من الوضع. لم أكن لأتحمل ذلك. في الواقع، كان أهم ما يعنيها هو أطفالها. وطالما كُنْتُن لديها... أميراتها !» أميرات ؟ لا : رهائن بالأحرى. فلكي يحصل على حريته، ترك يان لوجيلاك بناته كرُهنٍ. أسيرات لأمهن ذاتها، كما كانت الأم سجينة لبناتها. عِشْ مُحْكم الإغلاق... وطِرْ أيها العصفور!

حينما أنزل ڤيرا عند هذا المقهى في محطة القطر، والذي ادَّعت أنها ستلتقي فيه بشلة من الأصدقاء (« بلى يا دبدوبتي، سأصطحبك حتى هناك، لا أريد أن تبتلّي ! »، قال الأب :

قبل أن نفترق أودّ أن أعترف لك بأنني قلق بشأن سونيا. يبدو لي أنها تسرف في الشراب حاليًا...

- أبدا !... إنها مثل الجَمل لا تشعر بالظمأ...

ثم عدم الاستقرار في العمل هذا... ينبغي أن تعتنوا بها.

لا تقلق على سونيا. ولا على ليزا أو كاتيا أو أنا. إننا نتابع كل شيء... فيما بيننا. مثلما سبق. سوف ترى يا أبى، كل شيء سيكون على ما يرام. مثلما فى السابق. اتركنا. مثلما مضى».

وفى السرير، مساءً، ولأن حزن النساء مُحبٌّ للثرثرة، فقد حكت ڤيرا لڤييرزون الشقراء أهمّ ما عرفته. مثل الشقيقة. إنها الوحيدة التى يمكنها الحديث معها عما عرفته اليوم. وتساءلتا سويا عما (أمْكَنَ) للأم أو ما (كان يُمْكنها) أن تُخمِّنَهُ: « لقد كان أبى طيبًا ومتواجدًا نسبيًا طوال سنوات المرض هذه أو العمل الإنسانى فى أفريقيا، وهى الرواية التى تم إعدادها بعناية من أجل جيرانه فى لوهاڤر. لابد وأن مونيك بيلران هى التى كان الوقت يطول عليها ! فقد كان قد قلَبَ الحِصَص: أحد عشر شهرًا للشرعية وواحد فقط للسرية... ولكن العجيب أن الأم كانت بغيضة معه. لا تقدير البتة. كانت تُعنِّفُه بدون توقف. أما هو، الذى كان متسلطًا معنا على الدوام، فقد كان وديعًا، ومستسلمًا أمامها فى الفترات الأخيرة. فكانت تزيد من عدوانيتها. كم كانت بغيضة، صدقينى ! بل إنها فى أحد الأيام، وأمام سونيا، صاحت فيه : «لقد رأيتُك بما يكفى». بلى، قالت له أنها لم تعد تفتح عينيها لأنها « رأته بما يكفى». كانت تريده أن يدفع ثمن شيئًا، ولكن ماذا ؟ خيبات أمل مُبْهمة – خمسين عامًا من الزواج، بلى... أم شيئًا أكثر تحديدًا، شيئًا أفسد حياتها ؟ لا أعلم، لا أعلم ماذا عَرِفَت ».

وفجأة فهِمَت ڤيرا أن أمها كانت على علم ؛ منذ وقت طويل، وربما منذ الأزل. والدليل ؟ بالتأكيد هو بقاؤها ! غضبِها، مدة احتضارها ! فإذا كانت لا تريد الموت، وتُحبِط كافة التكهنات، وتتمسك بالحياة بكل ما أوتيت من قوة، تتشبث وتغرس نفسها، كان كل ذلك لكى لا تترك المكان – كل المكان – «للأخرى ».

(٢٤)

الأحد الأخير في كليراك، في منزل أمنا. قطع الأثاث رحلت منذ وقت طويل. وكذلك اللوحات، والسجاد، والساموڤار أيضًا، وأواني الطهي. الملابس أعطيناها للصليب الأحمر، حتى سُترة السبعينيات القصيرة المُحلاّة «بذيول فراء المنك».فلم يكن لأبي في أوْج حياته العملية القُدرة على أن يهدى زوجته مترًا مربعًا من فراء المنك، فاكتفت أمي بمجموعة من الذيول... كانت سونيا تأمل أن أستطيع بيع هذا الخليط البيج لأحد تجار الفراء في باريس:

« بعض من النقود شيء مُرحّب به دائمًا.

ولكن يا بنيتي المسكينة، لم يعد أحد يرتدي الفراء ! فيما عدا بعض بُلهاء أنصار البيئة الذين يرسل إليهم الصينيون فراء الكلاب ويُقْسمون أنه صناعي ! انظري، أنا شخصيًا، طالما أن السلْخ واحد، أُفضّل أن نعود إلى المنك : فالكلاب ذكية، والخراف جميلة المنظر، أما حيوان المنك ! إنه غبي، وشرير، ولا يؤكل فوق ذلك ! ما علينا... على أية حال ستغضب ليزا إن تفاوضْتُ مع تاجر فراء : فهي تناضل من أجل صغار عجول البحر...

واختتمت ڤيرا بالقول: « لقد كانت دباغة ذيول المنك تلك سيئة: لا أعلم أين اشتراها الباشا.ولكن رائحتها كانت كريهة. لم تستطع أمي أبدًا أن ترتدي سُترتها، فقد كانت رائحتها ثقيلة...

ورحلت ذيول المنك إلى الصليب الأحمر، مع بلوزات البوليَستر وشيلان الكشمير غير الأصلي.

ننتهى من تفريغ القبو - خمسة أرفف من البرطمانات الزجاجية. برطمانات فارغة. تنتظر... برطمانات كبيرة للقهوة سريعة التحضير أو الخوخ بالعصير؛ وبرطمانات متوسطة حَوَتْ قلوب النخيل من ماركة بوندويال أو الأسپاراجوس المقشّر؛ وبرطمانات صغيرة من مايونيز بينيديكتا. برطمانات فارغة، محفوظة بعناية، كانت أمى تعيد تعبئتها : لم تأتِ أبدًا إلى بيوتنا إلاّ وهى تحمل سبتًا كبيرًا أو كيس تموين ضخم كانت تخرج منه (برطمانًا صغيرا)، « بقايا ديك بالنبيذ، يمكن أن تتناوليه فى الغذاء غدًا طالما ستكونين بمفردك»، و (برطمانًا متوسطا) « كومبوت نبات الراوند الذى قطّعت معه المشمش، سوف ترين، إن طعمه رائع»، « جبن أبيض طبيعى، مصنوع من اللبن الطبيعي، إن زوجك يعشق ذلك»، « صلصة الطماطم، ضعيها على مُعجّنات صغارك»، وأخيرًا (برطمانًا كبيرا جدًا) « حساء شحم الخنزير» أو « شوربة القرع، ضعيها فى البراد».

ومع ترتيب البرطمانات المملوءة في البوفيه أو البراد، كانت تحلُّ محلها الفارغة التي كانت قد «حَفِظتها» عندنا : « الأهم هو ألا تُلْقي ببرطماناتي : اغسليها ولا تنسى إعادتها إليْ، فأنا فى حاجة إليها - بالطبع، مع أربع بنات وثمانية أحفاد !»

كانت مُرضِعة أبدية، لا تؤمن إلاّ بالأغذية الطبيعية الإنسان لا يحيا بالخبز فقط - لو كانت قد قرأت هذه العبارة (ولكنها لم تكن تقرأ) لضحكت كثيرًا ! « الإنسان لا يحيا بالخبز فقط ؟ بالتأكيد، فالكعك ضرورى له ! فى المقطف الضخم الذى كانت تنقله من عندها إلينا، كان يوجد دائمًا، أسفل البرطمانات، شطيرة بالزبد، وكيك بالزبادى، وفطيرة على الطريقة المنزلية وكعكة بالليمون. بل وأحيانًا كان هناك عجين الرقائق الجاهز للاستخدام، موضوعًا فى صحن السلاطة المغطى بفوطة: « ستكون مفاجأة طيبة لأبنائك حينما يعودون من رياضتهم...» وكانت تضحك قائلة: « لا تقولى لأبيك أننى أنقل عجين الرقائق فى صندوق سيارته !»

وقد ألقينا فى حاويات عُمودية كليراك، المخصصة للزجاج، برطمانات القهوة ماكسويل واحداً بعد الآخر، وغيرها الخاصة بمربى بون مامون وصلصة الطماطم پيانزانى...

وفى الأسفل، فى القبو، لم يعد هناك أى شىء ينتظر أمى... ولم نعد ننتظر منها شيئاً بعد الآن...

لم يبق هنا وهناك، فى الأركان المعتمة بالمنزل، إلا «الركام المبعثر»: «مَمْسحات قُصّت فى الملاءات الكتان، وقطع الفُوَط الصوفية التى جفّت من دهان الشمع، أجزاء صغيرة من الشموع، بقايا قصيرة من الدوبار،المشمّعات القديمة اللاصقة، أصابع أحمر الشفاه المستعملة، وعلب البودرة التى انطفأت لمعتها الذهبية...

وأنتهِى أنا و«توأمتى» من إفراغ حقائب اليد القديمة والأكياس البراقة. ثم ننتقل والحزن يقبض قلوبنا إلى قُدُس الأقداس: خزين الحلى غير الثمينة الذى تركناه للنهاية. لقد احتفظت أمي، فى علب الأحذية، بكافة الحلى من البلاستيك، والنحاس، والزجاج، والقواقع والخشب والماس الصناعى التى ارتدتها – منذ الخمسينيات ! متحف حقيقى للموضة !

« خسارة أن نُلقى بهذا ! كان يمكن أن يَصلُح لتأريخ تطور الملابس...

هل عندك مكان فى الطاحونة ؟

كلا. ولكن ليزا ...

لهذا السبب سوف يباركنا ويليام حين يعلم أننا تخلصنا من كل هذا الخرز فى غياب زوجته !»

ورغم ذلك، لا يطاوعنا قلبنا على أن نُفرغ محتوى العلب فى صندوق القمامة مباشرة. إننا نفحص واحداً بعد الآخر القلادات، والدبابيس المزخرفة والغوايش: «أووه، انظرى لهذه بالدلايات، انظرى لأحجار التوپاز على الطراز الهندى: الشاهد

الأمثل على حقبة الهيبيز(*) ! وهذا القرط الرباعى الأضلاع، الأبيض فى أسود، أليس شبيهًا بموديلات المصمم كوريچ ؟ وهذا الآخر على شكل الدبل الكبيرة، كانت قد ارتدته مع ملابس الغجرية ذاك المساء لكى تُسَرِّى عنا، هل تذكرين ؟»

وأردْتُ إقناع ڤيرا بأن تحتفظ لنفسها باثنين أو ثلاثة أقراط من طراز الفن الشعبى، وخاتما «جاء من بعيد» لا مثيل له، (كانوا يسمونه أيامها «أجنبى») ودلاية من الجلد والصلب تزن كيلو جرامًا ونصف:

«أنتِ يمكنك ارتداؤها. أُقسم لك : إن غرابتها تجعلها مسايرة لجميع الموضات ! لستِ من نوع العجائز الكئيبات، لقد احتفظتِ بنحافتك الشديدة، يُمكِنُكِ !

أنت تمزحين... لن أجرؤ أبدًا، لن تواتنى الشجاعة...

بلى ! إن «ڤيرزونك» سوف يُعجب بها. و«شاتورو» أيضًا.

ابتسمت.

«لم يعد هناك إلاّ «ڤيرزون» فقط...

هل بدأت فى الاستقرار ؟

يجوز أن ننظر للمسألة على هذا النحو.

كانت أمى تقول إن فى وسعك أن تفعلى كل ما يحلو لك: انظرى كم هى جميلة هذه الدلاية !

كلا، لن أجرؤ على ذلك. خاصة وأنا فى الرابعة والخمسين...

(*) ظاهرة اجتماعية شبابية نشأت فى الولايات المتحدة فى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين ثم انتشرت فى العالم الغربى بأسره. وكانت تناهض القيم الرأسمالية وتنادى بالحرية والمساواة والسلام. وبلغت أوجها مع ظهور فريق البيتلز (الخنافس.)

كانت أمى فى الرابعة والخمسين لا تزال ترتدى أشياء كثيرة من هذا النوع، لَم تكن تخشى أن تلفت الانتباه، وهذا رائع...

يا كاتيا، أمى كانت جميلة جداً جداً (تنظر إلى بجدية). جميلة جداً جداً، فائقة الجمال، هل تفهمين؟»

أفهم. أفهم فجأة أن ڤيرا، حتى ڤيرا، وليزا، حتى ليزا، ليستا بجمال أمى. وأنهما دائما ما عرفتا ذلك.

وأعدنا بشحن الحلى القديمة فى عُلبِها القديمة، ووضعنا العلب القديمة فى صندوق قديم، مع فُرَش الأسنان المهترئة، والفوط المقطّعة، وروب الحمام الذى حالت ألوانه والشبشب المُترِب ؛ ثم أنزلنا الصندوق القديم، مثل التابوت، على الإفرين، تحت المطر.

وأُجْبِرُ نفسى على التفكير فى الصيف : « بالمناسبة يا ڤيروتشكا، أرغبُ فعلاً فى التعرف على أستاذك «ڤييرزون». يمكنك أن تأتى به إلى فى الطاحونة فى يوليو...» ابْتَسمَت. لديها سِنَّتَان أو ثلاث مُلبّسة، أعرف ذلك ؛ ورغم هذا، تظل لها ابتسامة الطفلة. أحب ڤيرا منذ ماتت أمى. إنها أختى الصغيرة. مثلما فى الماضى.

سونيا

تحت المطر المثلّج، تدخل سونيا، ورأسها مُغطًى مثل الدمية الروسية - وبخطوة ثابتة مؤقتًا - إلى محل كولتورلاند فى ڤييرزون، بالمنطقة التجارية (ثلاثمائة متر من المبانى المُغطاة ،على حافة الطريق السريع أ-٢٠) تقيم فى ڤييرزون منذ شهر، لم تجد عملاً فى ليموج أو فى مجال التجميل، ولكن ڤيرا تمكنت من أن تحصل لها « من خلال العلاقات» على عمل كبائعة فى منطقة چولى بوا: بعقد عمل محدّد المدة لستة أشهر عند محل ماريونو. وبعثت ليزا عبر البريد الإلكترونى تقول: « لا عجب أن تنخفض أسهم ماريونو مع بائعات مُثيرات كهذه !» وهو تعليق غير ودود تجاهلته سونيا وندمت ليزا عليه مباشرة. خاصة وأن ڤيرا قد عدّلت من مظهر أختها بقدر استطاعتها : قصة شعر وصبغة عند مصففتها الخاصة (سونيا أصبحت حمراء الشعر، مثل الأيرلنديات، وهذا ما أبرز عيونها « التى ليست برمادية ولا خضراء»). وطالما نظر الناظر إلى هذا الشعر المتوهج والعيون زيتونية اللون، فإنه لا يلحظ الاحمرار - الذى تُخفيه البودرة -، ولا، بدءًا من الخصر، «العوامات» المتكومة. وقد تدخلت ڤيرا على هذا المستوى أيضًا - أسفل الحزام -، بأن أهدت لأختها «ملابس خاصة واسعة القياس». وقد شاركت كاتيا فى النفقات، لأنه لا توجد أسعار منخفضة للسيدات السمينات.

وفى موعد الغذاء، راحت سونيا تجرْجر وحدتها فى ممرات المركز التجارى، وهى ترتدى سترة قصيرة من تصميم ريبالدى الشهيرة، فوق تنورة واسعة تعطى قوامًا نحيفًا جدًا وتقف عند منتصف الساق (والكل مغطى للأسف بمعطف واق أزرق قديم، وشال أحمر وغطاء للأنف). وبحثت فى المحل بلا اهتمام عن أنبوبات الزيت للعودة إلى الرسم: فقد نصحوها فى جمعية "الكحوليون المجهولون"، بتنشيط «هواياتها». وتذكرت

نفسها قبل خمسة عشر عامًا، تُشكّل المادة، مساحات كبيرة من اللون الأبيض، وسيَلان كثيف أسود. تودُّ أن ترسم مشاهد شتوية، أشجار ميتة، أن تنحت اللوحة مثل الخشب الجاف. أكدت لها رئيسة "الكحوليون المجهولون"، المُتوقِّفة عن الشرب منذ ثمانية عشر عامًا: « أنا على قناعة بأن لديك حس فنى كبير». وتهكمت سونيا: إنها متوقِّفة ولكن ليس فى المكان الصحيح : فبهذا البَلَهْ البادى عليها ونظرها الضعيف، يبدو أن معرفتها بالرسم لا تتجاوز معرفة البقرة البريطانية به ! إنها فقط تؤدى عملَها الحسن، وتطبق تعاليم إنجيلها: إن مدمن الكحول يفتقر إلى الثقة بالنفس، واحترام الذات، فلو أن سونيا أفْضت لها بشىء من الإعجاب للعبة الچودو، لكانت قد تنبأت لها بأنها مُهيّأة للحزام الأسود ! سونيا تكُره كل شىء فى جمعية الكحوليون المجهولون : طابع الكشافة الذى يتميزون به (تلك الأناشيد البلهاء بعض الشىء التى يغنونها وهم يقفون فى دائرة وأياديهم متشابكة)، علاوة على جانبهم الشبيه بـ «الخلايا الحزبية»، (حفلات فيما بينهم، أعمال التجسس المُبْتسِمة، والنقد الذاتى الأسبوعى). إنها على ثقة بأن فى وسعها الاستغناء عنهم « لكى تكون أفضل»، ولكنها وعدت ڤيرا، التى كانت تشترى لها ملابس جديدة، بأن تشترى لنفسها سلوكا مناسبا، على أقل تقدير. إن ڤيرا - التى لم تطأ بقدميها الجمعية - تؤمن بهم كثيراً. إذن سونيا تذهب هناك، وتجتهد. بدون أن تؤمن بهم. وعادت إلى الرسم. بدون أن تؤمن به أيضًا. لقد وقّعت باختصار عقداً محدد المدة من الامتناع عن الشرب. ستة أشهر. ستة، إنها فترة طويلة، والحياة قصيرة...

لم تكن تنوى المرور على «المكتبة» فى المركز التجارى : ففى الإستوديو الذى استأجرته فى ڤييرزون، لا يوجد مكان للكتب. حينما تركت ليموچ، اضطُرت لإعطاء إحدى الجمعيات الخيرية قطع الأثاث القليلة التى كان يحويها سكنها المكون من غرفة وصالون. بيْعها لم يكن ممكنًا: أما أثمن ما تمتلكه - الستارة القصيرة التى صنعتها أمها، وصورة ميشا الكبيرة وكتبها القديمة المتضمِّنة لتعليقاتها، فقد خزّنتها فى صندرة الطاحونة، عند كاتيا...

بالمناسبة لقد طال مرورها بين أقسام المكتبة بسبب كاتيا: إنها مكتبة غاية فى الصغَر، اسمها: « الفضاء الجديد»، وليس لها من الثقافة إلاّ يافطتها ؛ إنها مخصصة «لأنشطة أوقات الفراغ»، التى كانوا يسمونها بتواضع فى الماضى «أشغال السيدات» – الكانفاه، الصور الصغيرة، القص واللصق، الإطارات، الرسومات والخرز الذى يتم لضْمه، أى باختصار كل ما يمكنه شَغل اليدين بدون شَغْل العقل. سونيا لم تتوجه مباشرة إلى أدوات الرسم لأنها تبحث بعيونها عن أحدث كتب أختها. دائمًا ما تتحقق فى كل مكان من أن أعمال شقيقتها معروضة فى الموضع الجيد ؛ وإذا لم تجدها على الأرفف تطلبها من البائعة : «كاتيا ساروف ...ألا تعرفينها ؟ يتعين عليك ذلك. إنها روائية متميزة.» إنها مُعجبة بأختها، بكل أخواتها : ليزا الجميلة، وڤيرا القوية وكاتيا المثقفة. سعيدة أنها أحبتهن دائمًا، ودافعت عنهن، هى الصغيرة جدًا، التى لا تملك شيئًا، هى الحقيرة ؛ بل إنها حَمتْهن، بقدر استطاعتها.

حَمتْهن ؟ فجأة هنا، أمام الروايات البوليسية وقصص الرعب، ساور سونيا شكٌ. «حَمتهُنّ دائمًا، أخواتها»: هل هذا حقيقى ! واسترجعت ، كما فى الحلم، مشاهد قديمة، باهتة بعض الشىء، مشاهد من حياة أخرى : كان هذا من وقت بعيد جدًا، فى كليراك... فى هذا الوقت، كانت تشارك غرفة ليزا، «الرضيعة» كما كانوا يقولون. كم كان عمر ليزا ؟ عامين، بالكاد. إن خصلاتها الشاحبة التى لم تُقصّ بعد، قد بدأت للتو تغطى مؤخرة عنقها. إنها تشغل سريرًا من الحديد المشغول أعادت أمى طلاءه باللون الأبيض ؛ أما سونيا فكانت تحتل فراشًا من الخشب ذا عامودين صنعه ميشا من سريرين «جرّارين»، وصنعت الجدة سولانج المَرْتبات – من قماش الخيش وقشر الشعير... البنات تحب هذه الفَرشة برائحة التبن الجميلة فى الصيف، والصندرة : وتحلُمان وأنفهما غارق فى البالة بأبقار جميلة، وحمير باكونين والجياد التى تجر الزلاجات...

أما أمى، فنومها كان أقل هناءً : فصغرى بناتها – رائعة الجمال – تمصّ أصابعها، وسوف تشوّه أعلى فمها ؛ وإن لم نتصرف ستكون أسنانها شبيهة بأسنان الكوميديان فيرنانديل الشهير بأسنانه الطويلة مثل أسنان الأسد !

كانت مسطردة ديچون فكرة جدتي: ذات مساء في المطبخ، دهنت السيدتان يدى ليزا بالمسطردة. وحين وضعتا أختها في السرير، نظرت إليها سونيا بدهشة: كانت ترتدى قفازًا أصفر في كلتا يديها. وبنبرة صارمة، حذّرت الأم الطفلة: « إذا مصَصْتِ أصابعك يا ليزا، سوف تتألمين !» واستغرقت ليزا وقتًا قبل أن تنام، بقفازاتها الجديدة، وكانت تبرطم وتبدو غاضبة بشدة.

ومع ذلك، كانت أمي هي الغاضبة بشدة في اليوم التالي: فقد «أكلت» ليزا قفاز يدها اليمنى !

وعندئذ انتقلت السيدتان إلى الصَبّار. سونيا تذكر جيداً السائل البني الذى دُهنت به يدى «الرضيعة». وفي وقت لاحق، حين رأت صورة ليزا بقفازها الأبيض وهي تترافع في سيدني، بحثت عن كلمة الصبّار في القاموس: مَنْ الذى فكّر في هذا الرحيق الطبي، هذه الصبغة المُقيِّئة ؟ إنها هي، تلك التي كانت على دراية بالعقاقير : أمهن... كانت رائحة الصبّار تعطي وحدها نكهة عن مدى مرارته. ولم تكن ليزا تقاوم وهم يدهنون لها كل إصبع ؛ كانت تنظر للكبار بفضول. سونيا هي التي كانت أكثر قلقًا. قالت أمي آنذاك وهي تطفئ النور « أشك كثيراً يا ليزا في أن تصممي على أن أصابعك طيبة الطعم. ثم خفضت صوتها وقالت بحزن: « يجب أن تكوني جميلة يا حبي...»

واستيقظت ليزا ثلاث مرات، وهي تشعر بالرغبة في القيء. كانت سونيا تهمس لها : « توقفي يا ليزا، هذا ممنوع، إنه سُم». وفي الصباح، حين دخلت الأم الغرفة، أرادت «الرضيعة» أن تسعدها. رفعت يداها صائحة: «لم تمُصْ إبهامها !». ولكن الفحص الدقيق لليد اليمنى بيّن للأسف أنها كانت تكذب: فالإبهام والسبابة شحُب لونهما...

وحينما اتضّح أن الصبّار لن يكفي لإبعاد الطفلة عن ملذاتها، دارت محادثات سرية مطوّلة. لا زالت سونيا تذكر حزن أمها التي كانت تردد على مدار اليوم: « هذه

الصغيرة تشوّه نفسها !» من الذى اقترح الهجوم التالى ؟ الجدة ؟ ميشا ؟ كانت الطريقة التى تم اختيارها تتسم بـ « عدم الحِرَفية» وهو ما يتصفون به. ذات مساء، جاءت الأم بقفازات تنظيف رمادية قديمة، تم إحداث ثقوب فى أسفلها لتمرير دوبارة؛ أُدْخِلت يدا الطفلة فيهما وجُذِبت أطراف الدوبارة : أصبح لليزا الآن قفازان بدون أصابع، بلا إبهام، مربعى الأركان، لن تتمكن من انتزاعها. وفور سجْن يدى الرضيعة، أمسكت أمى الرسغين لكى ترقص عرائس الماريونيت». ولكن ليزا لم تكن تضحك. ولا سونيا.

كم من الليالى ظلت فيها ليزا ترتدى قفاز التنظيف ؟ كم من الليالى ظلت فيها تئن وتتباكى ؟ ومع ذلك وجدت فى النهاية الوسيلة لتليين جانب من القفاز الأيمن، بلُعابها: تُريقه على القطن الجاف حتى يطرَى ويأخذ الشكل المحبوب. ويهدأ روعها، فتمص جزءًا من الإبهام، وقطعة سبابة، وتتمكن من النوم فى حين تسهر أختها، تلك التى لم تعد المرتبة المحشوة بالشعير تكفيها الآن لكى تحلم «ببقرات جميلة»... سونيا تتعذب، ليلة بعد ليلة، من عذاب ليزا. ولكنها تتعذب أيضًا فى الصباح من خيبة أمل أمها. إن قلب سونيا مثل الإسفنجة : يمكن لَيُّهُ فى كافة الاتجاهات وبكافة الطرق.

حينما بَلِىَ القفاز الأيمن، ثبت أن ليزا عادت لأخطائها، ولكن الكبار لم يُقِرُّوا بالهزيمة رغم ذلك. لا شك أن ليزا كسبت معركة، ولكن أمى هى التى انتصرت، فيما مضى، فى الحرب. كانت أمى لا تستسلم أبدًا. ويرجع الفضل فى الابتكار الذى غيّر وجه الموقعة – صراع الحيتان هذا الدائر بين ثلاثة أو أربعة من البالغين الأذكياء وطفلة فى الثانية، طفلة العامين – إلى «الجارة»، الخالة لويز.

فذات مساء، حينما كانت «رقم ثلاثة » تقف على أطراف أصابعها لكى تنظر من فوق خشب سريرها، وضعت أمى «رقم أربعة» فى فرشها، وربطت رسغيها إلى العواميد الحديدية لمهدها باستخدام الأحبال الصوفية التى كانت الجدة تغزل منها ألبسة البحر لحفيداتها. وربطت الأم الحبال بدون أن تشد عليها كثيرًا، تاركة مساحة قليلة من الحركة للطفلة، ولكن لا شىء يسمح للإبهام الأيمن من الوصول إلى الفم، ولا

للفم من الاقتراب منه، بدون أن ينجذب الكتف الأيسر: وبذا سينتصر الألم على النهم. قالت الأم وهى تُلبس الطفلة البيچامة الجميلة الزرقاء المُرقَّطة بالأحمر التى حاكتها لها لتوها من تنورة قديمة لها: «لا أريدك أن تشوهى نفسك يا ليزوتشكا. هل تفهمين يا عزيزتى ؟ هل تفهمين ؟ ... حسناً، سنرى من منا سيكون لها الكلمة الأخيرة !» سونيا، الأكبر، تعرف بالفعل من الفائز : الكلمة الأخيرة لأمها، بل والكلمات التى قبلها – الكلمات كلها للأم. فى السيارة، وهى فى الرابعة، كانت قادرة على أن تغنى مع أخواتها أغنية علمتها لهن أمهن : الأطفال المطيعون يفعلون كل ما يريده أهلهم. الأم ترى أن هذه الأغنية مسلية جداً لدرجة أنها تحاول أن يغنينها بالتتابع: بابا لم يوافق، وكذلك ماما. في هذه اللحظة، كانت الكلمات تثير حيرة سونيا : كيف يمكن معرفه ماذا يريده الأب أو لا يريده إذا كان دائماً غير موجود؟

الأطفال المطيعون يفعلون كل ما يريده أهلهم، الأطفال المطيعون يفعلون كل ما تريده أمهم، والرضيعة ليزا غير مطيعة على الإطلاق، ينبغى الاعتراف بذلك. ولكن : حتى وإن كانت هذه الاحتياطات تُتّخذ من أجل صالح ليزا – مثلما تُمنع من الاقتراب من البئر أو من تناول التوت، – فإن سونيا أصبحت تخشى الآن موعد النوم. إنها تخاف إبهام ليزا، وأفكار أمها النيّرة، وعناد ليزا، وعناد الأم، وبكاء ليزا، وغضب الأم. تود أن تحمى أختها الصغيرة، ولكن ممّ ؟ وكيف تحميها ؟ ليزا حبيسة الحِبال، وسونيا حبيسة حزن ليزا.

ذلك أن ليزا محبوسة هذه المرة، فمهما تحركت لم يعد حتى باستطاعتها الجلوس فى مهدها : ها هى مستلقية على ظهرها، ضائعة مثل الخنفسة التى انقلبت على ظهرها. بل أسوأ من ذلك، إذ لا يسعها تحريك قدميها الأماميتين، ولا تقدر على رفع الخلفيتين إلاّ قليلاً لتضرب المرتبة. تصرخ مثل بوق السيارة المُعلّق ؛ غارقة فى عرقها، الخدود بلون الدم ؛ وخصلاتها الشقراء مبتلة لدرجة أنها تبدو بنية؛ عروق عنقها منتفخة ؛ تصرخ بلا توقف. ذقنها على حافة السرير، وعنقها ممدود. سونيا المُرتعِبة تهمس لها: «اسكتى، أمى سوف تضربك...» بل هى تحاول، فى رعبها، أن

تردد تهويدة الجدة سولانج: نامى يا صغيرة ! يا قديسة مارجريت اجعلى هذه الصغيرة تنام... بلا جدوى: وسرعان ما ينفتح الباب، وأمى تمسك قدمى ليزا وترفع مؤخرتها وتضربها عليها، ثم تغلق الباب، بدون كلمة. تحوّل الآن بكاء ليزا إلى شهيق متواصل لا يترك حتى مجالاً لاسترداد الأنفاس ؛ بطنها يرتجّ، يقفز بلا توقف: هل ستموت ؟

وفى اليوم التالى، يتكرر الرعب. ليزا لم تفهم بعد أنها مُحاصَرة، «أسيرة». عويل متجدد، ثم شهقات تكاد تخنقها. سونيا خائفة: «أمى، أمى، ليزا تتألم». وحينما أضاءت الغرفة من جديد، حادثت الكبرى فقط: «لا يا صغيرتى، أختك ليست متوجعة. إنه تمثيل. قولى لى فى رأيك، من يحْكُم فى العائلة، الصغيرات أم الأم ؟» إن الأم لم تخاطب بناتها أبداً « بلغة الأطفال»، وهذا ما يجعل أسئلتها مخيفة : ذاك المساء، ردت سونيا المضطربة بالقول: «الصغيرات». لم تستاء الأم: « أنت متعبة يا حبيبتى. يجب النوم.» ولكن وجود الأم، وعطرها، وكلماتها الهادئة، طمأنت ليزا: لم تعد تعوى ؛ ولم يتبق من أنهار الدموع التى كانت تنسال قبل خمس دقائق على الوجنتين المزرقتين، سوى خط صغير - كان يخرج منه من وقت لآخر، شهقة كبيرة، مثل الصخرة التى تُركت مكشوفة.

حينما مالت الأم لإعادة تغطية سونيا فى سريرها، طالبت ليزا، بصوت أجش، بين نشجتين: « قبلة يا أمى !» قالت الأم بدون أن تستدير - كلا، لا أقبل البنات غير المطيعات.» وألحت ليزا، التى وضح أنها لا تفهم شيئاً، فى نبرة متسائلة: « أمى، نامى يا صغيرة، أنا ؟» أغنية، إنها تجرؤ على انتظار أغنية ! قلْب سونيا الإسفنجى ينقبض، يتلوّى فى عشر ثنيات. ولكن ما من شىء يحول دون الضربة القاضية: « الصغيرات العنيدات ليس لهن أغنيات ولا قبلات من ماما. أبداً. لم أعد أحبك.» فى الظلام، سونيا سمعت ليزا تبكى طويلاً ؛ لا تشهق، فقط تزفر قطرات بصوت ضعيف مثل الصنبور غير مُحكم الإغلاق، وسونيا صغيرة، صغيرة جداً على إغلاق الصنبور.

وفى اليوم التالى، حينما فكرت فى إمكان رؤية الحبال مجدداً، تهاوت سونيا. قالت: « لا أريد النوم مع ليزا. إنها شريرة!» وأبدت أمها تفهما رائعًا: « إنها تمنعك من النوم بضجيجها ! إذن سوف تنامين مع ماما يا عصفورتى». إنها علامة الرضا بامتياز: النوم فى سرير الأم الكبير، الذى يُمنح من وقت لآخر لأفضل البنات... السعادة تغمر سونيا. والفزع. هى تدرك بشكل ما أنها تُكافأ، فى حين أنها كان ينبغى أن تُعاقَب بسبب الهروب. وأمضت عدة ليالٍ جميلة ومفعمة بالذنب فى سرير الأم التى تُشيع رائحة البريانتين وبودرة الوجه. سرير لا يأتى فيه كابوس ويظل النور مضاءً طويلاً... كم من الليالى نامت فى مكان الأب» ؟ حين عادت إلى سريرها الخشبى، كانت أختها قد كفت عن العويل، وتنام بدون حبال، وذراعيها مفتوحين على البراح، ولم تمص إبهامها بعدها. إن أسنانها رائعة، أجمل أسنان فى العائلة ولم تحتج إلى «جهاز» خلال المراهقة : كانت الأم فخورة بذلك. بالنسبة للأيدى، كان الحال بالطبع أقل نجاحاً. كما لو أن ليزا قد راحت تنتقم بأسنانها فى يديها: الأظافرِ المقضومة، وقِطع الجلد المُنْتزَعة، واللحم المعضوض. مجزرة...

حينما أعطت سونيا فابريس إلى بابوشكا للعناية به، سلّمت معه مصاصة مطاطية اشترتها من الصيدلية. كانت أمها لا تحب المصاصات: « إنها تُلقَى هنا وهناك، هى مليئة بالميكروبات.» ولكن سونيا لم تتراجع. لم تكن حازمة بهذا الشكل طيلة حياتها. بل إنها المرة الوحيدة التى يمكن القول فيها أنها تدخلت فى تربية ابنها...

أفاقت سونيا فجأة من الماضى بين أقسام المول الكبير، وهى فى مواجهة أرفف الحياة بشكل أفضل المخصصة لكتب التنمية الشخصية والمطبخ. ليست سونيا بطاهية ماهرة. فقط ڤيرا وليزا ورثتا بعضاً من موهبة أمهما – مع تفوق خاص لليزا المُضطرة للتصرف بالموارد المحلية فى سيدنى، وأصبحت اليوم تقدم للبريطانيين قطع الكانجورو بصلصة الصياد ويَخْنى النعامة بفاكهة الكيوى...

أما سونيا فتأكل المُعجّنات في جميع الوجبات. وتنتظر على أحر من الجمر أن تحين لحظة الطعام وهي تبتلع حبتين أو ثلاث من الدواء... ليست شرهة. ولا حتى في الكحول. ڤيرا تعتقد أنها تستمتع بأقداح ما قبل الوجبات، والمشروبات المُحلاة والنبيذ الجيد. تعتقد أنها تشرب لأنها تحب «هذا». خطأ : فهي تكره البورتو، والچين والأرمانياك والسُكّريات الأخرى؛ وترفض الشمپانيا التي تحرق معدتها ؛ وتتفادى النبيذ الأبيض الذي يصيب بأوجاع الرأس، ولا تحتمل، بالنسبة للأحمر، إلاّ بعض الأنواع الراقية من نبيذ بوردو والتي لا تَقدِر على ثمنها. بل إن حتى الويسكي بالكولا الذي تتناوله يثير قرفها. هي تتجرع الآن الجي آند بي من عنق الزجاجة، بدون أن تتنفس – وتبتلع مثلما يفعل المرء بالدواء رديء الطعم: لقد اختارت الويسكي اختصاراً للوقت فقط. فنصف قنينة چي آند بي تكفي حيث يحتاج الأمر إلى لترات كثيرة من نبيذ بوردو: في خمس دقائق يكون « عِجلُها » قد حصلَ على جرعته، هذا– العِجلُ – الذي – على – لسانها الذي يعرفُ كل شيء عن قصة الصبّار، وقفازات التنظيف، هذا العِجلُ الذي تروى ظمأه عن واجب وبدون فرحة. اقترحَت عليها كاتيا يوما، بدون الخوض في قلب «المشكلة» « ينبغي أن تستشيري طبيبًا نفسيًا، أن تتلقى علاجًا»، هُراء ! لقد اختارت علاجها بالفعل. الويسكي علاجها. إنه أكثر فعالية من الطبيب النفسي، والتوازن ممتاز بين الجودة والسعر.

في قسم الحياة بشكل أفضل، راحت سونيا تتصفح بدون تركيز إحدى هذه الموسوعات عن الطهي التي تَلقَى رواجًا أكبر كلما كانت ممارَسة الطهي أقل. ما الذي تأمل أن تجده في هذا الكتاب الضخم ؟ الأم التي كانت تحبها ؟ ليس الأم الشابة التي كانت في ثوبها الأحمر تقود يتيماتها بالعصا ؛ ولا مريضة السنوات الأخيرة التي اعترتها المرارة ؛ وإنما «بابوشكا»، بابو المِعطاءة والمتواطئة، التي تُصلِح كل شيء، وتُرتب المقالب، وترقص القالس وتغني... ولكنها للأسف، وجدت فجأة في كتاب الوصفات الذي تتصفحه الجسد الذي اضطُرت لغسله، ووضع المساحيق على وجهه، ، هذا الجسد المُقطّع، الذي وخزته الإبر، الذي أعيد إغلاق جروحه، الذي تم

تطبيبه :إعداد الحمامة. شق العُنُق بالطول وإخراج المرىء. الضغط على البطن لإخراج الأحشاء. نزْع الكبد والرئتين. قطْع الأجنحة والأرجل. التحزيم، الغلق بإحكام. كافة التفاصيل حتى النصيحة الأخيرة: لا يُترك للتحلل... إن الموت طاهٍ فائق المهارة ! هذا المساء، سوف تُعد سونيا لنفسها الشعرية. لا جثث فى قائمة الطعام. إنها تفضل ذلك.

ثم تراجعت عن مواصلة طريقها إلى قسم « أوقات الفراغ » – لِمَ تشترى الألوان الزيتية ؟ لا مكان فى الاستوديو لوضع اللوحات. والثلوج لا تسقط على ڤيرزون، فلا مشاهد ترسمها. ثم إنها كبِرت كثيراً على « العودة إلى الفنون الجميلة أو الغناء أو أى شىء كان» : كل هذا الماضى، وهذا القليل من المستقبل ! إنها تعرف، منذ ماتت أمها... تبحث عن البائعة فى قسم الكتب، وتعثر أخيراً على متدربة فى سترة رياضية : « اعذرينى يا آنستى، إننى لا أجد الرواية الأخيرة لكاتيا ساروف»

(٢٥)

وَدَدْتُ لو أننا مارسنا مراسم الحداد، وارتدينا ملابسه والتزمنا بفترته. أثناء ما كانت أمي تموت، أثناء ما كانت ميتة، أثناء ما كانوا يُلبسونها قميصها الأخير ويُفرغون منزلها، اضطُرِرْت لتنظيم ثلاث حفلات خطبة وزواجين لأبنائى. كنت أنتقل مثل السائر نائمًا من الباقات الجنائزية إلى حزمة ورود العروس، ومن البحث عن «عُشٍ للحب» إلى فتح مقبرة؛ كنت أملأ الدعوات فى كل الاتجاهات، وأكتب كتيبات القداس الصالحة لجميع المناسبات، وأرد على رسائل التعزية مع مواصلة البحث عن «قبعة وردية صغيرة لطيفة». فالآن وقد أصبح الموت «حميميًا»، لم تعد هناك حاجة لأى تحرج : إنه العيد فى جميع أيام السنة !

فى الأسبوع الماضى، بعد ستة أشهر من الدفن، أعلن لى ابنى داميان وزوجته أنه سيكون لى حفيدة بين يوم عيد الميلاد ورأس السنة. « هل أنت سعيدة ؟». بلى، بالأحرى. أعتقد ذلك. بشرط أن أتذكره فى وسط ما يحيطنى من أحداث. كنت يتيمة. وسوف أصبح جدة.

فى الليلة التى تلت الإعلان عن الحدث السعيد المقبل، حلمت أننى أُطارَد أنا «وأختى الصغيرة» قيرا فى الممرات الطويلة لأحد المستشفيات. ولكى نهرب من مطاردينا، دفعنا أحد الأبواب عشوائيًا: هذا الملاذ غير المتوقع كان قسم الولادة. قسم ولادة بلا ممرضات أو مواليد؛ لا صناديق شفافة أو جدران بيضاء : مُهود من كل الألوان فى محيط متناغم – أسرِّة بلون التفاح الأخضر فوق موكيت من الزرع، أسرِّة وردية بلون التوت، تضيئها اللمبات بشكل المصاصات، أسرِّة بلون الأزرق السماوى، أمامها لوحات لقوس قزح...

أتقدم وأنا منبهرة: «أووه، انظرى يا ڤيرا، هذا المهد بلون الليمون الأصفر ! تحت أشجار البرتقال ! كم هو جميل !» أتقدم وفجأة: بقعة بيضاء فى اللون. أتقدم. سرير أبيض. سرير مستشفى. أتقدم. أمى بيضاء شاحبة على السرير الأبيض. جثة بين المُهود.

وأحاول والرعب يملؤنى أن أُقنِع نفسى بأنها ابتسمت لى.

منذ أن ماتت لا ترسل لى أمى لا حلمًا جميلاً ولا ذكرى مفاجئة. منذ أن ماتت لا تبعث لى بأى رسائل. لا تتردد على طاحونتى وتترك لى وراءها رائحة زهر البليحاء، واللاڤاندر الزنبق، أو برطمان من المربى التى تتعفن، أو آنية منسية أو باب يَصْفق... إلى أين رحلَت، مسافرة الليل ؟ لم تَعُد ترجع إلى منزلى. لم تعد ترجع لأننى لن أتعرف عليها. لقد شوّهها المرض جسدًا وروحاً. لم أعد أعثر على ضحكاتها المجلجلة، ولا عينيها اللامعتين ولا حركاتها العفية. «هل نترك لكِ الأطفال يا كاتيا ؟» نادى المامبو فى ليموچ، والويسكى فى بيللاك، وفى ساعة متأخرة من الليل، سيارة أخرى... أولنكا(*) الضاحكة، أولنكا حبيبتى، لقد قتلتها «الفرعونة».

تُرانى أبحث عنهاَ بعيدًا أكثر من اللازم ؟ أبْعدُ من حيث نتواجد. مثل سونيا التى كانت، فى الرابعة من عمرها، تطالب بـ«أم خيالية.» كانت مصابة بالحمى القرمزية، وأمى لم تعد تتحرك من جانبها، ولكنها تحاول إبعادها بضربات الأرجل واليدين. كانت تئن: «أريد أمى»، وتقول لها ماما وهى تقبلها «أنا هنا»، سونيا تصرخ ووجهها أحمر من الحمى: «لا، لستِ أنت. ارحلى. أريد أمى ! أمى الأخرى !... – تسألها أمى وهى تضع على جبهتها قفاز تنظيف مبلّل: « أى واحدة يا حبيبتى؟» – التى فى المطبخ، ستأتى ! ابعدى يا شريرة ! أمى ! أمى !»

(*) تنويعة على اسم أولجا ويعنى المُباركة المحبوبة.

واليوم، أنا أيضًا فى الرابعة؛ وربما – فى الوقت الذى أطالب فيه بأم أخرى – تقوم أمى الحقيقية، الوحيدة، بتقبيل جبهتى ؟

لم أخَفْ من الموت، طوال حياة أمى. حينما كانت تمْرُق بسرعة فى مخيلتى فكرة موتى، كنت أراه إما مفاجئًا، وسريعًا لدرجة ألاّ يتاح لى الوقت للخوف منه، وإما أرى نفسى مريضة، راقدة، هزيلة ومحمومة ، ولكنى فى الحالتين لم أكن أرتعب : كانت أمى ستقبع هنا، بجانب سريرى، تُطمئنُنى وتضع الكمادات على جبهتى وترفع مخداتى وتعطينى ملعقة من «الفحم المُطهّر» أو شراب من تركيبها تُقسم لى صادقة بأنه سوف يريحنى، «ثقى فى يا كاتيا». كنت أثق فيها (ألم تكن ممرضة سابقة ؟)، ما من ألم كان يُعاند قدراتها وسلطانها ؛ كنت أغرق فى النوم، ببطء، أمام عينيها. ترنيمة ألم الأم: كانت هنا.

فلْنعبِّر عن الأشياء بدقة: اعتقدت دائمًا أننى سوف أموت قبل أمى. لا بأس من الحياة بدونها... ولكن الموت بدونها !

يزعمون أننا بعد رحيل الأهل نخشى الموت لأننا نجد أنفسنا «فى الصف الأول». ولكننى لست فى الصف الأول ! ليس أنا. فلدى أب مـرح، يسـافـر، ويُوقِع الأرامل المُسِنّات فى حبائله، ومن ناحية لوجيلاك، لدى كمية من الأعمام والعمات فى صحة جيدة. كيف يمكن أن ترى الموت أمامك مع كل هؤلاء الذين يحولون دونها ؟ ورغم ضآلة سُمْك أبى، كدرْعٍ، فإننى لا أرى شيئًا من خلفه، أُقسم بذلك: لا تهديد واحد، لا شىء... ولكنى ببساطة، كنت أعتقد، اعتقدت منذ اليوم الأول، اعتقدت ولا زلت أعتقد، أن فى لحظة موتى، ستكون أمى هنا.

ويليام

فى مكتب ليزا، يفحص ويليام الرسائل الإلكترونية لزوجته - رسائل من أصدقاء، أو خاصة بالعمل، إعلانات ودعوات. يقوم بفرزها. يؤكد باختصار استلام الرسالة؛ ويحفظ بعض السطور فى ملف « ملفاتى»؛ وفى غالب الأحيان يلقى فى سلة المهملات... إنها الأيقونة التى يفضلها. خاصة فى مثل هذه اللحظة: التخلص من كل ذلك، ينبغى التخلص منه ؛ « لديكِ سبعمائة رسالة جديدة» - كم من الكلمات التى بلا جدوى ! بل والغريبة أيضًا، نظرًا للظروف.

يتذكر الآن ما حكته له ليزا، منذ ستة أشهر، عن الأيام المُنهِكة التى أمضوها فى إفراغ بيت أمها، ويشعر بالخوف: لو أن ليزا ماتت، سيتعين عليه ليس فقط إفراغ خزائن ملابسها وبيتهم فى مورترول، وإنما أيضًا الحاسب الآلى. زيارة صندوق أسرار الفقيد، وتدمير آخر أربطته العصبية والولوج فى ذاكرته لكى تُلّقى، وتطفئ وتمحو : موت حديث...

بالنسبة للحظة الراهنة، هو يكتفى بالرسائل الواردة: ليزا لم تمُتْ بعد، بعض الأطباء يأملون فى نجاتها. المطلوب أن نساعد جسدها الذى أنهكه النزيف على تجاوز التعقيدات الرئوية : ربما تخرج من الغيبوبة بدون آثار على المخ. هذه هى ميزة المهدئات مقارنةً بحبل المشنقة : إنها تترك هامشًا من عدم اليقين، تمنح فرصة صغيرة للْحظ... السيدات تتفوّقن فى هذه اللعبة. حتى ليزا - رغم أنها لم تكتفِ بابتلاع بعض الأقراص و إنما، «للتأكيد»، قطعت أوردتها وغطست فى حمام من الماء الساخن: من أجل تعجيل سَيَلان دمها، أو من أجل الغرق فور فقدانها الوعى ؟ إنها متشائمة حقًا: حاصلة على حزام التشاؤم بل وحمّالاته أيضًا.ومع ذلك، فإن هذه المتشائِمة لم تُلْقِ

بنفسها من الطابق الثانى عشر ولم تفكر فى ضغط مسدس ويليام على صدغها: احتفظ الحظ بفرصته. وقد أنجز المهمة على خير وجه: فسدادة البانيو، المُغلَقة بغير إحكام، تركت خيطًا رفيعًا من الماء يتسرسب بلا توقف. بحيث حينما وجدوا ليزا، كانت غارقة فقط فى دمائها – بل وفوق ذلك، كانت جروح رسغيها التى قطعتها بآلة حلاقة الذقن، ومرّت عليها بالمقص، كانت قد تجلّطت؛ أما «الأدوية»، التى تعاطت منها كميات فائقة، فقد لفظَتْ معدتها جزءًا منها قبل أن يصيب الباقى بعض المراكز العصبية بالشلل.

الشىء المؤكد، هو أن المشهد لم يكن مبهجًا حينما دفعت خادمتهم باب دورة المياه غداة عطلة نهاية الأسبوع : ليزا عارية ومُدمّمة، راقدة فى بانيو مُلطّخ بالقىء. وزِدْ على ذلك أن العاملة الإندونيسية الشابة قدّمت استقالتها، بعد أن تم نقل السيدة إلى المستشفى، وقطع السيد سفرته وعاد وهو يسابق الريح – لا تريد أن تعمل بعد ذلك عند مجانين ؛ ولكنها، قبل أن تغيّر مخدوميها، نظفت البانيو الذى أصبح الآن كالجديد؛ فحينما تكون قد عِشْت، وبقيتُ على قيد الحياة، فى أحد أحياء الصفيح بچاكرتا، تجد نفسك تحتقر المنتحرين، ولكنك تحترم البانيوهات.

الساعة الواحدة صباحًا. صمّمت ممرضات قسم الإنعاش، على أن يذهب زوج «الفرنسية» لكى يأخذ قسطًا من الراحة: لقد أمضى ما يقرب من عشرين ساعة واقفًا فى الممر، ناظرًا، من خلف الزجاج، إلى «أميرته النائمة.»، وقد اخترقتها الأنابيب. إنها خاضعة للتنفس الصناعى. لن يعلن الأطباء رأيهم إلاّ بعد يومين أو ثلاثة. حالتها كانت ستكون أقل خطورة لو أنها لم تُصَب بالتهاب رئوى حاد، جراء نومها، عارية، فى بانيو مثلج ماؤه طيلة نهاية الأسبوع. تقطع شرايينك، وتَسُمُّ نفسك وتُرتّب غَرقك، ثم ينتهى بك الأمر بأن ترحل فريسة لالتهاب رئوى، كما لو كنت قد نسيت أن ترتدى غطاء أنفك !

ويليام نام ساعتين، نومًا ثقيلاً ؛ وعندما أفاق شعر بتأنيب ضمير قوى لدرجة جعلته يحاول أن يفعل شيئًا مفيداً: فتح جهاز كمبيوتر ليزا. بالطبع طالما فعل يمكنه

أن يبعث برسالة إلى ڤيرا لإخطارها بما يحدث، أو مهاتفة كاتيا. ولكن ماذا عساه أن يقول لهن ؟ « ليزا أرادت أن تموت» ؟ فى وسعه أن يؤكد وبنفس القوة، أنها حاولت قتل نفسها لكى لا تموت. إن ابنته الصغيرة (هو يكبُرها بست سنوات فقط ولكنها دائمًا مجرد طفلة فى مخيلته)، خائفة جداً، خائفة جداً، من نفسها ومن الآخرين، ومن الوقت الذى يمر، ومن الليالى التى تأتى. لم ينجح أبدًا فى طمأنتها. ولم يسهم رحيل أمها فى إصلاح الأمور : لم يعد هناك أحدٌ تلومه على إحساسها بعدم الراحة، وأحزانها ! ثم جاءت خسارة هذه القضية للسكان الأصليين، قضية لا يمكن خسارتها فى المضمون، ولكنها نجحت فى إيجاد وسيلة لخسارتها فى الشكل - إهمال لا تفسير له: مستندات أُرسلت إلى المحكمة بعد الموعد المحدد، مسألة تتعلق بفقدان حق التقاضى بسبب انقضاء الأجل... غضب عارم من الصحافة ومن «الزملاء الأعزاء». ينبغى تفهُّم موقفهم : فليس فى مقدورهم أن يعرفوا، أو ليس مطلوبا منهم أن يعرفوا، إن ليزا فقدت مفكرتها، التى ضاعت فى الخمسة عشر يومًا الأولى من العام الجديد ؛ كما أن المدّعى، بالواتچا كوكا - لا - أدرى - ماذا، لا يمكنه أن يتكهّن لأى درجة كانت محاميَته مضطربة فى الشهور الأخيرة، فى نظامها، بل وفى تفكيرها ذاته، بسبب رحلات الذهاب والإياب المتكررة بين سيدنى وليموچ، واحتضار أمها إلى ما لا نهاية: يبدو أن أولجا، التى كانت فيما سبق فى قمة الحيوية والمرح، قررت أن تجمع معها فى قبرها كل سلالتها... كلها ؟ كلا بلا شك، فلم يعد هناك سوى مكان واحد فى مقبرة صوليار. وهذا المكان الوحيد، كانت المُتوَفّاة تحتفظ به للمفضّلة لديها: «المعشوقة» ليزا.

من بين الرسائل المتراكمة منذ انتحار زوجته (خمسة أيامٍ، كم مضت بسرعة ؟)، وجد ويليام رسالة إلكترونية طويلة من فابريس. من بين أولاد الأخوات الفرنسيين الثمانية، فابريس هو الأقرب إلى خالته، التى اعتبَرَها دائمًا بمثابة أختًا كبيرة : حينما تركته سونيا لعناية بابوشكا كانت ليزا فى الخامسة أو السادسة عشر فقط ؛ وانشغلت به بابوشكا كما لو كان ابنها ذاته، وليزا كما لو كان أخًا لها.

عائلة غريبة: حينما اكتشف ويليام هؤلاء اللوجيلاك، كان «البحّار» مختفيًا، فى حين كان ميشا - الذى كان قد رحل بالفعل ولكنه كان موجودًا على كافة الجدران (كحطّاب شاب من هضبة لاكروز ومقاومٍ منتصر) - يعْرِضُ وجه الشباب الدائم الذى احتفظت لنا به الصورة؛ من المستحيل تخيُّلَهُ وهو يناكح الجدة العجوز التى كانت تُنهى أيامها الأخيرة فى غرفة بالطابق الأول ! كان ويليام قد اعتقد أن الجدة سولانچ هى أم ميشا وأن الأخير زوج أولجا، وأولجا شقيقة لبناتها، ولويز خالتهن، وفابريس، الذى كان لا يزال مقيمًا فى كليراك، ابنًا لجدته. سلاطة روسية حقيقية !!!

وبعد أن أصبح أكثر معرفة بالأمور، لم يكُف مع ذلك عن معاملة فابريس كأخ لزوجته؛ فالفتى كان على أية حال أكبر كثيرًا مما يسمح للزوجين بأن يُسقطا عليه «هذه الرغبة فى طفل». عمومًا، هل شَعُر ويليام بهذه « الرغبة فى طفل» ؟ لا شىء أكثر مدْعاة للسخرية من أن يرغب مَن يتعامل مع الديناصورات «طفلاً من لحمه» ! إن إضافة مخلوق صغير واعد للمليارات الستة من المخلوقات الموجودة بالفعل، وإطالة «نَسبِه»، هى وهم تركه علماء الحفريات للأغبياء. ولكن ويليام حلُم بطفلٍ من باب التعاطف، أمِل فى طفلٍ يحمل بريق الضحكة إلى عيون ليزا الحزينة، ليزا الشجية، جُرحه الوحيد، هزيمته، قضيته الخاسرة. هذه القوية وبعينيها نظرة الطفلة التى تعرضت للضرب.

من أجلها اهتم بفابريس. فتى غرَيب، هو الوحيد فى عائلته الذى صمّم على تعلُّم الروسية. لكى يتحدث بها مع من ؟ حتى بابوشكا كانت تجهل كل شىء عن اللغة التى أُخذت منها اسمها ! كانت تعرف بالكاد بعض الأمثال وأغنيتين أو ثلاث حفظتها سماعيًا.. لم يكن فى قبيلة ساروف هذه أى أثر لثقافة آلة البلالايكا الوترية التى حافظ عليها الروس البيض: لقد انتزع الجندى الأحمر روسيا من ذاكرته حين تزوج سولانچ، وأصبح كروزاويًا. لم يتبقّ سوى العبادة العائلية للساموڤار وطعم الشاى الأسود وخبز الجودر (الذى كانت تخبزه الجدة بنفسها فى فرن الخبز)، وحبًا خاصًا لشجر الحور والبلوط، هذه الأشجار المنتشرة فى الوادى الروسى كما فى وديان

الليموزان، وهى أنواع فقيرة فى لُبِّها، وشاحبة اللون، كان ميشا يحتقرها كحطّاب، ولكنه يعشقها كجنايني: لقد زرعها فى كل مكان فى الطاحونة...

هل اختار فابريس أن يتعلم لغة پوشكين على أمل أن يحظى بإعجاب جَدّ الجدِ هذا الذى توفى قبل ولادته ؟ ويليام لا يعلم. إنه لا يقتحم أبداً أسرار ابن الأخت هذا، الذى بلا أب، ولا يتحدث معه بقلب مفتوح؛ وما من أحدهما كثير الكلام على أية حال. ومع ذلك، فإن فابريس يثرثر فى رسالته الإلكترونية هذا المساء. بل وأكثر من ذلك: إنه يُبعْثِرُ نفسه !!!!

إنه يحكى لأخته المُستعارة حكاية طويلة ومثيرة على ما يبدو، ويُكثِر من استخدام علامات التعجب والإيموتيكون: الباشا لم يكن «باشا» (وما الأهمية؟)، ولديه عشيقة (أين المشكلة !)، ويعاشرها منذ سنوات(يا للمفاجأة !) وأنه انتقل لتوه للإقامة معها (يا للفضيحة !). ونقر ويليام مفتاح اللوحة بلا تردد: الفضفضات، إلى سلة المهملات ! الشفافية إلى صندوق القمامة ! يحيا العِمْيان !

ثم كتب فوراً الرد المناسب على «ابن أخته العزيز»: «فى الماضى يا بُنَى، لم نكن ننتقد أهلنا الأوساخ. ومن باب أَوْلى طبعًا أجدادنا الأوساخ... لم يكن باقيًا لهم الكثير من الحياة. فى الماضى، كنا نلزم الصمت. خاصة حينما يقترب الأمر من المستشفيات : حيث أن خالتك فى حالة رأى الأطباء أن يصفوها بالخطيرة نسبيًا، سوف أكون ممتنًا لك بأن تتوقف عن الضجيج، عن أى ضجيج. هل فَهِمت ؟ انسَ يا فاب العزيز، انسَ واغْفر.»

ماذا نعلم عن «المُقَرّبين» منا ؟ نتواجد فى العائلة كما لو كنا فى كازينو القمار: حول المائدة، كل فرد لم يحصل إلاّ على عدة كروت ويجهل ما عند الآخرين - ويليام يرى أن ذلك وضع ممتاز. من المؤكد أنه مع رحيل الأكبر سنًا، ينتهى الأمر بالباقين على قيد الحياة بوراثة الوجوه الغائبة، والأوراق الرابحة المُخفاة، والشايب، باختصار «اللعبة كلها». غير أن الكروت الأخيرة لا تأتى إليهم إلاّ فى نهاية اللعبة، فى سن لا

شيء يعود فيه ذو قيمة، باستثناء الموت، لا مغامرات الجَد، ولا فسوق أولاد العمومة ولا الكذبات الوردية للعجائز أو المربيات. إن ويليام، بأعوامه الستة والأربعين، قد وصل بالفعل إلى هذا الوضع؛ يشعر أنه يذوب مثل قطعة الجليد؛ تنفصل عنه أجزاء، أجزاء كبيرة من الماضى تذهب مع الأمواج : المدارس العامة فى طفولته، والتنورة القصيرة لُمعلّمته الأولى، وصداقاته فى أوكسفورد، والمتقاعدون الأخارى لجيش الهند، ووجه أبيه الصارم... وقريباً سوف يحدث ذلك أيضًا لليزا، إنه يعلم ذلك. يكفى أن يكتسب بعض الحياة من أجلها، وأن يحميها بما يكفى لكى تنمحى، طبيعياً، السنوات التى عاشتها بدونه.

«عيونها سوف تتعفّن فى رأسها !»: كانت سولانج، جدة البنات الأربع تردد على ما يبدو هذه العبارة حينما كانت إحداهن تنام أكثر من اللازم. « إذا لم ننتزعها من السرير فإن عيون هذه الطفلة سوف تتعفن فى دماغها». ويليام، الجالس وحده أمام الكمبيوتر، يفكر فى عيون أولجا، حماته، التى تتعفن فى رأسها. يفكر فى جفون ليزا المغلقة، فى غرفتها «بالإنعاش»... أمسك فوراً بمفاتيح سيارته، وأخذ معطف المطر واستدعى المصعد : ينبغى أن يعود على وجه السرعة إلى المستشفى، وأن يجذب زوجته من قدميها، أن يداعبها، أو أن يصفعها، أن يجعلها تفيق، بأى طريقة كانت، إجبارها، اغتصابها والإمساك بجفنيها مفتوحين حتى يتسلل إليهما الضوء - كل الضوء، قبل أن تتعفن عيونها فى رأسها، كل الضوء طالما كان هناك ضوء، طالما بقِيَ لنا ضوء...

ليزا

مستشفى پرنس أوف ويلز. الثالثة صباحًا.

طقس خفيف مثل شهر مايو فى البروڤانس(*)، طقس وديع مثل السائل الأمينى، يغطيها، يحتويها. شمس. فى المنزل المفتوح على مصراعيه، يدخل النهار من كل مكان: من الأبواب الزجاجية المتتالية على الحديقة ومن الطريق. ضوء دافئ يلمع معه الأثاث، كاتيا وهى تقومان بإدخال قطع الأثاث: إنها فى كل مكان، حتى على الرصيف، فلم يكن لديهما الوقت لإدخالها.

كاتيا تدفع للخلف قطعة كونسول، وترفع، وحدها وبسهولة، دولابًا ومكتب صدر – أين زوجاهما ؟ بعيدًا... ليستا فى حاجة لهما، لحسن الحظ : ما من شىء ثقيل فى هذا البلد الغريب وتعرف كاتيا أين تضع الأثاث لاستقبال جسد ليزا الهائل والشفاف، وأن تصنع لها شرنقة على قياسها. فبيتهم لا تحدُّه حدود : ففى نهاية غرف مُقبّبة طويلة، تلمح غرفًا أخرى مقببة، وأسقف مستديرة مثل البطون، وتحت هذه الانحناءات، فى هذه البطون، تشعر ليزا بجسدها يتضخم أكثر، يصبح سائلاً يلتصق بثنايا البيت. كما لو أنه الجنوب، ليزا تُحلِّقُ فى جسد طائر لم يعُد يَحُدُّه لا الفضاء ولا الزمن. تدور كاتيا بين قطع الأثاث وليزا تتمدد بحجم هذا المنزل الذى يمتد على كيلومترات كثيرة، منزلاً سوف يستغرق قرونًا لترتيبه، منزلاً يمكن العيش فيه لأكثر من مليون عامٍ...

أصوات تعلو فجأة، قوية ومزعجة: دخل ناس من الأبواب المزدوجة المفتوحة على الشارع، يظنون أن المكان مخزن بيع للبضائع، يريدون أن يشتروا، ويفاصلوا ويحملوا

(*) إقليم فرنسى فى الجنوب – الشرقى يتميز بمناخه الدافئ وشمسه الساطعة.

حاجياتهم... هل يتعين عليها أن تفقد الجسد الطويل غير الملموس الذى كانت تسبح فيه بهذا الانطلاق ؟ كاتيا تتجه نحو الزائرين وتتحدث بحزم إلى الدُخلاء : « إننا لا نبيع شيئًا؛ هناك أشياء لم نُدخِلها بعد، ولكن كل شىء سيذهب إلى مكانه، إنها مسألة وقت ؛ وأمامنا الوقت، لن تمطر الدنيا، اتركوا لنا الوقت...» ودخلت مجموعة أخرى من باب آخر وراحت تتسلل بين بوفيهين وخزانات أدوات المائدة. قالت كاتيا: « لسنا هنا فى محل عاديات» وغضبت :« هناك خطأ، إننا نريد الاحتفاظ بكل شىء.» يتجمع بعض المارة وهاتف يدق، كاتيا تفقد أعصابها: « إن الرد على الهاتف هو ما كان ينقصنى !» – صاحت ليزا التى تهبط، تهبط ببطء، فى حين يستمر الرنين ملحًا، لا يُطاق : « سوف أرد أنا». كاتيا التى أصابها الضيق، تدفع الناس بعيدا: « ليزا ! أسرعى !» ولكن ليزا لا تجد الهاتف وتجرى الآن بجسدها الصغير للغاية، المُكتنز، تجرى بين قطع الأثاث، ترتطم، هنالك زوايا فقط، أركان فى كل مكان تدخل فى لحمها، تتوجّع...

ضوء مبهر. صوت يقول «افتحى عينيك يا ليزا» وأصوات أخرى تتحدث حولها، أصوات لا تَسمع كلامها لأن هناك، بالقرب، أجهزة تتنفس عاليًا وتدق، تدق بلا توقف. « افتحى عينيك يا ليزا»، ولكن ما من شىء لتراه، سوى البياض: جدران بيضاء، لمبات نيون. « افتحى عينيك يا ليزا»، ظِلٌّ قاتم، ضد الضوء، على ستار معدنى أبيض. يقول صوت هناك: « إنها تَسمعُك»، وأصوات أخرى توافقهُ الرأى. «افتحى عينيك.» أمامها عجوز جالس بالقرب منها تماما، ويحيطه البياض. مشدود. الجبهة مقسومة نصفين : هذه التجعيدة الرأسية، بين الحاجبين، تتذكر ليزا أنهم يُسمّونها «تجعيدة الأسد»... هذا الأسد تحيط بجفنيه طيات كثيرة – تنظر إليها ليزا بتركيز كما لو كانت قد كُلِّفَت بأن تُحصى عددها – وله عُرْف رمادى، مُهترىء بَعض الشىء : وتحت الشعر نلمح نافوخه الوردى... وأسفل الوجه، لحم غير محدد المعالم، مُتهدّل – لم يَعُدْ لديه فكٌّ هذا الأسد ! ولكنه هو، هذا الأسد المُنهَك، الذى يكرر بلا هوادة «افتحى عينيك.»

ويقول أيضًا «ليزا، ليزتى، أنا ويليام». ويليام، هذا اسم تعرفه لِيزا، إنه اسم زوجها. تبذل مجهوداً وتَجرى بنظرها على الجدار الأبيض المحيط بالعجوز، تبحث كثيراً: ولكن لا أحد. السيد «كبير السن» يقول أيضًا «ليزا، أنا ويليام. هل تعرفتى علىَّ؟» هو ؟ لا بد أنه يمزح ؟ هى التى فى قمة الشباب، متزوجة من جَدٍ ! ودّت لو أنها إعترضت وأضافت أيضًا أنه قد فاض بها من هذا الهاتف الذى يدق، إنها تريدهم أن يردوا وأن يتوقف الصوت... ولكن، فى حنجرتها شىء يمنعها من الكلام، من الصياح، إنها عقدة، فوطة، ممسحة، تشعر وكأنهم يحشرون فجأة قُمْعا حديديا فى فمها، تختنق، سوف تتقيأ. بسرعة، فلتنزع كل شىء ! ولكنها لا تستطيع. تكتشف أنها لم تعُد تستطيع تحريك يديها أو ذراعيها، لقد أوثقوها فى السرير، إنها نائمة فى سرير أبيض، مُوثّقة من الرأس إلى القدمين ! عندئذ بكت فى صمت : دموع غليظة تسيل من عينيها... وويليام يربت على يدها ويقول بصوت ناعم : «كونى صبورة يا حبيبتى. إنها المحاليل. تحتاجين إليها. ولكنهم سوف ينزعون فوراً أنبوب الأوكسيچين. إنك الآن تتنفسين جيداً. هدّئى من روعك. لقد عُدْتِ. أنا هنا... معذرة يا آنسة (يتحدث الآن مع أحد عند رأس ليزا)، ألا يمكن أن نفعل شيئًا بالنسبة لهذا الجرس ؟ - أووه، إنها الغرفة ١٢ تستدعينا مجدداً ! يدُقّون لنا على مدار الساعة. لا تقلق: سوف نفصل السلك.»

سوف تحمل ليزا بعضًا من آثار «الحادث». المؤكد أن الأنبوب قد ترك ندبة صغيرة على أحد الحبال الصوتية ستجعل صوتها متحشرجًا من وقت لآخر، ولكن يكفى ألاّ نجعلها تتكلم. وعلى أية حال، ويليام ليست لديه النية فى خوض الموضوعات الحساسة : اتفقا سويًا على مجرد الثرثرة العادية. الأطباء سعداء: « ولكن ماذا يا دكتور عن مرافعاتها ؟ - حقنة كورتيزون قبلها تماماً، وتتم اللعبة !» التفصيلة الوحيدة التى تبعث على الضيق : مقدِّمة ذراعى السيدة ريتشارد جونز لن تكون، أعنى، « حسنة المظهر مثلما سبق». لقد نجح جراحونا فى إعادة الدورة الدموية فى الشرايين، ولكن الجروح كانت عميقة وكثيرة جداً بحيث لا يمكننا انتظار أن تكون الندوب غير واضحة. سيكون من الأفضل أن ترتدى السيدة جونز فى المستقبل أكمامًا طويلة،

أليس كذلك ؟» يفكر طبيب العيادة الشاب أنه فى سنها، لن يكون ذلك بكارثة: إذ يأتى اليوم الذى تُصابُ فيه كل السيدات بالبطريق، وترتخى عضلة الذراع المزدوجة ويتكوَّن تحت العظمة نفس الجيب القبيح الذى يحمله الطائر المائى تحت منقاره لتغذية صغاره. لم تعد السيدات ذات «البطريق» تكشفن أذرعتهن: حتى فى أوْج الصيف، تلبسْن الأكمام القصيرة فى صحراء ڤيكتوريا أو جريت ساندى. سيتعين على السيدة چونز أن تكون أكمامها طويلة، هذا هو كل ما فى الأمر.

ولكن لويليام فكرة أخرى عن المستقبل. كان لليزا أجمل أكتافٍ، وأجمل ثديين، وأجمل صدر فى العالم – هذا ما لا يعرفه الطبيب. وليس مطروحًا أن تجعل من نفسها عجوزًا قبل الأوان بإخفاء هذا اللحم الجميل تحت القمصان.

وهكذا استشار الزوج المَصْرف الذى يتعامل معه – لا زال فى إمكانه الحصول على قرض فى سنه، ولكن على أجل قصير المدى للغاية ... وذهب عند جواهرجى كبير واشترى سبع أساور ذهبية متطابقة، عريضة جداً: تُشكّل سويا إسورة سميكة جداً لدرجة أنها لن تتحرك إلاّ لسنتيمترات قليلة على الذراع المكشوف ؛ سوف تُخفى إذن الجروح وسرعان ما سوف تتعلّق ليزا بهذه الموسيقى المعدنية التى ستصحبها فى كل مكان. وللذراع الأخرى، أراد ويليام حِلية مختلفة، أكثر ابتكاراً، يمكن أن تجذب الأنظار لكى تخدعها على نحو أفضل: تذكّر، كمؤرخ تاريخى، عَضَد الذراع الجلدى الذى كان يرتديه الجند الرومان فى مقدمة الذراع وقاية من احتكاكات الدِرع ؛ وطلب من الجواهرجى أن يصنع له قطعة «مبتكرة»، عَضْدُ طويل من الجلد الفاتح، تغطيه قشور الذهب. حينما فاجأها بهذه الهدية، قالت ليزا متسائلة « إسورة العبيد ؟»؛ لم تكن قد غادرت المستشفى بعد، ذراعاها لا زالا مضمدان، ولكن، فى كل مرة كانوا يغيِّرون لها الضمادة، كانت تلحظ جيداً أن ما من دهان سوف يزيل أثر ما فعلَتْه فى نفسها – لقد نجحت هذه المرة، فى أن تُتلف نفسها «حقًا»: الأظافر المقضومة واليدان المُخربَشتان، كانت أشياء مؤقتة، تعود إلى حالتها الطبيعية، أموراً تافهة، ولكن اليوم، ذراعاها...» «إسورة العبيد؟» حين وجّهت السؤال بنبرة باردة، حينما سمعت نفسها

تتهكم بدلاً من الانخراط فى الشكر، بدا لها أن أمها هى من كانت تتكلم. أمها كانت تخشى أن تَلين لدرجة أنها كانت تسخر من قبل أن يمَسَّها التأثُّر، وترد بقسوة على أى تعبير طاغ عن اللطف. « إسورة العبيد ؟»: أمها لا تزال حية فيها، تتحدث، رغمًا عنها، بلسانها... ولكن ويليام لم ينسق للانفعال: « راجعى تاريخك القديم ! ليست إسورة عبيد يا سيدة ريتشارد چونز، بل إسورة جندى.»

بعد خمسة عشر يومًا من ذلك، حكت ليزا، التى كانت قد استعادت بعضًا من صوتها، حُلْمهاً لويليام، ذلك الذى أتاها وهى فى الغيبوبة: حدّثتْه عن جسدها الذى لم يكن له سن ولا حدود مليون سنة ودائمًا فى الصيف. « هل تدرى أن ذلك ربما كان الموت ؟ عطلة لانهائية. فى مناخ طيب، مريح. يشعر المرء أنه فى عنفوان الشباب يا ويل، يشعر براحة كبيرة، بأنه أكثر راحة !»

حكت أكثر من مرة هذا الحلم فى البيت الكبير، حلم الجسد السعيد فى المنزل المستدير، وأختها الكبرى بقربها تمامًا.

وفى وقت لاحق، حينما أعلن الأطباء أن ليزا أصبحت فى طور النقاهة، وأنها «لا زالت نفسياً هشة ولكنها تسير فى الطريق السليم»، وسمحوا بخروجها، اتّصل ويليام بشريك زوجته الشاب، فتى متميز وملىء بالمُثل العليا، الذى شرع فوراً فى القيام بكل ما هو عاجل ؛ ثم هاتف كاتيا. ولم يَضطر الاثنان إلى أن يتحدثا طويلاً.

(٢٦)

لا أجد إلاّ القليل عن أمى ما قبل مرضها: أحيانًا حركة، وصوت يبعثان مجدداً أمى «التى كانت». وفى بعض الأوقات، لحن أو موسيقى أسمعها فى الراديو: ذاك المساء، وأنا أخرج من الحمام بعد اغتسالى، وداعًا أفريقيا، أفريقيا الجميلة، إلى أين تذهب مياه طنجانيقا الزرقاء ؟ . الطبول الإفريقية والزغرودات، وها هى، فى وسطها، أمى. أمى ترقص، وتُموّج ردفيها وتحدد الإيقاع برأسها وذراعيها، وتدق الأرض، وداعًا أفريقيا ؛ إنها ترقص روائح أفريقيا، ضحكة أفريقيا، الأجساد العارية، والعرق والفرْح ؛ ولوين، الصديقة الأقرب، التى رحلت هى الأخرى، تنضم إليها فى الرقصة، تتواجهان وتبتسمان، أيديهما تتلامس، الأذرع عالية، والأكُفّ متلاصقة، أفريقيا الجميلة ؛ تتأرجحان ويدور بَطْنيهما مثل أقراص الشمس، إلى أين تذهب المياه الزرقاء ؛ وأمام المرآة، أرقص معهن، على دق الطبول، عجوز وشابة، ساحرة.

أحيانًا نرقص معًا ليزا وأنا، فى ذكرى أمنا. هى طريقتنا الخاصة فى الصلاة من أجلها.

بالمناسبة، تَحين نهاية العام، فى غضون خمسة عشر يوماً. وتذكرت فجأة أن العادة جرت على تنظيم قداس فى الذكرى الأولى لوفاة واحد من الأهل. سوف يتم القداس : وبما أن كنائس فونتوناى ومورتورول وصوليار وغيرها لم يعد يتردد عليها إلاّ الخفافيش، سوف أنزل إلى كليراك، بمناسبة «نهاية العام». وحدى، وحدى مع أبى، الذى سيصل بهذه المناسبة من لوهاڤر فى الصباح ويغادر مساء نفس اليوم – الكابتن دائمًا فى عُجالة، ومنزعج للابتعاد عن البحر ! وقد دعوت شقيقاتى، وأبنائى وزوجاتهم

وأبناء أخواتى إلى احتفال أكثر توافقًا مع تقاليدنا – حفل كبير، «العيد فى الطاحونة»، قالت دعوتى الإلكترونية « سوف نأكل ونرقص ونغنى»، وسوف تكون أمنا موجودة.

من الناحية الرسمية، جاءت ليزا من سيدنى لمساعدتى فى الإعداد لهذه الاحتفاليات؛ هذا ما طلبته منها بالاتفاق مع ويليام، ولكنها كانت فى البداية منهكة لدرجة عدم القدرة على القيام بأى شىء. حسنًا : يجب أن ترتاح. من المتفق عليه على أية حال، أننى سوف أُبقيها هنا بعد الحفل، بحجة أو بأخرى، طيلة شهر يناير ؛ بل وفبراير أيضًا إن أمكننى إقناعها. إنها أشهُرى التى أكتب فيها ؛ وأقضيها هنا فى كل الحالات: ففى باريس، أتفتّت.

حينما وصلت أختى إلى مطار رواسى، تعرفت عليها بالكاد : لقد تغيرت بشدة فى ثمانية أشهر! لم يعُد فيها شىء من نجمة النجوم! بل ولا حتى من المرأة « التى لا تزال شابة»، كانت مثل شجرة هبّت عليها عاصفة مفاجأة، لقد فقدت كل أوراقها. فى الصباح، أجلستها فى الطابق الأول من الطاحونة على مقعد طويل فى الشرفة الخشبية الكبيرة المطلة على البحيرة – كما كانوا يفعلون فى الماضى فى منتجعات العلاج مع مرضى السل الرئوى فى مرحلة النقاهة.وحينما كنت أجد لحظة فراغ، ألحَقُ بها، وأجلس فى مقعدى الخوص أقرأ لها الأخبار. اشتركْتُ، بضغط من أبنائى، فى جريدتيَ لامونتانى (الجبل) وليكو دولاپلان (صوت الوادى)، لكى أضمن مرورًا يوميًا لساعى البريد. فبدون ذلك، ما من أحد يمكن أن يعرف، فى أعماق هذا السهْل، إذا كنت قد مُتُّ أو لا زلت على قيد الحياة،... أقرأ لأختى الصغيرة المانشيت الكبير للإيكو :القبض على سارقيْن للأحذية. أُلقى القبض فى الليلة الماضية على شخصين فى حالة تلبس بالسرقة. كانا قد سرقا أحذية من ماركات شهيرة من محل بأوبوسون. كان لوكا ك. وكريم ب. قد عادا إلى مكان الجريمة حينما ألقت قوات مكافحة الإجرام القبض عليهما. وبعد عملية تفتيش عُثِر فى منزلهما على ثلاثة أزواج من الأحذية و...ست فرَد أحذية، يا ليزا، ستٌ !تصورى ! يا للسرقة الكبرى. نحن أيضًا، فى القرية، لدينا قصصنا المثيرة !»

تبتسم ليزا. أَسعَدُ جداً حينما تبتسم. نقطة من العسل فى المشروب المُرّ. قالت: «ولكنى أرجو أن تكون جرائدك تأتيك من وقت لآخر بأخبار من العالم، أخبار حقيقية، جادة...

ليكون كلا. أما لامونتانى فبلى : بعض المقالات فى الصفحات الداخلية. ولكنها ليست بأخبار، أو ليست بجادة. أترك لك الحُكْم: هل يوجد عنوان واحد يمكن أن يكون مختلفًا عما كان من عشرين عامًا ؟ شيراك، انقشعت الغيوم ؛ فجوة التأمين ضد المرض تزداد عمقًا ؛ كيف يمكن إصلاح أنظمة المعاشات... فى حين يفاجأنى فى إعلانات ليكو الصغيرة مثل اليوم ما وجدته عن للبيع: بوفيه من طراز لويس العشرين، فى حالة ممتازة هذه القطعة من طراز لويس العشرين وحالتها الممتازة تُسعدنى...»

أعرف أننى أبالغ. لو كان ذلك قبل مرض أمى لانتفَضَت ليزا: كيف يَسعُنى ألاّ أُبالى بحركة العصر، وبمصير المُعْدَمين، بضحايا التفرقة، الضحايا الأكثر ضحايا، الموتى الأكثر موتًا ؟ ولكنها اليوم، تظل صامتة. منهكة تمامًا. أم تُراها تراجعت عن أوهامها ؟ الحقيقة، بالنسبة لها ولى، هو أنه لم يعد هناك جديد: أمنا لا زالت ميتة، وتواريخ ميلادنا تزداد اصفراراً مثل الصور القديمة.

الهواء يُطَيِّر جريدتى، يحملها حتى الإفريز الخشبى، فى صوت عال من الأجنحة الخافقة (ليكو خفيفة كالريشة، تتكوّن من صفحتين مزدوجتين) ؛ أذهبُ لآتى بشال لأختى: نقضى «عيد الميلاد فى الشرفة». لا يزال الطقس دافئًا أكثر من المُفتَرض بالنسبة للشتاء، ولكننى لا أخشى من انقلاب الطقس: « عيد الفصح مع الجَمَرات» ؟ كلا. لقد تغير المناخ، حتى فى جِبالنا ، المواسم تتأخر، والجو يزداد سخونة. وفى هذه السنة، نستمتع فى منتصف ديسمبر بكرم « الصيف الهندى». لا زلت أجمع التفاح. أما تعريشة مخزن الحبوب فقد بدأت بالكاد تفقد أوراقها الأخيرة. نتناول القهوة فى الهواء الطلق. وبالأمس، شاهدنا أسراب البط البرى تتوالى مسافرِة لأفريقيا، بتأخير

مدته ستة أسابيع مقارنة بمواعيد الماضى؛ كانت تدور طويلاً فوق البحيرة، بحثًا عن التيارات، كنا نتابعها بالنظارة المعظِّمة من الشرفة الخشبية.

قالت ليزا « إن وجودها فى فرنسا فى ديسمبر لا يُعْقل. الطبيعة أصابها الجنون !

أكثر مما تتصورين: منذ ست سنوات زرعْتُ فى لحظة حماس شجرتىْ تين، عند رأس الحظيرة؛ وقد حصدت هذا الصيف، بعد موجة الحر الثانية، ثمرات تين رائعة ! تخيَّلى، فوق هضبة ميل ڤاش ؟ لقد وصلنا بالفعل إلى ارتفاع الحرارة لخمس درجات التى أعلنونا عن بلوغها بحلول نهاية القرن !»

والبحيرة التى تنعكس فيها أشجار القضبان والأرْز التى كان ميشا قد زرعها، البحيرة التى كانت فى الماضى تتجمد مياهها وتغطيها الثلوج منذ بداية الشتاء، تحتفظ الآن طويلاً بلونها الأخضر كلون حجر الأوپال.

تسأل ليزا فى قلق « هل تعتقدين أن منسوبه يقِلّ ؟»

نعم، فى يوليو وأغسطس، ولكننى فى يناير الماضى شاهدته على العكس يفيض ! لأول مرة فى حياتى ! تعرفين مدى العناية التى أقام بها ميشا قنوات تصريف فائض المياه، وكيف اهتم بنظام الصِمامات والمصبات وتحويل المجرى : ففى حالة حدوث عاصفة ضد التيار، لا ينبغى أن يمر جدولنا الكبير، لومالسينيا، بالبِركة، وإنما ينضم مباشرة إلى البحيرة. ولكن ميشا لم يراعِ فى حساباته الرياح الموسمية ! ففى الشتاء عندنا، لم تكن تُمطر، تذكّرى: كان الصقيع، هل تتذكرين تزلجْنا على البحيرة ؟ كان ميشا يشجعنا من فوق الجسر العائم... لن تَجِدى اليوم فرصة للتزلج. إن آخر مواسم البرد الشديدة تعود إلى ١٩٨٥ ؛ فى هذا العام، رأيت نباتات الفوزان تتجمد على سيقانها، وهى واقفة... والآن صار فى إمكاننا زراعة أشجار زيتون ! فمواسم الشتاء صارت دافئة جداً... دافئة ولكنها طوفانية ! أما عن المطر، فهى تُمطر بالفعل! لأسابيع متتالية ! فى يناير، بعد دفن أمى مباشرة، كنت أفتح جميع الصمامات، ومع ذلك كانت

مياه البركة ترتفع دون توقف. كان الجسر العائم قد اختفى، وقنوات تصريف فائض المياه تعمل بملء طاقتها، ولا فائدة. ووصل الماء إلى قمة حاجز الأمواج، إن هذه القنوات يا صغيرتى كان قد انتهى عمرها الافتراضى، كان الماء يندفع فى هذه المصارف التى كان قد وضعها ميشا على الطريق، فى هذه القنوات بأنابيبها العملاقة، فى دوامات عريضة بغير أن يحول ذلك دون صعود «المد»... تلك المصارف التى كانت الجدة تسخر منها («يبدو أن جَدّكم يتوقع أن يمر منِ هنا واحد من أنهار روسيا، أقسم أنه يعتقد أن طحّانى لاروش قد قطعوا مجرى الڤولجا !»). وفى خمس دقائق تحوّل الطريق بأكمله إلى شلال – شلال طوله مائتى متر كان يصبُّ بعد اثنى عشر متراً فى مِروَج البِرْكة. «مِروج» غريب، لم تعد ترى فيه نبتًا واحداً حيث كانت تتكوّن فى الأسفل بحيرة موازية للأولى ! ولما وجدْتُ نفسى مُحاطة بالاثنتين، اضطررت إلى ترك الطريق. إلى الاحتماء بالمنزل...

ألم تخافى أن تغرق الطاحونة ؟

كلا، ليس كثيرا. كل الطواحين معرضة للغرق، ولكن هذه لا تحمل اسم لاروش(*) بلا سبب ! فالطحّانين فى ١٥٣٣ كانوا قد وجدوا الوادى الوحيد الذى يمكن فيه تعليق العجلة على جسر جرانيتى عائم: بِناء من أربعة مستويات يتخذ شكل الصخرة – فالطاحونة يمكن أن تكونِ أرجلها فى الماء، ولكن رأسها سيظل دائمًا فى اليابسة !... بل إننى جلست فى الشرفة، فى مأمن من كل شىء، ونظرت إلى المشهد : البحيرة على كامل عرضها تصب فى مِروْج البِركة، كان مشهداً جميلاً يماثل شلالات نياجرا !

قالت ليزا :«أتمنى أن أشاهد نهاية العالم فى صحبتك.»

(*) الصخرة

ولم يكن هناك أثر للتهكم فى صوتها ؛ كان صوت طفلة صغيرة تحادث أختها الكبرى متوسلة إليها: «هل تسمحين من فضلك أن أموت بجانبك ؟»

كثيرًا ما تقول ليزتى أشياء غريبة، حين نكون من مجلسنا فى الشرفة الخشبية نتأمل روعة المشاهد الدخيلة على الموسم : البحيرة فى نهايات الظهيرة حين ينتقل لونها من الأخضر الأوبال إلى الأصفر العنبرى، وقت أن ينسكب الضوء الكثيف مثل المُرَبَّى – چيلى السفرجل وكومپوت البرتقال. ضوء بطعم السكر، وعِطر الخريف، فى حين أن الشتاء قد بدأ. لماذا تتأخر فى الرحيل هكذا الطيور الخوّاضة والبجع التى تعبر السماء ؟ تَتحرف فجأة فوق البحيرة وتختفى صائحة ؟ كل هذا التأخير... لا نشعر بالبرد ونحن جالسات فى «داتشانا»(*) الكبيرة. الشمس تداعب يدى ليزا وسواراتها الذهبية. تسألنى :

هل تتذكرين النمل ؟

أى نملٍ ؟

الذى قتلتُه، فى حديقة كليراك، حينما كنتُ فى السادسة. نَمْلُكِ الذى أغرقْتُهُ، وعاقبَتْكِ أمنا.»

لا أفهم شيئًا من حكاية النمل هذه، ولكننى لا أريد مضايقتها :

«لقد كانت لدى العديد من بيوت النمل ! وقد ماتت كل هذه العائلات منذ زمن طويل ! إن العمر الافتراضى للنملة...»

تسأل ليزا :

«هل تفكرين فى إعادة وضع عجلة فى الطاحونة ؟

(*) المنزل الريفى الروسى

لماذا بحق الرب ؟

لا شيء... لَمْ تحتفظى أيضًا بعربة المزرعة الخاصة بميشا، التى كانت عجلاتها زرقاء؟

أوووه يا ليزا، كل ذلك كان قد اختفى قبل وقت طويل من استعادتى المنزل... وعلى أية حال، لا أظن أن عجلات العربة كانت زرقاء.

بلى، لقد نظرت إليها بتمعن فى لحظة الموت : لونها أزرق سماوى وتدور فوق طرقٍ ناصعة البياض...»

هاهنا أيضًا، لا أفهم شيئًا. ولكنى أقترح عليها أن تبحث فى أسفل، فى جوف الإسطبل القديم، حيث بَقِيَت الكثير من الأشياء: يُحتمل أن نعثر على قطعة مِفصَل أو مِحور... قالت ليزا:

« لم تكن هناك رغبة فى مولدنا أنا وأنتِ. وكان العكس بالنسبة لڤيرا، وسونيا أيضًا.

معذرة ولكن إذا كان مجيء سونيا كان مرغوبًا فيه، فعلى أساس أن يأتى صبىٌّ ! تخيلى حجم خيبة الأمل !... على العموم، لم يكن أى طفل «مرغوبًا فيه» فى الماضى. خاصة وأن النساء كن يخاطرن بحياتهن مع مجيء كل طفل ! هل تدركين ما يعنى أن تنجب المرأة طفلاً كل عام ؟»

أحسست بأن ليزا متوترة بعض الشيء. تتضايق حين أتكلم فى التاريخ. ولكن الحديث عن أخطار الحمل المتكرر أمام امرأة عاقر يفتقر إلى اللياقة على أقل تقدير. لا يصدر فعلاً إلاّ عن «الرعناء. وقمت فوراً بصرف الانتباه فى اتجاه آخر: «وماذا لو أعددنا بعض الرقائق؟ إنى جائعة، أشتهى الرقائق»، وها نحن الاثنتان فى المطبخ حيث أشعلتُ النار فى عمق الموقد فى حين أمسكت ليزا بآنية السلاطة.

وأمضينا الأمسية بكاملها فى التهام رقائق بالشيكولاتة، والزبد والكونياك، ونحن نحتسى الشاى الأسود ونتبادل حكاوى أعياد الرقائق الماضية: « والمرة التى قلّبَت فيها سونيا إحدى الرقائق من فوق حبل الغسيل، وظلت معلقة فوق الموقد بين مشد صدر وفوطة مطبخ !» وتذكَّرت ليزا أغنية كنا قد تعلمناها فى «المدرسة الصغيرة» : حينما نصنع الرقائق عندنا تدعونا أمى، حينما نصنع الرقائق عندنا تدعونا أمى جميعا: واحدة لكِ، وواحدة لى، وواحدة لأختى الصغيرة إيدا، واحدة لى، وواحدة لكِ، واحدة لكل من ثلاثتنا. وانطلقنا لمصاحبة الأغنية فى رقصة سيو، وهى قريبة من اللف فى دائرة كانت المُعلمة فى كليراك تدرب تلامذتها عليها: حينما نصنع رقائق عندنا، تدعونا أمى... ثم فاصل من رقصة البولكا. آخذ ليزا بين ذراعى، وأرقص معها وأمنا ترقص معنا.

تحسَّن حال آخر عنقودنا، خاصة بعد أن تسلّمت مهمة المشاوير إلى المدينة عاصمة الإقليم وإعداد المآدب. تطهو بعناية بعض الأصناف : معها حق، فالاعتماد على فى هذه الأشياء ليس وارداً !... بدأت الخروج من الأزمة منذ أن احتفلنا بـ «نهاية العام». الحق يقال أن الحفل كان ناجحًا : فأبنائى، وأبناء شقيقاتنا، وزوجاتهم وصديقاتهم، ارتدوا جميعًا الملابس التنكرية – واستحقت ڤيرا كالعادة الجائزة الكبرى، فقد ظهرت متنكرة فى زى شرطى المرور، مع الشارِب المناسب ؛ ما هو أوقع هو أن الزى كان حقيقيًا؛ لم يكن زيًا تم استئجاره عند تاجر أقنعة، بسيف من الخشب وقبعة ذات قرنين من الورق المُقوّى ؛ كلاّ، كان زيًا معاصراً... لا أعلم كيف تتصرف للعثور على مثل هذه الملابس.

وبعد العشاء على ضوء الشموع، صعد الشباب إلى الصندرة لكى يرقصوا فى ذكرى بابوشكا ويتحاكوا عن مِهنِهم ومشاكلهم، وربما قصص حبهم ؟ : يبدو أن ڤيرا ستصير جدة. هى أيضًا ! لا أحب هذا : فدور الحضانة مقابر...

وبقينا تحت نحن الأربعة. وشاهدنا بإعجاب سوارات ليزا. سونيا تعتقد أنه ينبغى لويليام أن يسجل براءة اختراع درع الذراع المصنوع من جلد النعامة: « يقينى

أن مصمم أزياء مجنون مثل جاليانو يمكنه أن يتيه عشقًا بهذا الشيء !» كنا نبحث في طريقة لتحسين النموذج بحيث لا تشبك شرائح الذهب بغُرز السترات الصوفية حين التفتت ليزا ناحيتي فجأة: «هل تؤمنين بالله ؟» لازالت تجد صعوبة في تركيز انتباهها، ويتوه منها خيط الحديث وتقفز من موضوع لآخر، مثل الأطفال. وأجبْتُ مثل الكبار : «تلك مسألة معقدة. لا يمكن تناولها في الثالثة صباحًا. سوف نتحدث عنها فيما بعد إن أردت. والآن سوف نُعِدُّ بالأحرى حساء البصل للفتيان...»

وأثناء تقشيرنا لحبات البصل، قالت ليزا: « كانت أمي غَضْبىَ منّا في الأوقات الأخيرة... ردت ڤيرا - ربما كانت غضْبى ولكن ليس منّا. أستطيع أن أقسم لكِ على ذلك !» قَسَمٌ ؟ ليزا الطفلة لم تعد في حاجة لإيضاحات، يكفي أن نطمئنها. بكل حزم. وقد أدركت ڤيرا ذلك، فعاودت : «أعرف ماذا كان يُغضب أمنا. وليس له علاقة بنا. أدنى علاقة. إنها فقط قصة قديمة كانت تطفو على السطح. هذه الأمور تحدث حين يكون المرء مريضًا جداً...» لا أعلم إن كانت «شُرطيّتُنا» تفكر في شيء محدد. الأهم هو أن نشعر بالراحة.

كل واحدة منا لديها طريقتها في تقشير البصل : ڤيرا ترتدي نظارات شمس؛ وسونيا تُقشّرِها تحت الصنبور المفتوح ؛ ليزا تلبس قفازا من أحد أكياس الحفظ بالفريزر، ولا «تلمس» الحبات إلاّ عبر الحاجز البلاستيكي ؛ أما أنا، فأُوقِف النفس. مؤكد أنني في النهاية أعود للتنفس وتبكي عيوني أيضًا، ولكني آخرهن في فعل ذلك، لأن عيوني سوداء.

هذا المساء إذن كانت ڤيرا تُعْمِل المِبْشَرة ؛ وسونيا تُقشر الحبات وهي تطلق اللعنات، «تبا يا فتيات، لقد بدأ البكاء !»، أما ليزا فكانت تقَطِّع الدوائر وهي تنشق. فتحتُ النافذة لطرد الرائحة. وسرعان ما غطى صوت الشلال على خشخشات المِبشرة وأصوات رقصة الراب القادمة من الطابق الثاني. وعلى خلفية الشلال هذه، صاحت ليزا فجأة، بين نشقتين :«هل عرف أبي بأخباري ؟»

إن المحامين، مثلهم مثل الكُتّاب، نادرًا ما يستخدمون كلمة مَوضع أخرى. إننا نتشارك ليزا وأنا في عبادة الدقة : لم تسأل إذا كان «رحّالتنا» قد سأل عن أخبارها، وإنما، بواقعية أكبر، إذا ما كانت إحدانا قد نجحت في إيصالها إليه... وهذا ما حدث: تحدثت ڤيرا وهي تصيح بدورها حتى نسمعها عن مكالمتين هاتفيتين ، وأن « الأب أبدى قلقه الشديد عليها !» شيء محتمل : فقد كان دائمًا مهمومًا بصحتنا. فحينما كان يمر بكليراك، لم يكن يكفي أن نُظهر له دفتر درجاتنا التي تحوي الإشادة، كان يتعين أيضًا أن نُريه خطًا مرتفعًا في منحنى النمو... لا أتصوره متساهلاً إزاء الانتحاريين. أما بالنسبة لوسيلة التنفيذ التي اختارتها ابنته – أقراص المنوم والنزيف – فقد ظن بالتأكيد أنها «فكرة نسائية !» وقد علِمْتُ من ڤيرا، التي لن تفصح شيئًا عن ذلك لليزا، أنه في أول رد فعل، أنهى الاتصال التليفوني غاضبًا بمَثَل روسي كان يذكره ميشا: «حينما لا يكون لديك ما يكفي من المشاكل، تشترى البعض !». هو هكذا، الأب «عابر المحيطات»، أب لا يحمي، الأعزب بالفطرة، الغريب حتى عن نسله الخاص. وبالتالي، فقد نَسِيتُ حتى مجرد وجوده: بالنسبة «للحفل»، تقول ڤيرا أنني أخطرته متأخرًا – كان قد دفع بالفعل مقدّمًا لرحلة بحرية... ولكنه بعث لليزا «مُشتَرِية المشاكل» علبتين من الشيكولاتة ؛ وسوف يأتي إلى الطاحونة في فبراير إن كانت لا تزال هنا. سوف تكون هنا: أحب رائحتها، رائحة الإنجليزية النظيفة، وشخشخة سواراتها السبعة وخطواتها الخفيفة على الدَرَج وبخار الخُضَر التي تنضج في الإناء ورائحة الكعكة التي تُخرجها من الفرن – «كاتيا، هل صحيح أنني لا أسبب لك إزعاجًا ؟»

والآن هي التي تُعد لنا الشاي، وتغلق النوافذ، والسواتر وتضيء اللمبات، وتُسمعُني ارتعاشات صوت البومة في شجرة الكستناء، وسرسعة البوم الأصم التي احتلت برج الحمام القديم، فوق مخزن الحبوب: ففي الليل، الأم تصطاد بعيدًا، وصغارها القلقون ينادون عليها دون توقف.

وذات مساء، ولدى ذهابنا لرفع مجرفة الطحن بالبِركة، شاهدنا البومة الكبرى تطير فوق رؤوسنا تماما : ولوهْلة حجبت عنا أجنحتها البيضاء المفرودة القمر. كانت تصعد، حرة فى الليل، مثل نَفْس راضية.

قالت ليزا وعيناها مثبتتان على الطائر الذى كان يلامس قمة أشجار الأرْز: « أمنا... أمنا كانت كلُّها لنا... كانت كلها لنا ولكنها كانت تريدنا كلنا لها...

ليزا، انتهى الأمر الآن، لقد أصبحنا عجائز: اتركيها ترحل.»

أقامت أختى مقرها الشتوى فى مكتبتى، غرفة كبيرة بطابق أوسط. تُبدى إعجابها بنتائج أعمال استغرقت ٢٥ عاما، توافقنى الرأى فى الفواصل التى أزلْتها والغرفة العائلية الحقيقية التى أقمتها، وحديقة شجر القضبان، حيث ننتقل بهدوء من مكان طهى الوجبات إلى مكان أكْلها، ومن مكان أكلها إلى مكان هضمها. « هذا بالإضافة إلى أن هذا البلاط القديم، والعوارض الخشبية المُلَسترة، والمنضدة الطويلة وخزانة الأطباق، كلها تتناسب مع طراز الطاحونة»

لم يكن جدّانا يشغلان هنا سوى غرفتين: وكل ما عدا ذلك ذهب إلى الزراعة. فالمسكن، الكائن فى نهاية المبنى، كانت أرضيته من الأسمنت الخام، وجدرانه متكلسة، اكتست بالسواد من أثر الدخان ويشغله أثاث كانوا يظنونه «حديثا». فباستثناء الموقد الضخم من الجرانيت، وكان أصليا، فإن كل مواد البناء القديمة والأثاث التقليد من الطراز الجوستاقى، التى تُشكِّل اليوم جمال الطاحونة، «مستوردة». وفى يوم من الأيام، سوف يلقيها شخص لا أعرفه فى الصندرة ويعود لفورمايكا الجِدّة...

نسير فى الغابة ؛ الجو لا يزال لطيفا، مُذهَّبًا ومُعطَّرًا على غير العادة. جو جميل يطول ويطول بعد زوال موسمه... أُريها الأماكن التى مرت بها أنثى الظباء بين نباتات السراسخ، وتلك التى جلست فيها على الأوراق الجافة بغابات أشجار الزان هذه. تبرق البحيرة من خلال الأغصان العارية، مثل قطرة مطر فى شبكة عنكبوت.

صقر جارح يطير فوق غابة أشجار الأرْز. طيران بطيء. بدون اضطراب لا حاجة له. ولا ارتعاشات أو فزع. طيران أكثر نعومة حتى من صفحة البحيرة. يبعث على الراحة. موزون. يبدو لى أننى لو كنت من فئران الغيط لشعرت بالطمأنينة وأنا أتأمل طيران الصقور الجارحة... بشرط بقائى فى جُحرى ! ليزا تابعت نظراتى وقالت:

« كانوا يتحدثون مساء أمس فى التليڤزيون عن وباء جديد، أو بالأحرى عن مخاطر حدوث وباء. ليس التهاب الجهاز التنفسى الحاد أو أنفلونزا الطيور، كلا : شيئًا لا ينتقل من خلال العصافير. الذباب سيكون واسطة النقل.

ذباب ؟ سوف نرى لاحقًا إذن. فى الربيع القادم... لا خطر على الإطلاق فى الشتاء !

من ناحية المبدأ نعم. ولكن الجو ليس باردًا حاليًا. أو ليس باردًا بما يكفى. بالأمس، قَتلتُ دبورًا فى غرفتى...»

مع أننى كنت قد نصحت ليزا بعدم مشاهدة الأخبار التليڤزيونية، بل وأوصيتها بعدم فتح الجهاز إلاّ بعد النشرة المسائية، فقط من أجل أخبار الطقس. ليست مطيعة كثيرًا الأخت الصغيرة ! لحسن الحظ أنه ليس لدى الإنترنت !

تتعجب: « لا أفهم كيف لا تكونى مشتركة فى خدمة الإنترنت.

أنا مشتركة فى باريس، ولكن هنا فوق الهضبة ليس لدينا خطوط فائقة السرعة.

ولكن السرعة البسيطة أفضل من لا شىء !»

كيف عساى أن أشرح لها أننى لم أعُد أرغب فى أن يكون لدَى العالم على الهواء ؟ ولا أن أشعر بالمخاطر الضخمة تُحلِّق فوق رأسى. بل ولا حتى فى معرفة أى يوم نحن. إن جُحرى كفأر الغيط ليس عميقًا بما يكفى.

توجد على البُعد، الحروب والأوبئة والاعتداءات والاغتيالات، غير مرئية بالعين المجردة. وتوجد هنا الظباء ورحمة السماء... ولكن ليزا « الأكثر وعيًا بالأمور»، تهز

سواراتها وذراعيها المُمزّقين (اللذين يبدوان مثل ذراعى الرجل المسلوخ الذى كانوا يريننا إياه فى حصص العلوم الطبيعية.)(*)، تهز سواراتها وتبرطم، تهمس: «انظرى للحقيقة فى وجهها» (هذا بالذات كلا !)، «المصيبة بعيدة، والموت بعيد، ولكنهما يقتربان...»

أُغلقُ العيون، والآذان، وأقترح عشاءً من الرقائق بمربى التوت، نأكلها ونحن جالستان على سجادة المكتبة ننصت لقيثارة كوپران.

فلنتنزه فى الغابة مادام الذئب غائبًا عنها. نقتفى آثار خطى الظباء. فى هذا الموسم، الحيوانات المفترسة تختبئ لأنها تسمعنا قادمتين، الأوراق تُطرقع تحت خطواتنا. ولكننى أعرف منذ زمن طويل عاداتها ومساراتها. الشىء الغريب، هو أن الحيوانات لم تتعلم، بعد كل هذه القرون الطويلة من المطاردة، أن تُضلّل الإنسان عن طريق تغيير مآويها أو مساراتها: لكى يهربوا منا، يختبئون أرضًا أو يهربون ركضًا، ولكنهم لا يغيّرون مكانهم أبدًا. أقول لأختى « سوف نعثر على القبيلة بأكملها، إن آجلاً أو عاجلاً، حتى لو أن الصوت كشفنا. إن الظباء رغم تخوفها، تعجز عن الهجرة، حين يبدأ العدو فى التردد على أراضيها !». ولما وصلتُ إلى نهاية الممر، توقفت ليزا إيڤانوڤنا (كانت ڤيرا على سبيل المزاح تنادى أختنا الصغيرة بلقبها على الطريقة الروسية، وقد انتقلت إلينا العدوى فصرنا جميعنا نناديها هكذا)، توقّفْت لاهثة وسارحة. قالت: « الهجرة، فَعَلْتها أنا. كنت أريد جزيرة... — وقد وجدْتِ أستراليا.»

إطلاقًا : انفَعلت، أستراليا قارة، كما أنهم يكرهون الفرنسيين (غريبة، كنت أظن أن لكنتها تسحر القضاة والكانجورو، كنتُ مخطئة إذن)، لم تكن تريد أستراليا

(*) كان التلاميذ الفرنسيون يطلقون هذه التسمية على صورة جسم الإنسان التى يبدو فيها الجلد شفافًا ويظهر ما تحته من شرايين وأوعية دموية وأجهزة بألوان مختلفة .

بأى حال، كانت تبحث عن جزيرة صغيرة، غير معروفة أو مسجلة، من نوع جزر روبنسون كروزو.

مؤكد أننى لا «أواكب تفكيرها»: ففى يوم تعاتبنى على عدم التقاطى للفضائيات، وعدم وجود الإنترنت، وعدم اهتمامى بالمجاعات فى دارفور وبمصير البدون ؛ وفى اليوم التالى تريد الانعزال تحت أشجار جوز الهند بدون ترك عنوان ! تحت أشجار جوز الهند أو تحت الثلوج : لم تقطع اختيارها بعد ؛تَذْكر آيسلاندا أحيانًا، إحدى الجزر الصغيرة بين ريكجاڤيك وجروينلاند ؛ حالتها أفضل صحيًا، ولكنها نفسيًا لا تزال متضاربة... ولكى لا أضايقها أقترح عليها سان بيير بالأحرى. أو ميكلون: فعلى الأقل السكان الأصليين يتحدثون الفرنسية !

« على أية حال، لن تَجِدى أبدًا أفضل من لاكروز، كجزيرة نائية. هل تتذكرين شعارات لجنتنا المختصة بالسياحة فى التسعينيات ؟ لاكروز لا تزال سرًا للعالم أجمع. وأيضًا : لاكروز جزيرة نصل إليها سيرًا على الأقدام ؛ كم كان جميلاً هذا الشعار الجزيرة التى نصل إليها سيرًا على الأقدام...

تُضحكيننى بجزيرتك هذه ! ربما كانت الطاحونة بعيدة عن الأغبياء، ولكن ذلك لا يحول دون اعتمادك من أجل البقاء على الآخرين، على المجموع، حتى وإن كنت لا تتعاملين معه إلاّ لمامًا ! فإن تسبب غدًا وباء، أو حرب، أو حادث تشيرنوبل أيًا كان، فى إشاعة الفوضى بالبلد، ستجدين نفسك بدون ماء شُرب، ولا كهرباء ولا خبز. لا أتحدث حتى عن شريحة اللحم !

اسمعى يا ليزا، سأعترف لك بكل شىء: لقد جعلتُ من نفسى فى حالة اكتفاء ذاتى.

ماذا تعنين ؟

انتظرى، لقد أسأتُ التعبير: إن الطاحونة بالطبع هى التى جعلتُها فى حالة اكتفاء ذاتى... هى فكرة خطرت لى بعد العاصفة الكبيرة»

كان الإعصار الذى اكتسح فرنسا منذ سبع سنوات قد دمّر الهضبة: اتهرست الغابات، واقتُلِعت عواميد الكابلات وانقطعت الطرق. كنت فى الطاحونة مثل كل شتاء، ووجدت نفسى معزولة عن عالم الأسلاك. عشرة أيام بلا إضاءة، ولا تدفئة، ولا هاتف، ولا تليڤزيون، وبدون إنقاذ. وكانت هذه هى اللحظة التى قررت فيها إعادة النظر فى نظامى.

وكان الإصلاح الأول: استبدال مِدفأتى التى تعمل بالمازوت بأخرى تعمل بالأخشاب، وبالتسخين المائى بحيث تُدفئ المياه الطوابق العليا بدون مُعجِّل كهربائى. وكان لجِدّانا اثنا عشر هكتاراً من حقول الشجر الصغير حول الطاحونة، فطلبت تخزين ما يكفى استهلاكى من أعواد الحطب لثلاث سنوات أسفل مخزن الحبوب – ترقبًا لما سيحدث... وكان الإصلاح الثانى هو : إعادة تشغيل فرن الخبيز – أصلحت بابه، وجئت بحِزَم أعواد نبات الوزال ووجدت، فى سوق للعاديات الجاروف ذا اليد الطويلة اللازم. بالنسبة للتغيير الثالث، فقد شعرت بضرورته فى « سنة موجة الحر الشديدة»: إن المياه فى المنطقة مُحصّصة ؛ وكل مساء، بعد أن أكون قد قمت بتهوية أمى بالمروحة طوال اليوم، وحين كانت الحرارة تهبط تحت الأربعين، كنت أملأ الدِلاء من الشلال لإنقاذ زهور الكوبية الزرقاء وشجرة الجنكو بيلوبا؛ وفى طريق عودتى من الساحل كنت أحس كأننى أصور فيلم چون دوفلوريت. حينئذ تذكرت يُنبوعَىْ ميشا، ذلك الذى كان قد التقطه فى الماضى فوق المنزل، من أجل إمداد الإسطبل، والآخر الذى كان يصب فى الحوض، بعد امتلاء الخزان. وجئت بمن أصلح نقط الالتقاط المحطّمة، وانتزع نباتات ذيول الثعلب واستبدل المصارف الفخارية بأخرى من البلاستيك الدائم الذى لا يَبْلَى، وأضاف قامعًا – ومنذ ذلك الحين أصبح لى ماء « من عندى»، فى المطبخ ودورة المياه...

وعلى مر المواسم، ضاعفْتُ من الاستقلال الذاتى للمنزل، بتشذيب أشجار الكمثرى، وزرع أشجار الكرز، وإعادة تشغيل البستان القديم. ثم استبدلت أحد هواتفى الإلكترونية بجهاز قديم ذى القرص الدوّار وجدته فى الصندرة، وقمت بتموين

دولاب الصيدلية، واشتريت شموعًا ، وخزّنت فى الإسطبل ثلاث أو أربع أنابيب من غاز البوتان: ما يكفى لإعداد عدة مئات من الوجبات قبل الاحتياج إلى تشغيل المَوْقد الكبير... وتساءلت ليزا: « وماذا أيضًا ؟». جلَسَتْ فوق جذع شجرة قديم فى وسط الغابة ولا أعلم إن كانت النظرة التى تلقيها علىّ تحمل الإعجاب أم السخرية. وأخْرجَتْنى الجملة التالية من دائرة الشك: «آمُل أن تكونى قد فكّرتِ أيضا فى الزيت والسكر، مثل الأربعينيات !»

ولكن هذا لا يكفى لإرباكى: «بالتأكيد. ولم أنْس الملح الخَشِنِ الذى لا غنى عنه لحفظ الأطعمة فور عدم توفر الفريزر... وحين سيأتى سكان هذا المنزل على تموينى من الدقيق، سوف يُمْكنهم اللجوء إلى "أبو فروة ": فلم يَعُد أحد يجمعها. مع أن جدتى سولانچ، كانت تحكى لنا أن أهالى الهضبة كانوا فى طفولتها يقتاتون على العصيدة وخبز "أبو فروة" من أكتوبر وحتى مايو. على أى حال، أنا أحافظ بالفعل على تفاحى فى بستانى حتى شهر مارس. وبالنسبة لأبو فروة، يتعين علينا فقط أن نتعلم من جديد كيفية تجفيفه. وربما أيضًا، أن نتبنى بقرة : فأبو فروة أفضل مذاقًا مع اللبن... – وبالمرّة تبنِّى أيضًا حصانًا :لكى تربطى به العربة على طريقة طائفة الأميش الدينية ! بالمناسبة، كيف تعتزمين الدفاع عن مياه ينبوعك وثمار أبو فروة، إذا ما حاول من هم أقل بصيرة منك أن يستولوا عليها فى وقت الشُح ؟ – لدى أسلحة. بندقية ميشا القديمة وطبنجته... يجب فقط أن أشترى بعض الذخائر.

واستأنفنا نزهتنا، فى صمت. أختان عجوزان صغيرتان. جَنْبى يعاود إيلامى. حان الوقت للعودة للمنزل. لم نَرَ الظباء. الليل يهبط. سوف نُحَضّر رقائق محشوة بكريمة أبو فروة لوجبة بعد الظهر الخفيفة. عند عبورنا الجسر الخشبى الصغير فوق البحيرة سألتنى ليزا: « ماذا تخْشين، بصراحة ؟» وسمعت نفسى أجيبها: «المستقبل.»

ماذا تخشين ؟ « المستقبل» : هذا غباء ! غير عقلانى بالمرة، مادمت سأكون قد متُّ فى المستقبل. إلاّ إذا...

فلنتنزه فى الغابة طالما غاب الذئب عنها... دُرنا حول البحيرة. بعدما أموت ستواصل الطاحونة الحياة، من أجل أبنائى أو من أجل أغراب. ستظل مُرتوية، ومُغذّاه، ومُدفّأة وستبقى البحيرة جميلة – جوهَرة. الجو دافئ لدرجة أن ليزا تود أن تغمس قدميها فى الماء. « حاذرى، تذكرى أن : الماء أعمق وأكثر برودة مما نتصور ! إن البحيرة، بتاجِها من شجر الأرز، و حوافها من شجر القضبان والبقع المُحمرة لشجر القيقب التى تظهر من مسافة لأخرى، تبدو مثل بحيرة كندية كبيرة، فى شكلٍ مُصغّر، أو روسية. إن حلم جميع شخصيات تشيكوف، وحلم ميشا، كان « منزلا صغيرا على شط بحيرة»، أن يعيشوا أيامهم الأخيرة فى « منزل صغير على شط بحيرة».

أعلنتنى ليزا فجأة « سوف أبيع موررترول»

فكرة جيدة !»

قليلاً ما تذهب لهذا المنزل، الذى لم يكن أبداً منزلاً عائليًا.

« وأفكر أيضًا فى تغيير مهنتى، فى أن أهتم بالأرقام بدلاً من الناس، مثل ڤيرا. إن الأرقام تمنح حماية كبيرة... يمكننى أن ألتحق بمكتب أعمال والاشتغال بالدمج – الشراء فى البلاد الأنجلوسكسونية، لدى دراية طيبة بالقانون الإنجليزى – الإجراءات واللغة –، قلة من الحقوقيين الفرنسيين يتمتعون بكفاءتى فى هذا المجال.

بالتأكيد.

سوف أعود للاستقرار فى باريس...»

فكرة أقل جودة. لا أعرف ماذا أقول : إنها تكره باريس، عادة ما هى تكره باريس، مؤكد أن حساسية ليزا مثل المتاهة، ومسار حياتها سر، وانتحارها لغز، ولكن من الواضح أنها لو عادت إلى باريس فسوف تكتئب. ينبغى إذن أن تحتفظ بملاذ:

قلت لها « يمكنك أن تأتى إلى الطاحونة وقتما تريدين، إننا نتفق جيداً نحن الاثنتان، لا حرج بيننا... بل يمكننى أن أُرتّب انتقال حق الانتفاع إليك حال موتى.

إذن أبيع مورترول...

نعم، إن موقعه جيد، سوف تجدين إنجليزاً...

وأبحث لنفسى عن عمل فى باريس، فى مكتب دولى...

ولم لا ؟

ثم أحصل على الطلاق من ويليام...

أووه كلا، هذه فكرة سيئة ! سيئة للغاية !»

ماذا يحدث لها ؟ تقول وتفكر فى أشياء غريبة. إنها خرقاء. نظن أنها طبيعية. أو على أية حال أنه تم ترميمها. ولكنها لا تزال خرقاء...

ومع ذلك، ففى اليوم التالى، ونحن نضع الزبد على شطائرنا فى الإفطار، تحدثت عن أنها سوف تتبع نظاماً غذائياً لفقد الوزن : «بدأ بطنى يكبر.» حين تقرر امرأة فى سننا أن تتناول القثاء المسلوقة وتحرم نفسها من الحلوى، يعنى ذلك أنها تجاوزت مخاوفها الوجودية. هذا على الأقل ما اعتقدته... ولكنها سألتنى وهى تملأ غسالة الأطباق، بمزيد من الإطناب (كما لو كانت تُعدُّ لمؤتمر ڤيينا) – إن كنت أوافق على قضاء بضع ليال فى غرفتها: تخاف فجأة من أن تتعرض لكوابيس... لا أحب تغيير سريرى، واستغرقتُ وقتاً للعثور على مرتبة تناسب آلام ظهرى، ثم أننى أصاب بالأرق إن أطفأتُ النور مبكراً. أُفضّل الدخول فى النعاس وكل الأنوار مضاءة، خاصة منذ وفاة أمى... ولكن كيف لى أن أرفض ؟ أنا الأخت الكبرى، وهى «الصغرى».

فلنتنزه فى الغابة... ها نحن قد رأيناهم هذه المرة، الظباء ! رأيناهم نحن الأربع: كانت ڤيرا قد وصلت لتوها من سان ليونار لقضاء عطلة نهاية الأسبوع فى الطاحونة، وفاجأتنا بإحضار «ڤيرزونتنا» معها، سونييتشكا، ورأينا نحن الأربع الظباء فى المرعى الواقع على حواف غابة الأرز. رأيناها وجها لوجه، نحن فى الظل وهى فى الضوء. كانت أربعا هى أيضاً: شادنان وماعزتان. قطيع لم أكن أعرفه : هل هم أغراب ؟

أَسْكتُ أخواتى بحركة من يدى ولكن الحيوانات المرتعبة كانت قد قفزت فوق السياج العُشْبى. «قفزت» ليست بالكلمة الدقيقة هنا: فهى لم تركض، ولم تَصِحْ، لقد ارتفعت عاليًا فوق السياج، بدون انطلاق ولا مجهود، كما لو أن السماء كانت تجذبها. لا بد وأن قيامة المسيح وارتقاء العذراء كانا شيئًا من هذا القبيل. فيما عدا أن الظباء واجهتنا بمؤخراتها فور عبور السياج...

ومع ذلك فقد كنت لا زلت فى حالة انبهار حين صاحت كاتيا التى كانت قد سبقتنى: «يا للخراب الذى سببوه لك يا كاتيا يا مسكينة !» كانت الظباء المجهولة قد نزعت قشرة كافة جذوع الشجر والتهمت الفروع المنخفضة للشجيرات: «مذبحة.» وتضاحكت سونيا، المنزوعة القلب، من غضبى: « الأقذار! وماذا سيفعل هؤلاء البُلْهاء يوم لن يكون هناك غابات، ها؟. وراحت تغنى دخلت فَرَسة ميشا ومُهرها المرج والتهما التبن كله، أغنية بريتانية قديمة كانت لويزا قد أحضرت لنا إسطوانتها قبل ثلاثين عامًا لدى عودتها من عطلة فى كونكارنو ؛ وكانت ليزا، التى لم تكن وقتها على دراية بلكنات الإقليم البريتانى، قد حوّلت الأغنية إلى «فرسة ميشا»... وذاك اليوم، فى مرج ڤارنيى بعد الظهيرة، ضمت ڤيرا صوتها لصوت سونيا :سيأتى الشتاء يا شباب، سيأتى الشتاء، وسوف تندم فرسة ميشا. وانضمت ليزا بدورها إلى الكورَس وغنت :دخلا إلى المرج والتهما التبن كله ؛ إنه لحن غاية فى المرح وملىء بالإيقاع ، وكان الجو ربيعيًا، ولم أكن سأبكى على غَرْسات شجر لن أكون عمومًا موجودة للإعجاب بنموها ! وانضممت لصوت الثلاث الأخريات المرح ،فرسة ميشا سوف تندم.

كنا أربع بناتٍ، نحن أربع شقيقات؛ وقد وقفنا فى دائرة بدون أن ندرى. ڤيرا بدأت إحدى حركات الرقص وقالت ليزا: « نرقصها سويًا يا بنات ! وحدّدت ڤيرا – على الطريقة الأوڤرنية – «الأوڤرنية» رقصة شعبية تضم أربعة راقصين، كان ميشا وأمنا قد علماها لنا فى الماضى. يُفترض فى الأساس أن يكون الراقصون رجلين وامرأتين، من أجل آن يتواجهوا بالشكل المناسب: الرجلان يدقّان الأرض بالقدم ويخبطان كلٍ قِبقابه فى قبقاب الآخر، ويُأرجحان الأذرع والمرأتان تتمايلان وتتسللان

بين بكَرات سنارات الصيد، بخطوة هادئة وعيون خفيضة. كانت أمى تجعلنا أنا وڤيرا نقوم بدور الرَجُلين والصغيرتان تمثلان المرأتين وهما تتدللان. وفوق عشب المرج، بدأت «الصغيرتان» تتقابلان، وهما تستعيران رقة الفراشات، رغم بنطاليهما السميكين وأحذية الكاوتشوك الطويلة ؛ سونيا السمينة ترفع بيديها أطراف سترتها الفرو ذات غطاء الرأس. أما ڤيرا وأنا، فقد قمنا بدق الأرض بكعوبنا وتقدمنا للأمام: سيأتى الشتاء يا شباب، سيأتى الشتاء، وفرسة ميشا سوف تندم...

إن «الأوڤرنية» رقصة سريعة تبدو أسرع إيقاعات الروك بجانبها بطيئة مثل الألحان المفرطة فى الهدوء. وها نحن إذن، أربع خمسينيات وسط الغابات، نرقص ونغنى فى نفس الوقت ! ونضحك فوق كل ذلك. تقول سونيا لاهثة: « سأموت، إنكم تقتلونى !» وتصيح ليزا: « توقّفْن، سوف تُصبْنَنى بالصداع النصفى !» أما ڤيرا فكانت تحدجهن بنظراتها وتدق الأرض بدقات متسارعة وتكرر بأعلى صوتها :فرسة ميشا سوف تندم. العرق يقطر على جبيننا، وأنفاسنا لاهثة وأحذيتنا الطويلة تنزع كتلاً من التربة، خطوات الجيج وآلات الأكورديون القديمة، كنا ننطلق إلى الماضى، نقفز فوق الأسْيِجة، سيأتى الشتاء يا شباب، سيأتى الشتاء... سيأتى الشتاء، بالتأكيد. ولكن متى ؟

(٢٧)

السماء تمطر. تمطر منذ ثمانية أيام بلا هوادة. أول أمس بلغ منسوب المطر ثمانية سنتيمترات خلال الليل ! ولا رياح. ما من شيء لإبعاد السُحُب. سحب لا نراها على أية حال. فالسماء منخفضة للغاية. والبحيرة تُزمْجرْ والشلال يزأر: لم نعد نسمع بعضنا البعض في المنزل. ليزا وجدت لنفسها وظيفة جديدة: مراقبة البِركْة. فأثناء انشغالي بإنهاء قصة قصيرة تدور في القرن الثماني عشر، في بيئة ريفية وذات طابع خليع بلطف، تقوم هي، صباحًا ومساءً باللف على الجسور وقنوات تصريف فائض المياه.

بالأمس كانت قلقة :

« شيء لا أفهمه يحدث. حتى الآن كان المنسوب يعلو ولكن ببعض البطء، ولكنه بدأ فجأة يعلو بشدة. لا أدري إن كان شيء ما قد انْسد من ناحية غابة الأرز: لقد تَكوّن هناك ما يشبه الدوامة. ولكن الليل يهبط، والمكان بعيد جداً، لا أستطيع الذهاب إلى هناك...

هل الجسر جاف ؟

حاليًا نعم... ولكن توقعات الأرصاد الجوية ليست مطمْئِنة: تابعت عند الظهر على التليفِزيون، لم يعلنوا عن نهاية المنخفض، بل على العكس يُتوقع استمراره...

- سوف نرى يا قطتي. فلننم ملء جفوننا، طالما الماء ينصرف !

ملء جفوننا، لا أدري، لأنه حتى النوم بجَفْن واحد سيكون صعبًا: مع كل الضجيج الذى تحدثه التلال، وقناة الطاحونة والوادى... بدون ذكر مزاريبك ! كما لو كنا فى بوانت دو راز!»(*).

أما أنا فالمطر يهدهدنى. ليزا هى التى أخرجتنى من السرير فى الفجر :

« البحيرة تفيض !»

كان المطر يهطل بقوة شديدة على المربعات الزجاجية للنوافذ حتى اضطررت لفتحها كى يمكننى الرؤية : فى الضوء الغَسقى للصباح، خط صغير فضى: الماء. أووه، ليست شلالات ڤيكتوريا بعد ! خفيف، همس خفيف. ولكن فى العام الماضى، استغرق الوصول إلى تلك المرحلة ثلاثة أسابيع...«هناك أمر غير طبيعى. هيا بنا إلى هناك !»

قفزنا فى أحذيتنا الطويلة وأخذْتُ النظارات المعظِّمة والمِعْزقة وناولتها المِعْول : سيلزم بالتأكيد تسليك شبكات قنوات التصريف - الأوراق الميتة والغصينات...

وفوق الجسر، أجريْت تشخيصًا للوضع الماثل أمامنا: « انظرى ! البِركة تغمر الصفوف الأولى من شجرات الأرز. لم يحدث ذلك أبدًا من قبل !» وأعطيتها النظارات المعظمة ؛ أتولى طواعية دور رئيس الأركان فى لحظات كهذه، حتى وإن كنت أنا بمفردى جيش كله :

« هذه الأرض تكون عادة جافة تمامًا ! وفى رأيى أنه إذا كان الماء يدخل إليها اليوم، فهو يأتى من الخلف: أُراهِن أن بحيرة اللاندز بدلاً من الاتجاه إلى النهر، جاءت لتصب فى بركتى ! أى هدية هذه! لدى بالفعل ثلاث تأتى بسرعة هادرة ! بالنسبة للرابعة، المالسينيا، هل تحققْتِ بالأمس من أن تحويلة ميشا تعمل ؟

(*) مرتفع بحرى فى غرب إقليم بريتانيا معروف بأمواجه المتلاطمة ورياحه العاتية.

نعم، كله يلف حول البحيرة ويمر مع التيار، عبر القنوات.

المشكلة إذن آتية من بحيرة اللاندن: أشجار سقطت أو انحدارات أرضية. على أية حال، هذه البحيرة قطَعَها شيء جعل مياهها تهبط عندنا ! وهذا من شأنه تدمير الجسر ! يتعين إعادة فتح مجراها، أن نحاول على الأقل...

لن نتمكن من ذلك بدون مساعدة. يستحسن أن نستدعى أحداً.»

أحدٌ ؟ هل على أن أشرح لها أن الطريق مقطوع بالفعل فى الأسفل، طالما أن المياه قد غمرت الجسر؟ أما بالنسبة للطريق الرئيسى، فمن المرجح أن النهر راقد فوقه منذ وقت طويل: هذه المومس تنقض فوق الجسر لأهون سبب !

« لامجال للمرور عبر الجسور لكى نلف : سوف نُحتَجز عند غابة الأرز - بين الماء الصاعد وانهيارات الجرانيت، أصبح من المستحيل المرور... ولكن لدى هنا قاربى، بين شجر القضبان: نأخذه ونذهب للشاطئ المواجه.

أليس من الخطر بعض الشيء أن نستقل قارباً فى هذا الجو !

« إن البحيرة يا صغيرتى ليست مثل محيطات الرياح العاتية حتى فى أيام العواصف !»

لم أعد أعلم كيف تشابكت المشكلات بعدها. كنت أُجدّف - ضد التيار بالطبع -، حيث كنا نحاول الصعود إلى أرض اللاندن، التى خرجت بحيرتها من مجراها وتجاهد للحيلولة دون أن نفعل. يُعتقد دائماً أن البحيرات والبِرَك مياه نائمة ؛ ولكن يكفى أن تسبح فيها لتشعر بالتيارات القوية التى تعبُرها، وتمتزج وتتناحر فيها. البِرْكة الهادئة ليست سوى دوامة مستقرة. المجاديف ثقيلة ؛ وألم كتفى استيقظ: « التهاب مفصل كتفى يا ليزا إيڤانوڤنا، التجديف لا يُحسن له صُنْعاً.» اقترحَتْ أن تأخذ مكانى. كانت مبللة تماماً رغم سترتها الواقية بغطاء الرأس: « التجديف سوف يُدفئنى»، كانت مثل الدجاجة المبلولة... وقد سألتنى قبل دقيقة عما سيحدث إن انقلب القارب: «حسناً، سوف نسبح ! أفعل ذلك كل صيفٍ ! - بأحذيتنا الطويلة ؟ - اخلعى حذاءك إن كنت

خائفة.» خلعت حذاءها. كان يمكن لهذه الكوزيت(*) أن تكسب وهى بجواربها هذه تعاطف شخص مثل تينارنييه(**). قالت بابتسامة مبللة: «الحذاء الطويل هو أفضل مَغْرفة لتفريغ الماء. فمع كميات الماء التى تنهمر من أعلى، وحتى لو لم تتسلل إلينا مياه المجرى، لن نلبث أن نجد نفسينا جالستين فيه.»

كانت تريد أخذ المجاديف، وكنت أريد أن أناولها إياها – كيف أفلت أحدها من أصابعها وأنا أفعل ؟ هذا سر. صحيح أنها فى فورة الغضب التى جعلتها منذ ثلاثة أشهر تنقضُّ على معصميها، كانت قد قطعت أحد أوردة اليد؛ وهذه اليد اليسرى المُعاقة هى التى كانت فى مواجهة كتفى الأيمن المصاب فى العصب، باختصار، أعقْنا إحدانا الأخرى مثل المُغفّلتين، وأفْلَت منا المجداف. وحين حاولتُ الإمساك به، جعلتُ القارب يتأرجح وصاحت ليزا: «توقفى، سوف تلقى بنا فى أحشاء هذا المخروب !» فى اللحظات الحرجة، نعود كلنا إلى اللغة الفجة للباشا : «السماء تمطر اليوم مثل البقرة التى تتبوّل»، و«السماء تتغوّط على رؤوسنا» وجررْتُ أختى فى مغامرة «خرائية» و«حكاية مثل الطُراش،». وقالت ليزا وهى سارحة، تنظر إلى المجداف وهو يبتعد محمولاً مع التيار، أنت أدخلتينا فى هذه اللعبة الغبية فى حين أنك قلت لى أن الطاحونة ليس لديها ما تخشاه من الفيضانات... – نعم ولكن حين تفيض البركة فإننى أفقد أسماكى من ثعابين البحر – يا للمأساة ! – لا تضايقينى يا ليزا ! إن رعبى الحقيقى، إن أردْتِ أن تعرفى كل شىء، هو أن تحمل المياه الجسر معها : فإذا تهاوى الجسر، من سيكون المسؤول عن الفيضانات بالوادى ؟ أنا يا صغيرتى ! والأسوأ : لن أمتلك أبداً المال اللازم لإعادة بناء حاجز بهذا الحجم... إذن ماذا ؟ هل أتجاهل المسألة ؟ هل أترك ثقبًا ؟ هل أرضى بتأمل الخراب ؟ الطاحونة بدون بِرْكتها، العالم بدون طاحونتى ؟ أفضل الموت على ذلك !»

(*) الفتاة المسكينة بطلة قصة البؤساء لڤيكتور هوجو.

(**) شخصية الشرير فى القصة نفسها.

السماء تمطر... لم يعد هناك مجال للصعود إلى بحيرة اللاندز لإعادتها إلى مجراها أو الرُسُوْ فى أى مكان : القارب ينحرف، ينحرف ببطء. أحاول التجديف. اقترحَتْ ليزا على « ألا يمكنك التجديف باستخدام المِعزَقة؟ » أرفع أكتافى : لا مجال للمزح، كيف يمكن مقاومة المياه بشوكة ؟

إنها ترتعد. «نحن فى مأزق.» وكى تشْغِل نفسها تقوم بتفريغ بعض المياه باستخدام حذائها الطويل. «ماذا إذا عُدنا سباحة ؟ لن نبتل على أية حال أكثر مما نحن الآن !» لا شك فى ذلك، ولكننى أُريها الأغصان التى تحملها تيارات تزداد قوة نحو « النياجارا» : الجسر الذى تحول إلى شلال هائل يبتلع كل شىء. يبدو لى أن حتى السابح لن يسعه مقاومة هذا الابتلاع ، وخاصة عند السقوط الذى سيتبعه: «اثنا عشر مترًا من الانحدار. إلاّ إذا كان الشخص خبيرًا فى التجديف عبر الشلالات...»

والتقطْتُ بعينى مؤشرات بصرية فى غابة الأرز وخشب الزان وشجر الحور: المنسوب يرتفع كل ربع الساعة. والمطر تتضاعف قوته. ليزا، كانت كاللوح المسطح بعد أن التصق غطاء رأسها بنافوخها وملابسها بجسدها. قالت: « إنى جوْعَى، أرغب فى رقائق بالسكر...» أعلم أننا سوف نعود إلى المنزل فى نهاية المطاف. حتى وإن كان لا يجوز الأمل فى نجْدة فورية: محمول ليزا لا يرسل. أختى تبرطم : (هذه البلدة هى فعلاً مؤخرة العالم)، ولن يظهر أى صياد فى عدسة « نظارتى المعظِّمة» (ففى مثل هذا الطقس لا يُترك كلبٌ فى العراء !) كما أن ساعى البريد لن يطرق الباب غداً: فالطريق مقطوع. ولكن التيارات التى تجرٌ الأغصان سوف تدفعنا، إن أجلاً أو عاجلاً، نحو الجسر – بمعدل أكثر بطءا من سرعة من يسبح، حيث إن القارب ازداد ثِقلُه، وإن كان أكثر تأكيداً، لأن القارب سوف يكشط قمة الجدار وسيُتاح لنا الوقت الكافى لأن نقفز إلى «الممشى» قبل أن ينقلب. الطريق طويل، والمطلوب فقط هو الانتظار.

ولكنه سوء الحظ الذى جعلنا، فى سعيِنا للتحرك بالمجداف الوحيد، نغرس القارب فى مكان تتوازن فيه التيارات السطحية – فمجرى مالسينيا يكافح بضراوة ضد تيار

اللاندز الجارف، والنتيجة: توقفنا . منطقة مخفية فى مجال الرؤية، وسألَتْ أختى: « ماذا نفعل إذن إلى أن ؟»

ولكى أُسَرِّى عنها، رحت أحكى لها روايتى القادمة، عن ميشا . « لن تتحدثى عنا على الأقل ؟» لا بالطبع، فأمنا لا تسمح بالحديث عن العائلة والمشاعر. أصف لها شخصيتى : «سيكون بنّاءً من لاكروز، بنّاءً من الجيل السادس، - ليس روسيًا البتة ؟ ليس قهوجيًا ؟ - بناءً أصيلاً، الأب نجار والجّد فُخارى، مهاجرون موْسميون، سيذهب إلى باريس لبناء المترو، حيث يعمل شقيقه الأكبر بالفعل فى الأنفاق كمُبلّط، ويلتقى الاثنان بعاملتى حياكة فى مونمارتر ت... - ولكن ما علاقة هذا بميشا ؟ - لا شىء، كل شىء، ولكن بالرموز.

تهز رأسها، غير مصدقة، تبدو وكأنها قد تجمدت، شفاهها زرقاء، أما أنا فحلقى يؤلمنى، ومنخارى يسيل ولكنى أتدفأ بالكلام. أمْضى فى رواية القصة، ولكن بدون أن أقول « كيف تنتهى» : إنه سرّى - مثل شهرزاد، لا يمكننى أن أموت طالما تَبقّى لدى ما أسْرده، سوف أُرَوّض الليل، وسيشرق يوم جديد، أكثر من مليون عام... قالت أختى وهى تتنهد «كان من الأفضل أن نأتى معنا بساندويتشات»، ثم عاودت تفريغ ماء السماء بحذائها.

السماء تمطر، الليل يهبط، لم يعد ممكنًا رؤية الجسور، ألحظ من خلال نظارتى المعظمة أشكالاً بيضاء، غُيومٌ ترقص مثل الصور ثلاثية الأبعاد، إلاّ إذا كان ذلك هو البخار الذى يتكون على العدسات المبلّلة، «تقول ليزا «لو أن التيار حملَنا إلى الجسر لما أدركتُ ذلك حتى، لن أستطيع القفز على الطريق لأننى لن أراه !» أطمئنها: « ستعتاد عيناك على الظُّلمة، توجد رؤية ليلية لا يعرفها السائرون فى النهار.»

لستُ قلقة، تتأوه ليزا: « كان من الأفضل مغادرة القارب حينما كنا لا زلنا نرى الشاطئ وفى إمكاننا السباحة...» ربما: إنها تسبح أفضل منى، وهى أصغر سنًا، ولكننا سوف نرى « المَخْرَج» بالتأكيد، نعم، لقد جررْتها فى قصة غبية، غير أن الأمور ستنتهى على خير، فى المواقف اليائسة، أتعلّق دومًا بمبدأ دوبلين، وهو أحد عباقرة

الرياضيات اكتشف فى ١٩٤٠ مبدأً يبعث على الانشراح: « إن متوسط فترات الإقامة فى دوامة تميل إلى اللا نهاية»؛ وقد ترجمْت « الإقامة» بـ «البقاء حيًا ». هذا المساء، تحت المطر، رويْت لليزا وأنا أخلع حذائى الطويل (كان ينبغى منذ وقت طويل أن أتخففّ أنا أيضًا) حكاية ڤانسان دوبلين، أسير النازى، الذى مات يأسًا فى العشرين ؛ أُحدِّثها عن الراحة التي أَنْتظرُها من العلوم التجريدية فى الموقف الذى نوجد فيه. قالت بنبرة متذمرة: « لستُ مندهشة، فأنت لم تفهمى شيئًا أبدًا فى الرياضيات !» ثم وضعت يدها الصغيرة بحنان على يدى.

الشلال يهدر. المطر يخترق ستراتنا الواقية. حياتى تتوجه إلى اللانهاية. أختى صامتة. الماء يسيل فى عيوننا. لم أعد أشعر بأصابع ليزا المثلجة – هل لا زالت هنا ؟ لا نرى شيئًا. ولكننى أسمع. عيونى مغلقة، ولازلت أسمع: الريح تهب. الغابة حولنا تُقرْقع. كما لو كان العالم يتحرك، يرتعش وينتفض. لم نعد نجرؤ على الحركة ونحن وحدنا فى القارب، وسط الفوضى. ولكن يبدو لى حسب الصوت الذى أسمعه، أن حاجز الموج يقترب. حاجز الموج والشلال. القارب يدور حول نفسه بسرعة متزايدة. ولكننى لست قلقة.

المؤلفة فى سطور:

ولدت الكاتبة الفرنسية **فرانسواز شاندرناجور** فى عام ١٩٤٥... وهى عضو بأكاديمية جونكور وابنة نائب إقليم لاكروز وأحد الوزراء الفرنسيين السابقين.

وقد حصلت على دبلوم معهد الدراسات السياسية ثم على ماچستير فى القانون العام، وأصبحت عضواً بمجلس الدولة فى ١٩٦٩، ثم تقلدت عدة مناصب قانونية تركت بعدها العمل الوظيفى لكى تكرس وقتها للكتابة فى ١٩٩٣.

وقد كتبت ثمانى روايات ومسرحية واحدة (عُرضت فى بروكسل وباريس)، وتم تحويل اثنتين منها إلى أعمال تليڤزيونية... وقد ترجم عدد من رواياتها إلى خمس عشرة لغة.

والكاتبة عضو فى لجنة جائزة الأديب چان چيونو والكاتب شاتوبريان، وقد انضمت منذ ١٩٩٥ إلى أكاديمية جونكور الأدبية التى تمنح جوائز سنوية للشعر والقصة القصيرة وأدب السيرة الذاتية والأدب النثرى.

ويذكر أن الكاتبة تناولت فى ٢٠١١ مصر القديمة بثلاثية صدر الجزء الأول «أبناء الإسكندرية" فى ذلك العام فى رواية أبطالها أبناء الملكة كليوباترا.

وقد صدرت "مسافرة الليل" فى ٢٠٠٧ عن دار نشر جاليمار.

المترجمة فى سطور:

نشوة إيهاب الأزهرى

المؤهلات :

- ليسانس آداب قسم فرنسى - جامعة القاهرة .

- دبلوم ترجمة تحريرية... كلية الآداب - جامعة القاهرة.

الوظيفة :

- رئيس قسم الترجمة - جامعة الدول العربية.

الخبرة :

- ترجمة النصوص السياسية والقانونية من اللغات الفرنسية والعربية والإنجليزية وإليها .

- الترجمة التحريرية فى المؤتمرات الدولية لمنظمات ووكالة الأمم المتحدة ومنظمة التعاون الإسلامى والاتحاد الإفريقى.

الترجمة الأدبية :

- روايات وقصص قصيرة إلى الفرنسية، ومنها إلى العربية (من بينها "بيت الياسمين" لإبراهيم عبد المجيد. و" من التاريخ السرى لنعمان عبد الحافظ" لمحمد مستجاب، وقصص لمحد حقى ويوسف إدريس وعلاء الديب ومنتصر القفاش وغيرهم).

التصحيح اللغوى : فوزى عبد المنعم

الإشـراف الفنـى : حســن كامــل

ما الذى نعلمه عن "المُقَرَّبين" ؟ حينما قطعت أولجا المريضة كل تواصل مع المحيطين بها فجأة، ولم تعد تتكلم، وما عادت تنظر، فإن بناتها هن اللائى فتحن أعينهن، على ما يفصل بينهن؛ ففى هذه العائلة التى تبدو متألقة بقوة، كان لكل من الشقيقات الأربع رؤيتها الخاصة عن الموت وعن الأم. وها هن يرجعن إلى طفولتهن ويواجهن هذه الحقيقة: فى هذه العائلة الواحدة، لم يكن لأى منهن الأم نفسها...

ولأن أولجا الصامتة، مغلقة العينين، راحت تنزوى، اكتشفت كل ابنة من البنات ما لم تكن تعرفه، أو ما لم ترغب فى معرفته عن "القبيلة"، تلك القبيلة الأموية على نحو غريب. أسرار صغيرة تعيد شيئًا فشيئًا تشكيل هذا الموزايكو الضخم الذى لم تكن أى منهن قد أمسكت بقطعه جميعا حتى الآن...

تصميم الغلاف: نادية كشك